

مجلة ثقافية شهرية - العدد (٢٢٩) - رجب ١٤١٦ هـ - نوفمبر / ديسمبر ١٩٩٥ م
ALFAISAL MAGAZINE - ISSUE (229) NOV. / DEC. 1995

mmgool.com

الرواية التاريخية: انحيازها للفكر أم للفن؟

موناكو.. دولة من أربعة أحياء

الصيد بالصقور رياضة تتجدد

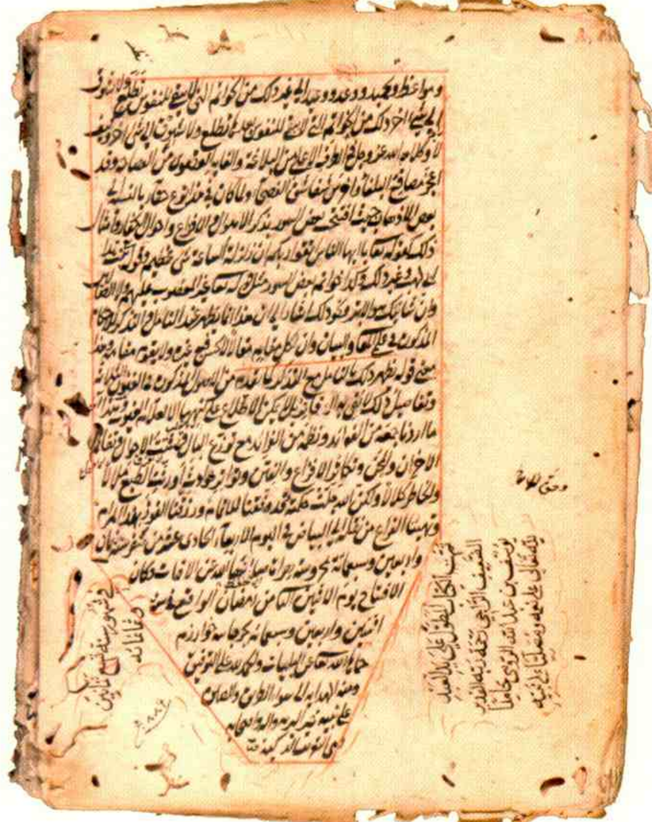
جحا
في أدب الأطفال:
قيم تربوية غائبة

الثقافة
التي نريد

شرح تلخيص المطول أو شرح مختصر المطول

لمسعود بن عمر بن عبدالله الهروي السمرقندي، سعد الدين التفتازاني (المتوفى سنة ٧٩٣هـ).





وهو الشرح الثاني له على تلخيص المفتاح في المعاني والبيان للشيخ الإمام جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق (المتوفى سنة ٧٣٩هـ)؛ حيث اشتهر الشرح الأول بالمطول، واشتهر هذا الشرح بالمختصر وهما أشهر شروحه وأكثرها تداولاً. وقد اشتمل المتن على مقدمة وثلاثة فنون. والمقدمة في بيان معنى الفصاحة والبلاغة وانحصار علم البلاغة في علمي المعاني والبيان وما يتصل بذلك. أما الفن الأول؛ ففيه ثمانية أبواب في الإسناد وأحوال المسند إليه وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفعل والقصر والإنشاء والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة. وأما الفن الثاني؛ ففي علم البيان، وفيه أقسام التشبيه والاستعارة والكناية. وأما الفن الثالث؛ ففي علم البديع.

ذكر آخره: «وتهيئنا الفراغ من نقله إلى البياض في يوم الأربعاء الحادي عشر من صفر سنة ثمان وأربعين وسبعمئة، وكان الافتتاح يوم الاثنين الثامن من رمضان الواقع في سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة..».

يقع الكتاب في ٣٢٧ ورقة، مسطرته ١٨سطرًا، ومقاسه ١٨× ١٢,٧سم، وكُتب بخط نستعليق حسن، على يد يوسف بن عبدالله الرومي في سنة ٨٨٩هـ.

جُدولت أوراقه من ورقة ١-١٠ بماء الذهب، أما باقي أوراقه فقد جدولت بالمداد الأحمر، كما اختلفت الكتابة والخط فيه بعد الورقة رقم ٤٩ عما قبلها، وهذا ما يرجع أنه نُسخ أو استُكمل من نسخة أخرى بواسطة ناسخ أو نُساخ آخرين وأحبار مختلفة.

كُتبت رؤوس الفقرات وبعض الكلمات الأخرى والفواصل بين الكلمات بالحبر الأحمر، كما وضعت خطوط حمراء تحت بعض الكلمات والتعليقات التي امتلأت بها جوانب المتن.

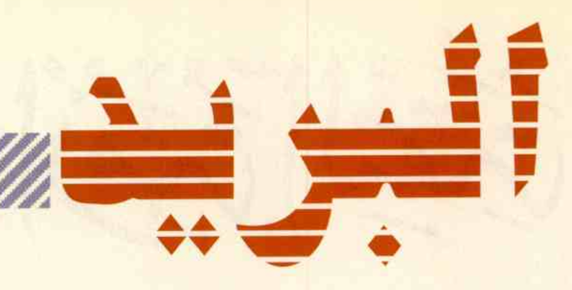
وقد أثَّرت الأرضة في كثير من أوراقه، وخرمت كثيرًا منها؛ مما أثَّر في كثير من كلمات المتن والحواشي.

والمخطوطة من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، برقم ١٧٢٣.

إعداد: فراج عطا سالم

في العدد القادم:

- د. الخويطر: في تراثنا ما هو أفضل من القصص المستوردة.
- ماذا يقرأ العالم؟
- لنتفاءل في مواجهة الكوارث!



في زمان الغبار!

نحن في زمان السقوط الثقافي، الكلمة الجريئة تُغتال، وكذلك البحث الهادف والأدب الرفيع؛ فيتشكل «عقدٌ نكدٌ» من المطبوعات (مجلات وصحف) الساقطة. أدعوكم إخوتي في «الفيصل» أن تكون مجلتكم فيصلاً بين الأدب الهابط ودعاوى فصل الأمة من جذورها، وبين الثقافة النقية النابعة من الأصالة؛ فـ «الفيصل» رئة ثقافية للأمة في هذا الزمان الذي امتلأت فيه ساحات الإعلام العربي بالغبار، وأنتم جسر تواصل أرجو أن تتدعم ركائزه. أقول ذلك ويدي على قلبي؛ لأن التجربة علمت الباحثين عن الثقافة الجادة أن الاصدارات الرزينة سرعان ما تتوقف.

أتمنى «للفيصل» العمر المديد في خدمة الثقافة العربية الإسلامية.

طارق محيي الدين عثمان
الخرطوم ـ السودان

سندباد الثقافة!

مما يعجبني في «الفيصل» ملف «الحركة الثقافية في شهر»؛ فهو بمثابة جهاز دقيق حساس لقياس الحرارة الثقافية حول العالم، ووسيلة يتنقل فيها القارئ بين محطات مختلفة. وهذا الملف مما تنفرد به «الفيصل» وتتفرد على المطبوعات المختلفة في الصحافة العربية، ولكنني أشير إلى أن الملف قاصر عن تغطية الحركة الثقافية في بلدان عربية، مثل الجزائر وليبيا وموريتانيا والسودان.

واسمحوا لي أن أسجل ما يتداوله كثير من قراء الصحافة العربية هنا من أنّ باب «تباشير» وزاوية «بين القارئ والقارئ»، يحققان الهدف الكبير، وهو تكريس التواصل، واكتشاف المواهب الجديدة، والأخذ بأيدي الشباب في مسائل الأدب.

عبدالحليم بختي
المسيلة ٢٨٠٠٠ ـ الجزائر ص.ب ٨٦٧

من أجل مزيد من التواصل

لا شك أن باب «من المكتبة السعودية» يُعد وسيلة تواصل جيدة تتيح للقارئ العربي الوقوف على الجديد والجيد من نتاج الأدباء والمفكرين في المملكة العربية السعودية. واستناداً إلى مثل هذه الفوائد التي يجنيها القارئ من عرض الكتب ونقدها، فلدي اقتراح أرجو أن يلقى قبولاً لديكم، وهو: تخصيص باب لتناول إصدار عربي جديد وجيد، وليكن بعنوان «من ثمرات المطابع العربية»، وبذلك يكون التواصل أكثر نفعًا.

عادل أحمد هاشم الرفاعي
عمان ـ الأردن

المستوى لا الاسم!

يسرني أن أنقل لحضرتكم أسمى اعتباري وتقديري لمجلتكم العظيمة «الفيصل» التي تجسد آمال الأمة العربية بما تحويه من صنوف معرفية شتى، أشعر وأنا أقرؤها أني أمام مائدة شهية، كلما تذوقت منها صنفًا ازددت اشتهاء لأصناف أخرى أشهى وأطيب.

هذا وإنني أشهد بأننا نحن قراء هذه المجلة الراقية قد تلمسنا الأصالة في الفيصل بأرواحنا وأيدينا. ونشهد أيضًا بأننا مع المجلة في فكرها المتفتح في كل ماتنشره على صفحاتها الناصعة.

وأرجو دائمًا بأن تكون مسوغات النشر عندكم هي المستوى الجيد؛ لا الاسم اللامع ومن مختلف أقطار الوطن العربي والإسلامي.

هذا وأريد أن أقترح عليكم زيادة المعلومات والدراسات عن المدن والقرى العربية، راجيةً لكم بعد كل هذا التوفيق والنجاح ولمجلة الفيصل دائمًا التقدم والازدهار.

سهام رفقي محمود
دمشق ـ سورية

فتاوى لغوية

لا شك أن الحلة الجميلة التي ازدانت بها «الفيصل» قد لفتت إليها مزيدًا من القراء، ومن باب الإسهام في هذا التطوير الحاصل أبدي إعجابي بكتابات د. صالح الوهيبي في «آفاق لغوية» التي تظهر حينًا وتغيب حينًا. فحبذا لو كانت بابًا ثابتًا ـ كما هو الحال مع كتابات حمد الجاسر وابن عقيل ـ لما تحويه من فوائد جمة. ونقترح على مجلتنا الرائدة تخصيص زاوية للفتاوى اللغوية؛ فهو باب مفيد قليل من طرقه، وقد واكب نجاحًا في «مرآة الجامعة» فحبذا لو طبق لكثرة نفعه.

ولي اقتراح آخر أسوقه إلى الأستاذ الفاضل عاصم بن محمد بهجة البيطار للكتابة عن الحياة العلمية التي واكبها، وعن أساتذة الجيل السابق ومشايخه الذين عاصرهم، وأخص والده العلامة ـ رحمه الله ـ. وأسلوب الأستاذ شائق، وهو ممن يحسنون إمساك القلم، وله تجارب وخبرات.

[وكم انتفعنا بذكريات علي الطنطاوي].

عبدالحق محمد صالح
الدمام ـ السعودية

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على البعض الآخر للقراء

يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح

فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

إطلالة

أزمة الثقة



يشكل مفهوم الفرد عن ذاته أهم محددات مستويات نجاحه، ومدى قدرته على مجابهة مشكلات الحياة. فكلما كان هذا المفهوم إيجابيًا زادت قدرات التفكير الابتكاري لديه، ومن ثم تزداد فرص نجاحه في تذليل الصعاب والعقبات التي تواجهه. ولقد أثبتت بعض الدراسات النفسية والتربوية أن التفكير الابتكاري يرتبط بعدد من السمات الشخصية أهمها: الاكتفاء الذاتي، وتأكيد الذات، والمثابرة، والاعتماد على النفس، والاستقلال في الفكر، والعمل والمفهوم الإيجابي عن الذات.

وتوضح تلك الدراسات أن مفهوم الفرد الإيجابي عن ذاته يدفعه إلى محاولة التوظيف الكامل لقدراته، والميل إلى الإفصاح عن أفكاره، وعدم التردد في اتخاذ القرار الذي يراه مناسبًا إزاء أي موقف من المواقف، إلى جانب استعداده لتحمل مسؤولية ما يصل إليه من قرارات. أي إن عطاء الفرد يرتبط بصلة وثيقة بالمفهوم الذي يكونه عن ذاته، فإذا كان هذا الفرد واثقًا من نفسه ومن إمكاناته تميز عطاؤه وزاد إنجازه، أما المفهوم السلبي عن الذات فإنه يقلل من مستويات أداء الفرد ويضيّق عليه فرص التعامل الفعّال مع المواقف.

ومن جهة أخرى يبدو واضحا تلازم مفهوم الثقة في النفس مع مفهومي المسؤولية والاعتماد على النفس؛ إذ يدفع المفهوم الإيجابي للفرد عن ذاته إلى تقبله الخبرات الجديدة، والميل إلى تبني أفكار متميزة إزاء المواقف والتحديات الاجتماعية، والتطلع إلى معرفة الحقائق والمعلومات، مما يعينه على الاعتماد على ذاته في اتخاذ القرارات، مع تحمل مسؤولية ما تسفر عنه هذه القرارات من نتائج دون أي ميل إلى التسويغ، أو محاولة التنصل من المسؤولية عند الإخفاق.

أما من يعتمل في داخله إحساس فقدان الثقة في النفس، فإنه يشعر بالنقص والدونية، ويكون في حالة تردد دائم إزاء المواقف مهما صغر شأنها، مما يجعله في حاجة مستمرة إلى من يعينه على اتخاذ القرار. وقد يكون صاحب هذا الإحساس متمتعًا بقدرات كبيرة ومواهب عظيمة؛ إلا أنه لايدرك حقيقتها، لأنه يتعامل معها من خلال صورة شوهاء كَوّنها عن ذاته، ومن ثم يكون تفاعله مع الحياة وفق هذه الصورة التي قد تحجب قدراته ومواهبه الفذة عن البروز إلى الواقع. ففقدان الثقة في النفس يؤدي إلى عجز الإنسان عن التعبير عن نفسه وعن قدراته ومواهبه وخبراته الحقيقية، ومن ثم يصعب عليه التكيف مع الأوضاع والخبرات الجديدة، مما قد يؤدي به إلى الانزواء والانكفاء على الذات، فتموت ملكاته، أو تنطفئ جذوتها تحت ثقل هذا الإحساس بالدونية، فيلجأ إلى تقليد الآخرين واتباع خطواتهم، مع أنه قد يفوقهم قدرة وموهبة.

وتضطلع الأسرة بدور كبير في بث الثقة في نفس الطفل وتعويده الاعتماد على قدراته الذاتية لحل المشكلات التي تجابهه من خلال التشجيع المستمر، وإتاحة المجال له لإبراز مواهبه، وإشعاره دائمًا بقيمة ما يعمل مهما كان قليل الشأن، وتدريبه على تحمل المسؤولية بإسناد أعمال بسيطة إليه، تتناسب مع سنه وقدراته، ومكافأته عليها. فالرعاية والتشجيع من شأنهما أن يُفتّحا مدارك الطفل على مفهوم المسؤولية وقيمة العمل ومشاعر الإحساس بأهميته في محيط أسرته، ومن ثم تتنامى المفاهيم والقيم والمشاعر في نفسه حين يدرك ارتباطها بقيم عليا تنبع من دينه وعقيدته من خلال الدور الذي تقوم به المدرسة، والتأثيرات التي يتعرض لها في بيئته، وتزايد تفاعله مع المجتمع من حوله، مما يجعل ذلك كله جزءًا أصيلاً من تكوينه، يسعى إلى تجسيده في واقع حياته.

وقد تتضاءل هذه الثقة في النفس، حين لايستطيع الطفل التعبير عن ذاته بحرية، فيتعرض للزجر عند كل عمل يقوم به، أو تكون السخرية نصيبه إذا وقع في خطأ ما، أو عند اللجوء إلى موازنته بمن يفوقونه في مجال من المجالات، فالإسراف في نقد الأخطاء يجعل التردد ديدن الطفل، ويمسخ شخصيته، ويفقده الإحساس بكيانه.

وإذا كانت الأسرة هي واضعة اللبنة الأولى في البنيان النفسي للطفل؛ فإن المدرسة تعد شريكة رئيسة في إرساء هذا البنيان على أسس سليمة، وعليهما - معا - يقع العبء الأكبر في تنشئة الأجيال وتربيتها، بما يؤهلها للتفاعل الإيجابي مع قضايا الحياة وتعقيداتها.

ويمثل تعميق الثقة في النفوس وتنمية القدرة على اتخاذ القرارات والاضطلاع بالمسؤوليات أهم الأهداف التربوية التي ينبغي النهوض بها. ويقتضي ذلك من مؤسسات التربية فهمًا واعيًا لمتطلبات كل مرحلة من المراحل، ومرونة في المناهج المقررة لها، والوسائل والأساليب المتبعة؛ بحيث تكون قابلة لإعادة البناء والإضافة كلما ارتقى الهدف واتسع الطموح، ووفق مقتضيات الحاجة، وما يفرضه التطور، ومن ثم ترفع من مستوى تحصيل الطلاب ودرجة استيعابهم، وتنمي قدراتهم النفسية والاجتماعية. ولا ريب أن ذلك لن يتوافر لهم ما لم تتشبع دواخلهم بمفاهيم الثقة في النفس، والاعتماد على الذات، والمسؤولية؛ لكونها أساس بناء الشخصية، وأهم متطلبات التعلم وضروراته.

وهذه المرونة في المناهج والوسائل والأساليب تتيح لمؤسسات التربية أن تواكب التغيير، بل ينبغي أن تكون صانعة له؛ لأن من شأنها تخريج شباب يتمتع بقدرات التفكير الحر، والخيال الواسع الذي لايكتفي بمعايشة الواقع فحسب، وإنما يكون في تطلع دائم لاستشراف آفاق المستقبل، ومحاولة كشف ما في هذا الكون من أسرار لاتنتهي، باتباع طرائق جديدة. أما حين تنقطع المناهج عن مسارات الحياة، وتكون الوسائل والأساليب تقليدية مُعبِّرة عن زمن مضى، فإن الحصيلة تكون شبابًا نمطي التفكير، فاقد الثقة في نفسه، عاجزًا عن إدراك قدراته، ومن ثم يدخل في دائرة التقليد، ويعجز عن الإبداع، ويأخذ ما تنتجه عقول الآخرين دون نقد أو إبداء رأي، ويعمل بردود الأفعال، ويهاب المبادرة، لأنه يخشى الإخفاق،

والانطلاق الحضاري

فيظل في مكانه لايبرحه، هذا إن لم يرجع القهقرى؛ مع أن ذاكرته قد تكون مثقلة بالمعلومات، إلا أنه يعجز عن توظيفها، لافتقاده الثقة في نفسه، وعدم تمرسه بتحمل المسؤولية والتفكير الحر الذي يطلق لخياله العنان.

وتوضح تجارب الأمم التأثير المتعاظم لمؤسسات التربية والتعليم في تشكيل الأجيال ودمجها في إطار قيم المجتمع، ورسم مستقبل هذا المجتمع، وبناء نسيجه الثقافي. كما أنها تمثل أداة التنمية وبعداً من أهم أبعادها. وكان هذا الارتباط بين التربية والتنمية مرد اعتقاد دول ما يسمى بالعالم الثالث - ومن بينها الدول العربية والإسلامية - في أن إنشاء مؤسسات التربية والتعليم سوف ينعكس إيجابيا عليها، فتنعتق من ربقة الجهل والتخلف والتبعية، وتلحق بالغرب الذي بدأ يدخل مرحلة جديدة، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، هي مرحلة مابعد الصناعة، والتي تتمثل في ارتفاع مستوى التقنية المستخدمة في مناحي الحياة المختلفة، وتفجر المعلومات والمعارف المتعلقة بها، والنزوع إلى الإعلام المكثف. ولكن نتائج الخطط التنموية جاءت مخيبة للآمال، لأنها عمدت إلى محاكاة النمط الغربي الرأسمالي أو الشيوعي، واستندت إلى قيم تربوية لم تنبت في بيئتها، واهتمت بالشكل دون الجوهر، مع عدم إيلاء أي اهتمام للفروق الجوهرية في القيم والظروف التي تحكم العالمين الغربي والإسلامي، ودون إدراك أن التربية لابد أن تعبر عن خصوصية المجتمع وهويته، وهذا ما عبر عنه المربي الأمريكي كونانت بقوله: «إن عملية التربية ليست بيعاً وشراءً، وليست بضائع تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل. إننا في فترات التاريخ خسرنا أكثر مما يجب باستيراد نظريات التعليم الإنجليزية والأوربية إلى أمريكا». تلك رؤية من داخل التجربة الأمريكية في التربية، التي يتطلع إليها كثيرون من أبناء أمتنا. فمع تجذر الفكر الأوربي وقيمه العقدية في المجتمع الأمريكي، بحكم أن غالبيته تنتمي إلى أوربا، وتنحدر منها، ومع قصر عمر المجتمع الأمريكي نفسه بالموازنة مع الأمم ذات الحضارات العريقة الممتدة الجذور في عمق التاريخ، نجد هذا الحرص على خصوصية المجتمع الأمريكي والخوف عليها من التأثر بنظريات أوربا وطروحاتها. تُرى ماذا يكون حال أمتنا العربية والإسلامية، وقد انبثقت مناهج التربية والتعليم في كثير من بلدانها من رؤية غربية بحت فرضها المستعمر، وروج لها كثيرون من أبناء الأمة العربية الذين بهرتهم أفكار الغرب وحضارته المادية؟ لم يفطن واضعو تلك الخطط إلى أنه لانجاح لأي خطط تنموية لاتنبع من ذات المجتمع ولاتعبر عن حاجاته. ولكن يبدو واضحًا أن أزمة الثقة في النفس التي زرعها المستعمر بآلتيه التربوية والإعلامية لاتزال تعمل عملها، بل إنها تتجذر بفعل التكثيف الإعلامي الذي يرمي إلى الترويج للحضارة الغربية وقيمها في عصر احتلت فضاءه قنوات التلفاز وشركات الإعلان الكبرى؛ إلى حد أن تعامل عالمنا العربي والإسلامي مع التقنية المنقولة وقف عند حدود التشغيل والصيانة، من غير أيّ محاولة لإبداع ما يتناسب منها وحاجاتنا الحقيقية، بينما هناك دول عديدة (النمور الأسيوية مثلاً) تعايش ظروفًا مثل ظروفنا استطاعت أن تطور مانقلته من تقنية، وتطوّعه لتلبية حاجاتها، بل إنها تصدره إلى الغرب الذي نقلت منه، في حين أننا قد ننقل تقنيات تعد ترفًا في بلاد التصنيع ذاتها، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الحاجات الاستهلاكية بمعدلات تفوق الإنتاج بمراحل بعيدة؛ مما يدل على عمق أزمة الثقة في النفوس، ومن ثم محاولة التعمية على ما نحن فيه من تخلف بمحاكاة المظاهر الخارجية للحضارة الغربية دون التعمق فيها، أو محاولة تعرف أسباب قوتها المادية، وما تنطوي عليه هذه القوة من مواطن ضعف لاتبدو واضحة للعيان.

إن استقراء تاريخ الأمم والشعوب يوضح أنه بقدر ماتعتمد الحضارة في مسيرتها على ماتبدعه عقول أبنائها من نتاجات مادية، وعلى ما تستوحيه من تجارب الأمم والحضارات الأخرى، فإنها لكي تتواصل وتظل تتفاعل في دائرة التاريخ لابد من أن تستند إلى مرجعية من قيم الأمة ومعتقداتها تؤطر التجربة وتغذيها. فالحضارة لاتنهض في الفراغ، كما أن بقاءها مرهون باعتدادها بإطارها المرجعي الذي يستجيب لمتطلبات الواقع، ويتجاوز مسببات انهيار الحضارات التي سبقتها وانزوائها.

وقابلية حضارة ما للاستمرار والتطور يعتمد بصورة رئيسة على مدى استيعاب أبنائها - ومفكريها خاصة - مغزى الدورات الحضارية، وتعهدهم إياها بالدراسة والتحليل، واستنباط العبر منها بالوقوف على علل الحضارات الغابرة ونقاط الضعف التي كانت مدخلاً للأدواء فيها. مثل هذه الموازنة لاتتأتى بغير توافر قدر عظيم من الثقة في النفس، وهذه الثقة لاتُستمد إلا من الاعتقاد الجازم في حيوية المرجعية القيمية وضرورتها بوصفها الركيزة التي تنهض عليها الأمة.

لقد كان إيمان المسلمين الأُوَل بعظمة الرسالة التي يضطلعون بمسؤولية تبليغها، وثقتهم في صدق مرجعيتهم القيمية من أسباب قوتهم ومنعتهم التي أهلتهم للنصر والغلبة على أمم لها حضارات وطيدة الأركان، حتى بنوا على أنقاضها حضارة عظيمة أسهمت بقدر كبير في رقي الإنسانية قاطبة، وحفظت إرثها الحضاري من الضياع والاندثار. ولم تكن هذه الثقة التي تمتعت بها الحضارة الإسلامية إلا نتاجًا للتربية التي غرست في النفوس مشاعر الانتماء، وولّدت فيها عظم الإحساس بمسؤولية الوفاء بتبعات هذا الانتماء. وقد مكنتهم هذه التربية من تلمس السبل التي تجعلهم يفيدون من تجارب الآخرين ونتاجهم بما يتلاءم مع مقتضيات التطور الحضاري، ودون أن يؤثر ذلك في خصوصية قيمهم ومنطلقاتهم.

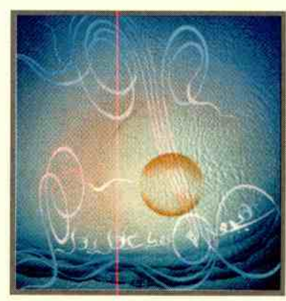
وهكذا، فإن التربية التي كانت من أسباب عظمة العطاء الحضاري للمسلمين، كانت كذلك وسيلة المستعمر لزعزعة الثقة في نفوسهم، مما يؤكد أن الانطلاق الحضاري لن يكون إلا بانتهاج وسائل وأساليب ومناهج تربوية تتفق وقيم الأمة ومعتقداتها، وتتماشى مع مقتضيات العصر.

ولعل ما بلغته اليابان من تقدم مادي كبير، يدل على أهمية أن تنبع مناهج التربية من القيم الذاتية للمجتمع، وأن تعبر بصدق عن خصوصيته وتميزه، إذ كانت قيمها الاجتماعية التي تعلي من شأن العمل وقيمة الوقت من أسباب ازدهارها وتقدمها، مع أن مفاهيمها للعمل والوقت والإنسان بوصفه أساس التقدم لايمكن موازنتها بقيم الإسلام ومفاهيمه عن الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض، والمستمدة من شرع الله ورسالته الخالدة.





العدد (٢٢٩) - السنة (٢٠) - رجب ١٤١٦هـ - نوفمبر / ديسمبر ١٩٩٥م



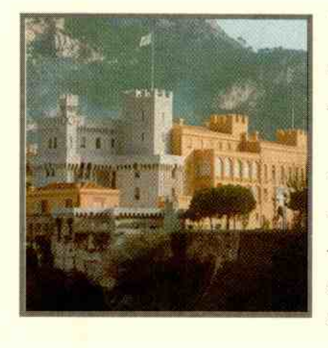
الخط العربي: آفاق رحبة للتعبير الفني

الفنون الإسلامية خطاب متحد المعاني، ولغة متفردة عبرت عن وحدة المسلمين واتصالهم الوجداني، على الرغم من تباعد الأقطار والأقاليم. والفنون بوصفها وعاء لقيم الشعوب، وانعكاسا لمفاهيمها، سجلت - بصدق - مفهوم المسلم للكون وللحياة، وقدمت البديل الواقعي للتصورات الجامدة والرتيبة والخاوية التي راوحت عندها فنون الأمم الأخرى حقبًا طويلة.

الخط العربي إحدى صيغ الفنون الإسلامية أثرى حياة المسلمين - ومايزال - بتوكيده الصلة الوثيقة بين العقيدة والتعبير الفني الملتزم، ولما له من ارتباط بفنون التشكيل والزخرفة؛ مما منحه القدرة على التأثير العميق في فنون الحضارات الأخرى.

فيصل عبداللطيف وإسماعيل مروة تناولا ارتباط الخط العربي بفنون التشكيل.

طالع ص٨



دولة من أربعة أحياء!

يمثل شريط الريفيرا عددًا من المنتجعات التي تمتد في الجنوب الفرنسي المطل على البحر الأبيض المتوسط .

ومن أشهر منتجعات الريفيرا (موناكو)؛ تلك الدولة القزمية من حيث المساحة، والتي تعد ثاني أصغر دولة مستقلة - بعد الفاتيكان - وتتسم بخصوصيات مكنتها من توظيف الجغرافيا والتاريخ والسياسة لاستثمار السياحة إلى أقصى درجة.

حسن عبدالسلام قدّم لمحة عن هذا الدولة التي تتكون من أربعة أحياء وتجتذب السياح من كل حدب وصوب.

طالع ص١٥



ترويض الجوارح

القنص بالصقور، رياضة أصيلة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ. ويحفل تاريخنا العربي بتراث زاخر في مجال الصيد بالجوارح بعامة، والصقور والشواهين والبازي والعُقاب بخاصة. وإذا كان قنص الطرائد باستخدام الجوارح يتطلب تدريبات واستعدادات بأدوات خاصة؛ فإن اصطياد الصقور نفسها وتدريبها على هذه الرياضة يستوجب أساليب خاصة يتقنها الصقّارون.

كامل يوسف حسين يسلط الضوء على الصيد بالصقور، رياضة الأجداد التي تكتسب حياة جديدة على يد الشباب.

طالع ص٨٤

رئيس التحرير
د. زيد بن عبد المحسن الحسين

من كتاب العدد

د. محمد عبدالستار نصار

- من مواليد السنطة، محافظة الغربية، مصر ١٩٣٥م.
- حاصل على الدكتوراه في العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأزهر.
- تدرَّج في العمل بالتدريس في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر من معيد (١٩٦٤م) إلى أن أصبح أستاذا (١٩٨٢م)، وتولى رئاسة قسم العقيدة بها، ويعمل حاليا رئيسًا لقسم العقيدة والدعوة بكلية الشريعة، جامعة قطر.
- شارك في العديد من المؤتمرات، منها: المؤتمر الدولي للعلوم الفلسفية ممثلاً للأزهر الشريف (القاهرة ١٩٧٩م)، المؤتمر الدولي للطفولة (بغداد ١٩٧٩م)، المؤتمر الدولي للإسلام والعلم (إسلام آباد ١٩٨٠م)، مؤتمر نحو فلسفة إسلامية جديدة (معهد الفكر الإسلامي بالقاهرة ١٩٨٩م)، مؤتمر نحو منهج جديد للعلوم الإسلامية (الجزائر).
- من أهم مؤلفاته: الدراسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام، العقيدة الإسلامية (٤ أجزاء)، دراسات في فلسفة الأخلاق، الفلسفة الإسلامية.. قضايا ومناقشات، الوسيط في المنطق الصوري. وله مايقرب من عشرين بحثا علميًا في موضوعات الفكر الإسلامي المقارنة، اضافة إلى العديد من المقالات في الدوريات المحلية والعربية.

د. مأمون فريز جرار

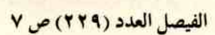
- من مواليد صانور، الأردن ١٩٤٩م.
- حاصل على الدكتوراه في الأدب الإسلامي من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- عمل مدرسًا في التربية بالأردن ودولة الإمارات، ثم محاضرًا فأستاذًا مساعدًا في جامعة الملك سعود (١٩٨٢ - ١٩٩٠م)، ويعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا في جامعة العلوم التطبيقية في عَمّان.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وعضو جمعية الحضارة والثقافة الإسلامية بعمان.
- شارك في عدد من الملتقيات والمؤتمرات، منها: ندوة الأدب الإسلامي (الهند ١٩٨١م)، ندوة الأدب الإسلامي (الرياض ١٩٨٥م)، الملتقى الدولي الأول للفن الإسلامي (الجزائر ١٩٩٠م)، الملتقى الدولي للأدب الإسلامي (وجدة المغربية ١٩٩٤م).
- من أهم مؤلفاته وأبحاثه: أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي (رسالة ماجستير)، الغزو المغولي: أحداث وأشعار، خصائص القصة الإسلامية (رسالة دكتوراه)، نظرات إسلامية في الأدب والحياة، شخصيات قرآنية، من قصص النبي صلى الله عليه وسلم، صور ومواقف من حياة الصالحين (١٠ أجزاء)، مشاهد من عالم القهر (شعر)، القدس تصرخ (شعر).

محمد سعد دياب

- من مواليد أم درمان، السودان ١٩٤٧م.
- تخرج في كلية التربية، جامعة الخرطوم، متخصصًا في اللغة الإنجليزية وآدابها.
- حاصل على دبلوم تدريس اللغة الإنجليزية لأقطار ماوراء البحار من جامعة ليدز بإنجلترا.
- يعمل حاليا بالتدريس في مدينة ينبع السعودية.
- قدم العديد من البرامج الثقافية في الإذاعة والتلفاز السودانيين.
- له قصائد منشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.
- نشر له ديوان «حبيبتي والمساء»، وديوان «عيناكِ والجرح القديم»، وله تحت الطبع ديوان «نكتب في زمن الجرح».

إلياس مخائيل قطريب

- من مواليد اللاذقية، سورية ١٩٦٠م.
- حاصل على إجازة في الأدب العربي، جامعة تشرين ١٩٨٧م، وعلى دبلوم الدراسات العليا ١٩٩٠م.
- يعمل مدرسًا للغة العربية.
- له مقالات منشورة في الصحف والمجلات المحلية.



استلهام التراث العربي

تجربة أحمد إلياس نموذجاً

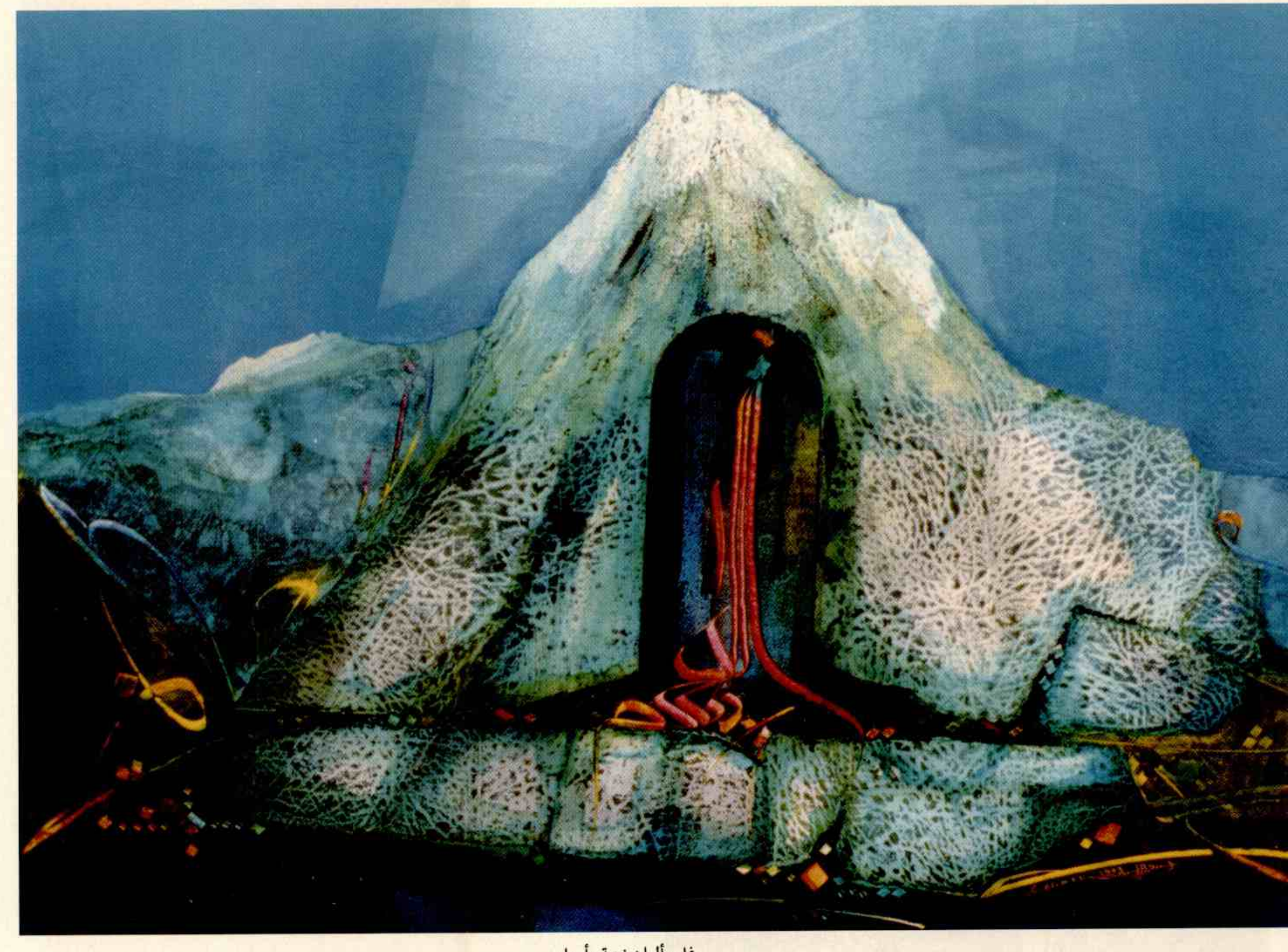
إسماعيل مروة
فيصل عبداللطيف

كان الخط العربي ـ ولما يزل ـ ملهماً للفنانين في مختلف أمصار العروبة والإسلام، يستوحون منه موضوعاتهم ويقبسون منه لوحاتهم. ومع انتشار الفن التشكيلي بشكل واسع ارتفع عدد أولئك الذين يتمسكون بتراثهم لإنتاج فن متميز وأصيل، رادين بذلك على أولئك المبهورين بفنون العالم وصرعاته الفنية. «وللخط العربي ـ عدا وظيفته البيانية ـ وظيفة جمالية عالية، فمنذ أن تبلورت الكتابة النبطية المتأخرة في أشكالها التي عثر عليها في (أم الجمال) وفي (حران) بسورية، والتي ترجع إلى القرنين الثاني والخامس الميلاديين، كانت ولادة الخط العربي الذي تطور في المدينة، وفي بلاد الشام، وفي الكوفة، وأخذ أولاً شكل الخط القرآني في مصاحف عثمان، ثم تطور على يد ابن مقلة وابن البواب، وظهرت له أشكال وصيغ تختلف باختلاف الأمصار والجهات، ذكرها ابن النديم في الفهرست، وغيره فيما بعد، حتى أصبح عددها يقرب من مائة شكل ونوع. ظهر هذا الخصب في أنواع الخطوط لأن الخط كان فناً يسعى الرقاشون لتجديده وتحسينه، فكان مستقلاً بذاته مرة ومندمجاً بالرقش مرة أخرى»(١).

و ينبغي أن نشير هنا إلى أن «الخطاط المسلم اكتسب مكانة الصدارة منذ ظهور الإسلام لمكانة الكَتَبَة من الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيامهم بتدوين القرآن، فوجب على الخطاط أن يتصف بالأخلاق الطيبة والسجايا الحميدة، واعتبرت العوامل النفسية والجسمية ذات تأثير بالغ المدى في ما تخط الأنامل ، وكان عمله مرآة لشخصيته»(٢).

فالخط عند رجل الفن المسلم عبادة، لإيمانه بأن صنعته ليست مجرد تحكم الأصابع في القلم وتدريبها، فهناك وراء ذلك الفكر الذي يسيطر على الجوارح، وأن عمله هو نسخ آيات الله، أو نشر فضيلة أو إشاعة علم نافع. يقول باول باتريس: «يؤدي الوازع الديني في الإسلام دوراً أساسياً في عمل الخطاط الذي يعبر عن التسليم لله والتوكل عليه»(٣).

وبذلك أصبح الخط فناً معبراً عن الشخصية الإسلامية ودالاً على وحدة الفن الإسلامي، بالرغم من تنوع الشعوب والمجتمعات. ويمكن القول «إنه لاتوجد لغة حية أو غير حية تهيأ لها مثل ما تهيأ للغة العربية



غار، ألوان زيتية وأحبار

من خط حسن أضفي على الحروف والكلمات مزيداً من البهاء والأناقة والجلال؛ بل إن الخط العربي يمتاز بقدرته على تركيب الجملة الواحد في عدة أشكال هندسية كالدائرة والمربع والمستطيل والبيضاوي.. إلى غير ذلك؛ بحيث تصبح الجملة الواحدة كأنها لوحها فنية صاغتها يد فنان ماهر، وهذا ما لم يتوافر لغيرها من اللغات الأخرى. وكذلك كان للخط العربي سحر أخاذ؛ فهو بمجرد أن تقع عليه عين القارئ يجد إحساس المتعة، وشعور البهجة يسري في جسده، ومن العجيب أن هذا الاحساس لم يكن قاصراً على قارئ اللغة العربية، بل تجاوزه إلى الأعاجم قديمًا وحديثًا»(٤). فقد بهر الخط العربي الأوربيين برونقه وتميز وحداته وإيحاءاته الجمالية، والمساحة التعبيرية التي يتيحها للفنان. ولذلك نجد أن أشكال الحروف العربية «قد أوحت إلى الأوربيين بكثير من الوحدات الزخرفية التي استخدموها في منتجاتهم الفنية.. وكان تقدير الغربيين للخطوط الشرقية بعامة وجمال الخط العربي بخاصة من العوامل التي أدت إلى أن صارت صنعة الخط في الغرب قسمًا من أقسام التصوير، وصار الخط صورة تُتذوق لجمالها بصرف النظر عن مضمونها(٥)». ومن دلالات هذا التأثير الذي أحدثه الخط العربي في المجتمعات الغربية، أنه استحوذ على إعجاب الملوك هناك، فاتخذوه في توقيعاتهم يمهرون به المراسيم. «وجاء أن روجر الأول حاكم صقلية (١٠٦٠-١٠٩١م) كانت علامته (الحمد لله شكرًا لأنعمه)(٦).

الفن التشكيلي واستلهام الخط

ولقد أخذت مدرسة الخط العربي في الفن التشكيلي تكبر وتكبر، وتأخذ أبعاداً جديدة بعد أن كانت محصورة في نطاق ضيّق، ورأينا مذاهب شتى في استلهام الخط العربي، لكنها اجتمعت في اتجاهين رئيسيين، هما:

- الاتجاه الأول: الذي يُخْضِع اللوحة لخدمة الخط العربي، وفي هذا المذهب نجد الخطّ هو الأساس، وما يكمّل اللوحة من منمنمات وزخارف ليس إلاّ إطاراً زخرفيًا تزيينيًا لتجميل «اللوحة الخطّية» وقد انتشر هذا الاتجاه مدّة زمنية طويلة، ولم يزل إلى يومنا هذا، وجلّ الدراسات الفنية في الخط العربي المنشورة، في الدّاخل والخارج، تعتمد على هذا الاتجاه،



الفنان
أحمد إلياس

الذي تهيمن عليه ثُلَّة من الفنانين الخطّاطين الحرفيين الذين درسوا الخط دراسة مهنية حرفية، وأضافوا إلى مهاراتهم شيئًا من الفنون الزخرفية الإسلامية...

ولاريب في إيجابية هذا الاتجاه وفنيّته، وفي أن أتباعه ومحبيه الذين يتقنونه كثر؛ بل لقد أتاح له الدّارسون مجالاً واسعًا في مقالاتهم وكتبهم. وقد أسهمت الصحافة العربية المتطورة في نشره أوسع نشرٍ بعد أن خصّته باهتمام خاص.

ـ الاتجاه الآخر: هو الذي يجعل الخطّ واللوحة جنبًا إلى جنب، وربما سخّر الخطّ لخدمة أفكاره التي يريد أن يبثّها في لوحته، دون أن يؤثّر ذلك في إعجابه بالخط والتراث، ومن هؤلاء مَنْ يستلهمون الخطّ العربي ليُعبِّروا بذلك عن أصالتهم وحبهم للشرق والإسلام، وقد يستعين بعض هؤلاء بكتابات غيرهم في صنع اللوحة التشكيلية، وقد يكتفي بعضهم بمهارته الفنية في كتابة الخطوط دون أن يكترث بالقواعد أو يحفل بها لأن أغلبهم لم يدرسوا الخط حرفيًا، وإن درسه أحدهم فإنه يؤثر ألا يطغى ذلك على ما يصوغه من كوامن نفسه، ليعبر عنه بتكوين حار أو بارد وبتقنيات متنوعة ومتطورة.

أحمد إلياس ورحلته الفنية

ولما وجدنا تعطشًا في الساحة الثقافية لمثل هذا النوع من الاستلهام المعبّر وقفنا عند أحد الذين نذروا أنفسهم للخطّ والحرف، فجعلوا حيواتهم حرفًا يعيشون من خلاله، ويتنفسون من انحناءاته.

أحمد إلياس واحد من الفنانين السوريين القلائل الذين ملك الخط أحاسيسهم؛ إذ لقي الخطّ عنده اهتمامًا كبيرًا منذ بدايته، ومردّ ذلك إلى ثقافته القرآنية والتراثية على حد سواء؛ فالحرف عنده فكر ولغة، وليس حرفًا يُقرأ، إنه عقيدة سامية يسعى عمره ليجعلها مقروءة بالنفس قبل العين.

ولد أحمد إلياس في دير عطية في ريف دمشق سنة ١٩٥٣م، وتخرج في كلية الفنون الجميلة بدمشق، قسم هندسة الديكور.

مرّ أحمد إلياس بمراحل عدة كوّنت تجربته وأنضجتها، ومنذ معرضه الأول الذي أقامه، لقي استحسانًا واهتمامًا من المثقفين ومتابعي الحركة الفنية في سورية والوطن العربي.

واستمرت معارضه، وتتالت عطاءاته الفنية بشكل لافت للانتباه، فلم يعد مجرد ظاهرة طارئة، بل صار ظاهرة أصيلة، إن لم نقل صاحب مذهب في الفن التشكيلي المعتمد على الخط العربي.

يلخص الفنان تجربته في مراحل أربع حتى استوى له مذهبه الفني الذي ارتضاه. ففي المرحلتين الأولى والثانية اتبع الاتجاه الأوّل في الخط إلاّ قليلاً، مستلهمًا فنّه من الآيات القرآنية الكريمة غالبًا، والأحاديث الشريفة، والشعر العربي. وفي نقلة نوعية ضمن هاتين المرحلتين أخذ يُنزّل المخطوط العربي في اللوحة، مهارته في ذلك هي الأساس؛ فقد استخدم تقنيات



آيات من سورتي الضحى والشرح

متعددة فأوحى للرّائي أن اللوحة التي أمامه قديمة قادمة من عمق التاريخ العربي، بما منحها من تعتيق تقني.

وبين المرحلتين الأولى والثانية تداخل كبير، لذلك آثرت الجمع بينهما؛ إذ يجمع الفنان عناصره من التراث، وتكويناته ممّا وصل إلينا من ذلك التراث العظيم. ففي اللوحة رقم (١) يكتب آية قرآنية بخط كوفي قديم، واستمدّ بقية مكوناته من المحفوظ التراثي - الأواني، النقود المنمنمات - التي أكسبت اللوحة تناغمًا لانفور فيه. واللوحة رقم (٢) تعود إلى المرحلة نفسها، وفيها يُنزّل الفنان آية كريمة ويضعها في إطار زخرفي مناسب للجو العام منطلقا من إحساسه بالأمان مع القرآن الكريم.

واللوحة رقم (٣) فيها آيات قرآنية، لكن حِرَفية الفنان باتت أوضح وأنضج، حيث التعامل مع المخطوط يشي بخبرته التي بدأت تُصقل، وهذه المرحلة اعتمد الفنان فيها المائيات والحبر الصيني.

في المرحلة الثالثة من تطور تجربته الفنية انتقل إلى مستوى أعلى؛ إذ نقل الاستلهام إلى درجة متطورة؛ فجعل الخط جزءًا من التكوين التشكيلي، قد يكون مقروءًا، وقد لايكون كذلك، فقدّم لوحات تعبر عن النضج الفني عنده، وكل ذلك عرضه بعيدًا من الأشخاص وأشيائهم مكتفيًا بالخطّ خير معبّر. ففي اللوحة رقم (٤) تتكامل عناصر العمل الفني، وتتناغم الألوان، فتخرج اللوحة أقرب ما تكون إلى تسبيحات فنان تموّهت بما أحبّ.

وفي اللوحة رقم (٥) يبدأ بالتحلل من أسر الخط؛ إذ يبدأ بتطويع الخط لخدمة اللوحة ويترك للحرف فضاءه غير المحدود لينطلق إلى الآفاق البعيدة معلنًا انعتاقه وسموّه.

وكذلك فعل في اللوحة رقم (٦) حيث سفينة نوح، والضياء، والاستواء، والتقدم فكانت لقطة متخيلة عفوية ونادرة. واللوحة رقم (٧) لبنان من اللوحات المشهود بها، ففي كل مكان من اللوحة لبنان، مبثوثة في الأرض والسماء وبركان الحرائق، فصارت كتلة من اللهيب والرماد.

وفي المرحلة الرابعة وصل قمة النضج، إذ أصبح التكوين عنده هو الأهم، ذلك الذي ينبع من أعماقه وإحساسه الذي يغلفه اليقين غالبًا، وكل ذلك في تقنيات عالية، تؤكد فهمه لروح الخط. ولم يزل الفنان يدور في فلك هذه المرحلة محاولاً الانعتاق أكثر، لتتعانق الحروف في لوحاته مشكلة الأبعاد النفسية والفكرية التي يريد أن يصل إليها بعيدًا من الدعاية الإعلامية.

والناظر إلى هذه اللوحات يجد أن الفنان أحمد إلياس لايحفل بالقاعدة الحرفية للّوحة، وكذلك لايلقي بالاً إلى الألوانَ القاتمة، فثمة بقعة للضوء في كل لوحة من لوحاته التي أبدعها، فالإشراق عنده من النفس قادم وإليها يتجه.

ففي اللوحة رقم (٨) يبدو شغفه بالتكوين العام، والمساحة اللونية الباهرة.

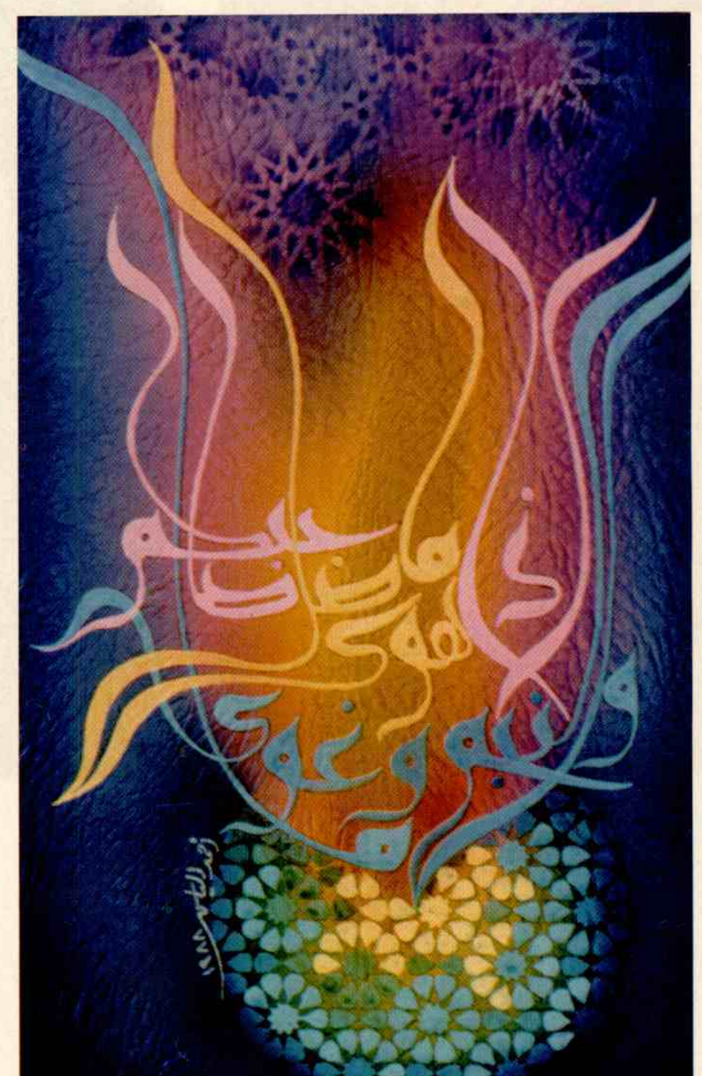
وفي اللوحة رقم (٩)، وهي من لوحاته المتميزة في الآونة الأخيرة، مهارة ودقة في تحديد المساحات اللونية، حيث يضع اللوحة في جوّها المناسب.

وفي اللوحة (١٠) غار، نحت الفنان شكله من روحه، فيها انكسارات هادئة، وفيها تمثل لما قرأ الفنان في الكتب، وانسرب إلى روحه وكيانه.

أما اللوحة رقم (١١) فقد صارت التقنية متطورة لغاية، مع بقاء الحرف متمثلاً في لفظ الجلالة (الله) فقد أسبغ على لوحته بُعدًا تخيليًا آخر؛ فأصبحت أقرب ما تكون إلى أن الخط في خدمة اللوحة والفكر؛ مما يعبّر عن إمكانات الخط العربي وفضاءاته الرحبة، ومقدرة الخطاط المسلم على استلهامه.

فهذا واحد من الفنانين الذين وهبوا أنفسهم لفنهم الإسلامي؛ فكان التراث معينه الذي ينهل منه، والأصالة سمته ومنطلقه في التعامل مع الدنيا من حوله.

وكما يقول محمد قطب في مقدمة كتابه «منهج الفن الإسلامي»: «.. والفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام فليس هو الوعظ والإرشاد، وإنما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا

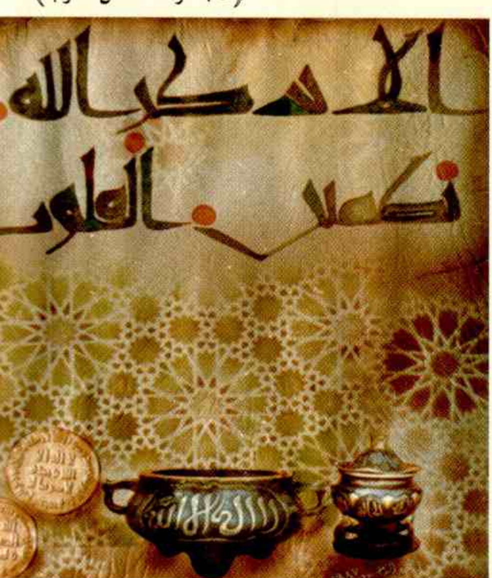


﴿والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكم وما غوى﴾، من معرض دير عطية ١٩٩٠م


﴿والله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾، من مقتنيات السفير الفرنسي في سورية

(الله)، ألوان زيتية وأحبار

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾



الوجود.. هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان. هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين «الجمال» و«الحق»؛ فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود».

الفن الإسلامي.. تجسيد لقيم حضارية

وإذا كان القرآن هو لغة الإسلام الأولى التي تخاطب البشر، وهو الذي صاغ الشخصية الفكرية الإسلامية، وجمع ملامحها؛ «فالفن الإسلامي هو لغة الإسلام الثانية، وهو الذي صاغ الشخصية الجمالية الإسلامية، وجمع لها الملامح والهوية العميقة. بل نستطيع القول إن صورة الإسلام الملموسة في العالم لاتتمثل فقط في العقيدة الدينية التي يحملها من توحيد وصلاة وزكاة وغيرها، وإنما يضاف إلى ذلك بقدر ما تأتي به الصورة الانطباعية التي يتركها الفن الإسلامي في نفوس وأعين غير المسلمين»(٧).

ولذلك يعد الفن الإسلامي خطاباً متوحد المفردات والمضامين ينطوي على المفاهيم ذاتها التي هزت الصيغ الجامدة والرتيبة التي طبعت الفنون



آيات من سورة الإسراء كتبت بخط مغربي بالذهب مع بعض الألوان الأخرى على ورق ذي لون بني فاتح (شمال أفريقيا، ق ١٣ - ١٤)

الأخرى.. كذلك فإن الفن الإسلامي «أصبح قيمة حضارية استطاع بها فنانو العصور الإسلامية أن يفرضوها على العالم من حولهم منذ أن استطاعوا أن يقدموا مدارسهم الخاصة التي التقط منها فنانو أوربا خيوطًا كثيرة ليترجموا من خلالها أعمالاً مستمدة من الفنون الإسلامية. وهذه البصمات شديدة الوضوح في الأعمال المعروضة في المتاحف الأوربية»(٨).

وكانت الصفات الفنية للحرف العربي بوصفه عنصرا تشكيليا فذا سببًا في شهرته، وانتقاله الى أرجاء العالم الغربي، واحتلاله المكانة اللائقة به من التقدير «ولقد بلغ الخط العربي من الصلاحية للزينة حداً عظيمًا، مما جعل رجال الفن في القرون الوسطى، وفي عصر النهضة الأوربية يكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم من قطع الكتابات العربية فيزينون بها المباني المسيحية»(٩). ولشدة تأثير الحرف العربي في الذهنية الأوربية، وفي أعمال فنانيها، استطاع المؤرخون أن يحددوا بدقة بدايات ذلك التأثر ومظاهره؛ فلقد «ظهر تأثير الخط العربي في أوربا منذ القرن الثامن الميلادي، وانتشر في أنحاء كثيرة من أوربا، وإن كان غلب في صقلية وإيطاليا وإسبانيا وغرب فرنسا وبلاد البلقان، وظهر تأثيره في الفنون الأوربية المختلفة كفنون ما قبل «الرومانسكي»، والرومانسكي والقوطي والبيزنطي وعصر النهضة واستمر التأثير إلى ما بعد عصر النهضة. ولم يقتصر التأثير على نوع من الخط دون آخر، بل عرف استخدام أنواع من الخط الكوفي والنسخ، غير أنه من الملاحظ أن غلبة استخدام أحد النوعين كانت تتفق مع انتشاره في العالم الإسلامي»(١٠).

ولم يقتصر تأثير الخط العربي في الذوق الأوربي، على ما هو مسجل من اقتباس ونقل وانبهار في مجالات الزخرفة والرقش؛ بل تجاوز ذلك وامتد تأثيره إلى المصورين الأوربين، ووُجد «أن لوحات كبار المصورين الإيطاليين تشتمل على نماذج من الكتابة العربية أو المستوحاة منها. ومن هؤلاء الرسام الشهير (جيوتو) الذي ضمن بعض لوحاته نماذج من الأقمشة تحليها زخرفة مستمدة من الكتابة العربية كما يتضح ذلك في صور جدران الكنيسة الشهيرة وقبابها التي أقيمت على رفات القديس (فرانسكو)، ويمكن للمرء أن يشاهد شريطًا تحليه حروف عربية في ستار مخدع القديس»(١١). ومن

الرسامين الذين أدخلوا الخط العربي إلى أعمالهم الفنية «الرسام جيلي دافيريانو الذي استخدم الخط العربي في زخرفة وشاح يرتديه أحد السياس في لوحته الشهيرة (تبجيل المحبوس) المحفوظة حاليا في «الأوفتسي» بمدينة فلورنسا، والتي رسمها عام ١٤٢٣م»(١٢).

ذلك هو الحرف العربي بعطاءاته وتجلياته التي أثرت وجدان المسلمين، وأخذت على الأوربيين عقولهم.. وهو مايزال يكشف عن إمكانات وقدرات متعاظمة. ولا غرو فهو إحدى وسائل صون القرآن الكريم، كتاب الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تعهد الله عز وجل بحفظه.

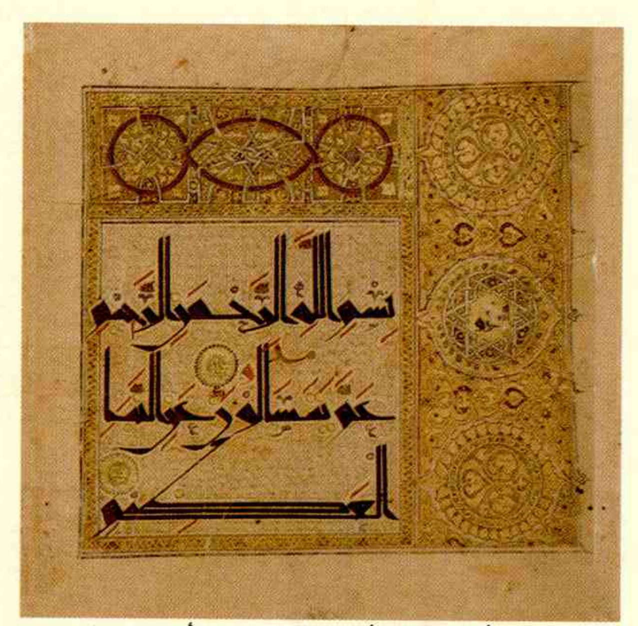
والخط العربي كغيره من الفنون «يعتمد على الموهبة الطبيعية أولاً ثم التعلم والتدريب اللذين يقومان على العمل المتواصل بحيث ينمي القدرة على الترتيب والتنظيم والدقة في الملاحظة والقدرة على التركيز... وترتكز طريقة تدريس الخط على أسس فكرية علمية يعتمد عليها تكوين المهارة اليدوية؛ بحيث تكون هذه الأسس مترابطة يمهد كل منها للآخر ويؤثر فيه، وتؤدي كلها مجتمعه إلى تحقيق الهدف المنشود من الدرس وتحديد خطوطه. وتتلخص هذه الخطوات في الملاحظة، والمحاكاة والتنفيذ، والموازنة والنقد، والتدريب»(١٣).

وإذا أخذنا تجارب المجيدين والأسماء اللامعة في عالم الخط نبراسًا، وتوجيهاتهم وتطبيقاتهم قدوة وأسسًا علمية لإجادة هذا الفن، نجد أستاذ هذه الصنعة علي بن هلال المعروف بابن البواب يقول في رسالة كتبها لأحد رؤسائه: «ولاخفاء عليك - أدام الله تأييدك - بفضل الحاجة لمن تعاطى هذه الصناعة إلى فرط التوفر عليها، والانصراف بجملة العناية إليها، والكلف الشديد بها، والولوع الدائم بمزاولتها، فإنها شديدة النفار، بطيئة الاستقرار، مطعمة الخداع، وشيكة النزاع، عزيزة الوفاء، سريعة الغدر والجفاء، نوار، قيدها الأعمال، شموس، قهرها الوصال، لاتسمح ببعضها إلا لمن آثرها بجملته، وأقبل عليها بكليته، ووقف على تآلفها سائر زمنه، واعتاضها عن خله وسكنه، لايواسيه حيادها، ولايغره انقيادها، يقارعها بالشهوة والنشاط، ويوادعها عند الكلال والملال حتى يبلغ منها الغاية القصية، ويدرك المنزلة العلية»(١٤).

وتتعدد الآراء والمقولات حول الخط والخطاطين وأدوات الكتابة من قلم وورق وحبر ودواة. فقد قيل في الخط إنه: «هندسة روحية ظهرت بآلة جسمانية، وقال فيه ابن خلدون: إنه صناعة شريفة إذ هو من خواص الإنسان الذي يتميز به عن الحيوان. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخط الحسن يزيد الحق وضوحًا»(١٥) ويقول جلال أسعد المؤرخ التركي: الخط كالرسم والموسيقى يتطلب استعدادًا خاصا ليس في متناول كل الناس. وقيل في العناية بالخط:

ربع الكتابة في سواد مدادها
والربع حسن صناعة الكُتّابِ
والربع من قلم تسوي بريه
وعلى الكواغد رابع الأسبابِ

أما الخطاط بوصفه مبدعًا وصانعًا ماهرًا، ارتبط بنسخ القرآن وحفظه؛ فقد اتخذ مكانة مرموقة، وكان الخطاط المسلم هو الفنان الأول، ارتبط بالدواوين والقصور، وغشي مجال الخلفاء، وكان يحلو للأمراء النظر ساعات طوالاً إلى الخطاط أثناء عمله؛ بل ذهب بعضهم في تقديرهم له إلى إمساك الدواة أو الشمعدان له. ولذلك فقد اتصف الخطاط المسلم - دومًا - بصفات خلعتها عليه قدسية الحرف، وهي الاعتداد بالنفس واحترام مهنته.



الآيات الأولى من سورة النبأ كتبت بخط كوفي بالحبر الأسود مع جداول وزخارف بالذهب (إيران أو العراق، ق ١٢)

الهوامش :

١- الدكتور عفيف البهنسي، الفن الإسلامي، ص٦٠.
٢- ياقوت، معجم الأدباء، ج١٥ص١٣١.
٣- باول باتريس، الفن الحديث وفنون الخط، مجلة فكر وفن، العدد١٧ص٧.
٤- أحمد حسين البحه، مجلة رسالة الطالب المسلم، العدد الثالث، ١٤٠٠هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
٥- د. حسن الباشا، أثر الخط العربي في الفنون الأوربية، ضمن «حلقة بحث الخط العربي»، المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٨م، ص ص١٠٩-١٢٠.
٦- المصدر السابق .
٧- د. شاكر مصطفى، عناصر الوحدة في الفن الإسلامي ص١٤٧، من أعمال الندوة العالمية في استانبول ١٩٨٣م بعنوان: الفنون الإسلامية المبادئ والمضامين المشتركة.٨- د. عبدالعزيز صالح، مجلة الأمة، العدد العاشر، شوال ١٤٠١هـ.
٩- جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص٣٥١.
١٠- د. حسن الباشا، أثر الخط العربي في الفنون الأوربية، مصدر سابق.
١١- زخارف إسلامية في اللوحات الإيطالية، مجلة فكر وفن، العدد العاشر ١٩٦٧م، ص٢٠.
١٢- د. صلاح حسن العبيدي، الآثار العربية الإسلامية وأثرها في الفنون الأوربية في عصر النهضة، مجلة كلية الآداب العدد ٢٧، جامعة بغداد ١٩٨٧م.
١٣- د. عبدالعزيز محمد بوريني، رسالة المعلم، العدد الثالث، عمان، سبتمبر ١٩٩١م.
١٤- د. محمد شريفي، الخط العربي في الحضارة الإسلامية، من وقائع المؤتمر التاسع للآثار، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ١٩٨٠م.
١٥- د. الحبيب بيدة، الخلفية الفلسفية والجمالية لفن الخط العربي، من أعمال الندوة العالمية باستانبول.



موناكو القديمة ومبانيها العتيقة

موناكو.. درة الريفيرا

حسن محمد عبد السلام

على شاطئ المتوسط، وفوق ربوة عالية تناجي البحر، تتلألأ موناكو درة منتجعات الريفيرا، وعروس مشاتيه، التي تبدو كأنها جوهرة سقطت من السماء فاستقرت على ساحل فرنسا الجنوبي، فاتحة أحضانها للقادمين إليها من شتى البقاع، ليتمتعوا بطبيعتها الخلابة وسحرها الجذاب.

الجغرافيا والسكان

تُعَدُّ موناكو ثاني أصغر دولة مستقلة بعد الفاتيكان؛ فهي تشغل مساحة لاتزيد على ٢كم٢ داخل أراضي فرنسا؛ إذ إنها متاخمة لها من ثلاث جهات (الشمال، الشرق، الغرب)، أما جنوبها فيطل على ساحل البحر المتوسط. ويمتاز مناخها بشتائه المطير الذي تتأرجح حرارته بين ٨، ١٠ درجات مئوية، وتشرق الشمس نهارا فيغلب الطقس الربيعي، ويسود الصقيع ليلا فيغلب الطقس الشتوي البارد، وفي الصيف تعتدل الحرارة وتتراوح بين ٢٢، ٢٤ درجة مئوية.

وتتكون موناكو من أربعة أحياء متجاورة ومتصلة؛ ففي الوسط تقع موناكوفيل «العاصمة»، وتنهض على ربوة عالية، وتمتاز بطرقاتها العتيقة وأزقتها الكثيرة الالتواء، وتضم قصر



قصر «جاريمالدي» يشرف على موناكو من فوق صخرة عالية

الأمير ومكاتب الحكومة والبرلمان. ويجاورها في الشمال حي لاكوندامين التجاري الذي يضم السوق المركزية للبيع والشراء ومكاتب الشركات ورجال الأعمال. وفي الغرب يقع حي فونتفيل الذي اقتطعت أرضه من البحر وهو يضم المناطق الصناعية والاستاد الرياضي. ثم هناك في أقصى الشرق حي مونت كارلو، وهو أكثر الأحياء ازدحاما وصخبا وأسعها شهرة وبريقا؛ ففيه الكازينو الشهير ودار الأوبرا والمسرح، والمطاعم الفخمة، والفنادق الكبرى، والفيلات الرائعة.

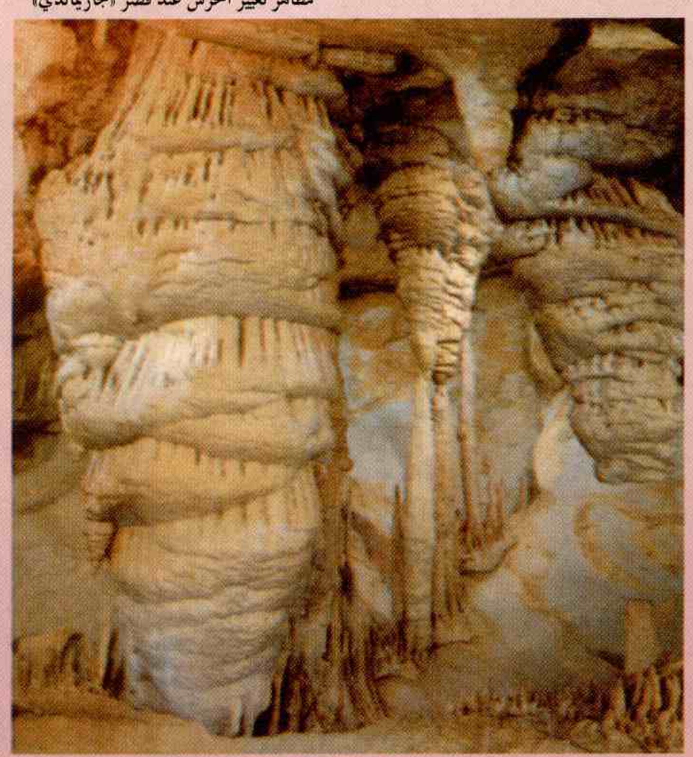
ويبلغ عدد سكان موناكو (٣٠,٠٠٠ نسمة)، منهم (١٣,٠٠٠ فرنسي)، (٣٥٠٠ مونيجاسكي) وهم أبناء موناكو الأصليين، ويمثل باقي السكان (١٣,٥٠٠) أكثر من خمسين جنسية مختلفة، ويدين أغلب السكان بالمسيحية الكاثوليكية، واللغة السائدة بينهم هي الفرنسية. وتجتذب مجالات العمل السياحي معظم الأيدي العاملة؛ إلا أن هناك من يعملون على تسيير شؤون الإمارة من مرافق وخدمات.

رحلة في عمق التاريخ

قبل ألفي عام لم تكن موناكو سوى عدة قصور صغيرة متناثرة تعتلي الربوة الصخرية، يمتلكها بعض الأثرياء الرومان. ثم جاء الإغريق فأعجبوا بموقعها الحصين، وأطلقوا عليها اسم «مونويكوس» وهو الاسم الأول لـ «هرقل» إله القوة عندهم، ومنه اشتق الاسم الحالي للإمارة وهو مطابق للواقع؛ لأن قلعتها التي أنشئت في العام ١٢١٥م كانت حصنا منيعا يحرس



مظاهر تغيير الحرس عند قصر «جاريمالدي»



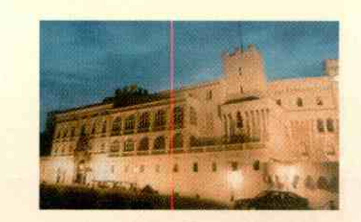
أحد الكهوف البحرية الغنية بالكنوز العلمية، التابعة للمتحف الأوقيانوغرافي

المشارف المؤدية إلى أسوار متينة أقيمت على قمة الربوة الصخرية، ولم يكن اقتحام تلك الأسوار العتيدة سهلاً في ذلك الحين.

وفي نهاية القرن الثالث عشر عَمَدَ الإيطالي «فرانشيسكو رينيه جريمالدي» إلى حيلة غريبة لاقتحام ذلك الحصن، حيث توجه بجنوده مرتدين زي الرهبان، فلم يتردد سكان القلعة في فتح الأبواب فاقتحمها بغير عناء، وأحكم قبضة عائلته عليها منتزعا إياها من عائلة منافسة من جنوا الإيطالية في العام ١٢٩٧م. وقد حرص خلفاء جريمالدي، الذين تولوا عرش الإمارة من بعده، على المحافظة على لقبه حتى حينما آل العرش إلى أسرة «ماتينون» الفرنسية من طريق المصاهرة في العام ١٧٣١م فلم يتخلوا عن لقب «جريمالدي». وما تزال هذه الأسرة تتولى زمام الإمارة في يدها حتى اليوم متمثلة في الأمير رينيه الثالث.

وفي العام ١٥٢٤م وقعت موناكو تحت الحماية الإسبانية، وظلت كذلك حتى العام ١٦٤١م حينما وقعت تحت الحماية الفرنسية. وفي الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨٦١م كانت موناكو جزءا من مملكة سردينيا، التي امتد نفوذها وشملت «سافوي وبيدمونت ونيس». ولكن هزيمة سردينيا في حروب الثورة الفرنسية أدى إلى ضم جميع أراضيها في قارة أوربا إلى فرنسا، ومن ثم وضعت موناكو تحت الحماية الفرنسية مرة أخرى في العام ١٨٦١م، وفي ذلك التاريخ لم يكن في موناكو سوى قلعتها (قصر جريمالدي) وأكواخ متناثرة يسكنها الفلاحون، وكانت وسيلتها الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي باخرة تأتي إليها كل يوم من مدينة نيس التي تقع غربها بخمسة عشر كيلو متراً.

وفي العام ١٨٦٤م تأسس حي مونت كارلو بعد أن وقَّع الأمير شارل الثالث عقدا يسمح للفرنسي «بلان» ببناء كازينو، فقفزت الإمارة كلها إلى الضوء الباهر وتردد اسمها على كل لسان. ورداً لجميل الأمير



أطلق «بلان» على الصخرة التي بنى عليها الكازينو اسم «مونت شارل»، ثم تطور الاسم فيما بعد إلى «مونت كارلو».

تضاعفت أرباح «بلان» فدعم ميزانية الإمارة كلها؛ حيث مَوَّل الكثير من مشروعات الإصلاح والخدمات، وأنشأ المتنزهات والمباني الحسان وأضاف توسعات كبرى في الحدائق والنوافير وغيرها من المعالم الجمالية.

وفي العام ١٩٦٧م تملكت حكومة موناكو الكازينو وكثيرا من أبهى الفنادق بعد أن كانت تسيطر عليها شركة الحمامات البحرية، التي كان يمتلكها قطب النقل البحري اليوناني «أرسطوطاليس أوناسيس».

الاستقلال والسيادة

أبرمت موناكو في سبيل استقلالها سلسلة من الاتفاقات مع فرنسا، أهمها اتفاقية فرساي في العام ١٩١٨م، التي حددت كيانها كإمارة وسيادتها كدولة، وصار علمها (المكون من اللونين الأحمر والأبيض) أحد الأعلام الوطنية المعترف بها في العالم. وبمقتضى هذه المعاهدة لابد لاعتلاء عرش الإمارة من موافقة الحكومة الفرنسية؛ لأنه في اللحظة التي يخفق فيها الأمير في إنجاب ولي للعهد، سينهار نظام الحكم، وستؤول موناكو إلى فرنسا. ويعاون الأمير في حكم الإمارة رئيس للوزراء، ويشترط أن يكون فرنسيا تعينه الحكومة الفرنسية، ووزارة مكونة من سبعة وزراء، وبرلمان وطني مكون من ثمانية عشر عضوا. واختصاصات هذا البرلمان لاتتعدى شؤون الميزانية، وتقديم المشورة للأمير، ومن الوجهة النظرية يستطيع الأمير أن يسن كل القوانين دون استشارة أحد.

وموناكو ـ بمساحتها المتناهية الصغر ـ تمارس السلطة الاعتيادية التي تمارسها معظم الدول القزمية. وتتركز مثالب هذه الدول ـ عادة ـ في اعتمادها على النوايا الحسنة للدول المجاورة المحيطة بها، والأكثر قوة ونفوذا، والتي تعتمد عليها أساسا في صادراتها ووارداتها الرئيسية؛ فالعملة المتداولة في موناكو هي الفرنك الفرنسي وملحقاته، كما أن الموظفين الفرنسيين يقومون بتحصيل ضرائب الجمرك في ميناء مونت كارلو. ومع أننا لا ننكر أن الحجم عنصر حيوي في قوة الدولة؛ إلا أن خصوصيات هذا الحجم استغلت بالنسبة لموناكو كأساس للسياحة.

السياحة

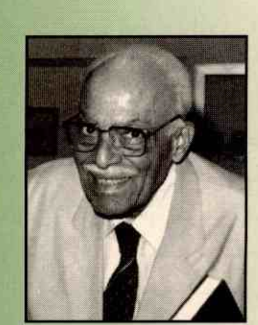
تعتمد موناكو في دخلها على السياحة؛ فهي تضم مجموعة عناصر معمارية سياحية ـ فنادق، متاحف، متنزهات، تحتضنها الربى السامقة، وتلتحفها الخضرة، وتلامسها أشعة الشمس الذهبية ـ أكسبت الإمارة نمطا سياحيا فريدا تتميز به من باقي مناطق الريفيرا، وجعلتها وجهة أكثر من مليوني سائح سنويا. ومعظم القصور والقلاع، والمباني التاريخية مفتوحة للسائحين، والناظر من أحد نوافذ القصر الأميري للخارج يمكنه رؤية البانوراما الطبيعية التي تمثلها أسقف المنازل الملونة والحصون التليدة والسلالم التي لاتحصى، ثم هناك نحو البحر تحتضن الشطآن الرملية الخليج الواسع فتبدو كأنها دار سينما صيفية مكشوفة لا شيء على مسارحها سوى البحر.

ومع أن كازينو موناكو الشهير أضفى على الإمارة كثيرا من الشهرة، فأصبحت قبلة الأنظار وملتقى الأحداث الفنية والاجتماعية والثقافية أكثر من ذي قبل، إلا أن هذه الشهرة زادت بوجود المهرجانات الرياضية التي تقيمها الإمارة سنويا وتؤدي دورا بارزا في تنشيط حركة الجذب السياحي، ومنها «رالي موناكو وجائزة مونت كارلو الكبرى للسيارات»، و«بطولة موناكو الدولية للتنس»، و«سباق اليخوت والألواح الشراعية».

على أن أهم المعالم الثقافية في موناكو هو المتحف «الأوقيانوغرافي» الذي أنشأه الأمير ألبرت الأول في العام ١٨٩٩م ليكون مركزا حيا للبحوث الخاصة بالعلوم والأحياء البحرية، وهو يحوي بداخل حجراته توليفات فريدة، ونماذج محنطة، وهياكل معلقة لمجموعة من الحيوانات والكائنات البحرية بعضها اقتنصه الأمير ألبرت بنفسه، وبعضها الآخر جُلب من البحار والمحيطات. واليوم يستقبل هذا المتحف أكثر من مليون سائح سنويا مابين زائر وعالم

الاستاد الرياضي في موناكو

المسحاء الكذابون.. كلهم صهاينة!



د. حسن ظاظا

الكذب على الله ورسله هو العُملة الزائفة التي يخشخش بها الدجالون والمهرجون والمحتالون ليجذبوا بها العامة والجهال والذين في قلوبهم مرض للالتفاف حولهم، وتسخيرهم في تحقيق مخططاتهم الشيطانية. وهم لايظهرون إلا في الظروف العصيبة التي تحيط بالأمة، حتى في أمم غير يهودية. فمثلاً حركة مسيلمة الكذاب في نجد إبان ظهور الإسلام، كان الهدف منها الوصول إلى (حل وسط) مع الدعوة المحمدية، يتلخص في تقسيم الأمة العربية قسمين أحدهما للإسلام يتبع النبي صلى الله عليه وسلم، والآخر يتبع مسيلمة. وكان من خطأ صاحب دعوة الكفر - مسيلمة - أنه بدأ باقتسام (النبوّة) مع امرأة قوية بعشيرتها وثرائها، لكن لاعلاقة لها بالكهانة ولا بالدين - أي نمط من الدين - هي سجاح. وكانت هذه هي أول خطوة في انهيار دعوة مسيلمة وسجاح. فقد كان تحالفها مع مسيلمة مثارًا للسخرية والتندّر بين أولئك البدو الأحرار الأشدّاء الذين لايفهمون إمكان الانقياد لامرأة، فضلاً عن الإيمان بنبوّتها، لدرجة أن شاعرا من قومها يصرخ من الفضيحة:

أضْحَت نبيّتنا أُنثى يُطاف بها
وأصبحت أنبياء الله ذُكرانا!

ومع تفاهة هذه الأكذوبة، فإنها - في خلافة الصديق رضي الله عنه - قد أضرمت نيران حرب ضروس بين العرب كان ثمنها استشهاد الآلاف من المسلمين، وهلاك أضعاف ذلك من الكفار أتباع مسيلمة، لدرجة أن حفظة القرآن من الصحابة والتابعين قلّ عددهم جدا بعد هذه المعارك الرهيبة، مما جعل الحاجة ماسّة إلى تسجيل كتاب الله كله بين دفتين، وفي عدة نسخ، وهي واحدة من مناقب أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

ثورات اليهود
ضد موسى عليه السلام

وإذا كانت حروب الرِّدّة قد انتهت في الإسلام - بالرغم من كل شيء - دون أن تترك في جوهر الإيمان أثرا يذكر، فإن ديانة موسى عليه السلام قد شهدت من الرِّدّة ألوانا متكررة، حتى في حياة موسى وأخيه هارون، عدّ منها الباحثون في التوراة ست ثورات دامية ضدّ موسى وهارون، وظن بعض أولئك أن موسى وهارون قد قُتلا بأيدي اليهود في الأخيرة من هذه الثورات، ثم أشاع كهنتهم - حتى تستمر لهم هذه التجارة الرابحة - أن موسى قد قبضه الله على غير علم من بني إسرائيل.

قال الراوي (وهو التلمود البابلي): إن الله - تعالى - أصدر أمره إلى ملك الموت «عزرائيل» بقبض روح موسى، فارتاع وارتعد خوفا وقال: يارب! كيف استلّ سرّ الحياة من هذا الرجل الجبار، الذي لم يستطع فرعون أن يقتله، هذا الرجل الذي قاد الخارجين من طغيان الفراعنة أربعين سنة، هذا الرجل الذي عمل العجائب وصنع المعجزات؟ اعفني يارب، فأنا لا أستطيع! فقال الله: لابد من ذلك، فقد تعهدّت لي منذ الأزل بأن تتلقى مني إشارة الموت لكل حيّ فتنفذها، قال: فأرسلْ معي مَلَكًا آخر يساعدني عليه. فأمر أحد الملائكة بمصاحبته، واتفق عزرائيل مع (مساعده!) على الترصّد لموسى في طريق يسير فيه وحده، وأن يحفرا له قبرا فيطلبا منه أن يرقد فيه بحجة أن الميت الذي سيدفن فيه له جسم موسى تماما، فإذا تمدد موسى في هذا القبر أخبره عزرائيل بأمر الله، فإن أبى وقاوم ردما عليه التراب فورًا، وإن وافق استلّ عزرائيل روحه بسلام! وعندما كان موسى مستلقيا في القبر سأله ملك الموت: أترقد فيه مستريحًا؟ قال: نعم! قال: أيهما أكثر راحة؟ تحت الأرض أم فوقها؟ ففطن موسى بأن محدثه هو عزرائيل، فقال: هيا، نفذ أمر ربك ولاتتردد. فأخذ روحه ودفنه هو والملك الآخر. ويزعم اليهود أن قبره من خفايا الغيب التي لايعرفها أحد، مثل اسم (المسيح المخلص المنتظر) وعدد آخر من الخفايا ذكرناه في مقالنا السابق في هذه المجلة الغرّاء، مع ما تعرّض له ذلك العدد من اختلاف.

وكان لابد، في قصة موت موسى ودفنه من كذبة غليظة لتبرير جهل اليهود بقبر موسى، مع علمهم بمكان قبر إبراهيم واسحق ويعقوب وساره وليا (كلهم في الحرم الخليلي)، وراحيل - أم يوسف - (في منتصف الطريق بين القدس وبيت لحم، حوالي ثمانية كيلو مترات من كل منهما) وغيرهم، حتى قبر أبشالوم بن داود (خارج أسوار القدس) فضلا عن قبور المحدثين كابن غوريون، وجولدا مئير، وجابوتنسكي، وحاييم وايزمان، ومناحم بيجن، وكذلك قبر هرتسل، وموسى بن ميمون وحتى كارل ماركس. كل هذا واضح ومعروف باستثناء قبر موسى. ولو عددنا أكاذيب رواتهم «التاريخية» لرأينا عجبا. زعموا - مثلا - أن آدم تزوج مرتين قبل حوّاء! وهو زعم لاسند له حتى في نص

التوراة التي يتلونها. وذكروا أن آدم ضاق ذرعًا بالوحدة.. في الجنة! فأرسل إليه خالقة زوجة اسمها «ليليت» فتشاجر معها حول موضوع مساواة المرأة بالرجل.. وطردها! فزوّجه ثانية سمها (نَعَمَة) فتشاجر معها أيضا - دون إبداء الأسباب -! ثم خلق له ربه من ضلع من صدره «حوّاء» فأحبها وأنس بها، ولكنه غضب عليها في النهاية لأنه ألقى عليها - وحدها - مسؤولية طردهما من الجنة! وهكذا نرى أبانا الأول - في زعمهم - كثير الشجار مع النساء، شديد المعاناة من الوحدة؛ فهو متقلب المزاج، سريع الغضب، يأنس بالنساء، ولايثق فيهن، ولعلهم رأوا فيه صورة الكاهن اليهودي الذي يولي المرأة - في آن واحد - خالص حبه، ومحض احتقاره وزرايته، وأقل ثقته وعنايته. ولا أريد أن أسوّد الصفحات المتاحة لي هنا بتسجيل الأمثلة التي لاتنتهي من أكاذيبهم المنافية للتوراة؛ بل لقوانين الطبيعة والعقل جميعا. ولعل هناك من يسأل: وماذا كان مصير ليليت ونعمة بعد أن طلقهما آدم؟ قال الراوي: إنهما ذهبتا للسكنى مع الشياطين.. في منطقة البحر الأحمر.. من غير تحديد لمصر أو السودان أو الحبشة أو الحجاز أو اليمن. وهذه كلها بلاد مكروهة من اليهود، وملعونة على لسانهم. وكانت رياضتهما المفضلة - ومازالت - تعذيب الأطفال المولودين من بنات حوّاء بأمراض الحصبة والسعال الديكي والإسهال والجدري والصرع! وكان ذلك سببًا في تدفق الخيرات على الدجّالين الذين يمارسون الطب من غير معرفة. وأغرب من ذلك أنهما ظهرتا عندما أتم سليمان تجميل أورشليم - القدس وأكمل بناء الهيكل! وكانتا متخفيتين في زي مومسات أورشليم الكثيرات في عهد سليمان! ومن آدم إلى سليمان - أي ملايين من السنين لا يعلم عددها إلا الله - احتفظتا بنضارتهما وشبابهما وجاذبيتهما الجنسية. وأبادر فأقول لسيدات زماني الآن ألاّ يسألنني، لأن وصفة (الشباب الدائم) غير موجودة في التلمود، ومن المؤكد أنها غير موجودة على الإطلاق، لكن الكذب عند أحبار اليهود ليست له حدود.

أنبياؤهم يحذرون من أكاذيبهم

ولم أكن في هذا الكلام أقصد مجرد التسلية والمسامرة، بل لأحذر من خرافات اليهود كما حذر منها - منذ ألف وتسعمئة سنة - القديس بولس، الذي آمن بالمسيح بعد صعوده إلى السماء، وكان قبل هذا متبحراً في الدين اليهودي، ووصل فيه إلى درجة الإمامة (حاخام)، وكان اسمه قبل أن يؤمن بالمسيح «شاؤول». قال في رسالة كتبها إلى «تيتوس» اليوناني الذي كان له تلميذا ومريدا وشارحا للتعاليم المسيحية في جزيرة كريت: «ولا تصغوا إلى الخرافات اليهودية، وإلى وصايا قوم يعرضون عن الحق (العهد الجديد - رسالة بولس إلى تيتوس ١٤:١) - ولا ينبئك مثل خبير -.

وقبل ذلك بخمسمئة سنة كان نبي اليهود إرمياء يصرخ من الكذب على الله. والمجال لايتسع في هذه العجالة لذكر كل ما قاله، لكن ننقلُ عنه - على سبيل المثال - ما جاء في خطبة من خطبه: كيف تقولون: نحن حكماء، وشريعة الربّ معنا؟ إنَّ قلمَ الكتبة لكاذب، وقد حوّلها إلى الكذب! لقد باء الحكماء بالخزى، فانهزموا وأُخذوا. ألا أنهم قد احتقروا كلمة الرب، فماذا فيهم مِن الحكمة؟ لذلك فإنني أبيحُ نساءهم لآخرين، وحقولهم للمحتلين، لأنهم جميعا - من صغيرهم إلى كبيرهم - يحرصون على السُحت، وهم جميعًا - من النبيّ إلى الكاهن - يأتون الزور! (إرمياء ٨: ٨-١٠). وفي معرض آخر يخطب تبليغًا عن الله تعالى فيقول: إني سمعتُ ما قاله الأنبياء، المتنبئون باسمي زورا، يقولون: لقد حلمت! لقد حلمت! إلى متى يظلّ ذلك في قلوب

تناقضت ترجمات التوراة في تعريف «المسيح المنتظر»، فلم يستطع أحد من الباحثين أن يتوصل إلى إجابة حاسمة حتى الآن

الأنبياء، المتنبئين بالزور، بضلال قلوبهم؟ الذين يريدون أن ينسوا اسمي لشعبي لأجل أحلامهم التي يقصها كل منهم على صاحبه، كما نسي آباؤهم اسمي لعبادة البَعَل! النبيّ الذي عنده حُلم فليقص حُلمًا، والذي عنده كلمتي فليتكلم بكلمتي، ولا يخلط التين بالقمح، يقول الرب، أليست كلمتي كالنار؟ يقول الرب، وكالمطرقة التي تفتّت الصخر؟ لذلك فإنني ضدّ الأنبياء، يقول الرب، الذين يسرقون كلامي، كل واحد من صاحبه. إنني ضد الأنبياء، يقول الرب، الذين يستخدمون ألسنتهم ويقولون: هو يقول! إنني ضد الذين يتنبأون بأحلام كاذبة، يقول الرب، ويقصّونها ويضلّون شعبي بأكاذيبهم وغرورهم، وأنا لم أرسلهم! ولم آمرهم! وهم لاينفعون هذا الشعب في شيء، يقول الرب (إرمياء ٢٣:٢٥-٣٢).

ونخرج من هذه المقدمة الطويلة - مع الاعتذار للقرّاء الكرام - بنتائج مهمة جدا:

أن التوراة المنسوبة إلى موسى - وقد رأينا طعن النبي إرمياء في ذمة الأنبياء والكتبة والكهّان - تكلمت بالتفصيل عن بداية العالم، لكن لم تشر بكلمة واحدة إلى نهايته!

أن الرضا الآلهي عن عباده له مكافأته في هذه الدنيا، أما الآخرة فمجهولة تماما. فالعمل الصالح يأتي بالبركة والثراء والنماء، وبالذرية الصالحة، مع كثرة اللحم والزيت والبرّ والخمر والحطب، وما يلزم من حياة تتوافر فيها الرفاهية واللذة. أما دخول الجنة بعد الموت فلا ذكر له، لأن يوم الحساب نفسه لا ذكر له، فضلا عن القيامة والبعث والنشور والصراط والثواب والعقاب.

لكن أتباع هذا الدين رأوا على مر التاريخ بعض ما يناقض ذلك. رأوا أهل الطاعة والاستقامة فقراء معدمين، ومرضى مصابين، ومنبوذين محتقرين، ورأوا الكفار والفجّار والطغاة والبغاة آمنين متمتعين! فوصلوا إلى شيء لم يجرؤوا على تسميته (يوم القيامة) لأنها تسمية تفترض البعث والنشور الذي لم يسمعوا عنه، أو سمعوا وظنوا أنه من عقائد الكفار كالفراعنة والسومريين والبابليين والمجوس. فسموه (يوم الرب).

وترددوا: أهو سابق لظهور المسيح المخلص المنتظر؟ أم هو لاحق له؟ ومهما يكن من شيء فإنه يطالعنا بعد موسى بأكثر من سبعمئة سنة، في عهد انهيار هذا المجتمع الذي لايريد أن يساير تقدم البشر جميعا. كان ذلك في عهد النبي عاموس الذي يرجع إلى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد، في فترة تفشى فيها الانحلال الديني والأخلاقي في المملكتين اللتين تدينان بتوراة موسى: مملكة يهوذا الجنوبية التي كانت تتوارثها سلالة داود وسليمان، ومملكة إسرائيل (أو السامرة) الشمالية التي كانت تتوارثها أحفاد يربُعام بن نباط: القائد الثائر على سليمان. ففي أثناء هذه الأزمة السياسية والدينية والاقتصادية الحادة، ومع التهديد الدائم بالغزو الخارجي لهما، ظهر توقع (يوم الرب). يقول النبي عاموس: ويلٌ للمتمنين يوم الرب! لمَ ذاك؟ إن يوم الرب لكم ظلام لانور! كما إذا هرب امرؤ من وجه الأسد، فلقيه الدبّ! أو دخل البيت وأسند يده إلى الجدار فلسعته حيّة! أليس يوم الرب ظُلمة بلا نور؟ بل هو ديجور لا ضياء له! (عاموس ٥:١٨-٢٠). وواضح من قول عاموس «ويلٌ للمتمنين يوم الرب» أنها كانت عقيدة شعبية انتشرت في عهده بين بني اسرائيل، على أن هذا اليوم هو يوم (الخلاص) فهم يتمنونه

ويستعجلونه، هو يوم رب اليهود للانتقام من أعدائهم. أما عاموس فيبدو بوضوح أنه عنده يوم الجزاء، وأنه سيكون يوم عذاب لليهود على ما ارتكبوا قبله من آثام. وكما يقول العالم الفرنسي المعاصر شارل جنيبير إن (يوم الربّ) سيمتاز لا بانتصار اليهود؛ بل بانتصار العدالة الإلهية التي سيرتعد منها بنو إسرائيل أنفسهم بسبب ما ارتكبوه من جرائم وآثام (شارل جنيبير: العالم اليهودي قبيل ظهور المسيح، باريس ١٩٥٢م، الفصل الرابع).

واستمر انتظار يوم الرب، والرعب منه، بعد عاموس في سفر النبي إشعياء مثلاً. ولنا حول هذا الموضوع عرض موجز في كتابنا «الفكر الديني اليهودي، أطواره ومذاهبه»، دار القلم (دمشق) ودارة العلوم (بيروت) الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

يبشرون بالمسيح المنتظر.. ولكنهم لا يعرفونه!

ومع هذه الحيرة أمام الأزمات الطاحنة التي تعرض لها اليهود وانتهت باعتقالهم في القرن الخامس قبل الميلاد في أرض بابل، وتخريب ملكهم في فلسطين، ظهرت مع عقيدة (يوم الرب) عقيدة أخرى أشد خطرا هي الاعتقاد في (المسيح المخلِّص المنتَظر)، وهو بطل مجهول الاسم - كما أشرنا إلى ذلك في مقالين سابقين - وهو واحد من سلالة داود، محارب، منتقم من أعداء اليهود، مخضعٌ لكل أمم الأرض لسلطة اليهود، جامع لهم على جبل صهيون، في يده صولجان الملك لأنه متوج تتويجًا شرعيًا بمبايعة عامة وبالمسح على رأسه بالدهن المقدس، ليجمع بين السلطتين الدينية والزمنية. وباختصار هو معجزة الله الكبرى التي أعدّها لبني إسرائيل حتى يؤمّن لهم السيادة على العالم.

ونحن نعلم أن من أهم مَنْ بشروا بالمسيح المنتظر النبي إشعياء في القرن السابع قبل الميلاد، والأزمة تستحكم حلقاتها في الداخل ومن الخارج على يهوذا، فيقول وهو يشير إلى جبل صهيون بأورشليم القدس: وفي هذا الجبل، سيصنع رب الجنود لكل الشعوب وليمة من المسمَّنات، ومأدبة من الذبائح الدسمة، مع النبيذ الصرف المروَّق. وفي هذا الجبل سيكشف رقعة الغشاء الذي يغشى جميع الشعوب، والحجاب الفاصل لكل الأمم، وسيبيد الموت إلى الأبد، وسيمسح السيد الرب الدموع عن جميع الوجوه، ويزيل عار شعبه عن كل الأرض، لأن الربّ قد تكلم. وفي ذلك اليوم يُقال: إنه إلهنا الذي انتظرنا! نبتهج ونفرح بتخليصه! (سفر إشعياء٢٥:٦-١٠). وكنت قد علقت على هذا النص في كتابي الذي ذكرته هنا تعليقا اقتطف منه نهايته: كل ذلك ينبثق من حضيض الخوف والدمار، ليخلق صورة ساحرة، تداعب عواطف هؤلاء الموتورين (ص٩٨).

وزعم بعض الباحثين عن المشكلات أن المسيح المخلص المنتظر قد بشرت به توراة موسى في جملة ملغوزة مرموزة، هذا نصها: لايزال صولجان من «يهوذا» ومُشَرِّعٌ من سلالته، حتى يأتي «شيلو» وتطيعه الشعوب! (التوراة - سفر التكوين ١٠:٤٩). ونحن نسأل مع أجيال الباحثين من أقدم العصور: من هو (شيلُو) المذكور في هذا النص، في أول أسفار التوراة المَنسوبة إلى موسى عليه السلام؟ ولم يجد هذا السؤال جوابا محددا إلى الآن! فمنذ ألف سنة أو تزيد كان العلاّمة سعديا سعيد بن يوسف الفيومي يترجم التوراة في بغداد إلى اللغة العربية، فأخذ بظاهر هذه الكلمة التي تعني بالعبرية (الذي له) وكتب في ترجمته: «ولا يزول القضيب (أي صولجان المُلك) من آل يهود إلى أن يجيء (الذي هو له) وإليه تجتمع الشعوب». ومؤرخ الأديان الفرنسي المعاصر «جنيبير» يرى أن في رسم هذه الكلمة في التوراة تحريفا من الكاتب - وهي لم تحدد إلا هذه المرة - وصحة كتابتها (مُوشلو) ومعناه بالعربية «حاكمه أو المسيطر عليه» المتصرف فيه. وتذهب الترجمة الفرنسية للحاخاميّه اليهودية بباريس مذهبا آخر في تصحيح كتابة هذه الكلمة، فتقرأ (شاليو) أي الهادئ أو الساكن أو الحليم. وكل ذلك لا يشعر بأية إشارة إلى مسيح (أي مَلك) قوي منتقم ومنقذ. وغاية الأمر أنها إشارة غامضة وضبابية إلى شخص من سبط يهوذا الذي ينحدر منه داود وسليمان. وهو دليل قاطع على أن هذا النص قد رُوي - أو كتب - بعد موسى بخمسمئة سنة على الأقل، أي في ملك داود وسليمان وربما بعد انهيار هذا الملك وزواله. ولكن كهنة الكتب الدينية من اليهود تعودوا التأويلات البعيدة لأدنى ملابسة، لأن تلك النصوص كانت في حسبانهم أكثر ارتباطا بالسياسة منها بالدين، ونحن في هذا لانعبر عن رأينا فقط؛ بل نعتمد على رأي العالم البريطاني «درايفر» في تعليقه على الفصل التاسع والأربعين من سفر التكوين الذي ورد فيه هذا النص المبهم بقوله إن هذا الفصل كله (مُقْحم) في التوراة بيد كاتب من المدرسة التي تسمي إله إسرائيل «يهوه» أخذه من مصدر منفصل؛ إذ الملابسات التاريخية والجغرافية التي تشع منه، هي الملابسات نفسها المعروفة في عصر القضاة (بعد موسى بقرنين من الزمان) وصمويل (بعده بأربعة قرون) وداود (أدرك صمويل في آخر أيامه)، وهو زمان أخذت فيه عادة بركة شيخ القبيلة لبنيه شكلها الشعري (والفصل ٤٩ من التكوين كله قصيدة من البركات المنسوبة إلى موسى لأسباط بني إسرائيل). ذكر درايفر هذا في كتابه «مقدمة لنصوص العهد القديم» بالإنجليزية، الطبعة التاسعة، ١٩٢٩م، ص١٩، إدنبره. وزعم بعض الباحثين أنهم وجدوا نصا ثانيا في التوراة يتضمن إشارة إلى المسيح المخلص المنتظر، وهو: إنني أراه، وليس حاضرا! أبصره، وليس قريبا! يشرق كوكب من يعقوب، ويقوم صولجان في إسرائيل، فيحطم طرفَي مؤاب، ويخسف كل أبناء الغرور! (التوراة - سفر العدد ١٧:٢٤). وهي كلمات أكثر إبهاما من النص السابق، تَرْجَمْتُها من الأصل العبري، واضعا أمامي الترجمة الرسمية للحاخامية الكبرى بباريس، باللغة الفرنسية. وفوجئت بأن الترجمة العربية الكاثوليكية للآباء اليسوعيين تترجم المقطع الأخير منها بعبارة «ويريح جميع بني شيث!»، وتخالفها الترجمة العربية البروتستانتية فتضع مكان هذا عبارة «ويُهلك كل بني الوَغَى!!»، ويكتب سعديا الفيومي «ويزلزل سائر بني شيث». وهكذا يعود الباحث، مهما كان خالص النية في الفهم، بخفَّي حنين، في هذه الدوّامة من الخلاف.

ويعيدنا هذا إلى القول بأن الاعتقاد في ظهور (المسيح المنتظر) كان عرضا لمرض الشعور بالمرارة وبالهزيمة والاحتقار والاضطهاد من كل الأمم التي جاورتهم، وانتظار هذا (المخلص) كان في الحقيقة تجسيدا للدعاء المرفوع من قلوب اليهود بأن يأتي هذا (المخلص) فينتقم لهم، ويكيل الصاع صاعين لأعدائهم، ولذلك حاروا في اسمه وزمانه ومكانه، لأنه دعاء مبهم - ومطلق - على أعدائهم، هو صرخة الحقد الدفين بعد أن تخلقت بشرا سويا، أصبح معقد آمال اليهود من جيل إلى جيل. بل ذهب كثير منهم إلى أن هذا النازل من السماء لخلاصهم إنما هو (النبي إلياس) الذي كان يقود المعارضة السياسية والدينية في مملكة السامرة الشمالية (إسرائيل) في حكم الملك «أخاب» الذي تزوج امرأة كافرة من لبنان - بنت ملك صور - واشترطت عليه أن أولادها منه ينشأون على عبادة الأصنام، فوافق على طلبها في البنات، أما في البنين فقد شرح لها إنهم لو نشأوا

المسحاء الكذابون.. كلهم صهاينة!

كفرة فلن يرث أحد منهم عرش إسرائيل. فوافقت على تهويد الصبيان طمعا في الملك فقط، وأحضرت من لبنان الكهنة الكفّار فأقامت لهم معابد على جبل الكرمل المشرف على مدينة حيفا، حيث كانوا يقيمون شعائر وقرابين وصلوات للبعل وعشتروت وغيرهما من أصنام المشركين. وبإيجاز وقف إلياس في وجهها، وأثار الشعب ضد كهنتها، ففتكوا بهم، وهرب هو إلى طور سيناء بأمر من أحد الملائكة يحمله إليه من الله، وفي طور سيناء تزعم الرواة أنه التقى بموسى (بعد ثمانمئة سنة من وفاة موسى!) فزوده بالنصائح والتعاليم، وأخذ معه في طريق العودة تلميذه النبي اليهودي (اليسع)، وعلى الضفة الغربية للأردن، وهما واقفان، نزلت عربة من السماء عجلاتها من النار، فودع إلياس تلميذه اليسع وصعد في العربة التي علت به إلى السماء! ويزعم بعض (دراويش اليهود) أن هذا دليل على أن كبسولات الفضاء، والأطباق الطائرة مسبوقة منذ أكثر من خمسة وعشرين قرنا برحلة (مركبة إلياس) إلى السماء. وأذكر أنه قد سبقت لي إشارة إلى طريقة صوفية يهودية يطلق أتباعها على أنفسهم (أهل المركبة) بعد أن حوّلوها من سيارة خاصة إلى حافلة (أوتوبيس)!

نماذج من المسحاء الكذابين

وفي ذروة الشتات والنكال ووثبات اللاسامية ضدّ اليهود، قرر شيوخ التلمود، بعد أجيال من التخبط حول انتظار المسيح المخلص أنه سرّ من أسرار الغيب لايعرفه أحد. وفي مقال سابق أشرنا إلى أن هذا الظلام الدامس الذي غمر المسيح المنتظر قد هيأ الفرصة للمجانين والأفاكين والدجالين والمشعوذين والمتحمسين ومثيري الشغب من المتطرفين ليدعي كل منهم أنه هو المعهود والموعود. وشهد تاريخ اليهود؛ بل أحيانًا تاريخ العالم كله سلاسل من الفتن والقلاقل حول واحد من أولئك المسحاء الكذابين، وكلهم كان يرمي إلى إقامة ملك عضود على جبل (صهيون) ينطلق منه إلى السيطرة على العالم كله. ومن الصعب الذي يكاد يكون مستحيلاً حصر هذه الشخصيات بأسمائها وتاريخ حياتها. لذلك أقف وقفة تعريف مختصر بكل من كان له صدى بعيد المدى في اليهود أو في أمم العالم. وأشهر هؤلاء:

ثيوداس: نعرف عنه أنه كان في فلسطين نحو عام ٤٤م، وادّعى أنه المسيح المنتظر، فاتبعه آلاف من (المريدين)، وبلغ أمره الحاكم العسكري الروماني للمنطقة، وأنه سَيَفلقُ نهر الأردن فيعبره برجاله سالما ثم يأتي الجيش الروماني للقبض عليهم، فيجرفهم ماء الأردن، ويغرقون جميعا، كما فعل موسى بجيش فرعون! فأدركته فرقة من خيّالة الرومان قتلت عددا كبيرا، وقطعت رأس مسيحهم بالسيف، وأخذ الخيّالة رأسه فسلموها إلى قائدهم.

وتحدث المؤرخ اليهودي يوسيفوس الذي كان يعيش في فلسطين في القرن الأول الميلادي عن ظهور مسيح آخر من يهود مصر، حضر إلى القدس، ووقف على جبل الزيتون في شرق أورشليم يدعو إلى نفسه، ويقول إنه بمعجزة منه ستتهدم الاستحكامات العسكرية الرومانية حول أورشليم، فآمن به واتبعه ثلاثون ألفا من اليهود. فوصل أمره إلى الحاكم العسكري الروماني للقدس - واسمه فيليكس - فوجه إليه بين عامي ٥٥-٦٠ للميلاد حامية عسكرية قتلت من أعوانه عددا كبيرا. أما هو فهرب، ولم يعد أحد يسمع له خبرا ولا صوتا.

ولم يذكر يوسيفوس اسم هذا المسيح الكذاب، لشدة ازدحام فلسطين في ذاك الوقت بهؤلاء الدجالين، لدرجة أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حذّر صحابته منهم. جاء في الإنجيل: احذروا أن يضلكم أحد. إذ سيجيئون باسمي قائلين: أنا المسيح! فيضلون كثيرين (إنجيل متّى ٢٤:٤، ٥). ويشرح المسيح هذا تفصيلا في هذه الموعظة نفسها فيقول: لأنه سيحدث حينئذ ضيق شديد، لم يكن مثله منذ أول العالم إلى الآن، ولن يكون. ولولا أن تلك الأيام ستقصرُ، لما كان ينجو منها واحد من الأحياء. لكن لأجل المقرَّبين ستقصر تلك الأيام. وعندها إن قال لكم أحد إن المسيح هنا أو هناك فلا تصدّقوه. لأنه سيكون هناك مُسحاء وكذّابون، وأنبياء كذّابون، ويقدّمون آيات عظيمة، وعجائب، حتى إنهم يضلون المقرّبين، لو أمكن. وها أنا ذا قد تقدمت فأخبرتكم. فإن قالوا لكم إنه في البَر فلا يخرجوا، أو إنه في الحجرات فلا تصدقوا! (إنجيل متى ٢٤:٢١-٢٦).

يهودا الجليلي: هذا مسيح كذاب ظهر بعد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بقليل، ويبدو أنه كان منافسا خطيرا لثيوداس، وهو مذكور في سفر أعمال الرسل من العهد الجديد بأنه يهودي وليس من أتباع المسيح، وأنه أضل كثيرا من الناس إلى أن قُتلَ وتبدد أتباعه (فصل ٥:٢٧).

وفي سفر أعمال الرسل نجد ذكرا للمسيح الكذاب المصري الذي سبقت الإشارة إليه في قصة عن القديس بولس بعد أن آمن بالمسيح عيسى بن مريم، وحاول أن يدخل الهيكل في أورشليم - القدس فتجمع كهنة المعبد عليه ومنعوه من الدخول هو وبعض اليونان الذين اعتنقوا النصرانية، وطردوا بولس وأغلقوا الأبواب، ونشبت مشاجرة بين الطرفين انتهت إلى مدير شرطة الحي - وهو ضابط روماني - بعد أن كاد اليهود أن يقتلوه في هذه المشاجرة. فسأله مدير الشرطة: ألست أنت ذلك المصري الذي أثار هيجانا منذ أيام؟ ثم هرب إلى البرّ بأربعة آلاف رجل من القتلة؟ (أعمال الرسل ٢١: ٢٨-٣٨).

ويبدو بوضوح أن مدير الشرطة قد خلط بين بولس وبين اليهودي المصري الذي أشرناإليه آنفًا وإلى ادعائه أنه المسيح المنتظر.

وظهر يهودي متطرف - في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، نحو سنة ١٣٠م - أعلن الجهاد المقدس لطرد الرومان وغيرهم من فلسطين، وإقامة دولة مستقلة لليهود في تلك البلاد. وبسرعة ذاع صيته بين أتباعه الكثيرين من اليهود على أنه

المسحاء الكذابون ظهروا في بلاد عديدة، وأزمنة متباينة مما يجعل حصرهم مستحيلا. لكن يجمعهم جميعا: الكذب والجنون

المسيح المنتظر، المخلص، والمحرر، والمنتقم من أعداء اليهود، كان اسم صاحبنا هذا (بر كُوكْبا) ومعناه بالآرامية «ابن الكوكب» أو «صاحب النجم». وكان اسمه الأصلي شمعون (بر كوزبا) ومعناه «ابن الكذب» أو «صاحب الكذب». والذي خلع عليه هذه (النجومية) الربّي عقيبا بن يوسف، الذي كان متبحرا في الفقه اليهودي، وفي التفسير الباطني والرمزي للتوراة، وكان مع هذا وطنيا متحمسا لإعادة مُلك سليمان وداود على فلسطين. وما إن التقى بصاحبه (بر كوزبا) حتى تذكر ما جاء في التوراة: أراه وليس حاضرًا، أبصره وليس قريبا، يأتي (كوكب) من يعقوب، ويقوم صولجان من إسرائيل (سفر العدد ٢٤:١٧) فسمّاه بر كوكبا. وآمن أتباعه بأنه المسيح المنتظر، وأنه ملك اليهود. ونجح في الاستيلاء على أورشليم، وسكّ العملة باسمه ورسم عليها صورة هيكل اليهود في أورشليم تعلوه النجمة

أو (الكوكب) حسب التقاليد. وكانت تلك هي الخطوة الأولى نحو دولة صهيونية عنصرية لليهود وحدهم في فلسطين. وكانت خطة بر كوكبا في مقاومة الرومان، توزيع قواته بأعداد صغيرة مدربة على حرب العصابات وأعمال الإرهاب، ولكن الإمبراطور الروماني (هدريان) أشرف بنفسه على المعارك، ونجح - بعد صراع طويل - في سحق اليهود بفلسطين، وتدمير جميع منشآتهم فيها، حتى المعابد والمقدسات؛ بل أمر بتغيير الأسماء العبرية التي أطلقها اليهود على المواضع المختلفة في فلسطين إلى أسماء غير يهودية. وأعطى هو المثل عندما ألغى اسم أورشليم وأحضر من معبد الكابيتول في روما صنما ضخما نصبه على أطلال المعبد، وأطلق اسمه قبل أن يصير إمبراطوراً وهو (إيلايوس) على مدينة القدس، وأضاف إليه اسم معبد الكابيتول الذي ينتمي إليه الصنم، فصار الاسم الإداري الرسمي للمدينة «إيليا كابيتولينا». ولما انتشرت فيها المسيحية حذف اسم المعبد الوثني فصارت (إيليا) فقط. وهو الاسم الموجود في معاهدة تسليمها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد الفتح الإسلامي.

ومع الفتح الإسلامي عاد اليهود إلى حلمهم القديم: مجيء المسيح المنتظر، وكان أول من ظهر منهم في الإسلام إسحاق بن يعقوب عوباديا وشهرته (أبو عيسى الأصفهاني) الذي ظهر في خلافة عبدالملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م). فهذا اليهودي الإيراني كانت له في شريعة القوم اجتهادات مثيرة للجدل. وخلفه تلميذه (يوجْدان) فزعم أنه المسيح المنتظر. وصدقه أكثر اليهود اعتمادا على حسابات فلكية خرافية خلاصتها أن بين يوجدان والنبي دانيال ألفًا وثلثمئة وخمسا وثلاثين سنة. وأن هذه المدة في حساب النجوم هي التي حددها دانيال لظهور المسيح المنتظر! وقامت حوله فرقة دينية خاصة اسمها (اليودجانية) أو (اليوجدانية). ولأنهم عاشوا في إيران في ظل الدولة العباسية، وفي مدينة أصفهان بالتحديد، فقد اهتموا باتجاهات الفرق الإسلامية المختلفة، وبسرعة قام في أصفهان اليهودي عنان بن داود الأصفهاني فألغى المشنا والتلمود من مصادر التشريع اليهودي، وأقام مذهب اليهود القرائين الذين يستنبطون الشريعة من العهد القديم، الكتاب (المقروء) الوحيد في العبادة. فأسرع اليوجدانيون في الانضمام إلى فرقة القرائين.

وظهر مسيح آخر في خلافة عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ - ٧٢٠م) وموطنه سورية، ودعا اليهود إلى التحرر من جميع القيود، وعندما قبض عليه الخليفة يزيد بن عبدالملك بن مروان زعم أنه كان يمزح!

ومع الحروب الصليبية كثر ظهور المسحاء الكذابين؛ لأن المعركة كانت بين المسلمين والنصارى للاستيلاء على فلسطين، مما شجع اليهود على الدخول في المعركة - ولو بالكلام - تأكيدا لحقوقهم (التاريخية) في تلك البلاد. وذكر موسى بن ميمون في (رسالة اليمن) أن أولئك الأدعياء، قد ظهر أحدهم في فرنسا، وقتل عام ١٠٨٧م، وفي قرطبة بالأندلس ١١١٧م، وفي فاس بالمغرب ١١٢٧م.

ومن أشهر المسحاء الكذابين: داود الرائي. والرائي هنا معناها بالعبرية «المنبئ بالغيب». وُلد سنة ١١٣٥م في مدينة آمد بالكردستان، وأتقن العلوم الشرعية اليهودية على يد شيوخ عصره الكبار، وتبحر في جميع فروع الثقافة التي كان يشتغل بها العرب في هذا العصر العباسي الزاهر. وفي عام ١١٦٣م جاهر في بغداد بدعوة اليهود إلى عمل يستولون به على أورشليم وجبل صهيون، وكان الوقت حرجاً جداً بالنسبة للمسلمين، فهم مشغولون بالحروب الصليبية، والصليبيون الذين يرون نهايتهم تقترب اهتموا بتشجيع الإلحاد والزندقة في المجتمع الإسلامي، ومساندة أية حركة يمكن أن تحدث بلبلة بين المسلمين. وتنبه هذا اليهودي المثقف إلى سنوح الفرصة لإقامة حركة صهيونية ناجحة في صميم العالم العربي. وانتشر دعاة هذا المسيح الخطير في العالم الإسلامي كله، من مصر إلى إيران. وكوّن داود الرائي جيشا كبيرا من المتطوعين اليهود المتحمسين، كان تجمّعه وتدريبه في أذربيجان، وخطر له أن يبدأ باحتلال مدينة آمد الكردية التي وُلد فيها، فزحف إليها، ولكن المسلمين تصدوا له وهزموه وقتلوه في المعركة وبقي ذكره في أساطير صهيونية بتلك الناحية، نقلها الرحالة اليهودي الأندلسي بنيامين التطيلي الذي زار هذه المناطق ١١٧٣م؛ أي بعد عشرة أعوام فقط من تلك الحوادث، كانت كافية لتجعله أسطورة!

ومن خرافات اليهود حول داود الرائي أن رؤساء الدين اليهودي أصدروا فتوى بتكفيره وإهدار دمه بناء على أمر من خليفة المسلمين في بغداد، وأن والي خراسان فرض على اليهود غرامة قدرها مائة قنطار من الذهب تعويضا عن الدمار الذي سببته حركته في الإقليم. واشتهر في قومه بأنه كان يشفي المرضى. وقالوا إنه زعم لحاكم خراسان أنه لو أمر بقطع رأسه بالسيف فإنه لن يموت! فأمر الحاكم بضرب عنقه.. ومات! أما أتباعه فسمّوه فيما بينهم «نحمان» و«مناحم» ومعنى هذين الاسمين في العبرية «المعزّي» أو «المواسي»، وأطلقوا على أنفسهم

المسحاء الكذابون.. كلهم صهاينة!

اسم «النحمانيين». فهذا مسيح آخر جمع بين الكذب والجنون. وما أكثرهم!

وفي أوروبا ظهر بألمانيا مسيح كذاب اسمه «آشر إملين» عام ١٥٠٢م، يدعو يهود أوربا إلى الاستيلاء على فلسطين، لأن الله أرسله ليقيم فيها دولة لليهود، والظاهر أن الذي أرسله هم بعض الموتورين في أوروبا من الهزائم التي حلت بهم في الحروب الصليبية، وانتهت بطردهم نهائيا من فلسطين ومن بقية الأراضي التي سيطروا عليها في الشرق الأدنى والأوسط. وقد وعد أنصاره بالاحتفال بعيد الفصح اليهودي في مدينة أورشليم (القدس) في العام المقبل، ولكنه أصيب قبل الموعد بسكتة قلبية مفاجئة قضت عليه، مما زعزع إيمان أتباعه به، فاعتنق أكثرهم النصرانية.

وفي «خيبر» بالقرب من «المدينة المنورة» ظهر يهودي كذّاب اسمه «داود الرأوبيني» فادعى أنه الوريث الشرعي لمملكة خيبر اليهودية، ولما لم يجد استجابة من «رعيته» هاجر إلى إسبانيا التي كانت أشد أعداء الإسلام إذ ذاك، فرحل عنها واتصل بالبابا «كليمنث السابع» في الفاتيكان حيث قابله عام ١٥٢٤م في استقبال رسمي حافل، كما استقبله ملك البرتغال في السنة التالية. وتخلى هذا المسيح الكذاب عن اسمه، وصار يسمى «المسيح» فقط. وتبع دعوته أحد كبراء اليهود المتنصرين، فارتد عن النصرانية، وأعرض عن اسمه الكاثوليكي «ديجو بيريز» وسمى نفسه «سلومون مولخو» فأثار بذلك المسيحيين على «داود الرأوبيني»، وترك البرتغال إلى إسبانيا، فقبض المسؤولون عليه وسجنوه، وقدّموا له طعاما مسموما فمات سنة ١٥٣٥م.

وبعد ، فما يزال في أولئك المسحاء الكذّابين الساعين إلى اغتصاب فلسطين، وتحقيق الأحلام الصهيونية التي تبلورت في نيران النكبات المتعاقبة على اليهود، أهمّ وجه بين أولئك الدجالين هو «شبّتاي صبي» الذي انتهت أكذوبته - لا باحتلال فلسطين، ولا بتدمير الإسلام - بل بمذهب في اليهودية أو، على الأصح، بدين جديد! وفي نيتي - إن شاء الله - أن أتناول حركته ببعض التفصيل في أعداد قادمة.

واقعنا الثقافي
والانهزام الداخلي

د. محمد عبد الستار نصار

كلما انتزعت نفسي من الأفكار والآراء الكثيرة المتوافقة أحيانًا والمتعارضة أحيانا مع تكويني واستعدادي، مما يتصل بالعمل الجامعي، لألقي نظرة على واقعنا الثقافي، وما يمور به من توجهات، ويزخر به من أفكار ومعتقدات، وجدتني ـ بعد تأمل هذا الواقع بعين الحريص على دينه وأمته ـ راجعا بشعورين متناقضين متباينين:

فأما أول هذين الشعورين، فهو شعور تمتزج فيه المرارة بالأسى والتوجس من هذا الواقع، ولاشك في أن هذا قد يذهب بالنفس كل مذهب، وقد يجعلها يائسة قانطة، لولا الشعور الثاني، الذي أتحدث عنه الآن.

وأما ذلك الشعور، فهو شعور صاحب الأمل الواسع العريض الممتد إلى أرحب مدى، بأن هذا الواقع لن يدوم على حال، يزكي هذا، أن طبيعة الحياة هكذا، في صيرورة دائمة، ولايمكن أن تقف عند صورة محددة؛ بل إن التغيير والتجدد هو سنتها، ومن رحم الصيرورة تتولد الأحوال التي يكون من بينها، تلك التي يأمل الإنسان وجودها بصورة إيجابية، يتمنى لو كانت الحياة دائمًا كذلك.

ومن المؤكد أن صورة الحياة لاتعدو أن تكون انعكاسًا لطبيعة الإنسان، لأنه صانع هذه الحياة. ومن البدهي أيضا أن تلك الطبيعة الإنسانية من الطواعية والمرونة بحيث تعتورها أوضاع متباينة، حتى تتكيف معها، وإذا كان هذا دور الإنسان في الحياة، فان تقويمه إنما يقاس بمدى صياغته لها على أساس صحيح ولن يكون ذلك إلا إذا فهم دوره فيها، فأدّاه كما ينبغي أن يؤدَّى.

والإنسان المثقف تشكله مكونات متعددة، أبرزها ما كان من وحي البيئة التي نشأ فيها وترعرع في أحضانها، من دين وقيم وتقاليد ولغة.. الخ. يضاف إلى ذلك: مكونات أخرى، يتوقف التأثر بها على الدرجة التي تملكها من التأثير، ومن قبل على مدى إيجابية الاتصال بين تلك الثقافة ومن يتأثر بها.

واقعنا الثقافي

إذا كانت الثقافة تعني في أدق تعريفاتها: المكونات الأساسية البيئية التي تشكل وجدان الإنسان ومعارفه وقيمه، كما يذهب إلى ذلك جمهور المعرفين لها، فإن ذلك يعني: أن ثقافتنا الإسلامية ينبغي أن تكون تعبيرًا عن هذين القطبين: العروبة والإسلام؛ غير أن ما ينبغي شيء.، والواقع شيء آخر، وحتى يكون الحكم قائمًا على أساس علمي صحيح، أقرر أن الحكم هنا على المجموع لا على الجميع كما يقول أرباب المنطق، يعنون بذلك: أن الحكم لايشمل كل أفراد الظاهرة؛ بل معظم تلك الأفراد. وهذا استثناء لابد منه، حتى نكون منصفين في أحكامنا.

إننا نرى في واقعنا الثقافي كثيرًا من الرموز التي يطلق عليها ذلك الوصف «مثقف»، ونرى نتاجهم المتنوع، مما تخرجه المطابع ودور النشر، وما تحفل به المؤسسات القائمة على لقاء الجماهير بالأشكال المتعددة لهذا اللقاء: كتاب، رواية، مجلة، صحيفة، مسرح، سينما، إذاعة ـ مسموعة أو مرئية ـ.. الخ. ثم نتحسس من خلال ما نقرأ وما نسمع عن الإطار الفلسفي الفكري، الذي تعمل هذه الوسائل من خلاله فنكاد لانجد شيئًا يذكر ـ مع استصحاب قادة الاستثناءالمشار إليهم آنفا ـ، ثم نتطلع كذلك إلى إدراك المقاصد والأهداف، ووراء ظهور هذا الكم الهائل من هذه الوسائل فنرجع بالشعور نفسه الذي نعود به حين نتحسس الإطار الفكري والفلسفي لثقافتنا.

ولنا أن نتساءل: إذا كان هذا هو الواقع بكل أمانة وصدق، فما سبب ذلك من قبل ومن بعد؟ هل هما القطبان الفاعلان فيما ينبغي أن يكون عليه واقعنا الثقافي، أعني: العروبة والإسلام؟ لا أتصور أن هذا هو السبب، ذلك لأن العربية ـ كَلسَان ـ هي اللغة التي اختارها الحق تبارك وتَعالى لتكون لغة كتابه الخاتم، والعروبة ـ كجنس ـ هي التي جعلها الحق أيضًا زعيمة لحمل أمانة الإسلام، وتبليغها إلى العالمين، والنبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عربي، وصحابته الكرام الذين حملوا الراية من بعده عرب، ويرشح لهذا أن الله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته. كما لا يمكن أن يكون الإسلام هو السبب أيضًا، لأنه الدين الذي رضيه الله دينا للمسلمين، ويستحيل أن يرضى الله عن دين يكون في طبعه

أن يجعل أتباعه طرائق قددًا، في الفكر والثقافة والتوجه، والسلوك.. الخ.. يضاف إلى ذلك أن الإسلام من حيث واقعه التاريخي قد مثل أروع الأدوار في تاريخ الحضارة الإنسانية، يشهد بذلك المنصفون من الشرق والغرب على السواء، ولولاه لما كان للمدنية الغربية أن تظهر في عصر النهضة ثم في العصر الحديث.

الانهزام الداخلي

وإذن فلنبحث لهذه الظاهرة عن سبب آخر غير هذين القطبين. وأعتقد أن كل باحث عن الأسباب قد يجدها كثيرة ومتشابكة. وأنا - بوصفي واحدا من الذين يعنون أنفسهم بذلك - اهتديت إلى سبب وراء هذه الظاهرة التي نحن بصددها، ولست أدعي أنه الوحيد في تشكيل هذا الواقع الذي نعانيه، إنه «الانهزام» الداخلي، الذي قد يترجم إلى عدم الثقة بالنفس.

وإذا صح هذا الذي أقول، فإن صانعي الثقافة في أمتنا سيكونون موزعين مشدودين إلى دوائر الجذب الأكثر: كسب مادي، شهرة، مجاراة السلطة وتسويغ تصرفاتها، الانتماء إلى مذهبيات (إيدلوجيات) أخرى والتبشير بها، وإعلائها فوق الموروث من ثقافتنا، وأخيرًا أولئك الذين يريدون أن يؤدوا دور الأبطال - كل في دائرة اختصاصه - وما هم منهم في شيء.. الخ وأحسب أن ما يسمى بالمشروعات النهضوية التي ينادي بها هؤلاء الذين يزعمون أنهم دعاة «التنوير» ليست إلا أحلامًا تداعب أخيلتهم، ستصطدم بما تكنه الأمة في ضمائر أبنائها، من تقدير لموارثيها الحضارية، التي تمثل الخبء الذي يظهر عندما تتعهده قيادات ذات ثقة لدى جماهير الأمة. وكأن هذا المعنى هو الذي يشير إليه الحديث الشريف الذي يقرر أن الله سبحانه وتعالى يبعث على رأس كل مئة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها.

اللحن النشاز

ولعل الذي يؤكد هذا التحليل، أننا لو ألقينا نظرة على ما يقال في ندواتنا ومؤتمراتنا، وما يُكتب في كتب المشتغلين بالثقافة العامة، وما تجري به الأقلام على صفحات المجلات والصحف، لا نجد إطارا يجمع هؤلاء، ولا منطلقًا يوحد بينهم، ولاهدفا يشدهم؛ بل نجد تباينات وتقاطعات، كالفرقة الموسيقية التي لم يتدرب أفرادها على لحن معين وليس مع كل منهم «النوتة» التي تضبط الإيقاعات، فيأتي اللحن من تلك الفرقة نشازًا، تقشعر منه أذواق السامعين. وأنا لا أقصد أن تكون المدارك والأفهام صورًا مكررة فهذا مستحيل، وإنما الذي أرمي إليه أن تتعدد الرؤى والاجتهادات داخل إطار واحد، وتكون مشدودة إلى مقصد واحد وغاية واحدة، تصب في النهاية في صالح أمتنا العربية والإسلامية أفرادًا وجماعات.

وإذا كانت طلائع مثقفينا لاتدرك الفوارق الدقيقة بين ماهو ذاتي «الثقافة» وماهو موضوعي «العلم»، وأن للذاتي خصوصيته التي تميزه من غيره، فأعتقد أن دعواهم التي يقولون فيها: إن الثقافة قدر مشترك بين جميع الأمم والشعوب، دعوى قائمة على غير أساس، ذلك لأن «الثقافة» ترتبط بالبيئة التي تنشأ فيها، وأما العلم فلا وطن له. ويظهر حينئذ أن كتاباتهم القائمة على هذا الأساس ليست إلا نوعًا من تكريس «التبعية» لمذاهب فكرية غريبة عن واقعنا.

منهج الغيورين

في وسط هذا الزحام الهائل المفعم بالتباينات في الرؤى والمنطلقات والأهداف نلمح موقف «الغيورين»، وهو موقف لاتنقصه «الحماسة» وإنما ينقصه «المنهج»، ذلكم لأن الرموز التي تشكل هذا الموقف، لم تبرح «العروبة» و«الإسلام» إطارًا لموقفها، ولكن منهجها في عملها في هذا الإطار قد أصابه الكثير من التباينات، حتى انعكس ذلك على موقف كل فصيل من فصائل هذه الحركة من الآخر، ومن ثم من المجتمع. وكل منها تشبث بموقفه، اعتقادًا منه أنه وحده الذي يملك الحقيقة، وأن ما سواه ليس كذلك.

وتجاوزت الاجتهادات لدى هؤلاء الأحكام الفرعية لهذا الدين، حتى طالت أصوله وقواعده، ولم تكن هذه الاجتهادات وما استلزمته من أحكام غير مدروسة بطريقة علمية صحيحة، قاصرة على من في درجتهم من المجتهدين المعاصرين؛ بل تجاوزت ذلك إلى الحكم على جمهور علماء الأمة، بدءًا من عصر الخلفاء الراشدين، ومرورًا بما تلا هذا العصر، لدى أئمة الفقه والحديث والتفسير.. الخ.

ولانعدم - فوق هذا - وجود طائفة من (الغيورين) ينصب نشاطهم على استصحاب الماضي المشرق لديننا الحنيف، دون أن يقدموا لنا المشروع الحضاري العملي الواقعي، المنطلق من العروبة والإسلام، لتقوم به أمتنا بعد أن طال بها الرقاد، إنهم يتغنون بماضٍ صنعه رجال، مستلهمين عظمة هذا الدين. وكان الأجدر بهم أن يتمثلوا قول الشاعر العربي:

لسنا وإن كرمت أوائلنا
يومًا على الأحساب نتّكل
نبني كما كانت أوائلنا
تبني ونفعل مثل ما فعلوا

الثقافة التي يريدها الإسلام

لا أتصورر أن دينا بلغ من السماحة وسعة الصدر ورحابة الأفق، مثل ما بلغ الإسلام، فهو دين الله للعالمين، ولَمَّا كان كذلك، فإن طبيعته هذه، تستلزم أن يفتح صدره لكل ألوان المعارف والثقافات، صحيحها وسقيمها، فأما الصحيح منها، مما يفيد الإنسان المسلم في دينه وحياته ومجتمعه، فهو يحض عليه، ويدعو إلى حيازته، وقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه معبرًا عن روح الإسلام الحقيقية عندما قال: الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها. وأما السقيم من ألوان الثقافة، فلبيان ما فيه من أثر سلبي في الأفراد والجماعات في دينهم ودنياهم، حسب علاقة هذا النوع منهما.

من ثم يظهر لنا: أن الثقافة التي ينبغي أن تكون غذاء فكريًا وروحيًا لواقعنا العربي والإسلامي، هي تلك التي تبني المسلم في عقيدته وعباداته ومعاملاته وعلاقاته كلها، وتبني الأمة على أساس من القوة، في كل نواحيها: قوة في النظم والاعتقاد، وقوة في الحرب والسلم، وقوة في العلاقات الدولية والعالمية. ولن يكون ذلك كله إلا في ظل واقع ثقافي يمثل الغذاء الصحيح والزاد الطيب، لطالبي الثقافة، فإذا استشعر صانعو الثقافة هذا المعنى، منطلقين من عروبتهم ودينهم بعقيدة راسخة ورؤية واضحة لحقيقة مقاصدهم وأهدافهم، فإن ذلك سيكون بداية الطريق لمعالم ثقافة جديدة تتطلبها جماهير أمتنا المتعطشة إلى هذا النوع، وليس ذلك على الله بمستنكر، وهذا هو مبعث الأمل والرجاء، الذي يقلل من غلواء الشعور الأول الذي صدّرتُ به حديثي.

ولقارئي الكريم الذي قد لاتروقه هذه الرؤية أن يكتب ما يشاء، بشرط أن يكون المنطلق والهدف واحدًا: العروبة والإسلام. وأما طريقة المعالجة والمسائل الفرعية، فإنما هي اجتهادات تخضع لتباين مدارك الإنسان. والغاية من هذا كله، إثراء حياتنا الثقافية بروح جديدة، تجعل هدفها الأساسي بناء العربي المسلم على أساس من العروبة والدين، وإذا لم تعجبه العروبة والدين إطارًا مرجعيًا لثقافتنا، فليقدم لنا البديل. ونحن واثقون بأنه لن يجده خارج هذين القطبين؛ وإلا فعليه أن يقرأ كل الرؤى «التنويرية» التي يزعم لها أصحابها أنهم إنما جاؤوا بها لخلاص الأمة من هذا الواقع الأليم.

الصراع بين المذهبية الفكرية

في الرواية التاريخية

(رواية «هاتف من الأندلس» نموذجا) «١»

د. طه وادي

«لقد ضاعت الأندلس، وتبدد بها مُلكٌ، كان بهجة الدنيا وزينة الدهور، وانفصمت تلك العروة العربية، التي جمعت الآراءَ على رأى، وجعلتْ من الزّنُود المفتولة زنْدًا، ومن السيوف الصارمة سيفًا، فأصبح العربُ بعدَ انحلالهم في هذه الجزيرة النائية بدَدًا، كالشياه. فتَكَ الذئاب برُعاتها، فهامتْ في بيداءِ الخوفِ والجوع، لاتسكنُ إلى ظلٍّ، ولا تأوي إلى سياج.!!) [علي الجارم: رواية «هاتف من الأندلس»].

الرواية.. والتاريخ

تتشكل الرواية التاريخية من بنية معقّدة، تمزجُ بين الاتجاه الفكري (الايديولوجيا) والفن؛ لأن التاريخ حين يصبح مادة للرواية يصير بعثًا كاملاً للماضي: يوثّقُ علاقتنا به، ويربطُ الماضي بالحاضر في رؤية فنية شاملة، فيها من الفن روعة الخيال، ومن التاريخ صدق الحقيقة. ولاشك أن التاريخ حين يصبح مادة للرواية، يصير ضربًا آخر من ضروب المعرفة الإنسانية، له طبيعته المتميّزة ومكوِّناته الخاصة؛ من هنا لا نسأل في الرواية التاريخية - إلى حد كبير - عن صدْق التاريخ، وإنما عن صدْق الفن. كما أن الرواية التاريخية بعملها على إحياء الحضارات، أو بعث الشخصيات، تكفُل للأديب حرية التعبير، حتى يستطيع - بخياله - أن ينقلنا إلى الجوّ الحضاريّ الذي تدور حوله أحداث الرواية، كذلك فإن عليه - أيضاً - أن يبحث عن مسوّغ معقول لسلوك الشخصيات التي يصورها. أكثر من هذا كله عليه أن يُكْمل الحلقات الضائعة في طبيعة العصر، أو في حياة الشخصية، حين يتصدّى لتصوير أيّ منهما.. أو كلتيهما. لذلك يقرر «ألفـرد دي فـيني» حرية الأديب في هذه الروايات، حتى ليذهب إلى «إقرار حقه في تغيير حوادث التاريخ وترتيبها وتأويلها، فتصير حقيقة فنية، بعد أن كانت حقيقة تاريخية»(١).

وقد شهدت الرواية التاريخية في مرحلة ما بين الثورتين (١٩١٩-١٩٥٢م) ازدهارا فنيا لافتا، بحيث تعد هذه الفترة هي «المرحلة الذهبية» للرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث. ومن هنا نصل إلى (الإشكالية الأولى) المطروحة في مجال هذا البحث وهي: ما التاريخ.. ولم تلجأ إليه الشعوب في مرحلة ما من مراحل تطورها؟!.

التاريخ علم من العلوم الإنسانية، يؤرِّخُ به البشر لمراحل نشأتهم وتطورهم السياسي والحضاري عبر العصور. والعناية بالتاريخ ظاهرة طبيعية في مراحل التطور واليقظة، «والاهتمام ببحث التاريخ تحديداً، ليس ترفاً ولا تزيُّدًا، بل هو من صميم مسألة النهضة والخروج من عثْرة طال أمدها، ذلك أن التاريخ ليس الماضي بل المستقبل؛ وهذه ليست عبارة إنشائية. إن الإنسان - من حيث هو إنسان - لم يَسأل عن ماضيه، بل لم يدرك أن له ماضيًا، إلا من مُنطلق إدراكه الحركة نحو المستقبل، حتى حين حاول أن يلتمس شجرة نَسَبِه الواقعية أو الأسطورية، فإنما فعل ذلك ليكون وعيُه زَادَه نحوَ هدف يرمي إليه، وينشد من هذا الوعي بالماضي ما يُعزّزُ سعيه، فكأنما الماضي أو التاريخ ليس خزانة معلومات، بل هو وعي مُوظَّفٌ لغاية مستقبلية، يتحدد في ضوء هدف حياتيّ مرسوم؛ ولهذا تأثر التاريخُ - أكثر من غيْره من العلوم - على مدى الأحقاب والدهور بالأفكار (الأيديولوجيا) المعبّرة عن مصالح مجتمعية، صيغتْ في توجُّهات دينية وسياسية أو غيرهما. وكلما ضاق هامشُ الحّرية، واتسع نطاقُ السلطة الفردية أو الشمولية أو الاستبدادية، ازداد خضوعُ التاريخ (للأيديولوجيا)، وازداد انحرافه عن الموضوعية، ونَزَعَ إلى الجمود..»(٢).

ومعنى هذا أن عملية إعادة كتابة التاريخ - علميًا أو أدبيًا - عملية فكرية وفنية، تنشط أو تخفُتُ بناء على ظروف موضوعية، تتّسق وطبيعة العصر الذي تُعاد فيه كتابة التاريخ، في ضوء توجهات فكرية خاصة تتلاءم مع طبيعة المرحلة.

ونظرًا لأن النّصْفَ الأول من القرن العشرين، كان امتدادًا - من الناحية الفكرية - للقرن التاسع عشر، من زاوية البحث عن (هوية متفرِّدة) للأمة العربية، تربط ماضي الأمة بحاضرها، وتقرن مستقبلها بذلك الماضي، الذي حاولتْ الكتابات

...رية والفن

التاريخية والأدبية إحياءه وبعثه من جديد، ترجمةً لهذه العملية - عملية تثبيت معالم الهوية وتأصيل قيم الشخصية العربية المسلمة في مواجهة الآخر: العدو، الأجنبي، المسيحي، الوافد، الذي يريد قهر العباد واستعباد البلاد وطمس ملامح شخصية الأمة والقضاء على العروبة والإسلام في آن واحد -. في ظل هذه الاعتداءات الاستعمارية وما صحبها من أطماع مادية وحضارية، نشطت (الكتابة التاريخية)، لتقوم بدور كبير وخطير في الدفاع عن الحاضر المستباح بإحياء صورة الماضي المشرق، ليكون إحياءُ ملامح هذه الصورة الناصعة للتاريخ الإسلامي، وبعثُ قيم تلك الشخصية النبيلة للإنسان العربي، عاملين على تثبيت هوية الأمة، حتى لاتضيع ولا تتغيّر.. ولا تفنى. وهذه النظرة الشاملة للتاريخ والرؤية المؤمنة بتراث الأمة كانت تتطلع إلى تأكيد علاقة المستقبل بالماضي، وأنه - أيْ المستقبل - ينبغي أن يكون محاكاة للعصور الذهبية السابقة، وأن الأحفاد يجب أن يسيروا على خُطى الأجداد، حتى تشرق شمس العروبة - مرة أخرى - من جديد، وتعود للأمة العربية - في العصر الحديث - راياتُ المجد والتقدم والوحدة، التي كانت تظللها في القرون الإسلامية الثلاثة الأول.

وقد نشطتْ العناية بإعادة كتابة التاريخ من خلال (محاور ثلاثة) متباينة، هي:

أولاً: العناية بكتابة التاريخ باعتباره (علما) من العلوم الإنسانية التي يجب أن تخضع لمنهج علمي في البحث والتفسير، كما ينبغي أن تنتقل العناية فيه من الرواية - رواية الخبر والحادثة - إلى الدراية، أيْ إلى التمحيص والتدقيق في مضمون الخبر المروي وعلة وجود الحادثة المتواترة. ومعنى هذا أن يتحوّل التاريخ من علوم الرواية والنقل، ليصبح من علوم المنطق والعقل. ومن أهم المؤرخين الذين ظهروا في هذه الفترة: عبدالرحمن الرافعي، محمد شفيق غربال، حسن إبراهيم حسن، محمد صبري السربوني، محمد عبدالله عنان، محمد مصطفى زيادة، أحمد عزت عبدالكريم، محمد فؤاد شكري.. وغيرهم.



علي الجارم

ثانياً: ازدهار كتابة فن السيرة سواء أكانت تاريخية أم دينية أم أدبية. السيرة نوع أدبي يقف في منزلة وسطى بين الأدب والتاريخ، وقد شارك فيه كثير من أدباء المرحلة مثل: محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦م) الذي كتب عدة أعمال مثل: حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) - الصديق أبو بكر - الفاروق عمر (في جزأين) - عثمان بن عفان. وعباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤م) الذي كتب سلسلة من كتب السيرة سمّاها «العبقريات» عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر وعمر وخالد بن الوليد والمسيح وغيرهم. كذلك كتب طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) عدة أعمال من أهمها: على هامش السيرة - الشيخان - الفتنة الكبرى - الوعد الحق. كما أن هؤلاء الكتاب وغيرهم قد تجاوزوا السِّير التاريخية والدينية إلى كتابة السير الأدبية لبعض أعلام الأدب العربي القديم؛ حيث ترجم طه حسين لحياة أبي العلاء المعرّي والمتنبي وبعض شعراء العصر الجاهلي والإسلامي في الجزء الأول من حديث الأربعاء، وترجم العقاد لسيرة ابن الرومي وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس - الحسن بن هانئ - وغيرهم. كما كتب إبراهيم عبدالقادر المازني عن بشار بن برد، وكتب زكي مبارك عن العشاق الثلاثة: جميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة وقيس ليلى.

وهذا كله يشير - على سبيل المثال - إلى ازدهار كتابة السيرة التاريخية، والدينية، والأدبية، والشعبية أيضا عند كتاب آخرين بالإضافة إلى من ذكرناهم من الكتاب والأدباء.

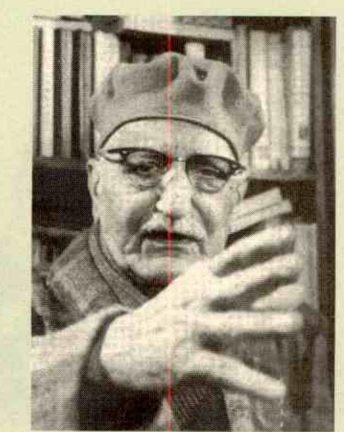
ثالثاً: ازدهار الرواية التاريخية بصورة لافتة:



إبراهيم عبد القادر المازني

بل إن ماكُتب فيها - في أثناء هذه المرحلة - يعدّ من حيث الكم أكبر بكثير من حصاد الرواية الاجتماعية، ومن حيث الكيف يكاد يصل إلى مستوى فني جيّد عند بعض الكتاب - أمثال نجيب محفوظ، ومحمد فريد أبوحديد، وعلي أحمد باكثير، ومحمد سعيد العريان - يقترب من مستوى نضج الروايات الاجتماعية التي كتبها - في هذه الفترة - توفيق الحكيم وإبراهيم المازني ومحمود تيمور.. وغيرهم.

وقد كان كتّابُ السِّير والروايات التاريخية على وعي بأهمية ما يكتبون، وبأن تقديم التاريخ من منظور أدبي أكثر تأثيرًا من تقديمه في قالب علمي، وإلى هذا المعنى يُشير جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤م) مؤسس الرواية التاريخية في الأدب العربي بقوله (سنة ١٩٠٢م): «وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستزادة منه، وخصوصًا لأننا نتوخّى جهدنا في أن يكون التاريخُ حاكمًا على الرواية، لا هيَ عليه، كما فعل بعض كتّاب الإفرنج، وفيهم من جعل غرضه الأوّل تأليفَ الرواية، وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة، فَجَرَّهُ ذلك إلى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يُضلُّ القراءَ. وأما نحن فالعمدةُ في روايتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فنبقي الحوادث التاريخية على حالها، وندمج فيها قصة غرامية، تشوّق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصحُ الاعتماد على مايجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ، مثل الاعتماد على أيّ كتاب من كُتب التاريخ من حيث الزمان والمكان



عباس محمود العقاد

محمود تيمور

والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسُّع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة، بل هو يزيد بيانا ووضوحاً بما يتخلله من وصف العادات والأخلاق»(٣).

وقد مال كثير من كتّاب الرواية التاريخية في هذه الفترة إلى ما نادى به جرجي زيدان من حيث المحافظة - إلى حد كبير - على أن تُسرد الأحداث التاريخية بصدق كما وردت في المصادر التاريخية القديمة، وأن تكون القصة العاطفية المتخيّلة والشخصيات المخترعة لمجرد (التشويق)، وللكاتب أن يتصرّف فيها كما يشاء، لأنه ليس لها تأثير كبير في مسيرة الأحداث التاريخية؛ ومن هنا تشابهتْ - إلى حد كبير.. كما سوف نشير - معظم هذه القصص العاطفية، التي تدور في فلك الشخصيات التاريخية، وصارتْ ذات شكل نمطي مكرر، يدور حول «الحب المثالي»، الذي ينتهي نهاية سعيدة بعد انتصار بطل الرواية على كل ما اعترض سبيله من صعاب ومخاطر، أو ينتهي نهاية حزينة.. إنْ قُتل أو مات أو عجز عن تحقيق الآمال، كما نجد في رواية «هاتف من الأندلس» لعلي الجارم، ورواية «وإسلاماه» لعلي أحمد باكثير، ورواية «على باب زويلة» لمحمد سعيد العريان.

اتجاهات الرواية التاريخية

الإشكالية (الثانية) المطروحة في مجال هذا البحث هي: إذا كان كتّاب الرواية التاريخية قاطبة، يلجؤون إلى (إحياء) مرحلة تاريخية، للتعبير عن وجهة نظر خاصة إزاء الواقع، الذي يعيشون فيه، فهل معنى ذلك أنهم يصدرون عن اتجاه فكري (إيديولوجي) واحد؟!

إذا كان الناس العاديون لايسيرون في اتجاه واحد، ولايفكرون بطريقة واحدة، فإننا نتوقع من الأدباء - من باب أولى - أن تكون رؤيتهم للحياة والفن متباينة إلى حد كبير، لأنهم بشرٌ لهم مكانتهم الاجتماعية ومفاهيمهم الفكرية، التي تحدد موقفهم الفني.

ومعنى ذلك أنه ليس شرطًا أن الأدباء في مرحلة تاريخية معيّنة، ينتمون إلى مدرسة أدبية واحدة، ويصدرون عن رؤية فكرية وفنية متقاربة.

وحين نتأمل (الخارطة) الأدبية للرواية التاريخية في النصف الأول من القرن العشرين، فسوف نكتشف أنها تؤكد صدق المقولة السابقة، ذلك أن الرواية التاريخية كانت تدور، من حيث الاستلهام الأدبي والاستيحاء القصصي، في مجاليْن يعكسان اتجاهيْن متمايزيْن من الاتجاهات الفنية.

الأول: مجال تستلهم فيه الرواية التاريخ الفرعوني. وقد كتب فيه كل من:

١- محمد عوض محمد: سنوحي (١٩٤٣م).

٢- نجيب محفوظ: عبث الأقدار (١٩٣٩م) - رادوبيس (١٩٤٣م) - كفاح طيبة (١٩٤٤م).

٣- عادل كامل: ملك من شعاع (١٩٤٥م).

٤- محمود تيمور: كليوباترة في خان الخليلي (١٩٤٥م).

الآخر: مجال تستلهم فيه الرواية التاريخ العربي الإسلامي. وقد كتب فيه كل من:

١- إبراهيم رمزي: باب القمر (١٩٣٦م).

٢- محمد فريد أبوحديد: ابنة المملوك (١٩٣٦م)، زنوبيا (١٩٤١م)، الوعاء المرمري (١٩٤١م)، المهلهل (١٩٤٤م)، الملك الضِّلِّيل (١٩٤٤م)، آلام جحا (١٩٤٦م)، أبوالفوارس عنترة (١٩٤٧م)، جحا في جانبولاد (١٩٤٨م).

٣- علي أحمد باكثير: سلاّمة القسّ (١٩٤٤م)، وإسلاماه (١٩٤٥م)، الثائر الأحمر (١٩٤٧م).

٤- طه حسين: على هامش السيرة (١٩٤١م)، أحلام شهرزاد (١٩٤٣م)، الوعد الحق (١٩٤٩م).

٥- محمد سعيد العريان: قطر الندى (١٩٤٥م)، شجرة الدر (١٩٤٧م)، على باب زويلة (٩٤٧م)، بنت قسطنطين (١٩٤٨م).

٦- عبدالحميد جودة السحار: أميرة قرطبة (١٩٤٨م)، محمد رسول الله والذين معه (٢٠ جزءا).

٧- علي الجارم: شاعر ملك (١٩٤٣م)، سيدة القصور (١٩٤٤م)، غادة رشيد (١٩٤٥م)، فارس بني حمدان (١٩٤٥م)، الشاعر الطموح، و خاتمة المطاف (١٩٤٧م)، مرح الوليد (١٩٤٨م)، هاتف من الأندلس (١٩٤٩م).

ويتضح من خلال هذا أن كتاب الرواية التاريخية كانوا يستوحون مجاليْن مختلفيْن من مجالات التاريخ؛ فهناك مجموعة آثرتْ أن تستوحي التاريخ المصري الفرعوني، ومجموعة أخرى حرصتْ على أن تستلهم التاريخ العربي الإسلامي. ويبدو أن أدباء كل مجال كانوا على وعْي شديد بما يفعلون، لذلك ظل كلّ منهم في مجال بعيْنه، لايكاد يبْرحُه. ومعنى هذا أن الاختلاف بين الفريقين من الكتاب، لم يكن اختلافا سهلاً أو بسيطا، وإنما هو - في حقيقته - اختلافٌ في الفكر و(الإيديولوجية) المحرّكة لكل منهما لإحياء التاريخ واستلهامه، ذلك أن هذه الفترة كانت تمثل مرحلة البحث عن (هوية) بالنسبة للشخصية المصرية. وقد ذهب بعض المفكرين والأدباء إلى أن مصر أصلها فرعوني، وأن حاضرها ومستقبلها ينبغي أن يرتبط بأوروبا، باعتبار مصر أيضًا واحدة من بلاد البحر المتوسط.

وهناك فريق آخر من الأدباء والمفكرين - كانوا أكثر عدداً وأعلى صوتًا - يروْن أن مصر جذورها عربية إسلامية، لذلك يجب أن يرتبط حاضرها ومستقبلها بالتاريخ العربي وبالتراث الإسلامي.

وقد اتسعتْ رقعةُ الخلاف بين الفريقين - الذين بالغ كل منهما في الحماسة والدعاية لما ذهب إليه - وكانت بينهما خصومة فكرية وأدبية

كبيرة، تحتاج إلى دراسة خاصة. والحقيقة أن الخصومة بين الفريقين، لم يكن ينبغي أن تتخذ هذا الشكل الخلافي، وتلك الخصومة الواضحة، لأن كون مصر فرعونية الأصل لاينفي ـ ألبتة ـ صلتها بالعروبة والإسلام، كما أن ارتباطها بالعروبة والإسلام، لايقطع علاقتها بالفرعونية، ولايمنع تأثرها ـ هي أو غيرها من البلاد العربية والإسلامية ـ بالحضارة الغربية. وهذا ما آلت إليه الأمور اليوم، فقد تصالحت كل الأجنحة.. ولم تعد هناك أمثال تلك الرؤية الأحادية والنظرة الضيقة لقضايا الفكر والفن والحياة كافة.

وننتهي إلى أن ازدهار الرواية التاريخية في النصف الأول من القرن العشرين، لم يَحُلْ دون أن يكون فيها اتجاهان مختلفان من حيث الرؤية (الإيديولوجية) والمدرسة الأدبية، ذلك أن كتاب التيَّار العربي كانوا أقرب إلى الرؤية الرومانسية في الموقف والأداة، بينما كان روائيو التيار الفرعوني أقرب إلى الرؤية الواقعية. وهذا التباين بين كتّاب المرحلة الواحدة أمر منطقي ومشروع طوال عصور التاريخ والفن.

بين الرؤية والتشكيل

إشكالية أخيرة في نطاق هذا البحث نود أن نجيب عنها، وهي قضية (العلاقة بين الفكر والفن) في العمل الأدبي، ذلك أن القضية الأساسية في الأدب لاتكمن في إطار الرؤية، أو الموقف، أو الهدف، الذي يتغيَّاه الأديبُ ـ مهما كان ذلك الهدف ساميا أو نبيلاً ـ؛ لأن الأدب أولاً وأخيراً تشكيل جمالي، يستعين (باللغة) على مستوياتها كافة في التركيب والدلالة والإيقاع. ونتيجة لهذا يُعرِّف «جاكبسُون» النصَّ الأدبي بأنه: «خطاب تغلّبتْ فيه الوظيفة الشعرية للكلام»(٤)، وهذا يعني أن «العمل الأدبي حين يُؤدي وظيفته تأدية ناجحة، فإن نغمتيْ الفائدة والمتعة، لايجوز أن تتعايشا فقط، بل يجب أن تندمجا»(٥).

وننتهي من هذا إلى أن العمل الأدبيّ ليس موضوعا بسيطا، وإنما هو بناء معقد، ونظام مركب، تتعدد فيه العناصر، وتتنوع فيه المستويات، وتتداخل العلاقات، سواء على مفاهيم المبادئ القديمة أو الحديثة في النقد، مثل تداخل العلاقة بين اللفظ والمعنى، أو بين الأسلوب والغرض، أو بين الشكل والمضمون، أو بين الأداة والموقف، أو بين الرؤية والتشكيل. وسواء اعتبرنا النصَّ الأدبي بنية مركبة، أو أسلوبا شعريا، فإننا لن نستطيع أن نُفلت من ضرورة التعامل معه على مستويين:

المستوى الأول: مايطرحه النص من أفكار ومعان وقيم إنسانية ورؤية خاصة لبعض قضايا الحياة وأزمات الواقع وأسرار الطبيعة وطلاسم الوجود.

المستوى الآخر: هو الكلام الذي يعبِّر به الأديب عما يحسّه ويعاني منه، لأن النص في حقيقة الأمر (خطاب)، يوصل (رسالة) من المبدع إلى المتلقي من طريق اللغة الفنية ذات الوظيفة الجمالية.

ومعنى هذا أن «مشكلتيْ اللغة والفكر شديدتا التداخل والتشابك. ولايُستطاع مناقشة إحداهما مناقشة مثمرة بمعزل عن الأخرى. ولكن اللغة والفكر ليسا شيئًا واحداً تماما. ومن الواجب أن نواجه السلوكيّين من علماء النفس بالحذر، لأنهم يقولون إن التفكير نوع من الحديث المهموس. ولكن مسألتي الفكر واللغة متميّزتان إلى حد ما»(٦).

ويترتب على هذا كله أن هناك فروقا حاسمة ـ في إطار النص الأدبي ـ بين الموقف والأداة، أو بين الرؤية والتشكيل.

بعد هذه المناقشة النقدية لمكونات العمل الأدبي، آن لنا أن نتوقف عند زاوية (التشكيل) في رواية «هاتف من الأندلس».

الرواية نوع أدبي نثري، يقدم تجربة إنسانية من خلال تصوير حياة بعض الشخصيات المأزومة. وهي «فن الشخصية»، أي هي ذلك النوع الأدبي الذي يقدر ـ ربما أكثر من غيره ـ على سبْر أغوار الشخصيات المصوَّرة، وتحليل دوافعها الداخلية، وحركتها الظاهرية، على نحو مقنع، يتّسق مع طبيعة مكونات الشخصية من حيث كونها خيِّرة أو شريرة.. إيجابية أو سلبية. ومن هنا فإن الرواية قادرة ـ فنيا ـ على أن تصور شريحة من الحياة، منسجمة في إطار الواقع الذي تتحرك فيه الشخصيات الروائية، سواء أكانت تتحرك ـ في الرواية ـ في عصر تاريخيّ قديم، أم في واقع اجتماعي حديث. ومعنى هذا ـ باختصار ـ أن بلاغة الرواية وجودتها ـ في تقديري ـ تكمن في قدرة صاحبها على (الإيهام) بأنه يصوِّر واقعا فنيا، يحاكي ـ بصدق ـ المجتمع الذي يستلهم الكاتب موضوعه الروائي منه. وهذا يعني أن الأحداث والشخصيات المتخيَّلة في الرواية، تُوهم بأن لها وجوداً حقيقيا في الحياة، لأن الروائي يستطيع أن يكشف لنا الحياة الداخلية للشخصية؛ بحيث يمكن أن تتجاوز دورها الفردي، لأن «مبدأ خلق الشخصيات في الأدب يقوم على مزج «النموذج» مع «الفرد»، لإظهار النموذج في الفرد، أو الفرد في النموذج»(٧).

بعد هذه المقدمة النظرية ـ لمحاولة فهم مصطلح (رواية ـ Novel).. وبيان المبدأ الجمالي الذي يميّزها، وهو تصوير شخصيات متفرِّدة.. مُقنعة.. ذات علاقة وثيقة بالواقع الزماني والمكاني الذي تدور حوله الأحداث ـ، سوف نتوقف عند بعض قضايا التشكيل الخاصة برواية «هاتف من الأندلس». وقد تصدق هذه القضايا على روايات أخرى للجارم.. وربما على بعض روايات أخرى لمعاصريه، بيد أننا لانميل إلى التعميم ولانقصد إليه، وإنما حسبنا أن نوجِّه هذه الملاحظات ـ مباشرة ـ إلى النص الذي نحلله.

(البقية في العدد القادم)

الهوامش:

(١) لمزيد من التفصيل حول الرواية التاريخية يُراجع: طه وادي: صورة المرأة في الرواية المعاصرة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م، ص١٥٣-١٥٦.

(٢) جلال شوقي: مقال بعنوان «قضية إعادة كتابة التاريخ»، مجلة العربي، الكويت، العدد ٤٠٦، أيلول/سبتمبر ١٩٩٢م.

(٣) جرجي زيدان: الحجاج بن يُوسف، مقدمة الرواية، ط. دار الهلال، القاهرة، ص٤.

(٤) عبدالسلام المسدّي: الأسلوبية والأسلوب، ط.الدار العربية، تونس ١٩٧٧م، ص٨٨.

(٥) رينيه ويلك، وأوستن وارين: نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية ١٩٨١م، ص٣١.

(٦) مصطفى ناصف: اللغة بين البلاغة والأسلوبية، النادي الأدبي بجدة، ١٩٨٩م، ص ٤٢٠.

(٧) نظرية الأدب: مرجع سابق، ص٣٣.

ولاة الأمور في القرآن الكريم

د. مأمون فريز جرار

حدثنا القرآن الكريم عن شخصيات بشرية عديدة..

فكان منهم الأنبياء، وأتباعهم من الصالحين المستقيمين على طريق الله. وكان منهم عتاة جبابرة، تمردوا على أمر الله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وممّن قص الله عز وجل علينا نبأهم ملوك ووزراء، أورثهم الله الأرض، وآتاهم الملك.. وإذا نحن تدبرنا في أحوال هؤلاء، وجدناهم صنفين:

أولهم: آمن وعرف أنه مستخلف فيما أوتي، وكان من هؤلاء الملوك أنبياء.

وثانيهم: صنف غرته الحياة ؛ فكفر بالله رب العالمين، وجحد نعمته. وماقص الله عز وجل علينا من شيء إلا لنتدبره، ونرى ما فيه من العبر والحكم، فلنقف على شخصيات ولاة الأمر في القرآن الكريم، ولننظر في صفات كل منهم، وملامح شخصيته.

حدثنا القرآن الكريم عن ملوك ووزراء من المؤمنين الصالحين، وهم: ذو القرنين، ويوسف، وداود، وسليمان وبلقيس - التي أسلمت بعد كفر -. وحدثنا عن ولاة أمر كافرين وهم: صاحب إبراهيم عليه السلام - الذي حاجَّهُ في ربه -، وفرعون، وهامان، وعزيز مصر، الذي لن نتحدث عنه لأنه لاتبرز في القرآن الكريم صورته باعتباره ولي أمر؛ بل باعتباره زوجًا أفلت زمام زوجته من يده.

الصالحون من الملوك والوزراء

ذو القرنين

إن الذي يهمنا من أمر ذي القرنين ماورد ذكره في القرآن الكريم بعيدًا من الأخبار التي لم تثبت سندًا، فذلك الذي في القرآن من صفاته هو المقصود لأخذ العبرة. ولذلك لايهمنا أن نسأل: من هو؟ أو ما اسمه؟ وأين كان؟ وفي أي عصر كان؟ فتلك أمور خارجة عن المراد الإلهي، وفي البحث عنها تكلّف لا فائدة ترجى منه.

لم يذكر لنا القرآن الكريم صفة ذي القرنين السياسية، وهل كان ملكًا أم لا! وإنما الذي ذكر أنه مكّن الله له في الأرض، وأمّده بأسباب القوة، وقد شرّق في الأرض وغرّب؛ مما يعني أن دولته امتدت على مساحات واسعة من هذه الأرض. فكيف كانت سيرة هذا الرجل الصالح في حكمه؟

قال الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قُل سأتلوا عليكم منه ذِكرا. إنَّا مكَّنَّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا. فأتبع سببا. حتى إذا بَلَغَ مَغربَ الشمسِ وَجَدَها تَغْرُبُ في عينٍ حَمِئَة ووجد عندها قومًا قُلنا ياذا القَرْنَين إمّا أن تُعذِّب وإما أن تَتَّخذَ فيهم حُسْنا. قال أمّا مَنْ ظَلَم فسوفَ نُعذِّبُهُ ثُمَّ يُردُّ إلى ربه فيعذِّبُهُ عَذَابًا نُكرا. وأمّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحًا فَلَهُ جَزَاءً الحسنَى وسنقولُ له مِنْ أمرنا يُسرا﴾ (الكهف: ٨٣ - ٨٨).

تفيدنا هذه الآيات أنه أقام شرع الله الذي تلقاه، ويدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿قلنا ياذا القرنين﴾.

فلم يكن منهجه الإفساد في الأرض؛ بل اتبع مايرضي الله عز وجل من الإحسان إلى المحسن، ومعاقبة المسيء، فهو إمام محسن عادل ملتزم شرعَ الله تعالى.

وإذا كان ذو القرنين لايظلم من تلقاء نفسه؛ فإنه ينصف المظلوم من الشعوب. فإن لم يكن قادرًا على قهر الظالم، جعل بينه وبين

المظلوم حاجزًا يحميه. وهذا ما كان من أمره مع القوم الذين كانوا بين السدّين: ﴿حتى إذَا بَلَغَ بين السَّدَّيْن وَجَدَ من دُونهمَا قَومًا لايكادُونَ يفقهونَ قولاً. قالوا ياذا القرنين إنَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفْسدُون في الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لك خَرْجًا على أن تجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًا. قال ما مَكَّنِّي فيه ربِّي خَيرٌ فأعِينُوني بِقُوَّة أَجْعَلْ بينكم وبينهم رَدْمًا﴾(الكهف:٩٣-٩٥).

إن مما يلفت النظر في صفات هذا الإمام العادل أنه يسعى إلى قطع الفساد في الأرض، ولم يكن من هَمِّه في الفتح استغلال الشعوب، أو جباية الأموال منها، بل كان داعيًا هاديًا.. فعندما عرض عليه القوم الذين بين السدين أن يجعلوا له مالاً لقاء بناء السدّ بينهم وبين يأجوج ومأجوج تعفف عن ذلك اكتفاءً بما آتاه الله، ولكننا نجد لديه خطة طيبة لاستثمار طاقة هذا الشعب الذي يعيش في حالة فطرية: ﴿لايكادون يفقهون قولاً﴾، وذلك بالاستعانة بقوتهم لا بمالهم: ﴿فأعينوني بقوّة﴾.

ويلفت النظر في صفاته أنه - وقد أنجز بناء السد على الصورة التي ذكرها القرآن الكريم - لايغتر بما تحقق على يديه؛ بل يرد الأمر إلى ربه الذي مكن له في الأرض وآتاه أسباب القوة، وبسط له في الرزق؛ فيقول: ﴿هذا رَحْمَةٌ مِنْ ربّي﴾(الكهف:٩٨). ثم هو مدرك لحقيقة الدنيا، ولو كانت سدًا من حديد ونحاس: ﴿فَإذَا جاءَ وَعدُ ربّي جعله دكَّاءَ وكَانَ وَعْدُ ربّي حَقًّا﴾(الكهف:٩٨).

إن ذا القرنين نموذج للفاتح الصالح المصلح الحامل للخير، المدافع عن حق الإنسان في الحياة الآمنة.. أو لم تكن تلك هي صورة الفاتحين المسلمين الهداة المهتدين الذين حملوا الخير لشعوب الأرض؟!

يوسف عليه السلام

إذا كانت تلك هي صورة ذي القرنين؛ فإننا مع يوسف عليه السلام نجد صورة أخرى. فإنه لم يكن ملكًا؛ بل أوتي شيئًا من الملك، وهو الولاية على خزائن الأرض، أو ما سمّاه القرآن الكريم في مواضع من قصته (العزيز).

ولم يكن يوسف فاتحًا أو قائدًا حربيًا كذي القرنين؛ بل كان مقيمًا في مصر، ارتفع شأنه من سجين مظلوم إلى رجل ممكَّنٍ له في الأرض يتبوأ من مصر حيث يشاء.

فكيف كانت سيرته في حكمه، وهل غيرته السلطة، أو غرّه ما أوتي من الحكم؟

لقد كان يوسف عليه السلام رجل سياسة ناجحًا، وقد نجحت سياسته المالية التي اختطها لمصر في سنوات المحنة الاقتصادية. ولايقص علينا القرآن الكريم تفصيلات من تلك السياسة؛ بل نرى صورة يوسف العزيز من خلال علاقته مع إخوته الذين أصابتهم وأهلهم تلك المحنة، فجاؤوا لينعموا بآثار السياسة الاقتصادية لعزيز مصر الذي لم يعرفوا من هو إلا بعد حين.

إن في شخصية يوسف العزيز أمورًا تلفت النظر. فإذا وجدناه لايسارع في الانتقام من إخوته وقد وقعوا تحت يده؛ بل يكيد لهم كيدًا خفيًا، فإننا نجده لايندفع في إحضار والده إليه ليخرجه من المحنة التي كان فيها بسبب فراقه له. فهل كان يوسف في ذلك ينفذ أمرًا إلهيًا، ليبلغ ابتلاء يعقوب مداه، أم كان ذلك من تلقاء نفسه أراد به أن يمهد السبيل إلى تحقيق الرؤيا التي ابتدأت بها محنته؟

على كلا الوجهين، تبرز لنا في شخصيته صفة الحلم والتأني في الوصول إلى المطلوب، فلا يسارع في الانتقام من إخوته، ولايندفع في رفع المحنة عن أبيه؛ بل نراه يسهم في دفع هذه المحنة إلى مداها بطلب شقيقه لينضم إليه: ﴿قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكُم ألا ترون أني أوفي الكيلَ وأنا خَيرُ المُنْزلين. فَإنْ لَم تَأْتُوني به فَلاَ كَيْلَ لكمْ عندي ولا تَقْرَبُون﴾(يوسف: ٥٩، ٦٠). فكيف استطاع يوسف أن يجمد مشاعر الانتقام؟ وكيف استطاع أن يعرف أخبار أبيه وشقيقه من إخوته من غير أن يكتشفوا حقيقة شخصيته؟

إنه الحلم والصبر اللذان تعلمهما في رحلته الطويلة من الجُبّ، إلى السجن، إلى القصر، عزيزًا لمصر!

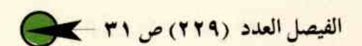
وإذا كان قدوم إخوة يوسف إليه واكتشافه لما هم عليه من حال هو الفصل الأول من «نهاية المحنة»، و«تحقيق الرؤيا»، فإن ورود شقيقه عليه هو «الفصل الثاني».

وفي الفصل الأول عرف يوسف إخوته وهم له منكرون، وفي الفصل الثاني كشف عن شخصيته لشقيقه، واستكتمه الخبر، ليتم أمر الله في حينه المقدر. وكان ماكان من أمر صُواع الملك، واتهام الإخوة بالسرقة، وبلوغهم مابلغوا من خوف العقوبة. ثم ما علموا من الحرج الجديد مع أبيهم باحتجاز أخيهم. كل ذلك يحدث ويوسف ينظر إليهم بصبر وأناة وحلم، ويرى تحقيق وعد الله عز وجل: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرهمْ هذا وهم لا يَشْعُرُونَ﴾(يوسف:١٥). فها هم أولاء يذكرون يوسف بسوء في حضرته: ﴿إنْ يَسْرِق فَقَدْ سَرَقَ أخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (يوسف:٧٧). ويأتي ردّ يوسف عليهم بما فيه شيء من شفاء ما في نفسه، ولكن مع كظم للغيظ: ﴿قال أنتُم شَرٌّ مكانًا واللهُ أعْلَمُ بِمَا تَصِفُون﴾(يوسف:٧٧).

ولايلين قلب يوسف لتوسلات إخوته وما سيصيب أباهم من أثر افتقاد ولده! فهل كان ذلك عقوبة يوقعها على إخوته جزاء ما اقترفت أيديهم بحقه؟ ولكنها عقوبة تصيب أباه.. كيف لا.. وقد فقد أحب أولاده إليه!

وتبلغ المحنة أقصاها حين عاد إخوته إليه في حال لايحسدون عليها..

لقد ذاقوا وبال أمرهم، وبلغ البلاء بأبيهم أقصى درجاته. وعند ذلك فقط يكشف لهم



عن نفسه، ويبرز التسامح بعد العتاب. لم يكن يوسف يريد انتقامًا؛ بل كان ما كان منه عقابًا لهم على ما فعلوا، فلما تحقق العتاب جاء الصفح، وصفت القلوب، وقال لهم بلسان القادر الذي يملك العفو: ﴿لاَتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وهو أرحَمُ الرَّاحمِينَ﴾ (يوسف:٩٢).

وها هو ذا يرى تحقيق رؤياه وقد خرّ أبواه وإخوته له ساجدين!

وإذا كانت أبرز ملامح شخصية يوسف العزيز: الصبر والأناة والحلم والعفو عند القدرة على الانتقام؛ فإن فيها أمرًا آخر هو إدراك حقيقة الدنيا وما يؤتى الإنسان فيها. فلم يغره المُلك، ولم تعلُ نفسه وهو يرى تحقيق رؤياه؛ بل نراه يدعو بهذا الدعاء الكريم، يناجي ربه : ﴿رَبِّ قَد آتَيتَني مِنَ المُلكِ وعَلَّمتَني مِنْ تَأويلِ الأَحَاديثِ فَاطِرَ السَّماواتِ والأرضِ أنتَ وَلِيِّي في الدنيا والآخرةِ تَوَفَّني مُسْلِمًا وأَلْحِقْني بالصَّالحينَ﴾(يوسف:١٠١).

فالاعتراف بفضل الله، وإدراك حقيقة الدنيا، وإيثار ما عند الله، هي الملامح التي تضاف إلى ما سبق من شخصية يوسف العزيز.

داود عليه السلام

لم يذكر لنا القرآن الكريم أخبارًا مفصلة عن داود. فهو يذكره وقد قتل جالوت: ﴿وآتَاهُ اللهُ المُلْكَ والحكمةَ﴾(البقرة:٢٥١)، ومع الملك عُدّته: ﴿ولقد آتينا داودَ منّا فضلاً ياجبَالُ أوِّبي مَعَهُ والطيرَ وألَنَّا له الحَديد. أن اعمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ واعملوا صالحاً إنّي بما تَعْمَلُونَ بَصِير﴾(سبأ:١٠-١١). فمع الملك ذكرُ الله المنعم؛ ذلك الذكر الذي تُردد صداه الجبال والطير.

هذا النبي الملك يذكر لنا القرآن الكريم عنه حادثة مغزاها أنه وقع في خطأ لم يُفَصّله، ولايعنينا تفصيله؛ وإنما يعنينا كيف يتصرف النبي الملك وقد تبين له أنه وقع في خطأ! هل يُصرُّ عليه، أم يخر راكعًا وينيب مستغفرًا؟ لقد خَرَّ راكعًا منيبًا، فغفر الله له وأوحى إليه وصيةً هي وصيةٌ لكل من آتاه الله الملك: ﴿ياداوُدُ إنّا جَعَلْنَاكَ خَليفةً في الأرض فاحكُمْ بينَ النَّاس بالحقِّ ولاتتَّبِع الهَوَى فَيُضلَّكَ عَن سبيلِ الله إنَّ الذين يَضلُّونَ عن سبيل الله لهم عذابٌ شَديدٌ بما نَسُوا يوم الحساب﴾(ص:٢٦).

إن صورة داود النبي الملك هي صورة المستَخْلَف في الأرض الذي يحكم بالحق ويُعرض عن الهوى. وتلك هي الصورة المطلوبة في الحاكم المتبع لشرع الله، الذي يسير في الناس سيرة العدل!

سليمان عليه السلام وملكة سبأ

ورث سليمان أباه داود، فكان مثله نبيًا ملكًا. وآتاه الله من الآلاء ما استدعى أن يخص آل داود بطلب الشكر: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاودَ شُكرًا﴾(سبأ:١٣).

سخر له من الطبيعة الريح تجري بأمره رُخَاء حيث أراد، وأجرى له عين النحاس كما ألان لأبيه الحديد من قبل. وسخر له الجن يعملون بأمره ما يشاء، يشيدون له عجائب البنيان، وينحتون التماثيل، ويبنون المحاريب، ويصنعون القدور وآنية الطعام، وآتاه في ذلك ملكًا لم يؤته أحدًا غيره. وعلمه منطق الطير والحيوان؛ فهو يفهم عن النملة قولها، ويخاطب الهدهد وغيره من الطيور، وكان لهذا النبي الملك جيش عجيب من الجند: ﴿وحُشِرَ لسُلَيمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجنِّ والإنْسِ والطيرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(النمل:١٧). فماذا كان موقف سليمان الملك وهو يرفل في هذه النعم ويرى من حوله هذه الجنود؟ ها نحن أولاء نسمعه هو وداود ينطقان بلسان الحمد: ﴿ولَقَد آتَيْنَا داود وسليمان علمًا وقالا الحمدُ لله الذي فَضَّلَنَا على كثيرٍ من عبادهِ المؤمنين﴾(النمل١٥).

ونرى سليمان، وقد فهم عن النملة مقالها، لايأخذه الغرور؛ بل ينيب إلى ربه وينطلق لسانه مترجمًا ما في قلبه فيقول: ﴿رَبِّ أوزعْني أنْ أشكُرَ نعمتَكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى وَالديَّ وأنْ أعْمَلَ صالحًا تَرْضاهُ وأدْخلْني برحمتكَ في عبادِكَ الصَّالحينَ﴾ (النمل:١٩).

ويقف سليمان النبي الملك أمام جندي من جنوده فإذا به يفوقه في بعض العلم، ذلك هو موقفه مع الهدهد. ويقف المرء طويلاً على قول الهدهد لسليمان الذي كان غاضبًا لغيابه من غير إذن: ﴿أحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بهِ﴾(النمل:٢٢). يقال هذا لسليمان مع ما آتاه الله من العلم وسخر له من المخلوقات. ذلك لأنه مع كل ما أوتي يظل بشرًا!

ونقف من خلال عيني الهدهد على صورة ملكة سبأ مع قومها وشأنها في ملكها قبل إسلامها مع سليمان لله رب العالمين. والذي يلوح من شخصية ملكة سبأ لجوؤها إلى الشورى في كل أمر، فلم تكن ملكة مستبدة: ﴿مَا كُنتُ قاطعةً أمرًا حتَّى تَشْهَدُونِ﴾(النمل:٣٢). إن أبرز ما يبدو لنا في شخصية هذه الملكة الحكمة التي تجلت في إرسال الهدية قبل اتخاذ القرار فيما تفعله!

ولما قررت ملكة سبأ أن تمضي إلى سليمان في ملكه، وكان سليمان قد علم خبر عرشها من الهدهد: ﴿ولها عرشٌ عظيم﴾(النمل:٢٣). فكان ما كان من إحضار ذلك العرش ليكون حضوره من اليمن مفتاحًا لقلبها، فتؤمن بالله رب العالمين! وتتجدد لنا صورة النبي الملك الشاكر وقد رأى نعم الله عليه تكتمل، ورأى عرش بلقيس بين يديه، فيقول: ﴿هذَا من فضلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أأشكُرُ أم أكفُرُ ومَن شَكَرَ فَإنَّما يَشكُرُ لنَفْسهِ ومَن كَفَرَ فإنَّ رَبِّي غَنيٌّ كَريمٌ﴾ (النمل:٤٠).

وهذا القول يذكرني بما سبق من سلفيه الكريمين: ذي القرنين ويوسف، ليكونوا نماذج خيرة لكل من يؤتيه الله الملك، ويغدق عليه

العطاء، فيعرف حق الله، ولا تغره الحياة؛ بل يقرّ لربّه بالفضل، ويبادر إليه بالشكر.

وتكتمل الصورة بملكة سبأ التي رأت من نعم الله على سليمان ما أيقنت معه أنه نبي ملك، لا ملك فحسب، وها هو ذا يدعو إلى التوحيد، فتستجيب له بعد أن تزول الغشاوة عن عينيها، فينطلق لسانها قائلة: ﴿ربِّ إنِّي ظَلَمتُ نَفْسِي وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيمانَ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾(النمل:٤٤).

الطغاة من أولي الأمر

كم مرّ على هذه البشرية من الطغاة والمتجبرين في الأرض؟! وكم ظهر في الناس من مُستعلٍ ومستكبر؛ يسفك الدماء، ويمتهن كرامة الإنسان، ولايقيم إلاّ لهواه وزنًا؟!

من بين هؤلاء المستكبرين، ذكر القرآن الكريم اثنين، هما: الملك الذي حاجّ إبراهيم في ربه، وفرعون..

فأما صاحب إبراهيم فهو مَلِك ألقى الله إليه مقاليد الرعية في بلاد لم يحددها القرآن الكريم، ولم يذكر لنا اسمه ولا لقبه؛ لأن ذلك ليس من مقاصد ذكر خبره. إنما الذي يبرزه القرآن الكريم هو الموقف الذي وقفه هذا الملك بادِّعاء الربوبية الكاذبة. ولعل الذين فعلوا ذلك عبر الزمان قليل. فهناك من ادّعى الربوبية في صورة غير مباشرة بتحليل الحرام وتحريم الحلال. ولكن الذين أعلنوا ذلك على الملأ وزعموا أنهم أرباب يقومون بما يقوم به رب العالمين ـ سبحانه ـ فذلك النادر في تاريخ البشرية.

صاحب إبراهيم

آية واحدة في سورة البقرة أعطتنا مشهد حوار بين إبراهيم عليه السلام وذلك الملك المغرور الذي بدأ الحوار مدّعيًا، ثم لم يلبث أن صار مبهوتًا؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ بما آتاه الله من الحكمة ـ انتقل في حواره معه من أمر مارى فيه إلى أمر لايستطيع فيه جدالاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الّذي حَاجَّ إبراهيمَ في ربِّه أنْ آتاهُ اللهُ المُلكَ إذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الّذي يُحيِي ويُميتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وأُميتُ قالَ إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس منَ المَشرِق فَأْت بها منَ المَغْرب فَبُهتَ الذي كفَر واللهُ لايَهْدي القومَ الظَّالمينَ﴾(البقرة:٢٥٨).

إنه موقف واحد في مشهد واحد، نطل من خلاله على هذا الملك المستكبر ثم يختفي. وهذا المشهد يكشف لنا منهج هذا الملك في ملكه: منهج الاستعلاء والضلال المبين. ولعل الهدف من إيراده هو بيان وجود هذا النموذج في التاريخ الإنساني. ولكننا نجد الأمر أكثر وضوحًا وسوءًا في شخصية أخرى، هي شخصية فرعون!.

فرعون

إذا كان أمر صاحب إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد قُضي في آية واحدة؛ فإن أمر فرعون أشدّ وأطغى، ذلك أنه اجتمع في شخصيته ما تفرق في غيره من الطغاة، فكأنه كان نموذجًا شديد الشناعة لمن يؤتيه الله الملك.. وقد ترددت أصداء قصته في سور شتى من القرآن الكريم، مختصرة حينًا، ومفصلة حينا آخر، ومقترنه مع قصة موسى وبني إسرائيل في أكثر الأحايين.

إن أول ما يبرز لنا في شخصية فرعون: الطغيان. وقد وُصف بها في القرآن الكريم ثلاث مرات في صيغة واحدة:﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾(طه:٢٤، وانظر: طه:٤٣، والنازعات:١٧)، ولهذا الطغيان علامات ظهرت في كلام فرعون وفي سيرته مع الرعية..

فأما طغيان القول فيتمثل في هذه الدعوى العريضة التي نطق بها. ولايدري المرء هل كان صاحيًا أم أنه كان مخمورًا، وهو يقول لقومه الذين جمعهم ليقول لهم بعد أن جاءه موسى بالبينات: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤). والعَجَبُ لاينقضي من وصف فرعون نفسه بأنه الرب الأعلى! فأي علوّ وهو بينهم، قريب منهم، يعرفون أباه وأمه، وله زوجة كما لهم زوجات. يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون؟ فكيف يكون ربًا لهم؟ بل كيف يقول: ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾؟

أتراه وقف على شرفة قصره، ورأى الجنان من تحته، وفروعا من نهر النيل تجري خلالها، فأصابته الكبرياء بمرض، ورفعه الغرور إلى مبلغ أن ينطق الشيطان على لسانه، فيلبّس على قومه، ويصدقوا مقالته، ويطيعوه فيما هو فيه، وكأنه هو الذي أجرى الأنهار، وأنشأ الجنائن: ﴿ونادى فرعونُ في قَومه قَال يَاقَومِ أَلَيسَ لِي مُلكُ مصْرَ وهـذه الأَنهارُ تجري من تحتي أَفَلا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيرٌ منْ هذا الذي هو مَهِينٌ ولاَ يكادُ يُبين. فَلَولاَ أُلقيَ عَلَيه أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَب أَوْ جَاءَ معهُ الملائكةُ مُقْتَرنينَ. فاستَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إنهمْ كانُوا قَومًا فاسقين﴾ (الزخرف:٥١ـ٥٤).

ولم يكتف فرعون بادعاء الربوبية؛ بل هبط درجة أدنى في درك الضلال بادّعاء الألوهية، وطلب من قومه حقوق هذا الادعاء، وجعل من نفسه سدًا بينهم وبين إبصار الحقيقة، وتربص بمن يؤمن منهم بموسى وما جاء به كلَّ سوء. فهو يعلن في الملأ ذلك: ﴿وقَال فرعَون يا أَيُّها المَلأُ ما علمتُ لَكُمْ منْ إله غَيري فَأَوقدْ لي ياهَامَانُ على الطِّين فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلع إلى إله مُوسى وإنِّي لأظُنُّهُ مِنَ الكاذِبينَ﴾ (القصص : ٣٨).

ولايدري المرء أكان سامعوه مصدقيه في دعواه، أم كان بعضهم ينظر إلى بعض والعجب يملأ نفوسهم، ولكن يحول بينهم وبين قول الحقيقة ما هم فيه من شراك الدنيا، وما أغرقهم فيه من متع الحياة..

وتلوح لنا في ظلال شخصية فرعون، الطاغية الأكبر، شخصية وزير السوء هامان،

الذي كان له عونًا في حربه لموسى وقومه، وفي إيقاع الأذى بهم، فقد طلب منه فرعون أن يوقد له على الطين ويجعل له صرحًا عاليًا لينظر إلى إله موسى، وجاء الطلب مرة أخرى ليبين أن المقصود هو الوصول بهذا الصرح إلى السماوات!

وقد اقترن اسم هذا الوزير باسم فرعون في أكثر من موضع ليقدم النموذج السّيئ للوزير الذي يكون عونًا للحاكم على الطغيان، ويجري في هواه، من غير أن يبصره بعواقب الأمور.

لقد طغى فرعون فادعى الربوبية والألوهية ولم يكتف بذلك؛ بل وقف في وجه كل من أراد الإيمان بدءًا من موسى عليه السلام الذي قال له: ﴿لئن اتَّخذْتَ إلهًا غيري لأجْعَلَنَّكَ منَ المسجُونينَ﴾(الشعراء:٢٩). ثم يشتد موقفه حين ينكشف سحر السحرة وينقلبون من حزبه إلى حزب الإيمان فينطلق بهذا الوعيد الهادر: ﴿آمنتُمْ له قبل أن آذَنَ لكُمْ إنَّه لكَبيرُكُمُ الذي عَلَّمكُم السِّحْرَ فلأقَطِّعَنَّ أيْديكم وأرْجُلكُم منْ خلاف ولأصَلِّبَنكمْ في جذوع النخل ولتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشَدُّ عَذابًا وأبْقَى﴾(طه:٧١، وانظر: الأعراف: ١٢٣-١٢٥، والشعراء:٤٩).

لقد اجتمع في فرعون من الصفات ما جعله إمامًا للضلال؛ ففيه الطغيان وادّعاء الربوبية والألوهية والفسق في الظلم، فماذا نتوقع منه؟ أيكون غريبًا عليه أن يستضعف بني إسرائيل فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم؟

وإن من أعجب أموره على ضلاله أن يدّعي الهدى والرشاد، وأن يصف نبي الله الكريم بكل نقيصة. ففي ذلك الجدال الذي دار بين مؤمن آل فرعون من جهة، وفرعون وملئه من جهة أخرى نجده يقول: ﴿إني أخافُ أن يبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفَسادَ﴾(غافر:٢٦).

ويقول: ﴿مَا أُريكُم إلا مَا أرَى وَمَا أهْديكُمْ إلا سَبيل الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩). ويلجأ فرعون في دعواه إلى تسفيه أمر موسى والرد على ما جاءه به من الآيات بأن يقول: ﴿هذا سِحْرٌ مُبينٌ﴾ (النمل:١٣).

ويقول للسحرة بعد إسلامهم متهمًا إياهم بالتواطؤ مع موسى: ﴿إنه لَكَبيرُكُمُ الّذي عَلّمَكُمُ السِّحرَ﴾(طه: ٧١، الشعراء: ٤٩). ولا يكتفي بوصف موسى بكبير السحرة؛ بل يصفه مرة أخرى بأنه مسحور: ﴿إنّي لأظُنُّكَ ياموسى مَسْحُورا﴾(الإسراء:١٠١)، ويصفه بالكذب: ﴿وإنّي لأظُنُّهُ منَ الكَاذبينَ﴾(القصص:٣٨)، ويصفه بالجنون: ﴿إنّ رسُولَكُمُ الّذي أُرْسِلَ إليكُمْ لَمَجنُونٌ﴾ (الشعراء:٢٧).

ولم يكن هذا كله في مجلسه مع حاشيته؛ بل كان حملة إعلامية امتدت آثارها في أرجاء مملكته. فبعد أن انكشف أمر السحرة وخروا ساجدين لله رب العالمين، خشي أن يكون لإيمانهم آثار في الشعب الذي استخفه فأطاعه: ﴿فأرسَلَ فرعونُ في المدائن حاشرين. إنّ هؤلاء لَشرْذمَةٌ قَليلُونَ. وإنَّهُمْ لَنَا لَغَائظون. وإنّا لَجَميعٌ حاذِرُونَ﴾(الشعراء:٥٣-٥٦).

لقد طمست قلوب فرعون ومن شايعه.. وعميت أبصارهم عن إدراك نور النبوة، وآيات الرسالة، وقد قامت الحجة عليهم؛ لا بآية واحدة؛ بل بآيات متتابعات، كلّما ذهبت واحدة تلتها الأخرى: ﴿ومانُريهِمْ من آية إلا هيَ أكبَرُ منْ أُخْتها﴾(الزخرف:٤٨).

ومع ذلك كله لم يؤمنوا، ولم يرفعوا العذاب عن بني إسرائيل. لقد كانوا يعطون الوعد بالإيمان إن رُفع عنهم بعض ما أصابهم من عذاب تلك الآيات فإذا رُفع عادوا إلى كفرهم وعنادهم: ﴿ولَقَدْ أخَذْنَا آلَ فرعونَ بالسِّنين ونَقْص منَ الثمرات لَعَلّهُم يَذّكّرُونَ. فإذا جَاءَتْهُمُ الحَسَنةُ قالوا لَنَا هذه وإنْ تُصبْهُم سَيِّئةٌ يَطَّيروا بموسى ومن مَعَهُ ألا إنّما طَائرُهُم عند الله ولَكنّ أكثرَهُمْ لايَعْلَمونَ. وقالوا مَهْمَا تأتنا به من آية لتَسْحَرَنَا بها فما نحن لَكَ بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفادعَ والدَّمَ آيات مُفصَّلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين. ولما وقع عليهم الرِّجز قالوا ياموسى ادْعُ لنا ربَّك بما عهد عندك لئن كشفتَ عنّا الرِّجز لنؤمننّ لَكَ ولَنُرْسلَنَّ معك بني إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرِّجز إلى أجلٍ هُم بالغوه إذا هُمْ ينكثون﴾(الأعراف: ١٣٠-١٣٥).

فهل بقي لفرعون وقومه بعد هذا من حجة؟

ونقف على مشهد فرعون في لحظات الغرق، وقد دهمه البحر هو وجنده، فتعرّى من كل شيء، وطارت من رأسه كل دعوى بالألوهية والربوبية. ها هو يشهق شهقات الموت، وأمواج البحر تتقاذفه، ويضيع في التطام الأمواج ذلك الاعتراف بالله الذي لا إله إلا هو: ﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾(يونس:٩٠).

فهل نفعه هذا، الإيمان الاضطراري.. ويأتي الجواب الإلهي عن ذلك: ﴿آلآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين. فاليوم نُنَجِّيكَ ببَدنكَ لتكون لمَنْ خَلْفَكَ آيةً وإنّ كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾(يونس:٩١-٩٢).

وانطوت صفحة حياة فرعون.. ولكن بقي! بقي ذكره في كتاب الله الكريم ليكون نموذجًا للطغيان العاتي. قد تتكرر صورته أو بعض صفاته في بعض الطغاة عبر الزمن، ولكن مصيره هو مصير من سار على دربه من الذين يستكبرون عن عبادة ربهم، ويدّعون ما ليس لهم بحق من صفات الألوهية والربوبية.

مع الموسوي المكي في رحلته (٧)

نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس

«٧»



حلقات يكتبها :
الشيخ حمد الجاسر

وأرى السير في أثر هذا الرحالة قد طال، وماذالك إلا لأنه أورد لمحات تتعلق بتاريخ بلادنا وأدبها وجغرافيتها، هي على اختصارها وإيجازها قد تُمِدُّ الباحثين في هذه الموضوعات بما هم في حاجة إليه.

وصف بلدة الطائف

لقد وقف بنا أو وقفنا معه في رحلته عام أربعين ومئة وألف في الحديث عن بلدة «الهَدَة» التي سار منها في الثامن من شوال من السنة المذكورة فبلغ مدينة الطائف. قال(١): «وردنا أرض الطائف المحفوفة باللطائف، والطائف أكبر مدن الحجاز(٢)، وأهلها كانوا سابقًا في ثروة من الغنى والمال، ويُجلب منها إلى مكة الفواكه النفيسة، وغير ذلك من الحَبِّ والشعير والسمن والعسل، واللوز وغيره. وبالطائف أخلاط كثيرة من العرب والهنود، وهي منازل ثقيف وبها مياه عذبة، وفواكه مختلفة، وثمار شتَّى، وبها ديار بني سعد التي [الذين] يُضرب بهم المثل في الكثرة، وبها أقوام من قريش وهُذيل وثُمَالة، وبني محمد وناصرة وبَجيلة، وليس في الحجاز أطْرَى من الطائف، ولاأصَحُّ من هوائها ومائها، وهي في الحقيقة (دِمْيَاط الحجاز)، ويجلب منها الجلود الطائفية، وغير ذلك من الأصناف، وهي على طرف وادٍ وبينها وبين مكة أربعة منازل، وهي طيبة الهواء جدًا والماء والفواكه».

ونقل عن "القاموس": «الطائف بلادُ ثقيف في واد، أول قراها "لُقَيْم"(٣) وآخرها «الوهط»(٤). سُميت بالطائف لأنها طافت على الماء في الطوفان، أو لأن جبريل عليه السلام طاف بها على البيت، أو لأنها كانت بالشام فنقلها الله تعالى إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه السلام، أو لأن رجلاً من الصَّدَف (قبيلة حضرمية) أصاب دمًا بحضرموت، ففر إلى «وجٍّ» وحالف مسعود بن مُعَتِّب، وكان له مال عظيم فقال: هل لكم أن أبني طوفًا عليكم يكون لكم رِدْءًا من العرب؟ فقالوا: نَعَم، فبناه، وهو الحائط المطيف به». ثم أورد عن ابن فهد والأزرقي والقسطلاّني في "المواهب اللّدُنِّيَّة" أخبارا تتعلق بما ذكر صاحب "القاموس" من تعليل اسم الطائف، ولكن

الذي تميل إليه النفس - مع الاعتقاد بسعة فضل الله وعظيم قدرته - هو القول الأخير، وتجد تفصيلا لقصة سكنى ثقيف الطائف في مقدمة كتاب "معجم مااستعجم"(٥) من أقدم النصوص وأوفاها.

وتطرق صاحب الرحلة بعد ذلك إلى الكلام على حُرْمَة وادي "وَجّ" عند الشافعية، وأورد النصوص في ذلك، واسترسل في ذكر ماقد يفيد بعض الباحثين في تاريخ هذه المدينة الكريمة(٦). وقد ألف في تاريخ الطائف مؤلفات مشهورة.

أما قوله عن بني سعد الذين عَدَّهُمْ من سكان الطائف وهو يقصد سَعْدَ هَوازن؛ إذ قال: «وبها ديار بني سعد الذين يضرب بهم المثل في الكثرة»، فهو يشير إلى المثل المعروف: «في كل أرض بنو سعد». فهذا المثل ينطبق على بني سعد بن زيد مناة بن تميم، لا على سعد هوازن، وله خبر أشار إليه الميداني في "مجمع الأمثال"(٧) ملخصه: «أن الأضبط بن قُريع منهم رأى من أهله وقومه أموراً كرهها ففارقهم، فرأى من غيرهم مثل مارأى منهم فقال: في كل أرض سعد بن زيد».

ومما نقل الموسوي في كلامه على الطائف: «وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدَّت العرب، وثبتت ثقيف على دينها، وأول من ارتدَّ منهم قتلوه، وقالوا: ما دخلنا آخر الناس إلا لما تبيَّن لنا من الحق، فمن ارتدَّ منا قتلناه، فكانت بنو سليم تُعَيَّر بثقيف، ويقال لهم: لارأي إلاَّ لثقيف، تثبَّتوا أولاً في أمرهم، فلما تحققوا الإسلام دخلوا فيه آخراً، وتثبتوا عند موته صلى الله عليه وسلم، فمن ارتدَّ منهم قتلوه احتسابا لله ومعجزة لدعوته صلى الله عليه وسلم».

ونزل الموسوي بدار السيد باز بن الشريف شُبَير بن مبارك بن فضل بن مسعود - وشُبير تقدمت ترجمته (٨) - ضيفًا عنده، وعاد إلى الحديث عن الموشَّح الحُمَيني، وقال: «هذا النوع يسمى الشبشرة، والاسم يظهر من فوق ومن تحت، وهو هذا»، ثم أورد قصيدة مطلعها:

سلبْتَ عقلي ياغزال «رامهْ»

ياسَمْهرِيَّ القوامْ

ثم أورد قصيدة، قال في أولها:

رفقًا بمن أمسى حَلِيفَ السهر

هَايم مُعنَّى فيك ياأصفر

«ونُظمَتْ بأمره» يقصد مضيفه السيد باز، قال عن هذا المشجر الحُمَيني، والاسم يظهر من الأوائل، ومن أوائل الأواخر من تحت.

وتحدث عن أسرة مضيفه، وعَمَّن اجتمع بهم في مدينة الطائف، وذكر منهم العالم الشيخ باقر بن المُلاَّ حسين الجوهري، وأنه توفي في الطائف عام ثلاث وأربعين ومئة وألف، وصهره الحكيم الشيخ حسين، والشيخ حسين بن أحمد العطار، وزين العابدين حميدان، والشيخ محمد العجيمي، والشيخ عبدالرحمن النخلي، وحاكم الطائف علي أغا بن عسكر أغا اليافعي، وبعدد من آل العرابي. وأورد ترجمتين لعبدالله بن العباس، ولمحمد بن الحنفية رضي الله عنهما بمناسبة ضريحيهما.

ولم يفته التوسع في الحديث عن آثار الطائف من قبور ومساجد، وأشار إلى أن العَدَّاس الوارد خبره في "السيرة النبوية"(٩) مسجده في جبل يعرف بجبل «أبي زبيدة» يقال له «أبو الأخيلة»، ووصف إقامته في بلدة الطائف بأنها بأهنأ حالة، وفي راحة وجمالة.

واستطرد في ذكر بعض التراجم من دون مناسبة، وبإيراد لطائف أدبية، وفوائد نحوية وتاريخية، ووصف حَجَّه برفقة الشريف باز بن شُبير، وأقاربه، وجمع كثير من أهل الطائف، وعودته من مكة في ثامن عشر محرم الحرام عام واحد وأربعين ومئة وألف إلى الطائف من طريق «اليمانية»(١٠)، فوصف مروره «البرود» وهي أرض قفراء، وبها بئر، ماؤها عذب لطيف جداً، ومنها ذكر «الزَّيْماء» [الزيمة] واصفًا إياها بأنها أرض لطيفة، أنيسة شريفة، للشريفة عنبرة ابنة ملك مكة المعظمة الشريف سعيد بن سعد(١١)، بها الأشجار الفائحة، والمياه السائحة، وبها الموز والليمون الحلو، والحامض، والنارنج والأترج، وهي في غاية الشراحة جداً.

ونال من «عُتيبة» حين ذكر «السَّيْل»(١٢)، وهو وادٍ عظيم يسكنون أطرافه.

ومر بـ «القُدَيْرة»(١٣) قائلاً: «ثم رحلنا فأتينا «القديرة»، وهي بلاد عظيمة أغلبها للوالد المرحوم مبارك بن شربي، وهي أرض يعجز عن وصفها الواصفون، بها المياه العذبة، والأشجار والفواكه المختلفة، والأطيار والأزهار والشموس والأقمار».

وذكر دخوله الطائف ونزوله دار الشريف أحمد بن حازم وإقامته من سادس المحرم إلى رابع ربيع الأول، ثم عودته إلى مكة وإقامته بها إلى العيد.

وفي شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومئة وألف توجه إلى المدينة، وفي بلدة «بدر» ذهب منه ماكان معه من الدراهم، فاحتاج إلى السفر إلى «ينبع» قاصداً الشريف عبدالمعين بن مبارك الهِجَارِيَّ الحسني، وهو أمير بلدة «ينبع»، وفيها وزير من طرف شريف مكة، وقد مدح هذا الشريف واستجداه، وأقام عنده

فأكرمه بالإعزاز والإنعام، وسماه في موضع آخر «يحيى»، ويبدو أنه لم يك مرتاحا من أهل «ينبع»؛ فقد ذكر أنها مدينة صغيرة، وهي بندر المكاسب، وبها دور وحواصل وحوانيت وسرحات، وأهلها معْيَانُون، وفيهم البخل الزائد حتى قال فيهم القائل(١٤):

ياأهل ينبع أنتم

«...» من في البريه

لاضيف يُقرى ومَعْ ذا

لكم عيون قويه(١٥).

وقد أساء إلى أهل هذه البلدة الطيبة، فقد مكَثتُ فيها زمنًا، رأيت من حُسن أخلاق أهلها، ومن كرمهم، وفضلهم ما ألهجني بذكرهم، فألَّفتُ أول كتاب ألفته عن تلك البلدة الكريمة(١٦). ولكن كما قيل: «ومازالت الأشرافُ تُهجى وتُمْدَحُ».

وينبغي أن يلاحظ أن اسم «ينبع» قديمًا يطلق على مايعرف الآن باسم «ينبع النخل»، أما «ينبع» الميناء فَقَلَّ أن يَرِدَ لها ذكر، إلاَّ في كتب أصحاب الرحلات في العصور الأخيرة. و«ينبع النخل» كانت ذا تاريخ حافل، وإليها كانت إحدى غزوات المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهي غزوة «العُشَيْرة»(١٧)، وفيها اقتنى علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وبنوه وأحفاده وخلفهم عيونا معروفة، إذ كانت تلك البلاد مشهورة بالعيون إلى زمننا الحاضر.

وقد ذكر الرحالة الموسوي «ينبع النخل» هذه قائلاً(١٨): «ينبع النخل على سبع مراحل من المدينة المنورة، وهي تحت جبل «رَضْوَى» وبها شعاب وأودية، ونخيل كثيرة ومياه غزيرة، وثمار وأشجار». ثم نال من أهلها بوصفهم بالبخل والشر، وما أرى هذا إلاَّ من تأثير من عاصر من الحكام الذين كانوا يرون أهل البادية بتلك الصفة، وإلا فأهلها من خيار العرب، من قبيلتي جُهينة القضاعية، وحَرْب الخولانية، وعرفوا بصفات النبل والكرم والوفاء، وقد تحدثت بتوسع عن بلاد «ينبع» وعما كان فيها من عمران قديم، وعن قراها، وبعض أخبارها في كتاب "بلاد ينبع".

عاد الرحالة الموسوي المكي من «ينبع» مارًا بالمدينة، ومنها سار إلى «الطائف» مع رجل وصفه بـ«الجَلَبي»(١٩)، وسماه «جعفر بن محمد حُمَيْدان» ويظهر أنه من ولاة الأتراك كما يدل على ذلك اللقب الذي أسبغه على أحد أقاربه زين العابدين بن مصطفى حميدان، وقد ذكر في رحلته هذه «الواسطة» في «الطائف» قائلاً: و«الواسطة» بستان للجناب العزيز، رئيس الزمان الشيخ سليمان بن أحمد العرابي، وسُمِّيَ هذا البستان، بـ «الواسطة» لأنه بين أرض المَثْنَاة والسلامة(٢٠)، وأرخ قيلولته فيه، هو وصحبه الذين سَمَّاهم، بأبيات هي من النظم، ولكن يحسن إثباتها، فقد تجد لدى المعنيين بتاريخ «الطائف» مكانة فيما يكتبون عنه. قال: «وأرخته بقولي:

صاحِ شاهِدْ مقعد العزِّ الذي

قد حَوَى الأفراح حقًا والتصابي

وَسْط بستان أنيس زاهر

كامل الأوصاف من غير تغابي

وبه الأشجار قد شبَّهْتُهَا

غادةً ماسَتْ بألوان الثياب

وطيور السعد تَشْدُو فوقها

بالزَّهاوي والحُسيني والحَرابي

وعيون الخَيْر تجري تحتها

والهنا حفَّ بها من كل باب

كيف لا؟ وَهْيَ لمن حاز العلى

وتَردَّى بالتُّقى عالي الجناب

ولسان الحال قد أرَّخهُ

بيت شعر فاق لطفا ياصِحَابي

مَجْلس الأُنس وقد آسَّسَه

كِيمياءُ الجود سليمان العرابي»(٢١).

الحواشي:

١- ج٢ص٣٨٥.
٢- أي بعد مكة والمدينة.
٣- من أشهر قرى الطائف، والاسم يطلق على واد فيه سكان. ويقال: إن القمح اللُّقيمي المشهور في نجد بكبر الحب منسوب إلى هذه البلاد.
٤- هو أعلى وادي «وج» وله شهرة تاريخية قديمة، وكان فيه مال لعمرو بن العاص رضي الله عنه ولذريته.
٥- ص٦٤.
٦- انظر عن تواريخ الطائف: مجلة "العرب"، س٢، ص١ ومابعدها.
٧- ج ٢ ص ٤٥٩، ط. عيسى البابي الحلبي.
٨- الحلقة الرابعة.
٩- عندما زار النبي صلى الله عليه وسلم الطائف يدعو أهله للإسلام. انظر "السيرة النبوية" لابن هشام، ج٢ ص٤٢١، طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
١٠- ج٢ ص٤٠٨.
١١- هو الشريف سعيد بن سعد بن محسن بن الحسين بن أبي نُمَيّ، تولى إمارة مكة مَرَّاتٍ آخرها من سنة ١١١٣ إلى سنة ١١١٦.
١٢- هو المعروف قديما باسم «قرن المنازل» ويعرف الآن باسم «السيل الكبير».
١٣- القُديرة الآن قرية تبعد من الطائف نحو عشرة أكيال موصوفة بطيب الهواء لاتزال معروفة.
١٤- ج٢ ص٤١١.
١٥- هذان البيتان فيما يبدو في «ينبع النخل» فهي البلدة الكثيرة العيون، أما قول الموسوي بأن أهل ينبع «معيانون» فلعله يريد أنهم يصيبون بأعينهم. والشاعر لم يرد وصف البلدة بالعيون الجارية ولكنه أراد هجاء أهلها بقوة عيونهم المبصرة.
١٦- هو كتاب «بلاد ينبع: لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة»، وهو مطبوع.
١٧- قرية كانت في أسفل ينبع النخل، وقد درست الآن.
١٨- ج٢ ص٤١٢.
١٩- من ألقاب التشريف التي تضيفها الدولة التركية إلى بعض الوجهاء.
٢٠- كانتا منفصلتين عن مدينة الطائف، وقد شملهما عمرانها الآن.
٢١- والبيت الأخير سجل فيه التاريخ بحساب «الجُمَّل» وهو المعروف بحساب «أبجد» إلى آخر حروف الهجاء، وهو على حسب ماوضع: مجلس=١٣٣، الأنس=١٤٢، وقد=١١٠، أسسه=١٢٦، كيميا=٨١، الجود=٤٤، سليمان=١٩١، العرابي=٣١٤، ومجموعها=١١٤٢، فكأن في هذا التاريخ زيادة سنة، وهو مما يُتساهل فيه عندهم.



ومن الشعر ما قتل!

د. محمود جبر الربداوي

المنهج الذي اتخذته «قصة قصيدة» يقوم على تقديم قصيدة أو أبيات منها، ذات قصة، يُتوخى أن تكون طريفة، كما يُتوخى في القصيدة ألا تكون مألوفة مكرورة في الكتب التي في متناول أيدي الناس، وألا تكون حافلة بالألفاظ الغريبة والصور البعيدة والأسلوب المعقد؛ وإنما تقصد إلى سهولة في أسلوبها، وسهولة في أسلوب عرضها، لتلاقي قبولاً في نفوس القراء مهما تفاوتت مستوياتهم الثقافية والفكرية، وعلى هذا المنهج دَرَجَتْ الحلقات السابقة.

غير أنه ورد على المجلة سؤال من القارئ الكريم نبيل محمد عبدالولي من محافظة إبْ في الجمهورية اليمنية يسأل معدَّ هذا الباب عن قصةَ بيت المتنبي الذي يقول فيه:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والضرب والطعن والقرطاس والقَلَمُ

وهل كان - كما يتداول الناس قصة البيت - سببًا في قتل المتنبي؟

فما صحة هذا الزعم، وما القصة الحقيقية لمقتل هذا الشاعر العظيم؟!

جوابًا عن هذا التساؤل أحببت أن أخصص حلقة هذا الشهر عن هذا البيت والقصيدة التي ورد فيها، وعن علاقته بمقتل المتنبي، مع أن هذا البيت ينتمي لقصيدة لها قصة أخرى لاعلاقة لها مباشرة بمقتل المتنبي.

اخترت هذه الأبيات من قصيدة نظمها المتنبي في عتاب سيف الدولة، وقوامها ٣٨ بيتًا، تخيرت منها هذه الأبيات؛ لا لكي أقول إنها أبيات موضوعها العتاب، ولا لكي أدلّ على معاني الحكمة التي حفلتْ بها هذه الأبيات، فالمعروف أن خير شاعرٍ نطق بالحكمة هو المتنبي، وقد شعر هو بقدرته على صياغة الفكرة الحكيمة ببيت من الشعر أو بشطر بيت؛ فقد روى عنه النقّاد أنه قال: «أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري»(١). ولكنني أوردتُ هذه الأبيات ليلحظ معي القارئ الكريم معاني الصَّلَف والاعتداد بالنفس التي كان يتفوّه بها الشاعر، فقد كان فيه تعالٍ وشموخ وتضخيم للذات وتعاظم بشخصيته، الشيء الذي لم نره عند شاعر سواه؛ ففي الرجل مركّب للعظمة أو شهوةٌ للاعتداد بالذات، والطموح إلى بلوغ القمة، وهذا ما يفسر ادعاءه النبوة في شبابه - إذا صحت المقولة -

وَاحَـرَّ قلبـاهُ ممن قلبُـه شَبِمُ ... ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام، وأنت الخصم والحَكَمُ

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظُّلم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعَتْ كلماتي من به صَمَمُ

أنام مِلءَ جفوني عن شواردها ... ويسهر الخَلْق جَرّاها ويختصِمُ

سيعلم الجمعُ ممن ضمَّ مجلسنا ... بأنني خير من تسعى به قَدَمُ

وجاهلٍ مدّهُ في جهله ضحكي ... حتى أتته يدٌ فرّاسةٌ وفمُ

إذا نظرت نيوب الليث بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أن الليث مبتسم

ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلين به ... حتى ضربتُ وموجُ الموت ملتطم

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والضرب والطعن والقرطاس والقلم

صحبتُ في الفلوات الوحشَ منفرداً ... حتى تعجّب مني القُور والأكَمُ

يا من يعزُّ علينا أنْ نفارقَهم ... وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عَدَمُ

كم تطلبون لنا عيبًا فيُعجزكُم ... ويكره اللّه ما تأتون والكَرَمُ

ما أبعدَ العيب والنقصانَ عن شرفي ... أنا الثريّا وذانِ الشَّيبُ والهَرمُ

إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قَدَروا ... أن لا تفارقَهم فالراحلون هُمُ

شرُّ البلاد بلادٌ لا صديقَ بها ... وشرُّ ما يكسبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

بأيّ لفظٍ تقول الشعر زِعْنِفَةٌ ... تجوز عندك لا عُربٌ ولا عَجَمُ

هذا عتابك، إلا أنه مِقَةٌ ... قد ضُمِّن الدرَّ إلا أنه كَلِمُ

ولُهاثه وراء المناصب، واحتقاره لعامة الناس، وترفعه عن مخاطبة الكثيرين منهم، وهذا التعالي هو الذي كثّر حاسديه حوله، وخاصة من رفاق حرفة الأدب والشعراء، وبالأخص من أولئك الذين كانوا يعيشون معه في بلاط سيف الدولة.

وقد أفلح خصومه في الغض من قدره في بعض المناسبات، ولكنّ ذلك لم يطامن من كبريائه وصَلَفه، فظل يشمخ بنفسه حتى في المواطن التي تأبى الشموخ والصلف، وخير مثال على ذلك هذه القصيدة التي يُفترض أنها في العتاب؛ والعتاب يقتضي من المعاتب أن يُظهرَ لين الجانب، والتودد لمن يعاتبه ولحاشيته التي حوله، غير أن المتنبي أصرّ على الاعتداد بشخصه وبشعره اعتداداً مقيتا حمل الآخرين من خصومه على التفكير في قتله، فقَبْل أن يقتله بيته: «فالخيل والليل...» في معركته مع بني ضبّة، قتله ـ أو كاد ـ ثلاث مرات في معركته مع خصومه في بلاط سيف الدولة. يروي لنا بعض شُراح ديوانه أن سبب إنشاده قصيدته هذه: «وَاحرّ قلباه...» أنه نظمها واضطُر أن ينشدها سيف الدولة «في محفل من العرب والعجم، وفيها من الإدلال والفخر بنفسه والتعريض بشانئيه مازاد حفيظتهم عليه، حتى قال أحدهم لسيف الدولة: اتركني أسعَ في دمه، ثم أرصدوا له رجلاً ليغتالوه، ولكنه نجا منهم بشجاعته، فاستعانوا بأبي العشائر، فأرسل عشرة من غلمانه، وقفوا بباب سيف الدولة وأرسلوا لأبي الطيب على لسان سيف الدولة ليحضر، لعلهم يظفرون به، ولكنه نجا أيضًا»(٢)، ويؤكد البديعي أن المتنبي لما أنشد سيف الدولة قصيدته «واحر قلباه» ولم يكتف بعتابه، بل عرّض بخصومه فيها «همّ جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة، لشدة إدلالة وإعراض سيف الدولة عنه.»(٣). وكانت خاتمة المطاف ما كان بينه وبين ابن خالويه الذي بلغ به الحقد على المتنبي إثر مناظرة لغوية «أن أخرج من كُمّه مفتاحًا حديديًا ليلكم المتنبي، فقال له المتنبي: اسكت ويحك فإنك أعجمي، وأصلك خوزيّ، فما لك وللعربية؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه، فغضب المتنبي من ذلك، إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلاً، فكان أحد أسباب فراقه سيف الدولة»(٤).

إنني عندما أقرر هذه الحقائق عن المتنبي وأستوحيها من الأخبار المتصلة بسلوكه وطباعة لايعني هذا أنني أكرهه، معاذ الله؛ فالرجل عندي يحتل منزلة الشاعر الأول في تاريخ الشعر العربي كله، فأفكاره التي يُبدعها عقله، وصياغته المحكمة التي يسكب فيها هذه الأفكار المتميزة قلما يملك مثلهما شاعر آخر في عصره أو في غير عصره، ولكنّ الحديث عن الفكرة الإبداعية والصياغة الفنية شيء، والحديث عن الطباع والسلوك والغرائز شيء آخر.

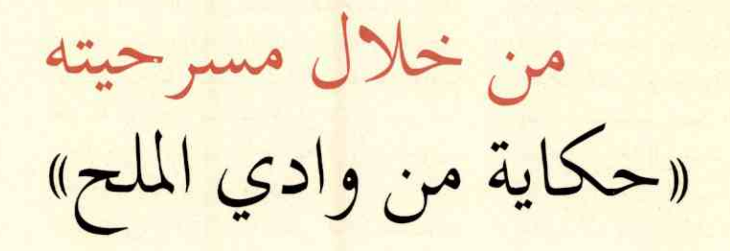
ولنَعُد إلي الإجابة عن صميم السؤال، وهل كان سبب قتله بيته «فالخيل والليل...» الذي يحمل قدْرًا كبيرًا من شُحنة كبريائه؟ وكيلا أظلمه أحب أن أنقل قصة مقتله كما رواها صديقه الذي (زَامَنَ) تلك القصة، وكان قد استضافه قبل مقتله بساعات قلائل. واسم صديقه أبو نصر محمد الجَبُلي ـ وأبو نصر هذا واحد من وجوه الناس، وله فضل وأدب جزل، وحرمة وجاه ـ قال: وأما شرح الخبر فإن (فاتكًا) صديق لي، وهو كما سُمي فاتك لسفكه الدماء، وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال، فلما سمع الشعر الذي هُجي به (ضَبّة) اشتد غضبه، واتصل به انصراف المتنبي من بلاد فارس وتوجهه إلى العراق، وعلم أن اجتيازه بجبل (دير العاقول) فلم يكن ينزل عن فرسه، ومعه جماعة من بني عمه، رأيهم في المتنبي مثل رأيه من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد، وكان فاتك خائفًا أن يفوته، وكان كثيراً ما ينزل عندي، فقلت له يومًا وقد جاءني وهو يسائل قومًا مجتازين عن المتنبي: قد أكثرت المسألة عن هذا الرجل، فأي شيء تريد منه إذا لقيته؟ فقال: ما أريد إلا الجميل، وعذله على هجاء ضبة، فقلتُ له: هذا لايليق بأخلاقك، فتضاحك ثم قال: يا أبا نصر، والله لئن اكتحلتْ عيني به أو جمعتني وإياه بقعة لأسفكن دمه، ولأمحقنّ حياته، إلا أن يُحال بيني وبينه، قلت له: كفّ ـ عافاك الله ـ عن هذا القول، وارجع إلى الله، وأزل هذا الرأي عن قلبك، فإن الرجل شهير الاسم، بعيد الصيت، ولايحسن منك قتله على شعر قاله، وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية، والخلفاء في الإسلام، فما سمعنا بشاعر قُتل بهجائه، ولم يبلغ من جُرمه ما يوجب قتلهَ، فقال: يفعل الله ما يشاء، وانصرف. ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافاني المتنبي، ومعه بغالٌ موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة، والآلات؛ لأنه كان إذا سافر لم يخلّف في منزله درهمًا ولا شيئًا يساويه، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره؛ لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحًا. قال أبو نصر: فتلقيتُه، وأنزلته داري، وسألته عن أخباره وعمن لقيه، فعرّفني من ذلك ما سُررت به له، فلما أمسينا قلت له: يا أبا الطيب على أي شيء أنت مجمع؟ قال: علي أن أتخذ الليل مركبا، فإن السير فيه يخفّ عليّ، قلت: هذا هو الصواب رجاء أن يخفيه الليل، ولا يصبح إلا وقد قطع بلدًا بعيدًا، وقلت له: والرأي أن يكون معك من رجالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعةٌ يمشون بين يديك إلى بغداد، فقطّب وجهه وقال: لمَ قلت هذا القول؟ فقلت: لتستأنس بهم، فقالَ: والجراز في عنقي فما بي حاجة إلى مؤنس غيره [الجراز: السيف القاطع]. قلت: الأمر كما تقول، والرأي في الذي أشرتُ به عليك، فقال: تلويحك يُنبي عن تعريض، وتعريضك عن تصريح، فعرّفني الأمر، وبيّن لي الخطب، قلت: إن هذا الجاهل فاتكًا الأسدي كان عندي منذ ثلاثة أيام، وهو غير راضٍ عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبه، وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ، ومعه أيضًا نحو العشرين من بني عمه، فقال غلام أبي الطيب، وكان عاقلاً: الصواب ما رآه أبو نصر، فاغتاظ أبو الطيب من غُلامه غيظًا شديدًا، وقال: والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأني سرت في خفارة أحد غير سيفي، قال أبو نصر: فقلت: ياهذا أنا أوجه قومًا من قبلي في حاجة يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك، فقال: والله لافعلت شيئًا من هذا، ثم ركب، فكان آخر العهد به، ولما صحّ عندي خبر قتله وجهتُ من دفنه ودفن ابنه وغلمانه، وذهبت دماؤهم هدرًا»(٥)، وهناك غير هذه الرواية، ولكن هذه أصحها. يقول الناس: ومن الحب ما قتل، ونقول: ومن الشعر ما قتل!

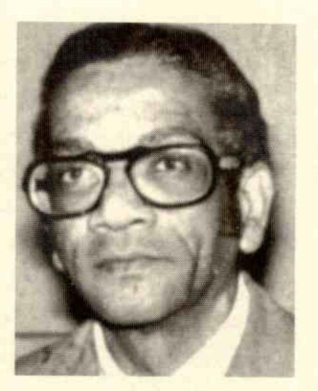
الهوامش:

(١) المثل السائر لابن الأثير ٢٢٨/١.
(٢) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي للبديعي، حاشية ص٨٨.
(٣) الصبح المنبي ص٨٩.
(٤) الصبح المنبي ص٨٧.
(٥) الصبح المنبي ص١٧٠ فما بعد.

دراسة في شعر






محمد مهران السيد

د. محمد عبدالمنعم خاطر

ثلاثة دوافع ـ فيما أرى ـ كانت وراء اختيار الشاعر لشكوى الفلاح الفصيح في عمله الدرامي «حكاية من وادي الملح».

أولها: ثقته في شاعريته، وقدرته على تركيب الأحداث، وتنميتها، وتفاعلها، ودفع المشاهد إليها، والوصول بها إلى غايتها، في عمل فني محكم، وأسلوب درامي أخاذ.

لأن هذه الحكاية في أصلها التاريخي لاتعدو أن تكون مقدمة قصصية «لفلاح من وادي الملح» كان يعيش في الألف الثالث قبل الميلاد، في عهد الملك «خيتي ـ نيكاو رع» آخر ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة الهيراقوبولسية ٢٠٨٠ ـ ٢٠٦٠ ق.م(١).

هذا الفلاح أراد أن يبيع محصول أرضه في مصر، وكان محملا على حمير له، وفي الطريق اعترضه المسمى «بجيحوتي» وكيل أملاك الوزير «رنسي» سيد المنطقة، ونازعه، وضربه، واغتصب حمولته وحميره، فتوسل إليه هذا الفلاح ليرد ما اغتصبه بشكاية بهرته وأعجبته، لدرجة أنه حرص على عرضها على جلالة مولاه «خيتي ـ نيكاو رع»، ورأى هذا الأخير ألا يبت «رنسي» في أمر هذا الفلاح حتى يكرر شكواه لتكون مصدر خطب بليغة يحتذيها الأدباء، ويعتني بها الأدب، وهذا ماكان؛ إذ ألقى هذا الفلاح تسع خطب رائعة في موضوع هذه الشكوى!!

فهذه الخطب التسع، وهذه المقدمة، لاتصلح بمواصفاتها تلك أن تكون عملا دراميا رغم تناولها لسلسة من الأفكار السامية عن العدالة، وحقوق الإنسان، ورغم ماقاله عنها الأستاذ «برستد» في كتابه «فجر الضمير»: وهذا المشهد يعد من أقدم الأمثلة التي تدل على المهارة الشرقية في تصوير المبادئ المعنوية في شكل مواقف ملموسة، وهي التي صُورت بشكل مدهش في أقوال عيسى عليه السلام(٢)، وماقاله عنها سليم حسن بأنها جديرة بأن توضع جنبا إلى جنب مع أية قطعة من هذا النوع وردت في التوراة(٣)؛ لأن هذا شيء، والعمل الدرامي شيء آخر.

وثانيها: قدرته على التقاط الحدث، وإسقاطه على العصر الذي نعيش فيه، وفي هذا تتجلى براعته، التي سجلت دون وعي أمثال شكايات أحفاد هذا الفلاح من المعاصرين ـ فيما يسمى بالعرائض ـ للمسؤولين، وولاة الأمور، من أمثال قولهم: أنت ياملجأ العدالة، وحامي الحق، أنت يامن تقضي على الظلم، إلى آخره(٤)؛ إذ لولا هذه القدرة على التقاط هذا الحدث، لما حدث التجاوب بين هذه الشكايات الخطابية ـ التي خلق منها الشاعر دراما شائقة ـ وجمهور المشاهدين في المسرح.

يقول الفلاح في إحدى صرخاته من تحت شرفات قصر «رنسي»:

أنت عماد الأرض
شاقول المثقال
فلماذا تتذبذب وتميل
أو تتردد؟
حقي المهضوم، بظلمة ليلك مصباح
فلماذا تغلق قلبك دونه

ألأني فلاح؟
فلاح من آلاف الفلاحين
لانملك مايدنينا من أعتاب السادة؟

ويقول مستمرا في صراخه:

فلماذا توصد أبوابك
يختار لك الحاجب زوارك؟
يفتح أذنيك.. لأصحاب الأرض.. وللتجار
والشرطي
والمالك للماشية المعدودة بالآلاف
أما شكوى أمثالي
فتصب الطين الأسود في أذنيك
وتقيم جدارا من أحجار البغض المسود
قل لي ...
ياصاحب... صاحب أهناسيا
وسليل المجد
هل فسد الحال إلى هذا الحد؟(٥).

يقول هذا فنحس أننا نستمع لصرخات فلاح معاصر من تحت شرفات أحد المسؤولين، أو الإقطاعيين الكبار.

وثالثها: فهمه لطبيعة العمل المسرحي، فهو كما يقول: لايُعنَى بالتقاط نص أو حادثة بعينها، ثم تحويل هذا أو تلك إلى حوار أو شعر منظوم، لايغفل عن التفاصيل، ولايسقط من حسابه شيئا!!، ولكنه انطلاقا من النص يجب أن يقول هذا المسرح كلمة من خلال موقف اجتماعي، ونظرة معاصرة، ويحمل قدرا من نكهة العصر الذي نعيشه، وأيضا استقراء مابين سطور الحدث القديم، وخلق إطار موضوعي له، وافتراض ماكان واقعا في ذلك الزمان، وبذلك يكتسب العمل أبعادا جديدة، ويؤدي وظيفته المطلوبة منه(٦).

وانطلاقا من هذا الفهم والتقدير نتناول التقنية الفنية لـ"حكاية من وادي الملح".

ونبدؤها بالراوي.

فالراوي يأتي منفلتا من أكفان الكتان، يحكي لجمهور المشاهدين في المسرح عن حدث من أحداث زمانه، بعد أن سئم الصمت، وعافت نفسه زم الشفتين مع أنه راوٍ مهنته أن يتكلم، يرصد حركة أيامه، ويسجل تاريخ الإنسان.

والجمهور يعي تماما أنه أمام راوٍ منسرب من أعماق التاريخ. وهذا الوعي بين الراوي وجمهوره يهيئ للاندماج وسط ظلام المسرح الشامل، وموسيقى الوتر البطيئة الإيقاع، ونقطة الضوء التي تسقط من أعلى لتبحث عن شيء في أرجاء المسرح، حتى تقع على ذات الراوي، الذي يأخذ في تمرير القوس على أوتاره، ويحكي ويقول:

في يوم من ذات الأيام
من آلاف الأعوام
والعالم أحراش وكهوف.. وجماعات همجية
إلا في هذا الوادي
كان الإزميل يشق الصخر، ويصنع مدنيه
والقلم يخط الحكمة في برديه
وقعت حادثة.. غربيّ النيل
في مسقط رأسي.. أهناسيا
المعروف الآن.. بإقليم الفيوم
كنت.. الشاهد والراوي
سلب اللص المستتر وراء المنصب
كد مواطننا المتعب
حتى انتصر الحق(٧).

وبذا يشد الجمهور المحتشد في صالة المسرح إلى متابعة الحدث، بجعلهم يعيشون فيه، وينتقل بهم إلى أحداث الفصل الأول، وإلى هذا الزمن المتوغل في أعماق التاريخ، وإلى أبطال التاريخ، الذين سئموا الصمت كذلك، وعملوا كما عمل أحفادهم الذين هم في صالة المسرح وردهاته على تداخل الزمن، وتخلخله، وانسراب أحداثه إلى الحاضر، وانسراب هذا الحاضر إلى الماضي، في تلاؤم محكم، وتلاحم بديع.

"الوقت ضحى"

وهذه بدعة الإخراج على خشبة المسرح، الذي يلفه الظلام الشامل.

يخرج فلاحان من المعبد، يتحدثان همسا، ويرتفع صوتهما عندما يصلان إلى الجانب الآخر من المسرح:

بنت: لكن... كيف؟!
أفلم يركبه الخوف!!
بتاح: نفرو.. يحكي عما سمعه
في كل نواحي الضيعة
فهو يقول...
قصة أخنوم على كل لسان
والناس فريقان
مامن أحد.. إلا وله رأي فيما يجري(٨).

وهذه نقلة طبيعية إلى مسرح الأحداث التي أجملها الراوي في حكايته، ووضعها أمام المشاهد ليعايشها ويندمج فيها، ويتابع تفاصيلها بحرارة وشغف.

لقد تلاشت فواصل الزمان، وانداحت موجاته، ولم يبق إلا الراوي والأحداث!!

ويبلغ الاندماج غايته قرب نهاية المسرحية، والجمهور يتابع الحوار مع الراوي، وكأنهم أصبحوا جزءًا منه، وطرفا فيه:

أصوات: مرحى.. مرحى
نفرو أقبل
باللثوب الملكي
الأطفال: نفرو جاء
نفرو جاء
سيقص علينا الأنباء
نفرو: لاياسادة
أنتم عشتم كل الأحداث
كنتم جزءًا منها بالسلب أو الإيجاب
فيكم مَنْ زَمَّر
لوزير الفرعون، وفيكم من هتف ليحيا الفلاح
وتفرقتم شيعا أو أحزابا
فإذن أنتم هذا التاريخ المحفور على الجدران

المكتوب على صفحات البردي

«ثم متجها إلى الصالة»:

لكني سأخصُّها لضيوف الليلة

هذي النخبة من أبناء نهايات القرن العشرين

من قرؤوها في كتب التاريخ محرفة.. شوهاء

شخص من جمهور المسرح:

نحن شهودك يانفرو

آخر من المسرح: **لا ياعم**

فأنا أخشى غضب الآلهة وفرعون ووزيره

ورجال وزيره

تلك الحلقات المتصلة.. حتى أضأل خفراء القرية

نفرو: أعرفكم فردا فردا

عانيت الصامد والمترنح

القوال بلا طحْن.. والفعال

أما هذا الجِيل المتربع فوق كراسي الصالة

لم أتشرف بعد بما في نفسه

شخص من الصالة:

إذن فنحن أيها الراوي مطالبون بالكلام

نفرو: نعم

فكلنا شهود

وكل مايدور حولنا

يستوجب الكلام(٩).

ومع أهمية دور الراوي - فيما نرى - في عملية الاندماج والإيهام ونقل المشاهد إلى مسرح الأحداث، فإن الناقد الراحل د. «علي شلش» في تقديمه للمسرحية يوجه نقدا مهما لهذا الدور حيث يقول: إن الشاعر بدأ مسرحيته براوٍ قدمه أو «برولوج» على الطريقة الإغريقية، وبدأنا معه في الاستجابة لدور الراوي، وهو دور غير منكور القيمة في الدراما، لأنه يؤدي إلى تصعيد الحدث وتطوره؛ إما بالمشاركة فيه أو بالتعليق عليه، ولكننا لانلبث طويلا مع الراوي، فسرعان مايختفي لتبدأ فصول المسرحية الثلاثة من دونه إلا من بعض التعليقات السريعة غير الضرورية كالتي في الفصل الثاني، حتى يظهر أخيرا في الفصل الثالث ليصحبنا في رحلة التعقيب، واستخلاص العبر مما رأينا وقرأنا. ومعنى هذا من الناحية الفنية أن الراوي هنا لم يقم بدوره كما ينبغي، فقد كان من الممكن أن يستمر ظهوره على طول المسرحية بالمشاركة أو التعليق، وإن كان التعليق وحده أصوب، وكان من الممكن أيضا أن يتناسب دوره مع دور الأحداث، ولكن شيئا من هذا لم يحدث بما فيه الكفاية، مما أدى في النهاية إلى شيء من عدم الاتساق في دور الراوي، ورسم شخصيته(١٠).

ونرى أن المراوحة بين الراوي والمشاهد المسرحية لم تكن معوقا لرصد الحدث وتتبعه، أو التعليق عليه، وليس هذا مخالفا لما كان عليه الحال قديما؛ ففي عهد أرسطو كانت أجزاء عرض المأساة، هي:

١- المدخل Prologes وهو مايسبق دخول الجوقة، ويقوم به فرد - الراوي - أو يكون على شكل حوار، وفيه يبين موضوع المأساة، والموقف الذي منه تبدأ. وهذا ماحدث في «حكاية من وادي الملح".

٢- الدخيلة Epeisodon، وهي المناظر أو الفصول التي يشترك فيها ممثل أو أكثر مع الجوقة (الكورس) ويمكن أن تتضمن الدخيلة أشعارا غنائية عارضة.

٣- المَخْرَج Exodos وهو المنظر الأخير الذي لاتعقبه أناشيد الجوقة(١١).

وهذه السمات الثلاث تكاد تكون متطابقة مع حكاية «من وادي الملح» باستثناء الجوقة بالطبع.

وهذا التطابق بدوره يسلمنا إلى بناء المسرحية الذي يكاد يكون متوازيا هو الآخر.

ففي الفصل الأول من المسرحية مناقشة في أمر فلاحٍ من عامة الشعب.

وفي الفصل الثاني حكاية الفلاح ينقلها الراوي إلى عامة الشعب.

وفي الفصل الثالث: المشهدان الرابع والخامس، تعقيب الراوي على الأحداث.

وبين كل ذلك صرخات «أخنوم» إلى «جيحوتي» وإلى «رنسي» وزير الفرعون، ثم المحاكمة، وكلها تكاد تكون متوازية، إلا إذا استثنينا المشهد الثاني من الفصل الثالث الذي يتحاور فيه بيبي وشاب مجهول في «مدنيت» عن سبب المصائب التي لحقت بالفلاح، وأقران الفلاح، ويرجعها إلى الفقر!! فهذا المشهد ليس له ارتباط عضوي بالأحداث، وإنما هو تمثيل لوجهة نظر الشاعر وآرائه بعيدا من الالتحام بالعصب الرئيس للموضوع، ومن الممكن أن يحذف دون أن يضر بالحدث الدرامي؛ بل إن وجوده ربما كان عائقا في نمو الحدث وتطوره.

د. علي شلش

ومع وجود هذا العيب فإن شخصيات المسرحية حية متحركة، وهي وإن كانت ذات بعد واحد كما يرى الناقد علي شلش(١٢)؛ إلا أننا نتلمس للشاعر العذر؛ لأنها كلها شخصيات هامشية تتناول الحدث أو تعلق عليه.

ولقد نجح الشاعر في عرض وجهات النظر المتعددة بعرض أنماط من الناس تمثل وجهات النظر المختلفة، وتابع بصدق الأحاسيس والانفعالات، وأحاديث الفراغ في هذا الزمن البعيد. وحسبك أنه رسم

شخصيتَي «بنت وبتاح» المحافظتين، في مقابل شخصيتَي «بيبي وتوت» الثائرتين من خلال حوارهما العنيف حول موقف «أخنوم»، والذي انتهى بطبعه إلى تخليق شخصية ثالثة موفِّقة «بكسر الفاء» هي شخصية «تنن».

يقول بتاح في تعليق على ماحدث:

يااللأم المسكينة (يقصد أم أخنوم)
سد الزمن الغادر باب الكوخ عليها فجأة
كسر القِدْرَ وطوّح بالمصباح
بيبي: هذا شيء يعتصر القلب
«يصمت برهة»
لكن...
فلنتحدث فيما يجدي
ماالعمل الآن؟
هل نجلس مثل جرار الماء على رأس الجسر
نستحلب هذا الخبز المر؟!!
بنت: بل نعطيها مايشبع جوع الطفلة والطفل
نحرث أو نسقي معها الحقل
نعقد فوق لياليها الباردة الأطراف
سقفا من حب الجار لجاره
ندفع عنها للجابي والصراف
بيبي: هذا شيء طيب
لكن ما موقفنا من أخنوم
هذا الإنسان المتألم.. من قرية وادي الملح؟
بتاح: «في استنكار خفيّ»
ماذا نفعل يابيبي؟
لست غريبا حتى تسأل!!
هل نبعث جيشا... ينقذ أخنوم من الأسر؟!(١٣).

كما نجح على المستوى الطبقي في رسم الشخصيات الحاكمة ذات العقول المتغطرسة الصلدة من أمثال «جيحوتي، وأوتي، وتاتا، وياي» الذين يفتنّون في إخضاع الشعب وإذلاله بأساليب ملتوية تجوز على البسطاء.

يقول «تاتا» أحد أعضاء مجلس شورى الإقليم:

لسنا عطلا من ومضات الفكر الثاقب
أو إحكام التدبير
بل نحن أخيرا فرسان الحلبة والمضمار
يعرفنا الناس.. بوجهينا اللين.. والجامد
نلبس ألف قناع في اليوم الواحد
ولنا ماشئنا، لا ماشاءت هذي الغوغاء
«يصمت لحظة»
ولنا في ذلك باع
وتَمَرّسْنا حتى صرنا خبراء(١٤).

وهكذا حتى تجوز إدانة الفلاح باسم القانون، ومجلس شورى الإقليم.

ولم يكن نجاحه أقل وهو يصور حركة الشارع، ونقل صورة حية مما يجري في الساحة لسماع الراوي نفرو(١٥)

وهو بذلك كله يعطي الحياة والحيوية لعمله الدرامي الصعب.

وله إلى جانب ذلك تشبيهات مبتكرة تصيدها من البيئة، أو اقتنصها من مشاهداته في الريف، كقوله على لسان الراوي في تعليله الظريف لشهوة الكلام، التي دفعته إلى أن ينفلت من أكفان الكتان بعد آلاف السنين:

فلقد سئمت حنجرتي الصمت.. كأحجار الصوان
ولقد عافت نفسي زم الشفتين
فأنا راوٍ مهنته أن يتكلم(١٦).

وقوله على لسان بتاح:

يااللأم المسكينة
سد الزمن الغادر باب الكوخ عليها فجأة
كسر القدر وطوّح بالمصباح(١٧).

وعلى لسان بيبي:

ما العمل الآن؟
هل نجلس مثل جرار الماء على رأس الجسر
نستحلب هذا الخبز المر(١٨).

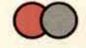
وعلى لسانه أيضاً:

ضيعة رنسي في منتصف الدرب إلى أهناسيا
فإذا انكمش الواحد منا كالقنفذ
وتداخلت الأعضاء
ورأى أن الأمر قضاء
لابد وأن ينفذ
.. كنا، وسيمضي الدهر ونحن نرى الأشياء
تتبدل أو تتحول أو تتلاشى(١٩).

وهو في كل ذلك إيجابي ورائع، على أن موسيقاه كانت تختلف أحيانا باختلاف الشخصيات، ونبرة الكلام، فهي لاتلتزم بحرا واحدا، أو تفعيلة واحدة، وإنما هي تتناول جملة من تفعيلات البحور.

الهوامش:

(١) الهيراقوبوليس - أهناسيا، المعروفة الآن بإقليم الفيوم.
(٢) سليم حسن، الأدب المصري القديم، ص٤٠.
(٣) نفسه ص٤١.
(٤) راجع ماجاء في «يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم.
(٥) محمد مهران السيد، حكاية من وادي الملح ص٦٥.
(٦) مقدمة المؤلف ص٦.
(٧) المسرحية ص٢١.
(٨) المسرحية ص٢٣.
(٩) المسرحية ص٨٦.
(١٠) المسرحية: دراسة علي شلش ص١٦.
(١١) د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي، هامش ص ٥٨.
(١٢) مقدمة المسرحية ص١٠.
(١٣) المسرحية ص٢٥.
(١٤) المسرحية ص٣٩.
(١٥) راجع المسرحية ابتداء من ص٤٣.
(١٦) المسرحية ص٢٠.
(١٧) المسرحية ص٢٥.
(١٨) الصفحة نفسها.
(١٩) المسرحية ص٢٦.





العرب في مواجهة التحديات الإعلامية المعاصرة (٢)

د. عبد القادر طاش

عندما اختارت مجلة «تايم» الأمريكية (تيد تيرنر) مالك الشبكة التلفازية الشهيرة «سي.ان.ان. CNN رجل عام ١٩٩١م؛ فإنها كانت بذلك تعلن عن ميلاد العصر الإعلامي الجديد الذي نعيش فيه اليوم. ومع أن ذلك العام المميز في التاريخ المعاصر شهد أحداثا كبيرة ونجوما ساطعة؛ إلا أن لقب رجل العام كان من نصيب الصورة التلفازية التي سجلت تلك الأحداث وصنعت أولئك النجوم.

كانت الفقرة السابقة هي مدخل الكاتب د. عبدالقادر طاش في الحلقة السابقة للحديث عن الإعلام بوصفه قوة مؤثرة لايمكن الاستهانة بها في عصرنا الحاضر، وكيف أن خطرها لا يقل - في تأثيره - عن القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية، إن لم يتفوق عليها.

وتحدث الكاتب عن الملامح البارزة للبيئة الإعلامية الجديدة، وكيف نواجه التحديات التي تفرضها علينا، من خلال هيمنتها على البنى والصناعات الاتصالية، والقولبة التلفازية للإنتاج الإعلامي، وطغيان إعلام السوق والطفرة التقنية.

وفي هذه الحلقة (الأخيرة) يواصل كاتبنا الفاضل الحديث عن بقية التحديات، وواقعنا الإعلامي الراهن.

رابعا: اختراق الهويات و«تغريب» الثقافات

لايخطئ المتأمل في المحتوى الثقافي الذي تقدمه وسائل الإعلام المعاصرة ملاحظة الميل القوي - في الغالبية الساحقة من ذلك المحتوى - إلى تذويب الهويات الحضارية للأمم والشعوب التي لاتنتمي إلى الحضارة الغربية، والتهوين من شأن ثقافاتها الذاتية بشتى الطرق والأساليب. وبالمقابل

يركز المحتوى الإعلامي المعاصر على تقديم الثقافة الغربية بوصفها الثقافة «الإنسانية» التي لابد أن تهيمن وتسود. وقد ساعد الغرب في تحقيق هذا الهدف احتكاره للتقنية «للتكنولوجيا» الإعلامية. وقد نقلنا في فقرة سابقة مقولة بريجنسكي التي ربط فيها بين الهيمنة الأمريكية على سوق الاتصالات العالمية والترويج للثقافة الغربية، وَعَدَّ ذلك أساس العظمة الأمريكية. ويقول عبد الإله بلقزيز: «لقد أمكن لثقافة قومية غالبة أن تتعمم وأن تسود وتهيمن وتفرض على غيرها صفتها المستعارة كثقافة «عالمية» بسبب ثورة (تكنولوجيا) الإعلام الضخمة المتحققة في العقدين الأخيرين، والتي أتاحت اختراق السيادة الثقافية، والإطاحة بالأمن الثقافي القومي»(١).

والاختراق الثقافي الغربي للمجتمعات غير الغربية عبر وسائل الإعلام ليس أمرا جديدا؛ بل هو قديم، وقد بدأ مع استيراد هذه المجتمعات للنظم الغربية في الاتصال والبرامج والمواد الإعلامية، وتقليدها للمدارس الغربية في تأهيل إعلامييها واعتمادها على نتائج البحوث والدراسات التي أجريت في الغرب، والنظريات التي عكست طبيعة البيئة الغربية وتطورها عبر العصور.

إن ماأسماه الباحث الاجتماعي توماس ماك فيل «الإمبريالية الالكترونية» غدا ظاهرة واضحة القسمات في كثير من مجتمعاتنا. وهذه الظاهرة - كما يشرحها ماك فيل تتمثل في «علاقة التبعية التي تأسست باستيراد معدات الاتصال والبرامج الأجنبية - ومعها المهندسون والفنيون - وما يتعلق بها من بروتوكولات ومعلومات. وذلك بخلق الأسس لمجموعة من المعايير والقيم الأجنبية والتوقعات التي يمكن أن تغير الثقافة المحلية وعمليات التنشئة الاجتماعية إلى درجات مختلفة.

فالاستيراد يتنوع من الكتب الهزلية إلى الأقمار الصناعية، ومن الحاسوب إلى الليزر، وبجانبها المنتجات الأكثر تقليدية مثل البرامج الإذاعية المرئية والمسرح وأشرطة السينما وخدمات البرق وعروض الإذاعة»(٢).

ولكن الجديد الآن هو أن التطورات الهائلة التي حدثت في تقنيات الاتصال، والتغييرات الكبيرة التي أصابت البُنى التحتية للاتصالات في المجتمع المعاصر أسهمت في توسيع مساحات ذلك الاختراق الثقافي الغربي وتعميقه في حياة الأمم والشعوب في كل مكان. وبذلك يمكننا أن نقول إن البيئة الجديدة للاتصال الدولي نقلت التغريب الثقافي من كونه مجرد حركة تؤثر في النخبة ذات النطاق المحدود، إلى كونه حركة تؤثر في الجماهير العريضة في المنزل والشارع والمكتب والمتجر والمدرسة والنادي، فضلا عن المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفاعلة والمؤثرة في الحياة العامة.

إن الاختراق الثقافي المتمثل في رغبة قوى عديدة في أوساط الغرب في فرض ثقافة «التغريب» وعولمتها حقيقة لا مجال لإنكارها. وفيما يسمي بعضنا هذا الاختراق «غزوا ثقافيا» يعترض آخرون؛ لأن الغزو يقتضي وجود قصد الغزو لدى الغازي. ويقول هؤلاء إن كثيرا مما يطلق عليه «غزو ثقافي» نجلبه نحن بأنفسنا؛ بل ونفضله على غيره ونُقبل عليه بنهم وشهية. ويرى فريق ثالث أن ما كان «غزوا ثقافيا» في الماضي تحول الآن إلى مايشبه «الاستلاب» أو حتى «الانسلاب الثقافي» الذي ينجذب فيه الطرف الأضعف إلى الطرف الأقوى، ويحاول تقليده واحتذاء طرائقه وأساليب حياته.

ومهما يكن المصطلح الدال على الظاهرة التي يعيش فيها كثير من المجتمعات المعاصرة - لا العربية والإسلامية منها فحسب - سواء أكانت غزوا ثقافيا أو استلابا أو انسلابا؛ فإن «ثقافة التغريب» تتسع دائرتها يوما بعد يوم، وتتوالى بالمقابل وتيرة انحسار الثقافات القومية والذاتية لعديد من المجتمعات غير الغربية. وإذا كانت صيحات الإمبرياليين الغربيين القدماء في عصور الاستعمار قد عبرت عن تلك النزعة (الإيديولوجية) المشحونة بالشعور بالتفوق العنصري والثقافي، فإن صيحات إمبرياليين غربيين معاصرين ما تزال تتجاوب مع تلك الصيحات. وقد سخر السناتور الأمريكي السابق وليام فولبرايت من تلك الصيحات القديمة قائلا: «إن سياسة القوة تمارس مستترة بشتى الأسماء. وقد كان البريطانيون يسمونها «عبء الرجل الأبيض»، والفرنسيون «رسالتهم الحضارية»، وأمريكيون من القرن التاسع عشر «مصيرهم المحتوم». وقد كتب هيرمان ملفيل الأمريكي خلال القرن الماضي يقول: نحن الأمريكيين شعب خاص، شعب مختار، إننا نحمل دفة الخلاص لحريات العالم»(٣).

واليوم ماذا نسمع؟ إنها الصيحة نفسها وإن اختلف الصوت. يقول السياسي اليميني نيوت جنجريتش رئيس مجلس النواب الأمريكي: «أمريكا وحدها التي تستطيع قيادة العالم، وستبقى أمريكا الحضارة العالمية الكونية الوحيدة في تاريخ البشرية. وفي مدة لاتتجاوز ٣٠٠ عام تمكن نظامنا القائم على الديموقراطية التمثيلية والحرية الفردية والسوق الحرة من توفير الأسس اللازمة لأعظم ازدهار اقتصادي في التاريخ. إن نظام قيمنا يحظى بالتقليد والتمثل حول العالم، وتقدمنا التكنولوجي أحدث ثورة في طريقة حياة الإنسان المعاصر وأصبح القوة الرئيسية لعولمة العالم». ويضيف قائلا: «بغير حضارتنا الأمريكية الحيوية فإن البربرية والعنف والدكتاتورية ستخيم على كوكبنا الأرضي». ويمضي قائلا: «إن انطلاقنا نحو المستقبل وفقا لطرقنا الصحيحة المجربة في الماضي سيعمل على تجديد حضارتنا الأمريكية، وسيؤكد الدور الريادي لأمريكا في مساعدة الجنس البشري كله في مسيرته نحو الرفاهية والحرية والأمان. وإذا استطعنا أن نحقق هذه الأحلام الثلاثة للأمريكيين وللعالم سنكون قد أنجزنا شيئا عظيما حقا»(٤).

وإذا كانت ثقافات أخرى تتعرض للاختراق الغربي عبر وسائل الإعلام، فإن الثقافة العربية الإسلامية كانت - وما تزال - هدفا للآلة الإعلامية الغربية على نحو أكثر بروزا، وتغذي حملة العداء الغربي للثقافة العربية الإسلامية قوى معينة في المجتمعات الغربية، يصدر بعضها عن أحقاد قديمة تعود إلى تراث ضخم من الأدبيات المعادية للإسلام والمسلمين. وتحرك بعضها الآخر دوافع سياسية ومذهبية وفكرية واقتصادية. وقد وجد هؤلاء وأولئك في حالة الفراغ التي أحدثها انهيار المعسكر الاشتراكي وانتهاء الحرب الباردة فرصتهم السانحة لتأليب دوائر النفوذ السياسي والفكري والإعلامي في المجتمعات الغربية ضد الإسلام في محاولة جادة منهم لتنصيبه «عدوا جديدا» للغرب عوضا عن العدو الشيوعي.

ويستعرض الباحث البريطاني فريد هاليداي، في محاضرة له بعنوان «معاداة المسلمين والسياسة المعاصرة»، البعدين التاريخي والمعاصر لنزعة العداء الغربي للثقافة العربية الإسلامية في الغرب. وبعد تناوله جذور ذلك العداء في التراث الغربي الديني والثقافي والسياسي، يصل إلى الوقت الحاضر فيقول: إن هناك نمطين من نزعة معاداة المسلمين في الغرب، أحدهما «استراتيجي» يتعلق بقضايا مثل الأمن والأسلحة النووية وإمدادات النفط والإرهاب. أما الآخر فهو النمط «الشعبي» الذي يتعلق بوجود المسلمين في المجتمعات الغربية، ويتناول قضايا مثل الهجرة والمشاعر العنصرية والحجاب ونحو ذلك. ولكنه يرى أن مايجمع بين النمطين هو الشعور بـ «الخطر الإسلامي». ويستشهد هاليداي بمقولة نائب الرئيس الأمريكي السابق دان كويل في عام ١٩٩٠م عندما ربط بين ما أسماه «الأصولية الإسلامية» والنازية والشيوعية.

وينقل أيضا ماقاله كلير هولينجورث ـ وهو صحفي بريطاني متقاعد ـ: «المسلمون الأصوليون سيصبحون عما قريب الخطر الرئيسي الذي يواجه السلام العالمي. إن هذا الخطر لا يقل عن خطر النازية والفاشية في الثلاثينيات وخطر الشيوعية في الخمسينيات»(٥).

ومع تنبيهنا إلى أن النزعة العدائية للثقافة العربية الإسلامية لا يمكن تعميمها على الغربيين جميعا؛ فإننا نرى أن هذه النزعة التي تحتل مساحة معتبرة في العقل الجمعي الغربي تنسجم مع مكونات ذلك العقل الذي يميل إلى الاعتقاد بالتفوق العنصري، واعتبار الثقافة الغربية ثقافة إنسانية راقية، والنظر إلى الثقافات الأخرى نظرة أقل ما يقال عنها إنها مستهينة أو مقللة لشأنها، وكأنها بقايا تراثية من الماضي، تصلح للفرجة والترويح عن النفس أكثر من كونها ثقافات ثرة ومدرارة يمكن أن تمد الحاضر بالعطاء والنماء.

واقعنا الإعلامي وأهمية تطوير الإعلام العربي

عندما نسرّح الطرف في واقع الإعلام في عالمنا العربي يرتد إلينا حزينا؛ فواقع الإعلام القُطْري ممتلئ بالمعايب بدءا بغياب السياسات الاستراتيجية المحكمة التي تنظم النشاط الإعلامي والاتصالي، ومرورا بضمور منافذ الحرية والمرونة في ساحة التعبير، وتحويل وسائل الإعلام إلى أدوات للدعاية والتعبئة السياسية، وانتهاء بضحالة الإنتاج الإعلامي المميز وهشاشة التكوين الفكري والمهني للكفايات الإعلامية العاملة في مختلف المؤسسات الإعلامية، أما على المستوى العربي الأوسع فإن أثقال التبعية والتقليد ما تزال كبيرة، إضافة إلى ضعف العمل الإعلامي المشترك بين الدول العربية.

ويشخص د. محمد مصالحة واقع النظام الإعلامي ـ الاتصالي القائم في الوطن العربي، فيورد ستة أعراض مَرَضية له، هي:

١ـ استقاء معظم المواد والبرامج الإعلامية من وسائل الإعلام والثقافة في الدول الصناعية أو الواقعة تحت هيمنتها.

٢ـ تدني مستوى التعاون العربي في ميدان التبادل الإعلامي. وهو مايفسح الفرصة لاستمرار التبعية الإعلامية العربية.

٣ـ وجود فجوة في الإمكانات الإعلامية والاتصالية بين دول عربية وأخرى، وتتمثل هذه الفجوة في التوزيع غير المتعادل لتلك الإمكانات.

٤ـ تميز الإعلام العربي بالمركزية الشديدة وخضوعه للسلطة.

٥ـ تركيز الاهتمامات على النواحي الفنية والمعدات (Hardware)، وتخصيص اعتمادات سخية لها، مع عدم إيلاء اهتمام مواز للطاقات البشرية وتأهيلها وتدريبها في مجالات الإنتاج المتعددة (Software).

٦ـ ضعف الاعتماد العربي الجماعي على الذات في تنمية الإعلام، والافتقار إلى سياسة عربية قومية في هذا القطاع الحيوي(٦).

وإذا كان تشخيص الدكتور مصالحة قد مضى عليه عقد من الزمان؛ إلا أن غالبية الأعراض التي ذكرها ما تزال قائمة. بل ربما تفاقم بعضها على نحو خطير. وليس من الإنصاف أن نعزل حركة الإعلام عن حركة بقية القطاعات الأخرى التي تحكم المجتمع العربي سياسيا واقتصاديا وثقافيا. فما حصل ـ ويحصل ـ في القطاع الإعلامي هو انعكاس من جهة للتطورات والتغيرات التي حصلت ـ وتحصل ـ في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن جهة أخرى لايمكن أيضا أن نبرئ الإعلام من الإسهام في زيادة البلبلة الفكرية والتباعد الثقافي والتصارع السياسي الذي شهدته الساحة العربية في العقود الثلاثة الماضية.

ولكننا نضيف إلى التشخيص السابق نقطة مضيئة، فقد شهدت فترة الثمانينيات الميلادية انطلاقة أول محاولة معاصرة لتأسيس صحافة عربية دولية، تخاطب أبناء الوطن العربي على امتداد أقطاره. كما شهدت بداية التسعينيات الميلادية ولادة القنوات الفضائية العربية التي تتطلع إلى الدخول إلى أكبر قدر من البيوت العربية في أرجاء الوطن العربي وفي مراكز تجمع الجاليات العربية في الخارج. كما أن اتجاه الاستثمار المالي العربي إلى ميدان الإعلام يتزايد في الآونة الأخيرة. وفي هذا الصدد يمكن اعتبار شراء وكالة أنباء دولية من قبل مجموعة إعلامية عربية خطوة موفقة في الاتجاه الصحيح.

ولسنا هنا في مجال «تقويم» أداء هذه المؤسسات الإعلامية؛ إذ إن ذلك يتطلب دراسة علمية موضوعية، كما أن بعض هذه المؤسسات ما يزال في طور النشأة والتكوّن. إلا أن الإشارة إلى هذه المؤسسات ضرورية حتى تكتمل الصورة، فوجودها والسعي نحو تنميتها وزيادة فعاليتها يعبران عن ملمح إيجابي بدأ يتبلور في خضم الواقع الإعلامي البائس الذي يعاني منه العرب.

وبالرغم من الاستبشار بهذا الاتجاه نحو إنشاء المحطات الفضائية العربية لمواجهة «غزو» القنوات الفضائية الأخرى؛ إلا أن واقع القنوات الفضائية العربية يحتاج إلى كثير من المراجعة والتصحيح. فهي تفتقر إلى رؤية فكرية واضحة تحدد لها استراتيجياتها، وتعينها على تحقيق أهدافها في خدمة الإنسان العربي، وتأهيله لمواجهة تحديات الواقع المعاصر. ومن المؤسف أن كثيرا من المشاريع الإعلامية في هذا الميدان انطلق من فراغ مخيف دون أن يمتلك رؤية فكرية منبثقة من الهوية العربية الإسلامية للأمة، ودون أن يستند إلى تصور موضوعي لواقع المستفيدين من هذه المشاريع واحتياجاتهم الحقيقية، ودون أن ينبني على تخطيط سليم لتحقيق أهداف مرسومة بعناية وإتقان.

وقد اهتم «اتحاد إذاعات الدول العربية» المنبثق عن جامعة الدول العربية بدراسة واقع الفضائيات العربية. وتشتكي دراسة أعدها الاتحاد ـ مؤخرا ـ من «أن الوضع الحالي للبث على القنوات الفضائية العربية يدل على غياب استراتيجية واضحة في كثير من الحالات؛ حيث يبدو أن بعض الهيئات تسعى إلى تحقيق حضور على الساحة الدولية، وتستخدم تقنية الاتصال لتصل إلى المشاهد العربي أينما كان، دون تحديد مسبق للأهداف المخصوصة». وتلاحظ الدراسة أيضا أن «جل القنوات العربية (الفضائية) يبث إرساله العادي الذي يتضمن بعض البرامج الأجنبية، ذلك أن أغلب الدول ليس لديها إنتاج تلفزيوني يكفي لسد احتياجاتها المحلية، ومن ثم فهي تعتمد على الاستيراد. وأشارت الأرقام إلى أن بعض المحطات التلفازية تصل نسبة البرامج المستوردة لديها إلى حدود ٨٠ في المئة من مجمل برامجها المعروضة على قناتها الفضائية»(٧).

ولاينبغي التهوين من أهمية المراجعة الشاملة لخطط المشاريع الإعلامية الفضائية العربية، ذلك لأن هذه المراجعة يمكنها أن تسهم في توفير بدائل إعلامية عربية ذات توجهات أصيلة وموزونة نابعة من إطارنا العقدي والفكري والقيمي من جهة، وذات مستويات مهنية رفيعة وملائمة لمتطلبات حياتنا العربية وطموحاتنا المستقبلية من جهة أخرى.

وتشتد الحاجة إلى هذه المراجعة في ضوء التنافس المحموم الذي نلاحظه من جهات ودوائر عديدة لاستقطاب المشاهد العربي بالذات. فبعد تجربة البث العربي لإحدى المؤسسات الإعلامية العريقة في بريطانيا إلى العالم العربي بلغة أهله تكتمل الاستعدادات الآن لبث قناة أوربية إخبارية

إلى العرب بلغتهم. ويبشرنا مسؤول هذه القناة الجديدة ـ التي ستبدأ بثها خلال أشهر قليلة ـ فيقول: «ماتريده C.N.N هو تصدير رؤية غير متعددة عن العالم. وقد لا تكون هذه الرؤية سيئة أو على خطأ، لكنها رؤية من منظار الصحافة الأمريكية، تدعمها أحدث الأساليب التقنية وقدرات مادية هائلة. المسألة هنا ثقافية. أما نحن فنقول إن على أوربا وحوض المتوسط تقديم شيء مختلف أكثر انفتاحا وجدلا، ومحاولة فهم الأرضية الاجتماعية والثقافية وحتى الجغرافية للمواقف التي تتخذها الدول»(٨).

وإذا كان مطلوبا لمواجهة التحديات الإعلامية المعاصرة أن يسعى كل قطر عربي إلى إعادة النظر في هياكله الاتصالية وسياساته وأساليب خطابه الإعلامي، فإن من غير الواقعي الاعتقاد بأن أقطارنا العربية يمكنها منفردة مواجهة التحديات الإعلامية البالغة الخطورة التي يحفل بها واقعنا المعاصر. إن التعاون الإعلامي بين العرب على مستوى الدول والحكومات أو على مستوى المؤسسات والهيئات، يُعد ركيزة أساسية لأي مواجهة حقيقية، وعوضا عن الشكوى من الغزو الإعلامي الأجنبي والتذمر من آثاره السيئة على الأفراد والمجتمعات، فلا بد أن نفعل شيئا.

ونعتقد أن مقترحات عديدة قيمة قد طرحت في لقاءات ومؤتمرات واجتماعات عربية كثيرة، فلماذا لا يتبناها العرب وينفذونها؟ يدعو الدكتور عبد الله الجاسر ـ مثلا ـ في مؤتمر دولي للتحديات الاقتصادية للعالم العربي، الحكومات العربية للتعاون مع القطاع الخاص في تأسيس مشاريع صناعية إعلامية وإعلانية مشتركة، وفي دعم مسارات اقتصاديات الإعلام العربي وتشجيعها وتنشيطها. ويقترح لتحقيق ذلك وضع سياسات وخطط عربية موحدة تمكن من تسهيل الاستثمارات وجذبها إلى المنطقة العربية في مجالات الإعلام والصناعات المتصلة بها، وتأسيس صندوق مالي عربي مشترك يسهل القروض التمويلية للمشاريع الإعلامية المشتركة، وربط البُنى التحتية الأساسية بعضها ببعض، وتوحيد التمثيل التجاري الإعلامي والإعلاني مع العالم الخارجي، وتعزيز آليات التكتلات الاتصالية العربية(٩).

أسئلة جوهرية تتطلب إجابات

والدعوة إلى تكتل إعلامي عربي ليس بدعا في سلوك الأمم المتجانسة فكريا ولغويا وقوميا، أو حتى تلك التي تجمع بينها المصالح الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية. فالدول الآسيوية ـ مثلا ـ تعقد ملتقيات برامجية للتبادل الإعلامي، وقد حضر الملتقى الذي عقد في العام الماضي (١٩٩٤م) حوالي ٣٠٠٠ منتج ومستثمر وبائع في الإنتاج التلفازي من ٥٩ دولة آسيوية، وقامت هذه الدول بتبادل البرامج والأفكار مما أثار فزع الدول المصدرة إعلاميا(١٠).

وفي اجتماع هيئة السمعيات والبصريات الأوربية الذي عقد في العام الماضي في بروكسل تقرر إنشاء نظام للإنتاج والتوزيع السينمائي بتكلفة قدرها ٢.٥ بليون دولار وذلك لمواجهة التدفق السينمائي الأمريكي. وقد عبَّر وزير الثقافة الفرنسي جاك توبون عن ذلك بقوله: إن الأوربيين بعامة والفرنسيين بخاصة، يناشدون الأمريكيين بطريقة ودية لإعطائهم الفرصة للحفاظ على الثقافات المحلية(١١).

ومع الأهمية الكبيرة لتطوير بُنى الإعلام العربي وسياساته وأساليبه، وهو ماينشده الكثيرون ويتطلعون إليه لمواجهة التحديات التي لا ينقطع تدفقها علينا، فإن المشكلة لا تنحصر في الجانب الإعلامي فحسب. إن التحديات التي تحدثنا عن بعضها في هذه الورقة تخالط جوانب عديدة في حياتنا العربية. ومن هنا لابد من التأكيد مرة تلو الأخرى على أن أزمة الإعلام مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأوجه الأخرى من أزمة النظام العربي كله.

وإذا دققنا النظر في التحديات الإعلامية السابقة فإننا سنجد أنفسنا بإزاء جملة من الأسئلة الكبرى التي لايستطيع الإعلاميون وحدهم الإجابة عنها، وهذه بعض تلك الأسئلة:

ـ هل من سبيل إلى كسر الاحتكار الغربي والهيمنة الأمريكية على البُنى الاتصالية في العالم العربي والتخفف من أعباء التبعية الإعلامية؟ وإذا كان الأمر ممكنا، فما الذي يتطلبه ذلك على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟

ـ هل نملك تصورات واضحة لطبيعة ثقافتنا العربية الإسلامية ومدى ملاءمة الأسلوب التلفازي الطاغي في الإعلام المعاصر مع منطلقات تلك الثقافة ومعطياتها؟ وكيف يمكن تأصيل وترسيخ سلوكياتنا الثقافية المعتمدة كثيرا على «القراءة» في ضوء الزحف التلفازي المندفع في مجتمعاتنا؟ وما الذي ينبغي عمله لصوغ أسلوب إعلامي عربي منبثق من طبيعة ثقافتنا، ومراع لظروف مجتمعاتنا، وملب لطموحاتها الاجتماعية والتنموية؟

ـ كيف سنوائم بين الاتجاه العالمي المتزايد نحو «إعلام السوق» ومتطلبات «الإعلام الهادف» الذي يسعى إلى تثبيت قيمنا الدينية والأخلاقية، وتحقيق أهدافنا الاجتماعية والقومية والإسلامية؟ وهل يمكننا بلورة بدائل تنظيمية توفيقية لمؤسساتنا الإعلامية تستفيد من إيجابيات «التشخيص» دون أن تبتلعها سلبياته؟

ـ ما الذي نحتاج إلى عمله لمواجهة «ثقافة التغريب»؟ هل سنرفضها بدعوى أنها غزو فكري، أم سنقبلها بدعوى أنها نتاج طبيعي للانفتاح والتفاعل بين الحضارات؟

ـ كيف يمكننا إيجاد منهاج واضح يحدد لنا الأسس والمعايير التي ترشدنا إلى المحافظة على خصوصيتنا الثقافية دون أن ننعزل عن العالم أو نستخدمها كسلاح لرفض التفاعل مع ثقافات الآخرين والاستفادة منها؟

إن هذه الأسئلة الجوهرية تضعنا أمام الحقيقة الناصعة، وهي أن التحديات الإعلامية المعاصرة التي نواجهها في عالم اليوم لا تثير إشكالات إعلامية فحسب، بل إنها تثير إشكالات أكبر وأعمق مما له صلة وثيقة بكينونتنا الحضارية وهويتنا الثقافية. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه التحديات تصيب ـ على نحو مؤثر وفعال ـ وجودنا السياسي، والاقتصادي، وكذلك أنساقنا السلوكية والاجتماعية، ومن هنا فلا مناص من النظر إلى هذه التحديات في إطارها الأوسع مرتبطة ـ تأثرا وتأثيرا ـ بمختلف جوانب حياتنا العربية.

الهوامش:

١ـ جريدة (الشرق الأوسط)، العدد ٥٠١٨ بتاريخ ١٩٩٢/٨/٢٤م.

٢ـ انظر: د. صالح أبو إصبع: وسائل الإعلام الغربية والانسلاب الثقافي، مجلة شؤون عربية، العدد ١٧، يوليو ١٩٨٢م.

٣ـ انظر: قدري قلعجي: أمريكا وغطرسة القوة، بيروت: دار الكاتب العربي، ١٩٨٧م، ص٢٧ـ٢٨.

٤ـ راجع جريدة سعودي جازيت، بتاريخ ١٩٩٥/٢/١٣م.

٥ـ انظر:- Fred Halliday: Anti-Muslimsim and Contemporary Politics: One Ideology Or Many? محاضرة غير منشورة ألقاها في لندن في أواخر عام ١٩٩٣م.

٦ـ انظر: د. محمد مصالحة: تنمية الإعلام كشرط للتنمية العربية الشاملة، مجلة شؤون عربية، العدد ٣٨، يونيو ١٩٨٤م، ص١٣١ـ١٣٢.

٧ـ عرفان نظام الدين: نحن والغزو الفضائي، جريدة الحياة، بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٢١م.

٨ـ جريدة الحياة، العدد ١١٠٩١، بتاريخ ١٩٩٣/٦/٢٦م.

٩ـ انظر: جريدة (الشرق الأوسط)، العدد ٥٨٩١ بتاريخ ١٩٩٥/١/١٤م.

١٠ـ انظر: د. فهد الطياش: أوهام الغزو الثقافي، جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٩٩٥/٢/١م.

١١ـ انظر: د. فهد الطياش: أوربا تتصدى لهوليوود، جريدة الشرق الأوسط، بتاريخ ١٩٩٤/٨/١٩م.

هل وعد الله المتقي بأن يعلمه؟



الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

قال أبو عبدالرحمن: في أحد مجالسي بمكة المكرمة استدللت على من اتقى فإن الله يعلمه علم هداية توفيقية بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويُعلِّمكم الله﴾.

وأبى هذا الاستدلال الحبر العالم الجليل الدكتور صالح ابن شيخنا سماحة الشيخ عبدالله بن حميد.

ووعدت بتحرير بحث في هذا الموضوع، وحالت ظروف اعتلالي وشواغل أخرى عن مواصلة البحث.

والآن كمل البحث مضفر المرائر بحمد الله وفضله، والقول ما قاله فضيلته من ناحية استدلالي على دعواي.

والقول قولي بصحة دعواي ببراهين أخرى.

وبيان ذلك أنه في آيتي الدَّيْن - وهما الآية ٢٨٢و٢٨٣ من سورة البقرة - علَّم الله عباده المؤمنين أحكام كتابة الدَّيْن في الآية الأولى منهما وختمها بقوله: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾.

قال أبو عبدالرحمن: سياق الكلام وتناسبه وارتباطه قضى بأن الله بيَّن أمورًا لعباده تحتاج منهم إلى امتثال الأمر، وتقوى المخالفة الموجبة لسخط الله وعقوبته، وذلك هو أحكام الدين كتابة وشهادة وتوثقًا وأمانة وعدم إضرار.

وتعليم الله ها هنا لايراد به إلهام خلقه العلم، وهدايتهم هداية توفيق بأن يعرفوا مراد الله عند الاختلاف.

وإنما تعليمه ها هنا ما كان هداية إيضاح بأن ينزل عليهم الأحكام، ويبينها لهم مفصلة لتكون موضوع نظر المجتهد وتفقهه، فيصيب من هداه الله هداية توفيق، ويخطئ من لم تُقدَّر له هداية التوفيق وله أجر المجتهد، ويضل من تعمد الزيغ.

وقد تقوم براهين على أن من اتقى الله علّمه الله بأن يفقهه ويهديه هداية توفيق بفهم المعنى المراد من النصوص التي علمها خلقه تعليم تنزيل وإيضاح.

إلا أن هذا المعنى إذا صح يكون ببراهين أخرى، وليس بدليل آية الدين المذكورة.

وذهبت قلة من المفسرين إلى أن تقوى الله سبب تعليم الله تعليم هداية توفيقية بدليل من الآية المذكورة.

وأبى ذلك جمهور المفسرين، وقالوا: ليس في التقوى وعد بالتعليم.

وحجتهم أن وجوه الربط بين التقوى والتعليم من ناحية اللفظ بمقتضى النحو كلها مرجوحة، والراجح أنه لا ارتباط.

ولقد ذكر أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري ثلاثة احتمالات لإعراب: ﴿ويعلمكم الله﴾:

أولها: أن الجملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب.

وثانيها: أنها حال من فاعل اتقوا.. والتقدير: اتقوا الله مضمونًا التعليم أو الهداية.

وثالثها: أن تكون حالاً مقدرة(١).

فالوجه الأول يمنع من الارتباط اللفظي بين الجملتين، ومن ثم امتنع عندهم الارتباط المعنوي.

والوجهان الأخيران أثبتا الارتباط ولكنهما مرجوحان.

ومعنى الحال المقدرة أن لاتكون حكاية لحال ماضية مثل: جاء زيد أمس راكبًا، وأن لاتكون مقارنة في الزمان (أي آنية) مثل: ﴿وهذا بعلي شيخًا﴾ (هود:٧٢) فهو في وقت الإشارة إليه عليه السلام في حال شيخوخته.

وإنما هي مقدرة الوقوع في المستقبل مثل قوله: ﴿فادخلوها خالدين﴾ (الزمر:٧٣): أي مقدرين خلودكم(٢).

والتقدير ها هنا: اتقوا الله ضامنين تعليمكم في المستقبل.

وهناك وجه رابع أغفله العكبري، وهو اعتبار يعلمكم معطوفة على واتقوا.

قال أبو عبدالرحمن: أما الإعراب بالحال فقد ضعفه أبو حيان، فقال: «ضعيف جدًا، لأن المضارع الواقع حالاً لاتدخل عليه واو الحال إلا فيما شذ من نحو: قمت وأصك عينه.

ولا ينبغي أن يُحمل القرآن على الشذوذ»(٣).

وتابع أبا حيان تلميذه أبو العباس السمين، واعتبر الاستئناف هو الظاهر، وقال: «المضارع المثبت لا تباشره واو الحال، فإن ورد ما ظاهره ذلك يُؤَوَّل.

لكن لاضرورة تدعو إليه ها هنا»(٤).

وقدَّم السيوطي الحال على الاستئناف(٥)، وتعقبه الصاوي بأن الأولى الاقتصار على الاستئناف، وعلل بقوله: «لأن جعله حالاً خلاف القاعدة النحوية، فإن القاعدة أن الجملة المضارعية المثبتة إذا وقعت حالاً فإن الضمير يلزمها، وتخلو من الواو»(٦).

قال أبو عبدالرحمن: وأورد الجَمَلُ نقولاً لاتخرج عما مضى، وأضاف تفسير التأويل لقولهم «قمت وأصك عينه» بأن المضمر مبتدأ بعد الواو، فيكون المضارع خبرًا عنه، والتقدير: وأنا أصك.

وحينئذ فالجملة اسمية يصح اقترانها بالحال.

قال: لكن لا ضرورة تدعو إليه ها هنا.. أي لأن ما ذكر شاذ، ولاينبغي أن يُحمل القرآن على الشاذ(٧).

وأما العطف فظاهر كلام الآلوسي أنه يرتضيه. قال: ﴿اتقوا الله﴾ حَثٌّ على تقوى الله تعالى ﴿ويعلمكم الله﴾ وَعْدٌ بإنعامه سبحانه.

ومن هنا علمت وجه العطف فيها من اختلافها في الظاهر خبرا وإنشاء»(٨).

وأما الصاوي فقد ذكر العطف ورده، فقال: «ولا يصح عطفها (أي عطف جملة ﴿ويعلمكم الله﴾ على جملة ﴿واتقوا الله﴾)، لأنه يلزم عطف الخبر على الإنشاء، وفيه خلاف»(٩).

وقد رد الإعراب بالعطف الشيخ محمد عبده، فقال: «لايرضى به سيبويه، وله الحق في ذلك؛ لأن عطف ﴿يعلمكم﴾ على ﴿واتقوا الله﴾ ينافي أن يكون جزاء له ومرتبا عليه، لأن العطف يقتضي المغايرة.

ولو قال: يعلمكم - بالجزم - لكان مفيدًا لما قالوه.

وكذلك لو كان العطف بالفاء، أو اتصل بالفعل لام التعليل»(١٠).

قال أبو عبدالرحمن: كلام الشيخ محمد عبده رد على من جعل تعليم الله اللدني سببًا مرتبًا على الأمر بالتقوى.

قال أبو عبدالرحمن: أجاز عطف الخبر على الإنشاء والعكس بعض العلماء وذكروا له أمثلة. قال ابن عبدالنور: فإن عطفت جملة على جملة لم يلزم التشريك في اللفظ ولا في المعنى، ولكن في الكلام خاصة، ليعلم أن الكلامين فأكثر في زمان واحد أو في قصد واحد، فلذلك جاز أن يعطف بها إذ ذاك جملة خبرية على مثلها، وعلى طلبية، وجملة طلبية على مثلها، وعلى خبرية، فتقول: قام زيد وقعد عمرو، وقام زيد واقعد.. وعلى هذا يجوز: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، فالواو عطف طلب - وهو الدعاء - على الخبر.. وحُكي من كلام البديع: ظفرنا بصيد وحيَّاك الله أبا زيد.

وتقول: قم وقعد زيد، وقم واقعد، وقم ولاتقعد، ولاتقم واقعد.

وكذلك حكم الجملة الابتدائية مع الفعلية نحو: قام زيد وعمرو قائم، وزيد قائم وقعد عمرو، وكل ذلك جائز بما ذكرت لك»(١١).

قال أبو عبدالرحمن: واقتضاء العطف المغايرة معناه أن الشيء لايعطف على نفسه، وإلا فقد يعطف الشيء على مرادفه كقوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إنما أشكو بَثِّي وحُزني إلى الله﴾ (يوسف:٨٦)(١٢).

وقد يعطف الشيء على نفسه لنكتة كالتكثير وتغاير الزمن كقولك:

شكوت إليك إملاقي، وإملاقي، وإملاقي.

ثم إن المغايرة موجودة ها هنا لأن تعليم الله غير تقوى العباد.

وامتناع جعل ﴿يعلمكم﴾ جزاء لقوله: ﴿واتقوا الله﴾ لايمنع من صحة العطف، لأن ذلك عطف جملة على جملة، وقد قال ابن عبد النور المالقي: «فإن عطفت جملة على جملة لم يلزم التشريك في اللفظ ولا في المعنى، ولكن في الكلام خاصة، ليعلم أن الكلامين فأكثر في زمان واحد، أو في قصد واحد»(١٣).

وأما الاستئناف فرجحه الجمهور لبطلان أو ضعف وجوه الحمل الأخرى، فصار الاستئناف متعينًا.

وهذه عادتهم في الحمل على الاستئناف لايحملون الإعراب عليه إلا إذا تعذرت الوجوه الأخرى أو كانت مرجوحة، فتعيُّن الاستئناف في قوله تعالى: ﴿ونُقِرُّ﴾ كان من أجل قوله: ﴿لنُبَيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء﴾(الحج:٥)، إذ لو كانت واو عطف لكانت ﴿نُقِرَّ﴾ منصوبة.

وتعيُّن الاستئناف في قوله تعالى: ﴿ويذرهم﴾ كان من أجل قوله: ﴿من يُضلل اللهُ فلا هادي له ويذرهم﴾(الأعراف:١٨٦)، إذ لو كانت واو عطف لكانت ﴿يذرهم﴾ مجزومة كما قرأ آخرون.

وقال أبو اللحام التغلبي:

على الحكَمِ المأتيِّ يومًا إذا قضى
قضيتَه ألاّ يجور ويقصدُ

فالواو في «ويقصد» للاستئناف، ولو كانت عاطفة لانتصب فعل يقصد، ولتناقض المعنى، لأنه حينئذ نفى عنه الجور والقصد معًا، وهذا تناقض(١٤).

ولما كانت الجملة المستأنفة مقطوعة من الكلام لا محل لها من الإعراب منعوا الارتباط المعنوي بين ﴿واتقوا﴾ و ﴿ويعلمكم﴾. قال أبو حيان: «وقيل: معنى الآية الوعد، فإن من اتقى علمه الله.

وكثيرًا ما يتمثل بهذه بعض المتطوعة من الصوفية الذين يتجافون عن الاشتغال بعلوم الشريعة من الفقه وغيره.. إذا ذكر له العلم والاشتغال به قالوا: قال: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾!!.

ومن أين تُعرف التقوى؟

وهل تُعرف إلا بالعلم؟»(١٥).

وتابعه الشيخ محمد عبده فقال عن العلم: «قولهم هذا عبارة عن جعل المسبب سببًا، والفرع أصلاً، والنتيجة مقدمة، فإن المعروف المعقول أن العلم هو الذي يثمر التقوى، فلا تقوى بلا علم.

فالعلم هو الأصل الأول، وعليه المعول»(١٦).

قال أبو عبدالرحمن: يتقي الله فيما علم، فيعلمه ما لم يعلم.. والعلم أبواب لا تأتي دفعة واحدة.

وصحح ابن جزي ارتباط التعليم بالتقوى؛ إلا أنه منع من كون هذا المعنى الصحيح مرادًا للآية فقال: «وهذا المعنى صحيح، ولكن لفظ الآية لايعطيه، لأنه لو كان كذلك لجزم يعلمكم في جواب اتقوا»(١٧).

وفسر البيضاوي ﴿ويعلمكم الله﴾ بأنها وعد من الله بإنعامه، ولكنه لم يربط هذا الوعد بالتقوى(١٨).

وتابعه أبو السعود(١٩)، والجمل نقلاً عن الكرخي(٢٠).

وقال محيي الدين شيخ زاده في حاشيته على البيضاوي: «﴿ويعلمكم الله﴾ استئناف لبيان أن الله تعالى ينعم عليكم بتعليم ما يكون إرشادًا، واحتياطًا في أمر الدنيا والدين»(٢١).

وعلق الشيخ محمد عبده على كلام البيضاوي بأن ذلك بناء على الحالية(٢٢).

قال أبو عبدالرحمن: لايلزم هذا البناء، لأن البيضاوي ذكر الوعد ولم يرتبه على التقوى.

وقال البروسوي: «اتقوا الله في الأحوال الثلاثة كما يعلمكم الله بالعبارات والإشارات»(٢٣).

قال أبو عبدالرحمن: واقع هذا التفسير أن التقوى مطلوبة امتثالاً لتعليم الله، وليس معناه أن التعليم نتيجة التقوى.

وأما جعل هذا الارتباط مقصودًا للآية فقد ورد في كلام بعض المفسرين، فبعضهم جعل هذا الارتباط المعنوي نتيجة الارتباط اللفظي لأنه أعرب الجملة الثانية على أنها حال أو معطوفة.

وبعضهم نفى الارتباط لفظًا وأثبته معنى على أنه مراد من الآية: إما على سبيل الاحتمال كقول أبي محمد عبدالحق ابن عطية: «وباقي الآية موعظة وتعديد نعمة.

وقيل إن معنى الآية الوعد بأن من اتقى عُلِّم الخير وأُلهمه»(٢٤).

وإما على سبيل الجزم.. قال سعيد حوى: ووعدنا على التقوى أن يعلمنا(٢٥).

ومع أن الصاوي أبى الارتباط اللفظي النحوي فقد ربط ربطًا معنويًا إذ قال: «﴿ويعملكم الله﴾: أي العلم النافع، لأن العلم نور لايُهدى لغير المتقي.. قال الإمام الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأعلمني بأن العلم نور
ونور الله لايُهدى لعاصي

وقال الإمام مالك: من عمل بما عَلِمَ وَرَّثه الله علم ما لم يكن يعلم.

فالتقوى سبب لإعطاء العلم النافع»(٢٦).

وكذلك الشيخ محمد عبده عاد فأثبت بعض ما أنكره، لأنه لما أنكر أن التقوى سبب للعلم جملة، وذلك عند تعليقه على قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويكفر عنكم سيئاتكم﴾(الأنفال:٢٩): عاد فأثبت خصوص علم سببُه التقوى عقب نفيه دلالة سورة الفرقان على جعل العلم جزاء للتقوى فقال: «هذا وإن الفرقان في اللغة هو الصبح الذي يفرق بين الليل والنهار، ويسمى القرآن فرقانًا لأنه كالصبح يفرق بين الحق والباطل.

وتقوى الله تعالى في الأمور كلها تعطي صاحبها نورًا يفرق بين دقائق الشبهات التي لايعلمهن كثير من الناس، فهي تفيده علمًا خاصًا لم يكن ليهتدي إليه لولاها.

وهذا العلم هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين كالشرع (أصوله وفروعه)، وهو ما لا تتحقق التقوى من دونه، لأنها عبارة عن العمل فعلاً وتركًا بعلم.

فالعلم الذي هو أصل التقوى وسببها لايكون إلا بالتعلم كما ورد في الحديث العلم بالتعلم.

والعلم الذي هو فرعها وثمرتها هو ما تفطن له النفس بعد فيفيدها الرسوخ في العلم الأول بالعمل به، فإن العلم يكون في النفس مجملاً مبهمًا حتى يعمل به، فإذا عمل به صار مفصلاً جليًا راسخًا تتبين به الدقائق والخفايا.

وبذلك تفطن نفس العامل إلى مسائل أخرى تطلبها بالتجربة والبحث حتى تصل إليها.. كما يعرف كل واقف على ترقي علوم الطبيعة في الأنفس والأشياء، وهو المشار إليه بحديث «ومن تعلم فعمل علمه الله ما لم يعلم».. رواه أبو الشيخ عن ابن عباس (رضي الله عنهما).

وحديث «من عمل بما علم ورثة الله علم ما لم يعلم».. رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس»(٢٧).

وقال عن حديث العلم بالتعلم: «جزم البخاري بتعليقه، ورُوي عن غير واحد من الصحابة من عدة طرق.. رواه الدارقطني في الأفراد والعلل، والخطيب في التاريخ من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، والعسكري من حديث أنس (رضي الله عنه)، والطبراني في الكبير من حديث معاوية (رضي الله عنه).

قال الحافظ ابن حجر: إسناد حديث معاوية حسن لأن فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر.

ورواه البيهقي في المدخل، والعسكري في الأمثال من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه)، والطبراني والدارقطني من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه»(٢٨).

قال أبو عبدالرحمن: وبعد هذه الجولة مع أقوال المعربين والمفسرين فلابد من الوقفات التالية:

الوقفة الأولى: أن من تعليم الله ما يتعلق بكلامه هو سبحانه بأن ينزله على خلقه، ويفصله، وينصب الدلائل على مراده، ويبعث رسولاً يبين للخلق ما نزل إليهم.. وهذا هو تعليم الإيضاح والبيان.

وهذا التعليم هو المراد بقوله تعالى: ﴿ويعلمكم الله﴾.

الوقفة الثانية: أن من تعليم الله ما يتعلق بعقول عباده وقلوبهم بأن يلهمهم مراده من كلامه، ويفقههم في الدين، ويهديهم هداية توفيق لما اختلف فيه من الحق.

وهذا هو تعليم الهداية التوفيقية بعد هداية الإيضاح، لأن المجتهدين يختلفون في معرفة المراد، والحق واحد يوفق له فئة واحدة من المختلفين، والبقية لايهتدون إلى المراد، وأسباب اختلافهم أفردها العلماء بالتصنيف كالشافعي وابن حزم وابن تيمية وغيرهم، فمنهم معذور مأجور، ومنهم مؤاخذ مأزور.

وتقوى الله من أسباب هداية التوفيق، ولا يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ويعلمكم الله﴾ لأن الآية كما أسلفت عن تعليم البيان والتفصيل.

وإنما يدل على ذلك نصوص خارج الآية نكتفي منها



هل وعد الله المتقي بأن يعلمه؟

بما لانزاع في صحته كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ (الأنفال: ٢٩).

ومثل ذلك الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه.. قال: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة: حدثنا خالد بن مخلد: حدثنا سليمان بن بلال: حدثني شريك بن عبدالله بن أبي نمر: عن عطاء: عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، ومايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

قال أبو عبدالرحمن: من التقوى التقرب إلى الله بالطاعات، ومن ثمرة التقرب أن يكون الله سمعه وبصره.. ومن كان الله سمعه وبصره فقد هدي إن كان من أهل العلم علمًا وسلوكًا، وإن كان عاميًا وفق لسلوك المراد الصحيح.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لايشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة».

قال أبو عبدالرحمن: كل تقرب من العبد إلى الله فهو تقوى، وقرب الله من عبده يشمل تعليم الهداية التوفيقية.

والاستنباط من صحاح النصوص بمثل هذا واسع، إضافة إلى ما سلف من كلام العلماء واستدلالهم بالأحاديث التي هي نص في الموضوع، ولافراغ لي لتخريجها.

الوقفة الثالثة: من جعل جملة ﴿ويعلمكم الله﴾ حالاً من فاعل ﴿واتقوا﴾ فلا يصح التقدير بجملة «مضمونًا التعليم».

بل يكون التقدير متضمنًا فعلاً للفاعل هكذا: ضامنين أنتم تعليم الله لكم. وهذا لايصح لأن الضمانة من الله لا من فاعل اتقوا.

فلا يصح حينئذ جعل الجملة حالاً من الفاعل .. على أن ضمانهم صحيح معنى بضمان الله لهم، فضمانهم لازم معنى، وليس معنى مباشرًا.

والمراعى صحة الأسلوب النحوي بأن تعليم الله ليس حالاً من الفاعل. مع أن الحال وجه مرجوح بدخول الواو على المضارع، ووجه مردود بعلل أخرى تأتي.

الوقفة الرابعة: التأويل بجعل الجملة حالاً مقدرة صحيح المعنى، والتقدير: ضامنين تعليمكم في المستقبل .

إلا أن ذلك ضعيف مرجوح نحوًا.

الوقفة الخامسة: المعنى في الوقفتين الثالثة والرابعة ـ لو صحت دعوى الحال ـ ضمان تعليم البيان المتعلق بالنص لا تعليم الهداية المتعلق بالعقل والقلب.

الوقفة السادسة: يُعيِّن أن المراد تعليم الأحكام بيانًا وإيضاحًا لا تعليم توفيق للفهم الصحيح أن الآية مسبوقة بما يتعلق به الأمر بالتقوى من الأوامر والنواهي في أحكام الدِّين، وأن مفعول ويعلمكم الله مقدر بما تتعلق به التقوى.. أي ويعلمكم الله ما تتقون.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «أي اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو يعلمكم مافيه قيام مصالحكم، وحفظ أموالكم، وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لاتعلمون ذلك.

وهو سبحانه العليم بكل شيء، فإذا شرع شيئًا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن تبع شرعه»(٢٩).

الوقفة السابعة: أن العطف جائز، والمعنى اتقوا الله ويعلمكم الله ما تتقون، فالله عطف أمره على وعده فالمعنى افعلوا ونفعل كما تقول: اكتب وأملي عليك.

والمتوقع أن يكون الوعد قبل الأمر، ولكن سوغ مجيءَ الأمر قبل الوعد أنه سبق من الله أوامر ونواه في أحكام الدين، فجاء الأمر بالتقوى بعدها، وستأتي أوامر ونواهٍ أخرى من التشريع الذي لم ينته بعد حال نزول الآية.

وهذا الوجه جائز في الصناعة النحوية، ولكنه غير مراد هاهنا.

وبيان ذلك أن تعليم الله للخلق تعليم بيان وتفصيل مضمون كائن ولابد سواء اتقى المأمورون أم لم يتقوا.

فلو جعلت «ويعلمكم الله» معطوفة لكان الوعد بالتعليم مشروطًا بالتقوى، لأن الخبر بفعل في المستقبل وعد، فإذا جاء هذا الوعد بعد طلب من الموعود اقتضى سياق الكلام أن الوعد مشروط بتحقيق الطلب.

وليس هذا الاقتضاء بدلالة أداة شرطية في الكلام اقتضت ذلك، وإنما معقول الكلام ـ لا دلالته النحوية ـ أن الوعد مرهون بتحقق الطلب.

الوقفة الثامنة: العطف لا ينافي جعل التعليم جزاء للأمر كما قال الشيخ محمد عبده.. بل هو جزاء له في معقول الكلام لا مدلول روابط النحو كما أسلفت.

وإنما منعنا من دعوى العطف ـ مع جوازها نحوًا ـ لأنها تفضي إلى خلاف المراد، وهو أن التعليم مرهون بالتقوى.

والواقع أن كتاب الله تعليم للناس مؤمنهم وكافرهم.

الوقفة التاسعة: الصواب أن الجملة على الاستئناف، وهو الوعد من الله بأن يعلم عباده مايتقون بإطلاق سواء اتقوا أم لم يتقوا.

أما تعليم الهداية التوفيقية فيأتي من الله ابتداء كما يحصل للمصطفين من الرسل، ويأتي جزاء على التقوى كما يحصل لعامة المحسنين.

الوقفة العاشرة: الإعراب على الاستئناف يقطع الجملة عما قبلها إعرابًا ولا يلغي المناسبة المعنوية.

والرابط ها هنا: أن عليكم أيها العباد التقوى لتنالوا الخير، وتقوا أنفسكم النار، وعلينا أن نبين لكم ما تتقون.. وهذا وعد لازم سواء اتقيتم أم لم تتقوا لتقوم عليكم الحجة.

فالمنع من العطف باختيار وجه الاستئناف حرر الكلام عن جعل الوعد مقيدًا بتقواهم، وجعل الوعد مطلقًا مرتبطًا بما قبله ارتباطًا معنويًا.. بيانه أنكم لن تتقوا ـ إذ أمرتكم بالتقوى ـ إلا بمعرفة ما تتقون، وأنا ضامن تعليمكم ما تتقون وإقامة الحجة عليكم.

الوقفة الحادية عشرة: أن العكبري ذكر وجهين لإعراب جملة ﴿ويعلمكم الله﴾ أحدهما أنها حال من فاعل اتقوا، وثانيهما أنها حال مقدرة.

والواقع أن الوجهين كليهما حالان مقدرتان.

فتقدير الأولى بوقت تقترن به هدايتهم، فتكون الهداية في ذلك الوقت، والهداية على الاستقبال بعد الأمر.

وتقدير الثانية بالمستقبل بعد اهتدائهم.

الوقفة الثانية عشرة: أن الإعراب بالحال غير صحيح، وليس ذلك لأن جملة الحال مصدرة بفعل مضارع مثبت فلا تباشره واو الحال؛ بل هذا وارد صحيح، وحذف الواو كما قال ابن عبدالنور غير لازم ولكن الأكثر الحذف، ومع وجودها فلا ضرورة لتقدير الكلام ليكون جملة اسمية في مثل: جاء زيد ويضحك عينه، فقد اعتبر ابن عبدالنور من التكلف تقدير: وهو يضحك.

وذكر قول همام بن مرة:

فلما خشيتُ أظافيره
نجوتُ وأرهنُهم مالكا

والواقع النحوي أن واو الحال يكثر وجودها مع الجملة الاسمية ويقل في الجملة الفعلية، وليس المعنى أنه يمنع وجودها مع الجملة الفعلية.

وإنما امتنع الإعراب بالحال في الآية الكريمة لانتفاء ضمير في الجملة الفعلية عائد إلى ذي الحال في هذه الصورة ليصح وجود الواو.

فلو قال: واتقوا الله وتعلمون جاز جعل الجملة حالية.

الوقفة الثالثة عشرة: على فرض صحة إعرابها حالاً فلا يتعين جعل التعليم وعدًا على أنها حال مقدرة؛ بل المعنى اقتران الحال بالأمر، فالتقدير: واتقوا الله والحال أن الله يعلمكم الآن ما تتقون من مخالفات تتعلق بالدِّين، وكتابته، والإشهاد عليه.. إلخ.. فيكون مآل المعنى أن عليكم التقوى وعلينا تعليمكم ما تتقون.

الوقفة الرابعة عشرة: لم أمنع دلالة الآية على الوعد بهداية التوفيق لمجرد دلالة السياق فحسب، ولم أقيد بالسياق عموم «يعلمكم».. بل أرى أنَّ يعلمكم لاتشمل هداية التوفيق، ولاتدل على غير هداية الإيضاح والبيان، لأن «يعلمكم» ليست بمعنى «تعلمون».

وقد يحصل التعليم إيضاحًا، ولايحصل العلم هداية وفهمًا مطابقًا للمراد، والله المستعان.

حوار مع

د. عبدالسلام المسدي

سلامة البناء النظامي للغة تحتم تكامل النحو واللسانيات


د. عبد السلام المسدي

أجراه: د. عبدالرحيم الرحموني

نظم معهد الدراسات المصطلحية التابع لكلية الآداب بفاس، بالتعاون مع شعبة الدراسات الإسلامية، ندوة دولية عن «الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية» شارك فيها عدد من الأساتذة الباحثين المهتمين بالمصطلح من مختلف الجامعات والمؤسسات داخل المغرب وخارجه. ولقد كان من بين المشاركين في هذه الندوة العلمية الدكتور عبدالسلام المسدي، الباحث التونسي المعروف باهتماماته وأبحاثه في مجال الدراسة اللغوية والنقدية، حيث صدر له عدد من المؤلفات، منها: «الأسلوبية والأسلوب»، «التفكير اللساني في الحضارة العربية»، «قاموس اللسانيات»، «الشرط في القرآن»، «مراجع اللسانيات»، «مراجع النقد الحديث»، «النقد والحداثة»، «قضية البنيوية»، «اللسانيات وأسسها المعرفية»، «النظرية اللسانية والشعرية في التراث»، «المصطلح النقدي»، «ماوراء اللغة»، و«في آليات النقد الآدبي».

وفي هذا اللقاء ناقشنا مع الدكتور عبدالسلام المسدي مجموعة من القضايا ذات العلاقة بالدرس اللساني والأسلوبي والمصطلحي.

ـ لكم كتابات واهتمامات باللسانيات، إلى أي حد يمكن أن تعد الدراسات اللسانية الموجودة في الساحة العربية دراسات عربية؟

* إن هذه الدراسات ـ كما تفضلتم ـ عربية بحكم أنها مكتوبة بلغة عربية، وبحكم أنها تحوي ترجمات من لغات أجنبية إلى اللغة العربية. وعربية هذه الدراسات ـ في نظرنا ـ لا تقل عن عربية دراسات تكتب بلغات أجنبية وتتناول اللغة العربية بأساليب لسانية حديثة. ويجرنا هذا إلى التذكير بما قد يبدو بدهيا في سياق المعرفة، وهو أن العلم لا يعرف جنسية، فالعلوم البشرية تنأي عن الفواصل العرقية والتقسيمات الجغرافية، وذلك في ركنين على الأقل من الأركان الثلاثة المكونة للعلم:

الركن الأول: يخص المنهج، فلكل علم منهج، والمنهج من الكليات المطلقة غير المرتبطة بالموضوع الضيق لها.

الركن الثاني: يخص الغاية، فاللسانيات تنشد غاية محددة هي التي تعطي العلم هويته وعلة وجوده، وهي البحث عن الكليات اللغوية في مستوى الظاهرة، انطلاقا من الخصوصيات النوعية في مستوى الألسنة، بدءًا بالخصوصيات الفردية في مستوى الكلامات، وفي هذا المستوى لا يمكن أن نسم حقلاً علميا بجنسية معينة.

يبقى الركن الثالث وهو الموضوع كما هو مشخص أو متحقق في لحظة معينة.

من هذا الباب يمكن أن نؤكد وجود لسانيات عربية، وهي عربية المحتوى وعربية اللغة عندما تكتب باللغة العربية، وهي عربية المحتوى وغير عربية اللغة عندما تكتب بلغة أجنبية انطلاقا من اللغة العربية. وهذه الأبحاث هي التي تتخذ اللغة مدارًا لأبحاثها أو تتخذ نماذج النصوص العربية مستندات لها، أو تتخذ تراث الفكر اللغوي منطلقا لقراءة حديثة.

ـ يرى بعض الباحثين أن اللسانيات قد حلت محل النحو، فهل يمكن أن ينطبق هذا على اللسانيات العربية؟ وإلى أي حد تخدم اللسانيات العربية اللغة العربية؟

* في سؤالكم شقان، وبخصوص الشق الأول نؤكد أن للسانيات صفة الوجود المستقل من الناحية العلمية، كما أن للنحو صفة الوجود المستقل من الناحية المعرفية. فالنحو يعمل على مستوى الألسنة البشرية لاستنباط النظام المتحكم بكل لسان، واللسانيات تنطلق من إنجازات الأنحاء لتنتقل إلى مستوى الكليات على حدود الظاهرة المطلقة. وعلى هذا الأساس: فإنه لا مناص، في مسيرة العلم، من



تواكب النحو واللسانيات معًا. ولذلك فإن النحو يظل قائمًا كمعرفة وضروريا كخبرة عملية، ولا يمكن لعالم اللسان أن يغض الطرف عن اللحن في اللغة، بل إن عمق الوعي في قضايا علم اللسان تحتم على الباحث أن يؤكد ضرورة سلامة اللغة العربية حتى لا يُخترق بناؤها النظامي الذي هو بناء مسلم لدينا بحكم التاريخ وبحكم الحضارة.

الشق الثاني يتصل بمدى خِدْمَة اللسانيات للغة العربية، وفي هذا وجه ثانٍ من التكامل بين اللسانيات والعلوم اللغوية المتصلة باللغة العربية، ودون أي رَيْب نلاحظ منذ سنوات كيف عمل جيل من اللسانيين العرب على أن يفيدوا بخبرتهم المعرفة اللغوية المتصلة بلغة الضاد، وخاصة في مجال المعجم وصناعة المعجم، أو في مجال النقد الأدبي وتطوير مناهج المعرفة الأدبية. وللسانيات أيضًا ثمارها على اللغة العربية فيما يخص البحث في المصطلحات، وأيضًا فيما يخص الجانب التربوي عند تدريس اللغة العربية وتطوير مناهج تدريسها سواء لأبنائها أو للناطقين بغير اللغة العربية.

- هل يمكن الاكتفاء في الجامعات العربية بدراسة اللسانيات، والاستغناء عن دراسة النحو؟

* تدريس النحو في الجامعات العربية يَتَشَكَّل بنمطين:

هناك تصور في الأقسام العربية بجامعاتنا يرى أن تدريس النحو امتداد لتكوين الملكة النحوية لدى الطالب، وهذا شيء لا يحكم عليه بصفة مطلقة، فهو قضية نسبية بحسب تمكن الطلبة عندما يدخلون إلى الجامعة من لغتهم العربية. ولكن بصيغة مبدئية عامة نعرف أن الجامعة ليست حرمًا لتلقين اللغات، وإنما هي حرم لتكوين المنهج الراقي في المعرفة.

وهناك تصور آخر يرى أن تدريس النحو يرمي إلى الترقية النحوية، وهذا لا مجال للاستغناء عنه سواء في صفوف الآداب العربية أو في صفوف اللسانيات، كما تحرص عليه بعض جامعاتنا في الوطن العربي، إذ إنها كلها تظل دائما محتاجة احتياجا كبيرًا إلى إدراج تدريس التفكير النحوي العربي ضمن برامجها.

- إن الحديث عن اللسانيات يقودنا أيضًا إلى الحديث عن الأسلوبية التي تدخل ضمن اهتمامكم، إلى أي حَد يمكن القول بوجود جذور أو ملامح أسلوبية في التراث اللغوي والنقدي العربي القديم؟

* سؤالكم سنحمله على المقصد العام من الناحية المعرفية، لا على المقصد الخاص، وإذا حملناه على المقصد العام فإننا نقول إن كل تراث إنساني لابد أن يحمل في جوانبه اهتمامات بالبلاغة أو بالخطابة، ولذلك فإنه صالح بأن تعاد قراءته قراءة أسلوبية. وهذا يصدق على التراث اليوناني وعلى التراث اللاتيني مما نعرفه، وقد يصدق على التراث الهندي والصيني وما شئت. وما هو من باب الخصوصية في تراثنا العربي هو أن حضارتنا قد استندت إلى مقومات إبداعية في مجال اللغة، فكان للشعر حظ يختلف عن حظه في المواريث الإنسانية الأخرى، وكانت البلاغة والخطابة على قدر من القوة في مركزية المؤسسات الاجتماعية، والأهم من ذلك كله أن العنصر الإسلامي حينما دخل على المقوم العربي بمجيء رسالة الإسلام قد أسبغ على هذا المقوم البياني صبغة قدسية بنزول النص المعجز: القرآن الكريم. ومن هنا تولدت فروع ضمن مباحث العلوم اللغوية تحت دائرة علوم القرآن ومبحث الآيات، هي ألصق المعارف باهتمامات الأسلوبية الحديثة.

- هناك جانب آخر يحظى باهتمامكم أيضًا، هو علم المصطلح، ولقد حضرتم إلى المغرب للمشاركة في "ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية"، ماذا يمكن أن تقولوه عن المصطلح من ناحية الدراسة ومن ناحية المنهج؟

* هذه المناسبة كانت فرصة لاستثمار اللقاء العلمي الرصين، وكانت فرصة أيضا لتدقيق بعض القضايا المتعلقة بالمصطلحات، وهو ما يحصل عادة في كل الملتقيات العلمية. الإضافة النهائية التي استمتعنا بها في هذا اللقاء، لقاء مدينة فاس، هو بروز وعي جديد لقضايا المصطلحية، أو لنَقُلْ لقضايا علم المصطلح كما يجب أن يُطبق لا في الحقل العربي عامة، وإنما في الحقل العلمي المخصوص، والذي اختير لهذه الندوة هو حقل العلوم الإسلامية. ومعنى ذلك أننا دخلنا بهذه الندوة على المستوى العربي دائرة جديدة من مناطق العمل؛ هي دائرة التخصص الدقيق دون التخصص الأوسع، وهو علم المصطلح عامة، وكذلك دون التخصص الكبير الواسع وهو المعرفة اللسانية العامة. هذه الندوة إذن هي إيذان بأن الوعي العربي في هذا المجال آخذ طريقا مستجدة تريد أن تبحث فروع المعرفة بمنظار علمي ينطلق من فحص أدواتها المفهومية عبر جهازها المصطلحي، وهذا العمل وعي دقيق مهم نتمنى أن يعم انتشاره وإشهاره على سائر حقول المعرفة العربية الإسلامية.

- وعيا لهذه الأهمية التي أشرتم إليها، قامت مجموعة من الأساتذة الباحثين بإنشاء معهد الدراسات المصطلحية بفاس، وقد اطلعتم على دليله، هل لكم كلمة في الموضوع؟

* هذا عمل جاد ويستجيب لحاجاتنا العربية التي تتأكد يومًا بعد يوم في نطاق النقص البارز الذي نلحظه في واقعنا المعرفي وهو غياب التوثيق، فالعمل البيبليوغرافي (رصد المراجع أو سردها في مسارد) ركيزة ضرورية في كل عمل علمي، ومن مؤسساتنا العربية ما يهتم به نسبيا، ومن الأفراد ما يهتمون به، ولكن التوثيق البيبليوجرافي (فن توثيق المراجع) لم يدخل بعد في تقاليدنا العربية بقيمته الحقيقة. نتمنى أن تقع مراسلة الأطراف العربية الأخرى لإشعارها به، ولاستكتابها حتى يستكمل العمل (الببليوجرافي) الذي هو بطبيعته عمل يمتاز بشيئين:

أولاً: أنه عملٌ لا يكُونُ إلا جماعيا، ولا يمكن لطاقات الأفراد أن تفي بحاجاته.

ثانيا: أنه عمل مسترسل لا يمكن أن يقف أو أن يدَّعي الكمال في لحظة من لحظاته. مرة

أخرى هذه انطلاقة شائقة سواء في تصور الندوة وأهدافها البعيدة، أو في ترسيخ سنة العمل الببليوجرافي في مجال المصطلح.

- إن اهتماماتكم الواسعة والمتعمقة، تدفع القارئ المتتبع لكتاباتكم إلى أن يلحظ اهتماما متزايدًا لديكم بالتراث، وخاصة في السنوات الأخيرة، إلامَ يعزى ذلك؟

* هذه قضية في الحقيقة ترتبط بما يمكن أن نسميه (باستراتيجية) إنجاز المعرفة، وفعلا كنا قد اهتممنا بالتراث في فترة لم يكن الوضع العربي فيها مقتنعا كل الاقتناع بوجاهة المقولات عن اللسانيات الحديثة، فكان مجال عملنا أن نستنطق التراث العربي الإسلامي في ضوء مقولات اللسانيات المعاصرة، وغاياتنا الخفية إذ ذاك، فضلا عن استنباط مخزون التراث من الناحية المعرفية، الإقناع بوجاهة تكامل المعرفة الحديثة مع المعرفة التراثية. هذا شيء أصبح اليوم بدهيًا أو كالمتفق عليه. فلم يعد أحد يناهض استثمار المعرفة المعاصرة في إعادة استنطاق تراثنا. نحن اليوم على المستوى العربي في منطلق مرحلة أخرى هي مرحلة تأسيس أدوات العمل، وتركيز آليات البحث وأجهزته، من مصطلح وتوثيق، ودقة المنهج بصفة خاصة، وكذا الوعي بإشكالاته. وبحسب هذه المرحلة نتعامل مع مدارات البحث كما نستطلعها، وعلى هذا الأساس، واستشرافًا لمرحلة قادمة، نحاول ببعض جهودنا المتواضعة أن نسهم في مباحث المعرفة المعاصرة في مجال اللسانيات ومجال النقد الأدبي على وجه الخصوص، ولكننا أيضًا نحاول أن نعيد استنطاق تراثنا العربي الإسلامي لا بحيرة إثبات وجاهته لدى الآخرين، ولا بحيرة إثبات وجاهة المقولات المعاصرة لدى روادها المتشككين أو المترددين، وإنما لننجز القفزة المرجوة على مستوى استثمار المقولات المنهجية والمضمونية المتحكمة في التراث التي يمكن أن تساعدنا اليوم على أن نعرف هذا التراث معرفة أكثر جدة، وأن نعرف من خلال تراثنا ذواتنا، ثم أن نستشرف إسهامًا كونيا على مستوى العلم لا بالشكل المحدود برسوم الانتماء الحضاري، وإنما بأجنحة مطلقة على مستوى الانتماء الإنساني.

قصيدة:

الهوى حلب

شعر: زهير أحمد المزوّق

«إلى مدينة حلب، وإلى بعض أدبائها الذين بعثرتهم عني النوائب»

نَادتْ ، فَـضَمَّ لِقـاءَنا الأدبُ ... حلَبٌ ومـا أدراك مـا حلبُ ؟!

هيَ جـامعٌ .. شمـختْ مآذنُه ... وتوضّـأت بجـلاله القِببُ

وثقـافةٌ كـالنُّورِ مُـشرقـةٌ ... وحضارةٌ تزهو بها الحِقَبُ

من ألفِ عـامٍ .. سيفُ دولتها ... عَـزَّت بظلّ سيوفِه العَرَبُ

وأبوفراسٍ، كـان شاعـرُها ... رقصتْ على أوتارِه الشُّهبُ

والقلعةُ الشمّاء شَامخةٌ ... بين الخلودِ وبينها نَسَبُ !

تلكَ المكارمِ تُفتدى بِدَمٍ ... حُـرٍّ ، ويَرخصُ دونَها الذَّهبُ

لِلّهِ مـجدٌ .. باتَ يحرسه ... شَـعْبٌ أصيلٌ ليسَ ينشَعِبُ

لي فيه أحبابٌ وقد عُرِفوا ... بالودِّ ، لاغـدرٌ ولاكـذبُ

إنْ أشرقوا فالقلبُ مسكنهُم ... والقلب مسكنُهم إذا غـربوا

من سبعَ عشْرةَ كانَ يجمعُنا ... سَبَبٌ ، فَبُوركَ ذلك السَّببُ

الخيرُ والفِكرُ الذي سطعتْ ... أضواؤه ، والشعرُ والكتب

وَدّعْتُها .. وبمهجتي ألمٌ ... يُدمي ، وقدْ شَطّتْ بِنا النُّوَبُ

فإذا سُئلتُ عن الهوى هَتَفَتْ ... منّي الجوارحُ : الهوى حَلَبُ

ملامح تراثية في مدارس التجديد الفني

د. عبدالله التطاوي

سؤال محوري يدور حوله هذا الحوار الموجز، كشفًا عن العمق التراثي الكامن وراء حركات التجديد في الأدب العربي، وتحمل الإجابة عنه أكثر من دلالة يمكن تأملها ومراجعتها من خلال أربع زوايا محددة:

أولاها: محاولة تأمل الأصول التراثية عند شعراء التجديد الحضاري، وهل كانت ثوراتهم المزعومة تنطلق من فراغ؟ أم ظلت دالة - بطبيعتها - على انتماءاتها إلى جذور قديمة تضرب في أعماق الموروث منذ فجر التاريخ الأدبي.

والثانية: طبيعة التواصل ومنطق الإضافة الذي يبدو طبيعيا أن يستوحيه المتأخر عن المتقدم، إلى جانب ما يضيفه إليه من خلال إبداعه الخاص به وبعصره على السواء.

والثالثة: تظل رهنا بطبيعة مدارس التجديد الثقافي، وما لها من علاقات معقدة بحركة الفكر في عصرها، وكذا بمصدرها العقلي المتميز في سياق تلك الحركة ومن خلالها.

الرابعة: تعكسها الأبعاد التجديدية التي تحكيها مواقف مدارس المحافظين من الشعراء الذين اشتد انتماؤهم للتراث، وبرزت لديهم خيوط التجديد، فظلت معلقة على هامش الإبداع الفني بالقياس إلى حجم الموروث وهيمنته على الشعراء كلما انخرطوا في مجال النظم وحقول الإبداع.

في حدود الزاوية الأولى ومن خلالها يمكن أن نتأمل جوهر حركات التجديد من منظور الابتكار في حدود الفن الموروث، وهي حقيقة تحكي جانبا من الحركة النواسية إذا ما ربطناها بتاريخ التمرد على مقدمة الطلل باعتباره واقعا وجزءا من إبداع شعراء الجاهلية أنفسهم، وخاصة ما كان من إبداع صعاليك العصر نفسه لمقدمات فروسية مثّلت ضربا من الخروج الحاد على النمط الثابت، ومحاولة لتجاوز جمود المقدمات المكررة التي تعارف عليها شعراء الطلل من أبناء القبائل الذين التزموا بعقدها الفني التزامهم بعقدها الاجتماعي.

من هنا تبدو أصوات التجديد الحضاري وقد تهاوت بشكل واضح أمام ضغوط المادة التراثية التي أحاطت بأقطاب ذلك التجديد من كل جانب (خاصة في عصر التدوين)، وخاصة أن أولئك الشعراء ظلوا خاضعين - بالدرجة الأولى - لثقافاتهم التراثية، ومن ثم ظلوا موزعين نفسيا بين حتمية الإفادة من المادة الموروثة، وتسجيل انعكاسات المادة الحضارية على تجاربهم، وبذلك ظلت حركات التجديد بمثابة سياقات دالة على حتمية بقاء القديم، وصلاحيته للتعايش مع الجديد، مع ثبات قدرته المؤكدة على البقاء والاستمرار والتجاوز والتواصل في إطار أنساق فنية تلتقي فيها الصيغ المزدوجة؛ بل قد تجتمع فيها بوتقة المتناقضات المتصارعة بين منطقتي القدم والحداثة.

وفي حدود الزاوية الثانية بين التواصل والإضافة يمكن تتبع أبعاد حركة المحدثين عموما في عصور الحضارة ورصد ملامحها الكبرى، فإذا بالشاعر يكرر نفسه، ويكرر أسلافه، في الوقت نفسه الذي يضفي فيه من إبداعه ما يسجل دور «الأنا» في الحوار المتكرر مع «الآخر» ومن خلاله، وليكن «الآخر» هنا مرتبطا بمادة ذلك الموروث الذي أدرك خطره القدماء منذ تغنى به امرؤ القيس قائلاً:

عوجا على الطلل المحيل لأننا
نبكي الديار كما بكى ابن خذام

وهي المقولة نفسها التي سجلها قول كعب بن زهير:

ما أرانا نقول إلا معارًا
أو معادًا من لفظنا مكرورا

فبدت رؤية الشاعرين كليهما أقرب إلى مدلول ما سجلته مقولة ت.س. إليوت حول دور الموروثات والمواهب الفردية في مرحلة الإبداع وتخلق العمل الفني كأصول أولى لذلك الإبداع لايمكن الاستغناء عنها بحال.

وعلى مستوى التطبيق في منطقة الإبداع هذه كانت مواقف المحدثين، وكانت رؤية جيل المولدين في العصر العباسي ممن شغلهم الحنين إلى حسن البداوة الذي انعكس لديهم في طبيعة البناء الفني للقصيدة على مستوى الصياغة الشكلية والمحاور التصويرية، حيث ظل للحس الجاهلي هيمنته التقليدية عليهم وعلى صورهم، كما استمرت للقالب التراثي سيادته وانتشاره، وعلى هامشه بقيت المساحة محدودة لبروز معالم الحس التراثي على نحو ما يمكن تأمله منهجيا وتطبيقا من خلال قراءة ديوان شاعر مثل بشار بن برد في رحلة القصيدة العربية لديه بين الأموية والعباسية، ومن ثم بين معالم التبدّي ومقومات التحضر التي استوعبتها ووعاها شاعرها.

أما الزاوية الثالثة فمن الممكن تأملها من منطق الحس التراثي العام ممزوجًا بالانفعال الخاص لدى الشاعر المجدد، بما يشي بكشف طبيعة الاتساق والتواؤم بين الأنا والموروث، ومدى الإفادة الحتمية منه، مهما بلغت درجة الحس الانفعالي ضمن معايير الصدق بكل معالمه وصوره، خاصة لدى الشاعر المثقف حين يبدو وقد جمع في ذاكرته أكبر كم من مصادر الفكر، على تناقضات تلك المصادر بين علوم الأوائل في عصور التدوين، والعلوم المستحدثة والمترجمة. فمن خلال هذا المزيج المعقد صدرت النظرية الشعرية معلنة عن فهم جديد لتداخلات الفكر والشعور، وعندها تحولت العملية الشعرية إلى خليط متميز يلتقي فيه الموروث بكل فروعه مع الحس الانفعالي لدى الشاعر؛ الأمر الذي يبدو أشد بروزا في الحماسات وروميات الشعراء العباسيين ممن شغلتهم معارك العرب والروم، فكانوا أقرب إلى

الصدق الانفعالي على المستويين الفردي والجماعي؛ في الوقت الذي كانوا فيه أقرب - أيضا - إلى المادة التراثية في تشكيل الصور ومعالجة الموضوعات، على غرار ما صوره أبو تمام في مدائحه موزعا بين القديم والجديد، بين مادة البداوة ومنطق الحضارة، بين المادة الجاهزة المنقولة والمادة الجديدة المبتكرة، ومن هنا كان لقاء مدرسة التجديد الثقافي مع بقية الاتجاهات في تعلقها المؤكد بهذا الموروث، وإن شئت الدقة فقل في صدورها عنه قبل أي مصدر آخر.

والزاوية الرابعة تعكسها الأبعاد التجديدية في مدارس المحافظين، وكأننا - هنا - نرصد نقيض الزاوية الأولى، فلدينا مدرسة تشبثت بالموروث، ولم يشأ شعراؤها أن يخرجوه عن أطره إلا قليلاً، وفي كثير من الحرص والحرج. وعند هؤلاء الأقطاب الكبار بدت المادة التراثية أكثر عمقًا، فكان انتماؤهم الأول إلى المصادر الأدبية القديمة، وكان حوارهم الدائب حول المادة التاريخية بفروعها المختلفة، مما يعد أصلاً من أصول إبداعهم لايكاد الشاعر العظيم يتجاهله في أي من مواقف إبداعه.

وظل أولئك الشعراء الكبار على صلة وثيقة لاتكاد تنفصم بمادة عصرهم ومصطلحاته، وكأنهم أبوا أن يرددوها في الشعر، على خلاف ما وقع من شعراء التجديد الذين شغلهم - بالدرجة الأولى - منطق التجديد قبل أي اعتبار آخر؛ الأمر الذي تعكسه لنا موازنات القدماء مثلا بين البحتري وأبي تمام.

من هنا يصعب أن نتهم شعراء هذا الاتجاه بالعزلة الثقافية أو الحضارية عن معطيات واقع العصر وسياقات تياراته، أو حتى عن الموروث بكل صوره، بل حاولوا أن يجمعوا في مزاوجة هادئة وجادة بين الاتجاهين احتكاما بذلك إلى طبيعة النشأة، وارتباطا بما ترسب في وعيهم الفكري ووجدانهم الأدبي على ذلك النحو الذي طمح إليه أبو تمام حين نصح تلميذه البحتري بأن يحفظ من أشعار القدماء عشرة آلاف بيت ثم ينساها، وهو ما انعكس - بدوره - لدى الشاعرين كليهما فيما جمعه كل منهما في ديوان الحماسة من واقع اختياره مما أبدعه أسلافه.

من هنا بدت الأصول التجديدية عاملاً بارزًا في تكوين المرويات التراثية، وفي ضبط حركة المدارس والاتجاهات المحدثة، بما يظل دالا على تأكيد مقولة التفاعل الحتمي بين المادتين التراثية والحضارية، إذا ما ربطنا أيًا منهما بمدارس الحداثة أو المحافظة، فما كان للتراث في مدارس المجددين كان للواقع الجديد في مدارس المحافظين، ومن خلال المحورين معًا كان لقاء القمم في عصور الأزدهار الأدبي.



كلمات مضيئة :

بعد ٨٦ عامًا

وحيد الدين خان

من جملة القوانين التي تم اكتشافها في مجال علم الضوء ما يطلق عليه «قانون الانكسار»، وهو يعرف الآن في الأوساط العلمية ب «قانون سْنِلّ» نسبةً إلى العالم الدنماركي دبليو آر. سنل (W.R. Snell) الذي كان قد اكتشفه لأول مرة. وهذا الاكتشاف وإن كان «سنل» قد توصل إليه في سنة ١٦١٨م، إلا أنه ظل مطمورًا في زوايا النسيان ولم ير النور إلا بعد ٨٦ عامًا، وذلك عندما اطَّلع عليه الفيزيائي الهولندي كريستيان هويجنس (Christian Huygens)، فأشار إليه في مقال له نشر في عام ١٧٠٣م.. وبعدئذ فقط أدرك الناس أهمية اكتشاف «سنل» العلمي هذا.

إن أمر الآخرة كذلك يشبه هذا إلى حد كبير. فكم من عباد اللّه المخلصين يصنعون معروفا في السر بحيث لا يكاد يطَّلع عليه أحد من البشر. وكم من الناس يعملون على تحقيق بعض المشاريع الخيرية ولكن أسماءهم لا تنشر في الصحف بأحرف بارزة. وكم من خائف من اللّه ينفجر في صدره بركان الخشية الإلهية، غير أن العيون المبهورة ببريق المظاهر السطحية لاتقدر على رؤيته. وكم من أناس طيبين أتيحت لهم الفرصة لكي يعتدوا على الآخرين، إلا أن الخوف من عقاب اللّه كبَّل أيديهم وأرجلهم. وهكذا ثمة كثير من عباد اللّه الصالحين عاشوا في الدنيا مغمورين؛ فلم يعرفهم القريب ولا البعيد ولم تُسلَّط الاضواء على ما أدوا من خدمات جليلة نحو الإنسانية. ولكن هذا الوضع لن يدوم قائمًا كما هو إلى الأبد. فإن اللّه سبحانه، وهو علام الغيوب، سيكشف النقاب عن كل مستور يوم القيامة. وعندها سيرى الكل عمله رأي العين، حتى لو كانت هناك ذرة من خير عملها الإنسان في ظلام الليل، فإنها ستتجلي يومئذ كالشمس في رابعة النهار، وسيجزي اللّه فاعلها الجزاء الأوفى كما وعد على ألسنة أنبيائه ورسله عبر العصور ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾ (الزلزلة: ٧، ٨).

حكايتان شعبيتان قديمتان متشابهتان

إحداهما عربية والأخرى فرنسية

د. محمد بن سليمان السُّديس

هما حكايتان قديمتان: إحداهما من أرض نائية كانت تدعى قديمًا بلاد الغال، أو بلاد الفرنجة؛ أي الفرنسيين، والأخرى عربية. بطل كلٍّ منهما رجلٌ يُلْفي نفسه طبيبًا، وهو لايعرف في الطب قبيلاً من دَبيرٍ، إما طَوعًا كما في الحكاية العربية، أو كرها كما في الفرنسية، فيعمد إلى حيلةٍ توهم الناس بأنه حقًّا «طبيب بما أعيا النِّطاسِيَّ حِذْيَمَا» كما قال أوس بن حجر.

تروي الحكاية الفرنسية أن فتاة زوَّجها أبوها الفارس الفقير فلاحًا كان يضربها، فقررت الانتقام منه، وزعمت لمندوبَيْن للملك كانا يطوفان بالمملكة التماسًا لمن يداوي ابنةً للملك احتبس عظم سمكة في حلقها، ولم يفلح أطباء باريس كافة في العثور على وسيلة يخرجونه به، زعمتْ لهما أن بعلها الحَرَّاث حكيم ماهر لكنه غريب الأطوار فلايقرّ بمعرفته وقدراته الطبية مالم يُشبَع ضربًا. فأمر الملك بضربه، فلما ألفى نفسه في هذا المأزق تفتقت قريحته عن حيلة تمكَّن بها من إضحاك الجارية ضحكًا شديدًا أدى إلى خروج العظم الحبيس.

ولما أُجبر الفلاح فيما بعد أيضًا على مداواة عدد من المرضى، قال لهم إن سبيل شفائهم واحد لاثاني له هو أن يُحرقَ أحدهم، وليكن أعضَلَهم داءً، ليلتهمَ الباقون رمادَ رُفاته. ففي الحال أنكر كلٌّ منهم أن يكون شاكيًا من أية علةٍ، وخرج الجميع يسيرون وكأنما أنشطوا من عقال!

وأما الحكاية العربية فتشبه الفرنسية في الختام، أي في الحيلة التي اخترعها ذهن كلٍّ من الطبيبين الزائفين. وكان الطبيب في العربية حائكًا ادّعى البراعة في الطب، وأسعفه حُسْن جَدِّه في شفاء السلطان على يديه (ظاهراً) من سقم كان يقاسيه، كما أطعم امرأة قيل إنها كانت مريضة دجاجة مشوية، ولما كان داؤها ليس سوى الجوع فقد بدت عليها أمارات الشفاء. فلما مضى قوم يعرفون الرجل الحَيَّاك إلى السلطان، وأبلغوه أن معرفته بالطب ليست خيراً من معرفة أي مريض يعالجه، طلب الأفَّاق أن يُذهب به إلى المستشفى المكتظ بالمرضى وهو زعيم بإبراء مَنْ به عن بكرة أبيهم!

فلما خلا له الجوّ بالنزلاء قال لهم إن شفاء كل منهم سيتم إذا ماألقي في بُرمة مملوءة زيتًا يغلي! فما كان من كلٍّ منهم إلا أن أنكر أقوى إنكارٍ أن يكون معانيًا من أيٍّ سقم.

وبموازنة الحكايتين نجد أن الحكاية الفرنسية أنضجهما، لا لاحتوائها عدداً من عناصر الحكاية والتفاصيل اللازمة التي تخلو منها الحكاية العربية وحسب، بل ولإحكام الحيلة؛ إذ اقترح الطبيب أن يُلقَى برجل واحد فقط في النار لينجو الباقون. وهذا أدنى إلى القبول، وأقرب إلى إمكان التطبيق من أن يُطلب من كلٍّ من المرضى الجلوس في زيتٍ حارٍ، وهي جلسة هيهات أن يقوم منها فاعلها!

الحكاية الفرنسية: الفلاح الذي أصبح طبيبًا

وهذه ترجمتها عن الإنجليزية بتصرف يسير:

كان هنالك فلاَّحٌ كَدَّس ثروة طائلة بشُحّه وكَدِّه الدائب، فبالإضافة إلى البُرِّ الكثير

والعنب الوفير، والفضة أيضًا كان لديه أربعة جياد وثمانية ثيران في اصطبلاته. ولكن هذا الفلاح، على الرغم من هذه الثروة، مافكر في الزواج، وكثيرًا ماكان صحابه ومجاوروه يعذلونه بسبب ذلك، وكان يلجأ دائما إلى القول بأنه لم يصادف إمرأة كفأ لأن يتخذها له قرينةً، ولو صادف لفعل. وأخيرًا قرَّ رأيُ نَفر من هؤلاء الصَّحب والجيرة على أن يتكفلوا بأن يختاروا له خير من يجدون، وطفقوا يبحثون ويتحرَّوْن.

وكان يعيش، على بعد فراسخ معدودات، شيخٌ فارسٌ في معزلٍ عن الناس لأنه أرمل مسكين ذو متربة. وكانت له ابنة بارعة الجمال، حسنة التربية، كما كانت في سنٍّ ملائمة للزواج، ولكن أحدًا لم يعرها نظرة رغبة لعدم مقدرة أبيها على تقديم أي شيء معها. فخطبها أخيرًا رفاق الفلاح للفلاح بالنيابة عنه، وقد لبّى الشيخ الفارس طلبهم.

وهكذا ألفت الفتاة، التي كانت طيبة النفس ليست تحب إغضاب أبيه، نفسها مكرهة على القبول مما ضاعف استياءها.

مضى الفلاح مبتهجًا بهذه الشريكة اللائقة لإتمام إجراءات الخطبة، ثم صُنِعت حفلة الزفاف بسرعة خارقة للعادة.

لكن ما كادت تمضي على الزواج ليالٍ معدوداتٌ حتى أخذت الوساوس والأوهامُ تلعب في عقل هذا الفلاح ولُبِّه؛ ففكّر وقدّر؛ وهداه تفكيره وتقديره إلى أنه ليس ثمة من هي أقل ملاءمة لتكون قرينة له، على ماوصل إليه من رتبة في الحياة، من ابنة فارسٍ!

فماذا سيحدث لها وهو ناءٍ منهمك في حرث الأرض أو عمل آخر شبيه به، وهي تجهل جهلاً مطبقًا واجبات زوج الحراث التي عليها بلا جدال أن تظل في المسكن؟ لامحالة أن القسّ الذي يعدّ كل يوم من أيام الأسبوع أحدًا سيسعد جدًا بإيناس وحدتها. إنه سيزورها اليوم وغدًا وعلى شرف الزوج السلام. ماذا بوسعه أن يعمل إن لم يكن ثمة حل؟ قال في نفسه: «إذا أوجعتها ضربا في الغداة قبل خروجي فستظل تبكي سحابة النهار، وسيشغلها البكاء حتمًا عن التفكير في الاستماع الى العاشقين. وحين أروح في العشيِّ سأعتذر إليها، وأطلب منها الصفح، وأنا أعرف كيف أناله».

ثم دعا بطعام إفطاره منتشيًا بهذه الفكرة البديعة. وبعد تناوله، خطا تجاه السيدة وصفعها بيده الثقيلة الشَّثْنة صفعةً كانت من القوة بحيث بدت آثار أنامله الخمس جليَّة على مُحيّاها. ولم يكن هذا جملة ما تلقته منه، بل ضربها ضربات عدةً أخرى كما لو كانت حقًّا قد اجترمت جُرمًا. ثم غدا إلى حقله.

شرعت الفتاة البائسة تنحب وتتفجع على مقامها البئيس: أواه! لمَ ضحّيتَ بي ياأبتاه لهذا الفلاّح الجلف؟ أواه ياأمّاه! لَوْ لم أفقدكِ لما أمسيتُ عاثرةَ الجَدِّ إلى هذا الحَدّ! إلامَ ستنتهي بي هذه الحال؟

كانت في حال من الأسى لامزيد عليها، حتى إنها أبت الإصغاء إلى أساليب المواساة كافةً، وقضت بياض يومها في نحيبٍ ونشيجٍ كما توقع بعلها.

ولما عاد الفلاّح في العشية كان شغلهُ الشاغل تسكين سَوْرة غضبها، قائلاً إن الشيطان الرجيم كان وراء ذلك كله. وآلى على نفسه إلاّ يَمُدَّ إليها بالضرب يدًا مرة أخرى أبدًا. وأكثر من الاستعفاء والاستغفار ممثلاً دور المرء الصادق الآسف، التائب المنيب، أبرعَ تمثيل، مما جعلها توقن أنه تاب توبة نصوحًا، وتعلن أنها نسيت كل شيء. ثم تناولا العشاء معًا في جوٍّ يظلله الوئام، وعاد السلام تمامًا إلى جوّ المنزل.

لكن الفلاح لما رأى إفلاح خطته عزم، في قرارة نفسه، على اللجوء إليها كرة أخرى. وحالما استيقظ في اليوم التالي اصطنع ذريعة للنزاع مع امرأته وضربها من جديد، ومضى لطيَّته إلى حقله، كما صنع في اليوم السابق. أما هي ففقدت كل أمل، وباتت على يقين أنها ستكون بائسة إلى أبد الآبدين، وسلمت نفسها لأشجانها المؤلمة.

وبينما كانت رافعة صوتها بالعويل، إذْ برسُولين للملك يتقدمان إليها، وهما يمتطيان جوادين أبيضين، ويحيّيانها باسم الملك، ويطلبان القِرى حيث قد بلغ السَّغبُ مبلغه، فصنعت لهما خير مالديها، وبينما هما يتناولانه، استفسرت عن وجهتهما فأجابا:

ـ إنّا لانعلم على وجه الدقة، إننا نلتمس طبيبًا نطاسيًا، وإن اضطررنا فسنذهب إلى انجلترة. فالأَميرة (أيد) ابنة الملك عليلة فقد غَصَّت مذ أسبوع بعظم سمكة كانت تأكلها فانحبس في حنجرتها، ولم يُجدْ كلُّ مافُعل من أجل إخراجه! وهي لاتتغذى ولاتنام، وتعاني من ألمٍ مُبَرِّح! وقد أرسلنا الملك قانطاً وآملاً في الوقت نفسه أن نعثر له على طبيب قادر على علاجها. إنه إن فقدها سيمضي إلى حيث أَلقت رحْلها أمُّ قشعم!

فاجابت السيدة:

ـ لاتتجاوزا هذا المكان، فأنا أعرف جيدًا الرجل الذي تريدان، إنه طبيب بارع!

ـ ياألله! أَعلَى يقين أنت؟ ألست تهزئين بنا؟

ـ لا. بل أقول الحقَّ عينَ الحق. لَكن الطبيب الذي أعني غريبُ الأطوار جدًا. وتأخذ نزوته هيئة عدم الرغبة في استعمال موهبته. لذلكما فإني أحذركما من أنه مالم تضرباه ضربًا موجعًا فلن تظفرا منه بطائل.

ـ أوه ! أما إن كان الشأن شأن ضرب وحسب، فلتثقي بأننا سنشبعه جلدًا. إنه سيكون في أيد تحسن الضرب. نريد أن نعرف أين يقطن وكفى!

أشارت السيدة إلى الحقل الذي يعمل فيه بعلها. ونصحتهما ألا ينسيا النقطة المهمة التي حذّرتهما منها. فشكراها وتسلحا بهراوات غلاظ، ونخسا جواديهما ليحثّا الخُطى قبلَ الفلاّح، ولما اقتربا منه ألقيا عليه التحية نيابة عن جلالة الملك ورَجَواهُ أن ينطلق معهما إليه. فسألهما فاغرًا فاه:

ـ من أجل ماذا؟

ـ لتداوي ابنته، إنّا لعلى علم بما أُوتيته من حكمة طبية، وقد جئنا على جناح السرعة لنطلبك باسمه.

فأجاب الريفي بأنه يتقن فلح الأرض والاعتناء بها، وتصريف المياه فيها. وإن رغب الملك في أية خدمة من ذلك الضرب فإنه سيكون سعيداً بأدائها؛ أما الطبُّ فنفى معرفته بأي شيء منه بتاتاً.

بعد سماع كلامه هذا، التفت أحد الفارسين إلى صاحبه وقال:

ـ أرى أننا لن نفلح بالمجاملات، إنه لبحاجة إلى الضرب.

ثم ترجل الفارسان كلاهما وشرعا يضربانه بلاهوادة، فحاول في بادئ الأمر أن يبين لهما جَوْرَ صنيعهما، لكنه اضطر، فيما بعد، إلى الرضوخ للأمر الواقع لكونه أضعف الثلاثة، فطلب الصفح مستكيناً خانعاً، ووعد بتلبية مايُطلب منه برمّته.

عندئذ أمراه أن يمتطي صهوة أحد خيله التي يستخدمها في حرث الأرض، وجلباه إلى الملك.

كان الملك في حال يرثى لها من الغم بسبب خطورة حالة ابنته، وقد أحيت عودة المبعوثين الرجاء في نفسه، فأمرهما أن يمثلا بين يديه في الحال ويخبراه بثمرة بحثهما. وبعد أن جادا بأعظم الإطراء على الرجل العجيب الغريب الذي جاءا به، رويا مغامراتهما.

أصغى الملك إلى حديثهما ثم قال: ماعرفت قطُّ طبيباً كهذا! لكن بما أنه يستمرئُ الجلد، ولامناص منه لمداواة ابنتي، فليكن، وليُضرب جيداً!.

وبعد أن نُفِّذَ أمره هذا أمر الأميرة بالنزول، وقال، وهو يطلب من الفلاح أن يدنو:

ـ هذه، ياأيها السيد، هي الصبيّة التي عليك أن تعالجها.

فجثا الشيطان البائس على ركبتيه ملتمساً الرحمة مقسماً أغلظ الأيمان أنَّ لاعلم له بمقطعٍ واحدٍ من علم الطب.

وكان الملك يصدر إشارة بعد كل إجابة من هذا النوع، وفي الحال يُمطِر كتفيه باللكمات حَرَسيّان طويلان كانا واقفين متأهبين ومُسلَّحَين بالعصيّ، مما حدا به، في آخر الأمر، إلى الصياح بأعلى صوته:

ـ الرحمة، الرحمة! سأداويها يامولاي! سأداويها!

وقفت الصّبية بين يديه شاحبة، مفغورة الفم، توشك أن تقضي نحبها من فرط الإعياء وشدة الجوع، وأومأت إلى مكان ألمها وسببه. فكّر في سبيل للبدء في تنفيذ معالجتها، لأنه أدرك أن لاعودة، وأن أمامه خيارين ليس لهما ثالثٌ، فإما أن يجد لها شفاءً، وإمّا أن يجد دربه إلى مثواه الأخير متأثراً بالعقاب. فقال في نفسه:

ـ إن العلةُ إلاّ في الحنجرة، فإن اسْطعت إضحاكها فلربما قذفت العظم!

بدت هذه الفكرة له غير مُحالة التحقيقِ كلَّ الإحالة، فطلب أن تُشعل نارٌ كبرى في الساحة، وأن يُخلى له مع الأميرة والملك المكانُ بُرهة. فانسحب الحُضَّرُ. ثم طلب منها القعود، ثم خلع ثيابه مُبقياً أسمالا باليةً لستر ماينبغي ستره، ومدَّدَ جَسَدَه قرب النار، ثم طفق يحك بدنه وينظفه بمسامير سود معقوفة متلوّياً تلويّاً مثيراً للضحك، ومُحرِّكاً عضل وجهه حركاتٍ غريبةً، فلم تتمالك الفتاة نفسها، برغم الألم، من الضحك، ومع المحاولة انقذف عظم السمكة من فيها.

التقط الفلاح العظم، وهبَّ يعدو به صوب الملك هاتفاً:

ـ هاهو ذا يامولاي! هاهو ذا!

صاح الملك مغموراً بالفرحة:

ـ إنك أعدت إليَّ حياتي!

ووعد بأن يجزيه بفاخر الملبس. فشكره وطلب الإذن له بالعودة إلى وطنه لأن في داره ومزرعته أشياءَ عدةً تنتظر عنايته. فدعاه الملك أن يكون خليله وطبيبه دونما طائل، إذ ظل يكرر القول إنه كان حين استدعي، في عجلة من أمره شديدة، فلم يبق أي زاد في بيته حين شرع في رحلته، وأن عليه نقل القمح إلى المطحنة.

لكن لما أخذ الحَرسيّان يخبطانه ثانيةً، بعد إيماءة جديدة من الملك، وأوجس الضربات، استنجد طالبًا الإشفاق، ووعد أن يلبث فيهم حياته كلها إن شاؤوا لا يومًا واحدًا وحسب.

ثم اقتيد إلى حجرة مجاورة، وبعد أن نزعا ماعليه من أخلاق باليات، وقصّا شعر رأسه ووجهه، ألبساه ثوبًا قرمزيًا أنيقًا.

ولم يكن أثناء ذلك كلّه يفكّر إلا في شأنٍ واحد هو «كيف يفرُّ»! وكان يرجو ألاّ يمضي سوى قصير وقت قبل أن تسنح له النُهزة المواتيةُ مادام سيُترك بعض الوقت وحده.

ومالبث صيتُ الدواء الناجع الذي أنجزه حديثًا أن طبّق الآفاق، فهبّ إلى القصر الملكي، لاستشارته، أكثر من ثمانين عليلاً وعاجزاً من المدينة يحدوهم الرجاءُ بأن يفلح في علاجهم كما أفلح في علاج ابنة مليكهم من قبل. وتوسلوا إلى الملك أن يشفع لهم بكلمة منه. فخاطبه الملك:

ـ أيها السيد المُبجّل! أوصيك برعاية هؤلاء، داوِهم حالاً! ثم دعهم يذهبوا إلى أوطانهم.

فأجاب الفلاح:

ـ إن ذلك عينُ المُحال يامولاي، مالم يُعنِّي الله، فهم كثيرٌ جدًا!

فهتف الملك:

ـ عليَّ بالحَرَسيّين!

ومع دُنُوِّهما طلب الرجل البائس الصفح مرة أخرى، وهو ينتفض انتفاض العصفور بَلّلَهُ القطْر، ووعد أن يداويهم عن بكرة أبيهم حتى أحقر خادمٍ فيهم.

ثم طلب من الملك وكلِّ من يشعر بأنه صحيحٌ معافى أن يبرحوا الساحة. ولما خلا بالمعتلّين، صَفّهم معًا حول التنور الذي أوقد فيه نارًا هائلة، وقال:

ـ أيها الصُّحاب، إن إعادة الصحة إلى جمع غفير كهذا ماهي بالأمر الهيّن، ولاسيما بالسرعة التي تودُّون. لكني أعرف طريقة

واحدةً فريدةً، هي أن نُلقي بأشدكم سُقمًا في جوف النار، فإذا احترق ازدرتم رماد رُفاته. إني أعلم أن العلاج قاس، لكنه -لاشك- ناجعٌ. وإني لأحملُ على عاتقي تبعة شفائكم تامةً!

وما إن طرقت هذه الكلمات مسامعهم حتى سدّد كل منهم نظره نحو الآخر فاحصًا متمعنًا. لكن لم يكن في الجمع الحاشد كله، بل بين سكان نورماندي قاطبةً فردٌ واحدٌ مسلولٌ أو منتفخ من الاستسقاء بحيث تكون حالته خطرة.

ثم نظر الطبيب إلى الأول من اليمين في الدائرة وخاطبه:

- هاه إنك تبدو شاحبًا واهنًا! أحسبك الأردأ!

فما كان منه إلا أن هبَّ يجيب زائغ النظرات:

- أنا؟ ياسيدي! أبدًا أبدًا!! لاشحوب ولاوهن إطلاقًا! إني الساعة لأوجسُ العافية إيجاسًا قويًا، وماكنت في أي وقت بمثل هذه الصحة التي أتمتع بها الآن!

- تُحسُّ بأنك معافى أيها الوغد! فما جاء بك هنا إذن؟

فمرقَ الرجل مُروق السَّهم من الرَّميَّة صوب المخرج وفتحه، وأطلق ساقيه للريح.

كان الملك خارج الساحة في انتظار النتيجة متأهبًا لضرب الفلاح إن استوجب الأمر ذلك. فلما لمح المريض الخارج يُهرول سأله:

- أشُفيت ؟

- نعم، شفاءً تامًا يامولاي!

وبعد هنيهة ، ظهر آخر..

- وأنت؟!

- وأنا أيضاً .

حسنًا ماذا بوسعي أن أقول لك (أيها القارئ)! لم يقبل أحد صغيرًا كان أم كبيرًا، عجوزًا أم صبيةً، أن يزوّد الطبيب بالرماد المراد، وبرح المرضى كلُّهم مُدَّعين أنْ قد شُفُوا!

دخل الملك، والابتهاج يشع من طلعته، ليهنئ الطبيب، وماكان بوسعه التوقف لحظة عن الاستعجاب كيف حقق هذه المعجزات الكثيرات في زمن شديد القصر! فقال الطبيب:

- إن لديَّ يامولاي سحرًا لاتضاهى قوته أُنجز به علاجي الشافي!

ثم جاد عليه الملك بأحمال من الهدايا، ومنحه نقودًا وأفراسًا، وأكد له حبّه، وأذن له بالعودة إلى زوجه، على أن يأتي إذا احتيج إليه من غير ضرب.

واستأذن بعد ذلك الفلاح الملك للانصراف، ولم يعدْ مضطراً للكدح المرهق في سبيل لقمة العيش، وأبطل ضرب حليلته التي بات يحبها وباتت تحبه.

لكن الحيلة التي نفذتها زوجه جعلته طبيبًا، على رغمه.

الحكاية العربية

أما الحكاية العربية فهذا نصها كما ورد في كتاب الأذكياء المنسوب لابن الجوزي (ط. بيروت،١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١٠٥-١٠٦) من غير تعليق:

«قال الشيخ: حكى لنا أبو محمد الخشاب النحوي قال: جاز بعض الحاكة على طبيب فرآه يصف لهذا النُّقوع، ولهذا التَّمر هندي، فقال: من لايحسن مثل هذا؟! فرجع إلى زوجته فقال لها: اجعلي عمامتي كبيرة. فقالت: ويحك أيّ شيء قد طَرَأَ لك؟ قال: أريد أن أكون طبيبًا. قالت: لاتفعلْ فإنك تقتل الناس فيقتلونك. قال: لأبُدَّ. فخرج أوّلَ يومٍ فقعد يصف للناس، فحَصَّل قراريط، فجاء فقال لزوجته: أنا كنت أعمل كل يوم بحبَّة فانظري أيش يحصل. فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية فرأته فقالت لسيدتها، وكانت شديدة المرض: اشتهيت هذا الطبيب الجديد يداويك. قالت: ابعثي إليه. فجاء، وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضعف. فقال: عليَّ بدجاجة مطبوخة، فجيء بها، فأكلت فقويت، ثم استقامت. فبلغ هذا السلطان فجاء به، فشكا إليه مرضًا يشتكيه، فاتفق أنه وصف له شيئًا أُصلح به. فاجتمع إلى السلطان جماعة يعرفون ذاك الحائك، فقالوا له: هذا رجلٌ حائك لايدري شيئًا. فقال السلطان: هذا قد صَلَحْتُ على يديه وصَلَحت الجاريةُ على يديه فلا أقبل قولكم. قالوا: فَنُجرِّبُه بمسائل؟ قال: افعلوا. فوضعوا له مسائل وسألوه عنها. فقال: إن أجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها لأنه لايعلمه إلا طبيب، لكن أليس عندكم مارستان؟ قالوا: بلى. قال: أليس فيه مرضى لهم مدة؟ قالوا: بلى. قال: فأنا أداويهم حتى ينهض الكُلُّ في عافيةٍ في ساعة واحدة، فهل يكون دليلٌ على علمي أقوى من ذلك؟ قالوا: لا. فجاء إلى باب المارستان وقال: اقعدوا لايدخلْ معي أحد. ثم دخل وحده وليس معه إلا قيِّم المارستان. فقال للقيِّم: إنك والله إن تحدثت بما أعمل صَلَبْتُك، وإن سَكَتَّ أغنيتُك. قال: ما أنطق. فأحلفه بالطلاق، ثم قال: أعندك في هذا المارستان زيت؟ قال: نعم. قال: هاته. فجاء منه بشيء كثير فصبَّه في قدر كبير، ثم أوقد تحته، فلما اشتد غليانه صاح بجماعة المرضى فقال لأحدهم: إنه لايصلح لمرضك إلا أن تنزل إلى هذا القدر فتقعد في هذا الزيت. فقال المريض: الله الله في أمري. قال: لأبدّ. قال: أنا قد شفيتُ، وإنما كان بي قليلٌ من صداع. قال: أيش يقعدك في المارستان وأنت معافى؟ قال: لاشيء. قال: فاخرج وأخبرهم. فخرج يعدو ويقول: شفيت بإقبال هذا الحكيم. ثم جاء إلى آخر فقال: لايصلح لمرضك إلا أن تقعد في هذا الزيت. فقال: الله الله أنا في عافية. قال: لأبُدَّ. قال: لاتفعل فإني من أمسِ أردت أن أخرج. قال: فإن كنت في عافية فاخرج وأخبر الناس بأنك في عافية. فخرج يعدو ويقول: شفيت ببركة الحكيم. ومازال على هذا الوصف حتى أخرج الكُلَّ شاكرين!».

مخ العظام
مصدر مناعي جديد

د. نصر محمد عطواني

أنواع الطبِّ البشري الحديث كثيرة جدًا، والطب المناعي واحدٌ من أهم هذه الأنواع. ذلك لأن معالجة الطبيب لكثير من الأمراض لاتكون معالجة مجدية إذا أغفل الدفاعات المناعية التي يستعملها جسم الإنسان ضدّ المرض، والتي يجدر بالطبيب أن يشجعها، وأن يقوّيها بأكثر الطرق ملاءَمة لكل حالة من الحالات، من أجل قهر الجراثيم (البكتيريا) والسموم التي تسبب المرض، ومن أجل إزالة ضررها.

بداية الطب المناعي

منذ أن اكتشف لويس باستور (١٨٢٢-١٨٩٥م) في منتصف القرن التاسع عشر أن كثيرًا من الأمراض تتسبب عن كائنات حيّة متناهية في الصغر، جرت محاولات كثيرة ناجحة لإحداث مناعة ضدّ المرض من طريق استعمال كائنات ذات فوعة مخفّفة. فقد لوحظ منذ البداية أنّ كثيرًا من الأمراض لاتتكرّر الإصابة بها؛ فإذا ماأصيب الشخص بواحد منها، ثم شُفي، فإن الإصابة بذلك المرض تعطيه مناعة، فلا تقوى جراثيم ذلك المرض على تحطيم الدفاعات التي تكوّنت في جسمه أثناء مدة المرض السابق؛ وهكذا فإن اكتساب هذه المناعة يساعد ذلك الشخص على مقاومة عودة ذلك النوع من المرض إلى جسمه. وقد استمرّت الأبحاث والتجارب منذ ذلك الوقت حتى الآن بغرض تفسير هذه الظاهرة الطبيعية، وبغرض الاستفادة منها في تطوير علم الطب المناعي.

الأجسام المضادّة

كان أوّل الاكتشافات المهمة بعد لويس باستور في حقل علم المناعة ضدّ المرض هو ذلك الذي جرى في عام ١٨٩٠م في معهد كوخ في برلين. فقد اكتشف العلماء في ذلك المعهد أنّه عندما تدخل الجسم بروتينات غريبة عنه أو مادّة أخرى فردية، فإنها تثير في الدّم سلسلة من أعمال المقاومة، تتمثّل على وجه الخصوص بتوليد جزئيات كرويّة في الدم تسمَّى الأجسام المضادة (Antibodies)، أما الأجسام البروتينية الغريبة التي تسبّب هذه الإثارة عندما تدخل إلى الجسم من الخارج فقد سمّيت مولّدات الأضداد (Antigens). لقد أكّدت الأبحاث التي استمرّت منذ ذلك التاريخ أنّ جهازَ المناعة في الجسم يطلق سلسلة من حوادث المقاومة للمرض إذا واجه نوعٌ محدَّد من الخلايا شيئًا غريبًا عن ذلك النوع من الخلايا وعن الجسم، فيتحرّك جيشٌ منظم من الخلايا ضد (العدو الأجنبي)، وتكون طليعة هذه التحركات هي قيام مولّدات الأضداد بتحريض الكرّيات اللمفاوية على تأدية وظيفتها الرئيسية، وهي توليد الأجسام المضادّة التي تخوض معارك المقاومة ضد البكتيريا.

ظلّت المعارف تتزايد عن الأجسام المضادّة وعن مولدات الأضداد منذ بداية القرن العشرين حتى الآن؛ فقد أوضحت التجاربُ التي أُجريت في بداية هذا القرن أن العناصر التي تحفز على توليد الأجسام المضادّة لاتقوم بهذه الوظيفة إذا كانت هذه العناصر موجودة أصلاً في جسم الإنسان ذاته في الموائع، مثل بروتينات البلازما والزلال وعناصر الخلايا. وأما إذا كانت تلك العناصر قد نُقلت إلى جسم الإنسان من إنسان آخر أو من حيوان فإنها تؤدّي وظيفة إثارة ردّ فعل مناعي في الجسم وتوليد الأجسام المضادّة، لأنّ مولّدات الأضداد تكون في هذه الحالة الثانية غريبةً عن أنسجة الجسم وعن خلاياه.

ونتيجة لهذا الاكتشاف العلمي فقد أصبحت معرفة كيفية تَعرُّف أنسجة الجسم إلى البروتين الغريب الذي يدخل الجسم وكيفية تمييزه من البروتينات الأصلية في الجسم واحدة من الاهتمامات الكبيرة لعلماء علم المناعة في القرن العشرين، وقد توصَّل هؤلاء العلماء إلى أقرب التفسيرات من حقيقة هذه الظاهرة المهمّة، وهو التفسير الذي يقول: إن أنسجة الجسم تتعرف إلى مولدات الأضداد الغريبة لأنها تكون مختلفة عن خلايا أنسجة الجسم من ناحية التركيب الكيماوي. وتأتي أهمية الوصول إلى تفسير صحيح لحقيقة كيفية هذا التعرّف والتمييز من كون إخفاق أنسجة الجسم في هذا التعرّف سببًا محتملاً لحدوث ردود فعلٍ مناعية خاطئة وغير ملائمة، تؤدّي إلى مجموعة من الاضطرابات التي تعرف باسم أمراض المناعة الذاتية.

دور البروتين في مقاومة الأمراض

إنّ بروتين بلازما الدم هو الذي تتكوّن منه الأجسام المضادّة، ويمكن تجزئة بروتين بلازما الدم إلى أربعة عناصر هي: الزلال، وكريّات الألفا، وكريات البتّا وكريات الجاما. وإنّ كريات الجاما هي التي تحتوي على غالبية الأجسام المضادّة؛ إذْ يُشترط في العنصر، لكي يكون مولّدًا فعّالاً للأجسام المضادّة في ذاتها من غير أن يُمزج مع مادة أخرى، أن يكون ذا وزنٍ جزيئي عال، وهذا الشرط تحققه كريات الجاما.

ثم إنّ بروتين الأنزيم الحال (Lysozyme) الذي يحصل عليه الإنسان من موائع الجسم الحيواني وأنسجته، وعلى الأخص من بياض البيض، له خاصةُ القدرة على تمزيق جدران خلايا البكتيريا، والقدرة على تحليل العناصر الداخلية في تلك الخلايا. إن البروتينات القاعدية الموجودة في أنسجة الجسم الإنساني وفي خلاياه الدموية، والتي تسمى البـبتيد (Peptide) تقوم بوظيفة تحليل ما في داخل غشاء البكتيريا، تمهيداً للتخلص منه.

وتعتمد كل عمليات الاستجابة المناعية على إنتاج البـبتيد المتعدّد الأنواع من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، سلاسل ترتبط بعضها مع بعض بفعل الأنزيمات، وتتشكل في طبقة رقيقة جداً فوق غشاء من الحمض الشبكي النووي له اختصاص تكوين البروتينات الجديدة.

تبدأ الاستجابة المناعية بتصدّي البلاعم الثابتة (Macrophages) لمولّدات الأضداد، وبإنتاج الأجسام المضادّة الجديدة، حيث يأخذ البلعم قطعةً فعالة من مولّد الضدّ المتحد مع الحمض النووي الشبكي، أو يأخذ قطعة من الحمض النووي الشبكي وحده، وينقل تلك القطعة إلى كرة لمفاوية، فتتحوّل الكرة اللمفاوية إلى خلية مكوِّنة للأجسام المضادّة. إن الوظيفة الرئيسية للكرة اللمفاوية هي إنتاج الأجسام المضادة. وتقوم البلاعم


لويس باستور

(Phagocytes) بمطاردة الجراثيم (الميكروبات) التي غزت الجسم وتكاثرت فيه، وتقبض على (الميكروب) وتتغشّاه وتحطّم مافي داخله وتبتلعه. وتساعدها على إنجاز هذه الوظيفة الأنزيمات والإفرازات الحامضية التي تفرزها البلاعم على الميكروب.

تقوم الأجسام المضادّة بمهاجمة الميكروبات وكل الأجسام الغريبة التي تغزو الجسم. وقد بيّنت الدراسات التي أُجريت منذ بداية القرن الحالي، أن كلّ نوع من مولّدات الأضداد -An (tigens)، له نوع محدّد من الأجسام المضادّة، ينتجه في الأقسام المختلفة من الجهاز المناعي طبقًا لتوازنات كيميائية حساسة ودقيقة في تفاعل أحدهما مع الآخر. وبناءً على ذلك فإنّ مولدَ الضدّ الذي نستعمله في معالجة المرض، يلزم أن يكون ملائمًا جدًا للأجسام المضادّة التي تحتاج إليها هذه المعالجة، وإلا فإنّ الاقتران لايحصل بينهما بما يضمن تلك المعالجة.

وظيفة أخرى لخلايا جهاز المناعة هي توليد موادّ خاصة تنسّق عملَ الجهاز، وتسمّى هذه الموادّ الوسيط المناعي. إنها عبارة عن جزيئات منظِّمة لعمل جهاز المناعة، تقوم مقام هرمونات تؤثر في ذلك الجهاز. إنّ أهمية هذا الوسيط المناعي، قد حفزت الباحثين في عصرنا إلى محاولة فهم آلية عمله، وذلك من أجل أن يصبح في الإمكان عزل هذا النوع من الهرمونات أو تركيبه بشكل نقيّ، لأن الأدوية التي هي من هذا النوع إذا تيسّر الحصول عليها تستطيع أن تصحّح الأداء المغلوط في جهاز المناعة، وأن تساعد الجسم على مقاومة أنواعٍ كثيرة من الأمراض.

بروتين مخّ العظام

إن خلايا البـبتيد التي تتكوّن في مخّ العظام ذاتُ أهمية عظيمة في تنظيم عمل جهاز المناعة، لذا فإن مخّ العظام صار معروفًا منذ عام ١٩٧٠م بأنه جزء مهم من نظام المناعة في الجسم، وقد سُمّيت خلايا البـبتيد التي تتولّد في داخل تجاويف العظام باسم ببتيد النقي . درس الباحثون خلايا مخ العظام بوضعها في حاضنة في وسط ليس حامضيًا ولاقاعديًا، ثم بعزل الخلايا النفايات بمساعدة النابذة، وهو جهاز يفصل النفايات بالطرد من المركز، ثم حصلوا بعد ذلك على خلايا مخّ العظام الفاعلة (Active) بالتنقية الكيمياوية، فوجدوا بين هذه الخلايا عوامل لتنشيط توليد الأجسام المضادّة.

لقد أثبتت التجارب التي أُجريت على نماذج بشرية، وكذلك على حيوانات، أن ببتيد مخّ العظام باستطاعته أن يضاعف مرّات عديدة من التحريض على إنتاج الأجسام المضادة. إنّ من الأهمية بمكان لعلم الطب أنّ هذا التأثير الفعال لببتيد مخّ العظام في إنتاج الأجسام المضادة يكون بارزًا في الحالات المرضية التي يكون فيها إنتاج المولّدات الضدّية للأجسام المضادة ضعيفًا من غير الاستعانة بمخّ العظام، حتى في الأشخاص الأصحّاء. إنّ التأثير المحرّض لمخّ العظام كان قويا عندما قُدِّم، على سبيل المثال، لحيوانات مصابة بالتهاب الدماغ المنقول إليها بواسطة القُراد، وكانت قوّة التأثير بارزة في مجال إعطاء المناعة، وفي مجال توليد ردّ فعل دفاعي.، وقد أثبتت الأبحاث والتجارب أن إعطاء ببتيد مخ العظام لاتكون له آثار جانبية، وأن كلاً من خلايا مخّ العظام الإنساني وخلايا مخّ العظام الحيواني تنتج هذا الببتيد.

إن البـبتيد المستخرج من مخّ العظام يؤدّي أيضًا باقي وظائف جهاز المناعة؛ وعلاوة على ذلك فإنه يحتوى على مواد مزيلة للألم؛ إذ تتحد هذه المواد مع تراكيب معينة موجودة على سطح الخلايا العصبية، ويوقف التركيبُ الذي يتألف من هذا الاتحاد نقل أنواع منتقاة من الدفقات العصبية. هذا التأثير المسكّن للألم الذي يُحدثه مخّ العظام جرّبه العلماء أولاً على الحيوانات، ومن بعد ذلك على الإنسان، فتبين لهم أنّ ببتيد مخّ العظام يُنقص إحساس الإنسان بالألم بمقدار مرة ونصف المرة. ويقوم العلماء الآن باختبار خصائص مخّ العظام التي تجعله مناسبًا أيضًا للمساعدة على التئام الجروح.

يتضح مما سبق أن ببتيد مخ العظام هو واحدٌ من أهم المواد التي تبشّر بالخير من بين المواد التي تُستخلص من جسم الإنسان والحيوان. ولكن تحضير هذا الدواء في الوقت الحاضر ذو تكلفة عالية، ذلك لأن ببتيد مخ العظام موجود في الجسم بمقادير ضئيلة، ولأن تنقية وعزل كميات صغيرة منه عمليةٌ شاقة وتحتاج إلى وقت كثير. ولكنّ هذه المشكلة يمكن حلّها عن طريق التركيب الكيمياوي وعن طريق هندسة الجينات، وقد قطع العلماء شوطًا طويلاً على هذين الطريقين .

دراسات في أدب الجزيرة العربيةّ (١٩)

الحملة الفرنسية على مصر في أعين أدباء الجزيرة العربية (١)

١٢١٣ـ١٢١٦هـ/١٧٩٨ـ١٨٠١م

د. عبدالله أبو داهش

يدرك الناظر في تراث الجزيرة العربية خلال العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري مدى اهتمام المؤرخين والأدباء بأحداث الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م؛ فقد سجل المؤرخون أخبار تلك الحملة، وأخذ الأدباء عندئذ يشاركون بشيء من نتاجهم الأدبي في ميدانها، إذ كان لمشاركتهم أثر في تصوير مواقفهم، والتعبير عن مشاعرهم، ولم يكن الأدباء حينذاك بأكثر مشاركة من المؤرخين؛ وإنما وجد لهم شيء من النتاج المحدود وبخاصة لدى أدباء اليمن والحجاز، إذ يغلب على ذلك النتاج الأدبي وضوح الحماسة الدينية، والروح الإسلامية الصادقة، فقد اصطبغت تلك النماذج جميعها بصبغة إسلامية جادة، إذ عَدَّ أولئك الأدباء هذا التدخل الأجنبي السافر اعتداء على البلاد الإسلامية التي لم تشهد مثله من قبل(١).

والحق أن الأدباء في هذه الأنحاء قد استطاعوا أن يصوروا مواقفهم تجاه هذه الحملة، وأن يعبروا عن آلامهم وأحاسيسهم بصدق ووضوح، وقد تبين هذا الشعور الصادق في مضامينهم الأدبية المختلفة، وذلك رغم الروح التقليدية المتكلفة التي برزت في ذلك النتاج الأدبي. ويتحقق هذا القول فيما وجد من نماذج مختلفة في ميداني: الشعر والنثر، وذلك على الرغم من وفرة النماذج النثرية التي قيلت في هذا المجال، وبخاصة في ميدان الرسائل الديوانية. ومع هذا عرفت الخطابة(٢) والوصايا(٣)، وحملت شيئًا من مواقف الأدباء وآرائهم، إلى جانب أساليب المؤرخين الأدبية التي تمثل مواقفهم الثابتة تجاه هذه الحملة الباغية، فقد عبرت عن أحاسيسهم وأبانت عن مواقفهم تجاه تلك الأحداث، وذلك في مؤلفاتهم التي ينقلون فيها أخبار زمانهم ومجتمعاتهم(٤).

ويمكن تتبع تلك المواقف الأدبية من خلال دراسة بعض النماذج الشعرية والنثرية، والأساليب التعبيرية، وذلك على الرغم من قلة تلك النماذج في ميدان الشعر التي تعد قليلة بالنسبة لبقية الألوان الأدبية الأخرى. ومن ذلك النتاج الشعري قول أحد شعراء الحجاز(٥):

أيا لَهْفَ(٦) نفسي لما قد(٧) جرى
توالي الخطوب على القاهرهْ
تولى الفرنج(٨) بها بغتةً
وحلُّوا منازلها العامرهْ
ولكن(٩) نرجو(١٠) بفضل الكريم
تعاد لهم كرة خاسرهْ(١١).

ورغم الضعف الذي أصاب هذه الأبيات في أداتها اللغوية وحسها العروضي. فإننا ندرك وضوح موقف قائلها من هذه الحملة الفرنسية حينما تَحَسَّر على نفسه بصدق وأشار إلى أن تلك المحن التي تجري في بلاد المسلمين، إنما هي من الخطوب والرزايا، إذ ظل الشاعر رغم قصوره الشعري يأنس بآماله الواسعة التي يرجو من خلالها أن يصيب الخسران والهوان أولئك المعتدين.

ويزداد موقف أدباء الجزيرة العربية وضوحًا في ميدان النثر، إذ ذكر المؤرخ عبدالرحمن بن حسن الجبرتي(١٢) (١١٦٧ـ١٢٣٧هـ) أن الناس في الحجاز قد انزعجوا لهذا، وأخذوا يستجيبون لداعي الجهاد، ويتأثرون بما يقال لهم في المواعظ والخطب. وأضاف لقوله أن رجالاً من المجاورين لبيت الله الحرام ممن يعدون من نزلاء مكة المكرمة، ومن علماء المسلمين قد أخذوا يدعون للجهاد، وقال بأن منهم من أخذ يرشد الناس: «ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في

مـعنى ذلك، فـاتعظ جـملة من النـاس، وبذلوا أمـوالهم وأنفـسـهـم»(١٣). ومـن هنا ندرك أن العلماء والأدبـاء قد أسهـموا في إرسال النصائح والمواعظ والخطب من أجل إثـارة مشاعـر الناس وإيقاظهـا، فلقد كان المتحمسون منهم يقـومون في الناس بالخطابة والوعظ، ويذكرونهم بالمصير، ويدعونهم للجهاد. ويتحقق هذا القول في عمل مـحمد المغربي الجيلاني الهاشـمي(١٤) الذي كـان يعظ النـاس في البلد الحـرام بما يلـهب مشاعرهم ويجعلهم يسهـمون في تسيير الجيش وتجـهيزه. حتى إن النسـاء اللاتي سـمعن تلك المواعـظ والخطب كـن يسـهــــمن بـالعطـايا، ويشاركن بالأموال في سبيل الله. فقد ذكر لطف الله جــحــاف(١٥) (١١٨٩-١٢٤٣هــ) أنهن يأتين لسـمـاع «مايمليـه من أحـاديث الحض على الجـهاد، فـيلقين إلى الحلقة فـتخـاتهن وعقـودهن وملبـوسـهـن، ويقلن ذلك الذي عـلينا..»(١٦). وهذا يدل عـلى مـدى تأثيـر الخطابة فـي قلوب الناس، وأن الأدباء والعلمـاء قد سخَّروا خطبـهم لحض الناس على الجهاد، وإشعال حماستهم نحو الفـرنسـيين المعتـدين، وذلك مـا يمكن عَـدّه من مواقف الأدباء في الجزيرة العـربية من هذه الحملة الفرنسية الباغية(١٧).

ولم تكن مـشاركـة الجيـلاني تقـتصـر على دعوة الناس وإرشادهم في مكة المكرمة فحسب، وإنما تحـقق له شـيء من تلك المواقف فـي بلدان أخرى، فقد ذكر لطف الـله جحاف أن الجيلاني لما «نزل بالصفراء(١٨).. دعا إلى الجهاد»(١٩). وأضاف جحاف إلى قـوله إن الناس استجابوا له وأتوه «بأموال واسـعة»(٢٠)، ولم يقتصـر إسهام رئيس المجـاهدين هذا وخطيـبـهم علـى الخطابة فقط؛ بل إنه لما أدركه الموت أوصى الناس بما فيه فَلاحهم من الجهاد وتقوى الله، فقد أشار المؤرخ لطف الله جحاف كذلك إلى أن الجـيلاني نفسه قـد ترك قبل وفـاته وصـية إلى الناس: «أوصـاهم فيهـا بتقوى الله، والجهاد في سبيل الله، والصبر على مـلاقاة الأعـداء»(٢١). وهذه المشاركـات الأدبيـة فـي مـيدان النثـر تعـد من مـواقف أدبـاء الجزيرة العربية وعلمائها الذين عدوا هذا الاعتداء الفـرنسي تدخـلا في شـؤون البـلاد الإسلاميـة والعربية.

وفي الحقيقة أن مـواقف أدباء الجزيرة العربية من هذه الحملة الفرنسية تزداد وضوحا في ميدان الرسائل الديوانيـة التي أسهم في نتاجهـا عدد من كتـاب الدواوين في تلك الفـترة، وبخـاصـة أدباء اليـمن والحجـاز؛ فقـد حفلت كـتب المؤرخين ـ حينـذاك ـ بشيء من تلك الرسائل الديوانيـة التي تبـادلها حكام الجـزيرة العـربية وولاتـها من أجل هذه الحـملة الفـرنسـية، وبـخاصـة أشـراف مكة المكرمــة وأئمـة اليـمن. وتعـد كـتب المؤرخين اليمـنيين أكثر إحـاطة بهذه الرسـائل، ومن أولئك المؤرخين اليمنيين ـ علـى سـبيل المثال ـ محـمد بن علي الشوكـاني في كتابه: البـدر الطالع بمحاسن من بعـد القـرن السابع، ولطف الـله جحـاف في كتابه: درر نحور العين بسيرة الإمام المنصور علي وأعـلام دولته الميـامين. إلى جانب بقـية مـؤرخي الجزيـرة العربيـة، أمثال: ابن بـشر والفاخـري في كـتـابيـهــمـا: عـنوان المجـد(٢٢)، والأخـبـار النجدية(٢٣).

الهوامش:

(١) قـال محـمد بن علي الـشوكـاني (ت: ١٢٥٠هـ): «وهذا خطب لم يصب الإسلام بمثله..» البدر الطالع، ج٢، ص٨.

(٢) انظر: نصـوص يمنيـة عن الحملة الـفرنسـية على مصـر، جـمع سيـد مصطفى سالم، ص٩٦، ٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٤) لقـد اعـتمدت في إيضـاح هذه المواقف على كـتابيْ: البـدر الطالع، للشـوكاني، و درر نحـور العين، للطف الله جحّاف (ت:١٢٤٣هـ)، ورغم وجود نسخة مصـورة من «درر نحور العين» في مكتبتي؛ إلا أنني فـضلت الإفادة من كـتـاب «نصوص يمنيـة عن الحـملة الفـرنسيـة على مصـر» جمع سيـد مصطفى سـالم في ميدان الاقـتبـاس من النصوص. وذلك لعدم وضـوح الصورة التي في مكـتبتي، المأخوذة من مـصورات بعثة الجامعة العربية إلى اليمن.

(٥) قـال ابن بشر في تـاريخه عنوان المجـد: إنه من: «أدباء أهل الحـرمين» ج١، ص٢٥٠. ووافقـه المؤرخ محـمد بن عـمر الفـاخري في تاريـخه الأخـبـار النجديـة، وقال بأنه مـن: «فضـلاء أهل الحـرمين» ص١٣٠. واتفق المؤرخان على أن هذه الأبيات قيـلت في تاريخ دخول الفرنسيين مصر، وأضافا بيتا للشاعر في هذا الشأن هو عند ابن بشر:

وقد صح ما قال تاريخه

إله حكمته قاهره

ج٢، ص٢٥٠، وفـيه كـسر، يسـتقـيم إذا قيل: «إله له حكمـة..». وعند الفاخري (ص٢٥٠):

وقد صح ما قاله تاريخه

إله له حكمة بالغة

(٦) هكذا في الأخبـار النجدية، وفي عنوان المجـد: «يا لهف»، ص٢٥٠، والصحيح ما أثبت.

(٧) هكذا في عنوان المجد، وفي الأخبار النجدية: «على ما» ص١٣٠.

(٨) هكذا في عنوان المجد وفي الأخبار: «الإفرنج» ص١٣٠.

(٩) كذا في الأصل، ولعل الصواب: وإنّا لنرجو.

(١٠) زيادة في عنوان المجد، ص٢٥٠.

(١١) عثمـان بن عـبدالله بن بشـر (ت١٢٩٠)، عنوان المجد في تاريخ نجد، ج١، ص٢٥٠.

(١٢) من مؤرخي مـصر وعلمائها، ولد سنة ١١٦٧هـ، تلقى تعليمه في الأزهر، وعـمل ضمـن كتبـة الديوان إبّان حملة نابليـون على مصـر، وتولى الإفتاء الحنفي في عهد محـمد علي، له مؤلفات ومشاركات في بعض العلوم، توفي سنة ١٢٣٧هـ. انظر: «معجم المؤلفين» لعمـر رضا كحالة، مج٣، ص١٣٣.

(١٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٢، ص٢٥٠.

(١٤) قال سيـد مصطفى سالم: إن لطف الله جحـاف، والجبرتي اللذين أرخا للحملة الفرنسية على مصر لم يذكرا ترجمة للجيلاني هذا، وإنما أشـار إلى أن الجبـرتي فـقط ذكـره بـاسم الكيـلاني، وأضـاف سيـد مصطفى أن هذين المؤرخين: «اكـتفيـا بتتبع أحـداثه حتى استشـهاده»، نصوص يمنية عن الحـملة الفرنسية على مصر، ص٩٦، وقـال جحاف: إن الناس استمعوا إلـى «إرشاده إلى أنهج الطرائق وفعل دعاه بالقلوب ما فعل» المصدر نفسه، ص٩٦.

(١٥) من مؤرخي الـيمن وفقهائهـا، ولد بمدينة صنعاء ١١٨٩هـ، وتلقى العلم على يد جملة من عـلمائها، ترجم له شيـخه الشوكاني، وتلميـذه عـاكش، وقـد وصفـاه: بالذكـاء والألمعـية والتـقـوى والميل إلى العـزلة والزهد.

له عدد من المؤلـفات الدينية والتـاريخيـة، وله مشاركـات شعـرية ونثرية، توفى سنة١٢٤٣هـ. انـظر: البـدر الطالع للشـوكـاني، ج٢، ص٦٠، وعقود الدرر للحسـن بن أحمد الشهيـر بعاكش (ت:١٢٨٩هـ) ورقة ٨١، ٨٢، ونيل الوطر لزبادة، ج٢، ص١٨٩ ـ ١٩١.

(١٦) سيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص ٩٦-٩٧.

(١٧) قال لطف الله جحاف: «كان السيـد محـمد الجيلاني قد دعا العباد بالحـرمين إلى فـريضة الجـهـاد، وممن أعانه بـالحرمين مـحـمد باصـلاح الحضرمي، فـإنه تصدق في سبيـل الله بخمسمـئة بندق صغار مـغربية، ومئتي حـربه من حراب الشام، ومئـتي سيف، وأربع مئة كـيس حبوب الرز، وألفي نعل ينتـعلها فـقراء المجـاهدين، ومنهم الشيـخ عبدالرحـمن العسـيري بمهـملات، جهـز ثلاث سواعي، يركبـها المجـاهدون وملأها مـيرة، ومنهم الشـيخ أحـمد فـاس جـهز داوين في سـبيل الله، ومنهم الشريف غالب بن مـساعد جهز خمس سواعي في سـبيل الله شاحنة، ومن أهل ينبع محـمد أبو العسـل جهز داوا من داواته، وثلاث سواعي أخرات مـن أهل ينبع». سيـد مصطفى سـالم، مرجع سـابق، ص٨٧ ـ ٩٨.

(١٨) قـال حـمـد الجاسـر بأنهـا «واد ذو قـرى كـثيـرة.. بمنطقـة المدينة وسكانهـا بنو سـالم من حـرب»، المعـجم الجـغـرافي للبـلاد العـربيـة، المقدمة، القسم الأول، ص٦٩٨.

(١٩) سيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص٩٨، ٩٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٢١) المصدر نفسه، ص١٣٣.

(٢٢) عنوان المجد في تاريخ نجد، وقال ابن بشر في هذا الشأن: «قلت قد نقلت أخْذَ الفرنـسيين هذا لمصـر من أوراق تاريخ وجـدت في الطائف حين فـتحـهـا عثمان المضـائفي فنقلتهـا باختـصـار...» ج١، ص٢٥٠، وهذا يدل على اهتـمام مـؤرخي الجزيرة العـربية بهذا الأمـر، وأن هناك عـددًا من المؤرخـين الآخـرين الذين أرخـوا لـهـذه الحـملة، ولم تـبلغنا مؤلفاتهم.

(٢٣) قال محـمد بن عمر الفـاخري، «وفيهـا أخذ نابليون مصـر خديعة» ص١٢٩.

فاطمة تزفسكن

تساؤل قادها إلى معرفة الله

كان موعدها مع الحياة في شهر سبتمبر عام ١٩٤٣م، حيث ولدت مونيكا تزفسكن في نويتتشاين في تشيكوسلوفاكيا، فيما كانت الحرب العالمية الثانية على وشك أن تضع أوزارها، بعدما مالت الكفة لصالح الحلفاء، وبدأت قوات النازي ودول المحور تفقد زمام المبادرة وتعاني انكسارات متتالية.

وحين شبت عن الطوق وبدأت تعي مايدور حولها كانت أوربا تحيا مرحلة إصلاح ماأفسدته الحرب، وتعمير ماخرب، وشهدت هذه المرحلة ظهور جيل جديد كاره للحروب بعدما تفتحت عيونه على مشاهد الدمار، وسمعت آذانه أهوال الحرب ومآسيها.

مع المسلمين

ومع فترة البناء الجديدة شهدت أوربا موجات من هجرة طالبي العلم أو العمل من أنحاء العالم المختلفة، وبخاصة من بلدان المشرق، التي استنزف الاحتلال مواردها ليصرف منها على حرب لم يكن لها فيها ناقة ولاجمل، وعلى رأس هؤلاء الوافدين كانت هناك مجموعة كبيرة من المسلمين.

حين التقت مونيكا - للمرة الأولى - ببعض هؤلاء المهاجرين المسلمين طاف في خاطرها تساؤل: هل كان محمد صلى الله عليه وسلم فيلسوفًا أم نبيًا أنزل عليه الوحي؟!

وقتها لم تكن تملك إجابة جازمة؛ فلم تكن تعرف شيئًا كثيرا عن الإسلام يمكنها من أن تخرج منه بإجابات منطقية لتساؤلها، إلا أن اهتمامها بالاتجاهات الفلسفية والدينية المختلفة كان عاملا مهما في دفعها إلى عدم تجاهل هذا التساؤل والبحث عن الإجابة المفتقدة.

تساؤل يقود إلى البحث

تساؤلها كان بداية الغيث، فالمعروف علميا أن التساؤل هو الخطوة الأولى في عملية البحث، ولولا أن الإنسان وقف أمام عظمة هذا الكون وسأل نفسه عن أسراره لما كانت تلك الكشوف العلمية العظمى التي تحققت له، وارتقت بمدنيته.

كان تساؤلها بداية الطريق الموصل إلى الحقيقة. الحقيقة التي ترضى بها الفطرة وترتاح إليها الروح، إذ كانت روحها الحيرى تشعر بحاجتها إلى شيء ما لم تستطع وقتها تحديده، عرفته في نهاية رحلتها، شئ كانت تشعر بفطرتها النقية أنه موجود في داخلها، وأنها لابد أن تعثر عليه يومًا، طال الأمد أم قصر، فهو قدر لابد أن تعيشه، ذلك الشيء كان الإيمان برب العالمين.

دراسة الإسلام

في ألمانيا حيث كانت تعمل في الرسم الهندسي، كان اتصالها بالمسلمين، وشدها مالمسته فيهم - حتى عند غير الملتزمين منهم - من تمسك عظيم بدينهم، وإيمان عميق به، إضافة إلى مايتحلون به من أخلاق فاضلة، إلا أنها لم ترض فيهم بعض العادات الشرقية التي كانت تظنها جزءًا من تعاليم الإسلام، لكنها لم تلبث حين تعمقت في قراءاتها أن أدركت أنه لاعلاقة بين الإسلام وتلك العادات، مما زاد في ميلها إلى هذه العقيدة أكثر.

وقرأت يومًا عن محاضرة كان قد ألقاها البارون الألماني المسلم عمر إهرنفلز أحد الذين هداهم الله بعد ضلاله(*)، وكان هذا المهتدي يولي اهتماما خاصًا بالمشكلات الحضارية والتاريخية المتعلقة

بمكانة المرأة ووضعها في الإسلام، وتركت هذه المحاضرة أثرا كبيرا في نفس مونيكا؛ حيث أدركت أن العادات التى رأتها لدى بعض المسلمين لاعلاقة لها بالإسلام، وعرفت أن المرأة المسلمة لها مكانة ووضع مميزان في رحاب الشريعة الإسلامية، مما يعطيها من الحقوق والاحترام مالم تنله نظيرتها في النصرانية أو اليهودية.

قراءة القرآن الكريم

وجدت مونيكا في الشريعة الإسلامية مالم تجده في شريعة أخرى، إذ شدتها فكرة العلاقة المباشرة بين العبد وربه، بعيداً من أي وساطة أو كهانة، وتوقفت أمام الإعجاز القرآني بمعالجته لمختلف الأمور الدينية والدنيوية للإنسان، وهو ما لا يتوافر لأية شريعة أخرى عرفتها البشرية، وكانت تعاليم الإسلام تخاطب عقلها وفطرتها، ففيها من الواقعية والمثالية مايجذب كل ذي عقل راجح وفطرة سليمة.

وبدأت مونيكا تقرأ القرآن الكريم بعقل مسلم بعد أن آمنت به في قلبها، ولم يصعب عليها وقد مست كلماته شغاف قلبها أن تدرك أن الإسلام هو الشريعة التي اختارها الله لعباده منذ بدء الخليقة، فقرّ قرارها على إشهار إسلامها متحدية بذلك كل الظروف المعادية المحيطة بها.

إشهار إسلامها

أشهرت مونيكا إسلامها عن قناعة ورضا وتسمت باسم «فاطمة» وكان ذلك في أبريل عام ١٩٦٣م، وتعجب مجتمعها الصغير من تلك الشابة الصغيرة التي لم تكمل بعد عامها العشرين، ومع ذلك تركت عقيدة آبائها إلى شريعة جاءت من الشرق، وبالتحديد من صحراء جزيرة العرب.

كان رد فعل عائلة فاطمة وأصدقائها وصديقاتها متبايناً؛ ففيما لم تبد والدتها قبولا أو رفضًا، رحبت جدتها - بعد دراسة قصيرة للإسلام - بهذه الخطوة، أما صديقاتها فمنهن من اعتبرن الأمر مسألة شخصية، ومنهن من رفضن ذلك وقاطعنها، فقابلتها مشاعر متباينة، منها ماهو تقدير لموقفها الصريح، ومنها ماهو عداء لاتجاهها الجديد.

وكانت ترد على كل مَن يسألها عن السر في اتجاهها إلى الإسلام بقوله تعالى: ﴿فمَن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾(الأنعام:١٢٥)، وكان صعبا عليها أن تحدد نواحي معينة شدتها إلى الإسلام لأناس لم يعرفوه، فكانت تكتفي بأن تدعوهم إلى دراسة الإسلام ليتمكنوا بأنفسهم من تلمس نوره ومعرفة تفصيلاته وجزئياته.

داعية إلى الله

وقد عملت فاطمة - بعد إسلامها - بجد واجتهاد لتعرُّف الأسس والقواعد الشرعية التي تساعدها على تحقيق تكاملها الروحي والعقلي، ولم تهمل واجباتها في المجتمع عبر التعريف بالمبادئ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الإسلام، بما يصحح الصورة المغلوطة التي تشيع عنه في المجتمعات الغربية، وهي صورة أسهم - للأسف - في صنعها ما اعترى المسلمين من وهن وضعف.

وترى فاطمة أن المسلمين اليوم، وإن كان أمرهم قد ضعف، يستطيعون عبر إعطاء الغربيين المثل والقدوة في سلوكهم وعملهم أن يوصلوا الدعوة إلى أرواح كثيرة عطشى تبحث عن الحقيقة.

كما تطالب بزيادة ترجمات معاني القرآن الكريم للغات الحية على أن يقوم بهذا العمل الكبير مجموعة من علماء الإسلام المتفقهين في اللغات المترجم إليها، وعرض مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة في كتب مبسطة يمكن لأي راغب في تعلم الإسلام - مهما كان مستوى ثقافته - أن يفهمها، مع الحرص على تعليم أبناء الجالية المسلمة في الغرب اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، لكي يدرسوا دينهم من المنبع. فمن الأولى قبل السعي إلى نشر الإسلام بين غير المسلمين أن نوجد جيلا مسلمًا قادراً على قيادة دفة الدعوة إلى الله بفهمه الصحيح لدينه، ذلك أن فهم المسلمين الصحيح للإسلام هو الوسيلة المثلى لنشره في أرجاء العالم؛ لأنه - أي الإسلام - بما يشتمل عليه من قيم سامية مؤهل لأن ينتشر في أرجاء المعمورة ليحقق للإنسانية مطالبها الروحية والمادية.

هامش:

(*) طالع قصة إسلام البارون عمر إهرنفلز في العدد رقم «٢٢٢» من الفيصل.



فضيلة الشيخ :

د. صالح بن سعد اللحيدان

شراء الوقف

ما حكم شراء الوقف لنقله إلى مكان آخر؟

علي. م.أ، الكويت.

الوقف يكون لله تعالى. تُعرف منافعه فيما وُضع له فلا يُملك ولا يُباع ولا يُوهب. وشراءُ الوقف هكذا لايجوز لأن ثمنه المقبوض لا يصح الانتفاع به لمن قبضه لأن ثمنه ثمن «وقف»، لكن قد يكون المشتري متبرعًا فيوقفه بمكان آخر أصلح له، والبائع كذلك لن يستفيد من الثمن لكنه يضعه في صالح له يُنتفعُ به.

الحلف بالطلاق للمنع

الطلاق بلفظه هل يقع إذا قصد الزوج المنع؟

س.م. السلطان، القصيم.

الطلاق أصلاً إنما شرع لكي يكون علاجًا تامًا إذا حصل سببه من كفر أحد الزوجين، أو تعذر الحياة جدًا بسبب سوء خلق صعب التقويم والحياة معه، أو فسق ظاهر، أو إنحراف بيِّن، ومثل هذا.

والطلاق ليس حلاً ؛لكنه كما سلف لا يكون إلا بوجود سببه اللازم الذي لامناص منه. فإذا علمت هذا، فإن الطلاق يقع حسب النية على قول كثير من العلماء الذين يقولون بهذا لصحة حديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى..». والقول عمل لأنه حركة، فما دام قد قصد المنع فهو على قصده.

لكن لايحسن بالزوج استعمال هذا الأسلوب سدًا للذريعة ولئلا يكون هذا ديدنه فيقع منه مالا تحمد عقباه. وقد كان السلف لا يستعملون مثل هذه الألفاظ إنما يعالجون ما يحدث بكل وسيلة حسنة.

دلالة النسب

هل تكون «آل» دالة على نسب؟

محمد أ.س. آل علي، سورية.

إذا كانت المنتهى بالقبيلة إلى الحد المتعلق بعدنان أو قحطان، فإن كانت لا تعود إليهما بسبب الجهالة أو عدم الوقوف على الإيصال الصحيح، فإنها تتوقف عند «آل» فقط. وهذا لأن بعض العوائل ليس أصلها يعود إلى عدنان أو قحطان لأمور منها:

١- نزوح بعض العوائل من «مشرق الأرض» فتدخل في بعض القبائل العربية أو تسكن بالجوار فتكسب بهذا الحلف التبعي.

٢- هروب بعض الأشخاص بسبب دم أو دين أو خوف ولجوءه إلى قبيلة أخرى فيخفي اسمه وقبيلته فيصبح لاجئًا مثل الأول.

فهنا تكون «آل» مرتبطة بما تنتهي إليه فقط، وهذا بخلاف «بني علي أو بني سالم» من قبيلة حرب فهم من حرب.. إلخ.

لكن قد يدخل معهم آخرون بسبب ما، وهذا معروف في كثير من القبائل وبخاصة القبائل الكبيرة.

لكن قضية النسب هي المحددة للارتباط المتدرج ما بين الفرع والأصل. وبهذا يخرج كل مدَّعٍ للانتساب غير الصحيح.

تأجير قسم من المحل

إذا قام تاجر بفتح محل للتجارة من طريق الأجرة فهل يصح له أن يؤجر بعضه؟

سالم بن يحيى بن سالم اليافعي، اليمن.

إذا استأجر التاجر محلاً للتجارة، ثم قسمه إلى قسمين أو ثلاثة، ولاتقع مضرة على المحل أصلاً ولا يؤجر أحدًا إلا بما يبيع به الحلال فلا بأس، ولا أعلم أحدًا خالف في هذا بدليل صحيح.

ابن حجر و«التقريب»

هل وقع في كتاب «التقريب» للإمام ابن حجر أخطاء في التراجم؟

علي مصلح مقبول، جيزان.

ابن حجر إمام في «فن التراجم» وشرح النصوص وله باع طويلة في خدمة الشريعة: علمًا وعملاً وصدقًا وولاءً. وقد وفق الرجل في شرحه للبخاري بكتابة الموسوم بـ: «فتح الباري» حتى سارت به الركبان وتلقاه الناس بالقبول.

أما ما تسأل عنه فهو كتاب ليس أصلاً في (التراجم)؛ فقد لخصه من كتاب آخر له واختصره عنه لمّا طلب منه ذلك، فقد كان كتابه «التهذيب» طويلاً فقيل له لو اختصرته، ففعل.

ومثله مثل غيره، فقد وقع فيه ذهول وتكرار ومخالفة لكثير من التراجم.

والمخالفة هذه أنه يذكر في «التهذيب» شيئًا ثم يذكر خلافه في «التقريب». والمقصود أن كتاب التقريب مهم في بابه، لكن لايعول عليه منفردًا في حال التوثيق؛ بل يُجمع غيره معه حتى تتم عملية الترجمة بسعة من الأمانة والفهم والشمول.

العقيدة والقرابة

هل القرابة مقدمة على العقيدة؟

سيبا سعاد بن إبراهيم، السمارة، المغرب.

العقيدة الصحيحة هي ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي مقدمة على القرابة في المودة والمحبة. لأن هذا هو الأصل، وهو ما خُلق الإنسان لأجله. فعندنا أمران:

أولهما: عبادة الله وحده بحق.

وثانيهما: العمل بين المسلمين على هذا الأساس.

فالأول أصل مقدم كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات:٥٦).

والثاني أصل ثان . أما القرابة فهي أصل مهم في الصلة والمحبة والبر، لكنها ليست مقدمة على العقيدة الصحيحة،

لذا آمل قراءة ما يلي: كتاب صفة الصفوة، وكتاب حياة الصحابة، وكتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير.



قريتي

شعر: د. عبده بدوي

من بعد سنينٍ موحشةٍ   حنَّتْ أيّامي لِلْخُضْره
فلقد أحْسَسْتُ بأيامي   تتطاير عني في حَسْره
وبأنّ البسمة في شفتي   عَرَفَتْ طرقاتٍ لِلهِجرة
وببطء سرتُ لقَريتنا   وَحلمْتُ بحبٍ يُغمرني
قد كدتُ - ولم تُنقل قدمي -   أن يُورقَ حَقْلٌ في بَدني
فجريتُ أُسابقُ أشواقي   وأرى أشواقي تَسْبقني
في العودة شاهدت مطارًا   وطيورًا ليست فيها الروحْ
ورأيتُ المَخْفَر طالعني   والشُّرطة تَغْدو ثم تروحْ
وأصَخْتُ لناي مَطْرودٍ   تحت الصَّفْصاف المجروح
وببطءٍ داهمني حُزْنْ   وسقاني مَوال كَرْبَهْ
فالخُضْرة كانت غائبةً   عن أرضٍ موحشة التربهْ
والطيْرُ يَقُول بلا صوتٍ   «من هذا العائد مِنْ غُرْبه؟»
لما قالوا «عُدْتَ أخيرًا   ومصيرُ الغائب أنْ يأتي»
لم أعرف شارعنا المُفضي   للبيت، ولم أعرف بَيتي
وشعرتُ - وقد غابت عنّي   أسماء لداتي - بالموت!
فالمَلعبُ قد أضْحى مَقْهى   والحقلُ «وكالة أنْباء»
والبنتُ - وقد كانتْ عمري -   عَبَرَتْ من غَيْر اسْتحياء
وذوو القُرْبَى شُغِلوا عنّي   بالشاشة بيْن الأضواء!
أتُرى قَدَري أبْقى أبدًا   مكْسور الخُطْوةِ والخاطر
وأعيشُ بِعُمْرٍ مَفْقودٍ   ما بين الآتي والحاضر
ما أشْقَى من قالوا عنه   - في دُنيانا هذي - شاعر!!

عالم خالد الفيصل الشعري
بين الواقعية

محمود رداوي

في الحلقة الماضية تحدث الكاتب عن الأدب الشعبي، وكيفية دراسته، وذلك بمحاولة الإحاطة بالآراء والمدارس التي تصدت لذلك النوع من الأدب. كما ألمح إلى أن الفنان الشعبي ـ وبخاصة الشاعر ـ يستطيع أن يشيع بلغته العامية البسيطة مصطلحا لغويا تقبله قطاعات واسعة من الناس، وكان ذلك مدخله إلى دراسة شعر الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز، الذي ـ في رأيه ـ يعيد للأذهان قصة الغناء الشعري عند العرب فصيحا وشعبيا.

ثم تحدث عن خالد الفيصل بوصفه شاعرا يختزن في داخله موروثات فكرية إضافة إلى ثقافة العصر وروحه وفكره وحضارته. وكيف ترجم الشاعر هذا المخزون إلى إبداعات شعرية استطاعت أن تحوز إعجاب الجماهير المثقفة والشعبية على السواء؛ بما تحمله من طاقة إبداعية تجلت في شعر يعالج مختلف أغراض الفخر والحب والغزل وغيرها من فنون لقيت تجاوبا واسعا في نفوس القراء والمستمعين.

وفي هذه الحلقة (الأخيرة) يواصل الكاتب الفاضل ما بدأه من حديث عن مختلف الأغراض الشعرية عند الشاعر خالد الفيصل.

وللشاعر خالد الفيصل وقفات حكيمة، وحساب دقيق، مع الذات والنفس والحياة والعمر والأجل والنهاية المحتومة.. كي يتبصّر الإنسان ويعتبر، لأن عمره محدود، ونهايته قريبة. وتتجسد العبرة كلها بالرجوع إلى الله وتقواه:

لابد للدرب مهما طالت نهاية
والعمر لو طال به حبل الرجا واهي
الرابح اللي نسيم الحظ له ذعذع(١)
قدّاه ربه على التقوى ولا تاهِ

وإننا نجد في وقفات الشاعر مع خواطره النفسية والوجدانية اختياراً واصطفاءً للمعاني التي تصلح لكتابته وإبداعه الشعري.. مما يمنحه قوالب ومضامين شعرية كاملة وتامة ومتميزة.. وهي التي تحدد لديه المفهوم الصحيح للشعر.. ولهذا فهو يدعو الله أن يلهمه قوة التعبير والإبداع:

الشعر معنى حكمته بعد الادراك
وما كل ما يلمع على النور غالي



والمثالية (٢)

والشعر صورة شاعره فيه تلقاك
إمّا لبس لك جوخ والأسمال
يا الله يا المعبود انا لذت بحماك
من كلمة تنقد عليها الرجّال

وإذا أراد أن يكون دقيقًا وعميقًا في وقفاته عند بعض القضايا الشعرية أو الأدبية، فإنه يصطفي لشعره نظمًا موزونًا من بحور الشعر الخليلية. فحين فنّد قضية الحداثة، اختار البحر الوافر، وجعل القصيدة العربية تشتكي إليه مما أصابها، وتستنجد به كي يستنفر لها رجال العربية ليذودوا عنها، ويحافظوا على أصالتها وجمالها. ويُذكّرنا هذا بصنيع الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدته (اللغة العربية تتحدث عن نفسها). ولأن قصيدة (زمان الخلف) تعبر عن عالم الأمير خالد الفيصل الشعري أجمل تعبير في كثير من القضايا الأدبية واللغوية، والأصالة والتراث، فسنتشهد بها كاملة وإن أصاب بعض أبياتها زحافات عروضية:

زمان الخلف في سرّ القصيده
تنازع به قديمه مع جديده
عرض في ساحته عالم وجاهل
يصور له خياله ما يريده
عقب ما هي شعر صارت قضيّه
ولو طالت بهم راحت ضحيه
وكل له على المقصود نيّه
قريبات النوايا والبعيده
تبرّج في حوانيت الحداثه
وتجمد مع نواظيم الغثاثه
كفاكم ياهل الغايه عباثه
سليلة مجد وعصور مجيده
قصيدتنا شكت عندي وباحت
وهلّت دمعها الصافي وناحت
وشقّت جيبها غبن وصاحت
نخيتك تكتّب بحالي قصيده
حرام انك تزوّجني بكافر
ولا تأمن على الخفرات فاجر
والى همّل عروس الشعر شاعر
تعرّضها من الحاسد مكيده
أنا بنت العرب نسل الأصايل
وكم ضحّت على شاني حمايل
ولا اقبل في عقيدتنا بدايل
حشيمتنا على الدنيا فريده
أنا قدري رفيع بالجزيرة
ولايزيدني كبر الشعيره
أساطير الخواجات استعيره
حضارتنا شواهدها عديده
ألا يا شاعري نبّه رجالي
يذودون الحمى يحمون حالي
ولايرضون تشويهة جمالي
عمى التقليد بذّتني عبيده
كثير القول من صفّ الكلام
ولا له مع هل الفكره مقام
تعابير لهن الفين عام
بلاده من مفاهيم بليده
وبعض القول مشبوه محرّف
يبي له فوق منشوره يعرّف
حظيظ جاهل الرمز المظرّف
رموز من عرفها ما تفيده
يجدد لي جمالي شعر ملهم
رفيع الذوق بالابداع مغرم
يصوّرني خيالي واتكلم
والى غردّت عاودني واعيده

ويبدو لنا الشاعر خالد الفيصل، في شعره الشعبي ولغته السهلة الواضحة، قريبًا من أذهان عامة الناس ووجدانهم. لذلك كان سهلا عليه أن يرفعهم إلى قمة ثقافته وفكره ورؤاه.. ويزرع في نفوسهم الكثير من المعاني والقيم التي بثها بين طيات شعره وأدبه وفنه؛ وهي التي يمكن أن نسميها الثقافة الإنسانية والثقافة الفنية.

وهذا كلّه لا يتعارض مع ما استدللنا به عن ذاتيته الشعرية، بل يُغنيه ويثريه. لأن الخاص والذاتي يطبع شعر خالد الفيصل بالوجدانية والإحساس الصادق والمعاناة الحارة.. فضلاً عن تجربته الفنية وثقافته المعاصرة.. وهذا مايسهّل مرور شعره إلى أعماق الإنسانية.

ومع ذلك كله فإن الذاتية التي تسود أغلب شعر الديوان الأول - قصائد نبطية - هي ذاتية تترجم مشاعر عامة، يشاركه فيها قطاع كبير يضم طبقات الشعب والمثقفين كافة؛ لأن النزعة

الوجدانية والاجتماعية والوطنية والعربية والدينية والإنسانية تصبغ عالمه الشعري بألوان من المعاني والقيم والمثل والرموز والمفردات التي تجد صداها الطيب في النفوس، وتتناغم مع نبض الجماهير. وحتى صورة الافتخار التي وقفنا عندها طويلاً في شعره تترجم - بحق وصدق - الصورة المثلى للفارس العربي الأصيل عبر الأجيال والعصور.

ولو قرأنا قصيدة (بنت الكحيلة)، لوجدنا أنها امتداد لافتخار الأمراء والفرسان والشجعان عبر التاريخ العربي، وهم يمارسون فطرتهم وأصالتهم في أجواء الصحراء، ومايزيّن لوحتها الطبيعية من خيول وطيور، ومايقوّى كيانهم، ويزيد بأسهم من اعتزاز بالنسب للأصول والدين والسلاح والفروسية، وإن مثل تلك المواقف والقيم تستدرج الشاعر خالد الفيصل إلى شعر قريب من الفصيح؛ بل إلى شعر موزون، تتوارد فيه تفعيلات مجزوء الكامل:

بنت الكحيلة مهرتي
وخيالتي من كل أصيل
ألقى عليها طربتي
بين المعنّق والشّليل
صدر وقطاة فلوتي
والعنق والساق الطويل
وقع الحوافر نغمتي
وحداتنا رجع الصهيل
أبوي وجدي قدوتي
لو ما لهم عندي مثيل
بالدين تفخر عزوتي
والرمح والسيف الصقيل
ماكر حرار ديرتي
ما في هلّ العوجا ذليل

وانتساب الشاعر خالد الفيصل إلى بيت موفور الأصالة والأمجاد، فطرها ورضعها أبًا عن جد، يُلوِّن شخصيته الرسمية والاجتماعية والشعرية بألوان زاهية من السمو والتألق، ويكسبه غزير الثقافات والمعارف والتجارب.

ولهذا غلبت على شعره روح الحكمة التي يستمدها من مدرسة أسرته، ومدرسة الحياة، ومن تجاربه الذاتية التي تزخر بتلك الروح الحِكْمية.

ولقد تعلم من مدرسة الأسرة، مدرسة البيت، الشيء الكثير.. وبخاصة مدرسة أبيه الملك فيصل، فاستفاد وأفاد، وتعلّم وعلّم، ولهذا يقول:

من فيصل أعيش بامثالي
ادرس وادرّس من كتابه

ومن نماذج شعره في الحكمة قصيدة (يا قلب)، نجد فيها حكمة عن الصبر؛ ومنها قوله:

من شال درع الصبر ما طالوه
الصبر مضمونه محاصيله

وأمثال هذه الحكم تتوزع في قصائده عبر البيت الواحد أو البيتين، وقد تأتي القصيدة بكاملها حكمة واحدة. ففي قصيدة (حنا العرب)، ملحمة الفخر، يبين فيها مثالب المدّعين وسوء أخلاقهم من خلال الموازنة بين ادعائهم الكاذب المزيف ودعواه الأصيلة الحقة، وذلك يستوجب منه توظيف الحكمة للتأثير والإقناع:

من شب نار الحرب يصلى شبوبه
ومن ثوّر الفتنة تعرّض للاسباب
ما يستر الرجّال ملبوس ثوبه
الدين وافعال الكرامة له ثياب

ولقد رأيناه يلجأ إلى الحكمة وهو في موقف المديح والافتخار بعمه الأمير سلطان لتأكيد بعض خصاله:

ومن يزرع المعروف لا بد يجني
ومن يفعل الاحسان يجزى بالاحسان
واللي يريد المجد لا بد يبني
في قلوب وعقول الخلايق بنيان

ومن حكمته التي يستقيها من تجاربه ومعاناته الذاتية، وثقافته الخاصة والعامة، قضية النسيان، إذ خصّ (نعمة النسيان) بقصيدة كاملة؛ تلك النعمة التي تنسي الإنسان همومه وأوجاعه. لأنه لو ظلت تلك الهموم والأوجاع تسكن أعماقه لما استطاع أن يعيش يومه وحياته. والقصيدة بمجملها جولة ذهنية وشعورية في عالم النسيان، وعالم الفكر، وعالم القلب.. تتضافر كلها لتنسج شخصية الشاعر مع واقع التجربة والمعاناة الوجدانية والإنسانية.

ومن هنا يلجأ الشاعر إلى الحكمة في كل المواقف والحالات التي تضغط عليه، ولايقوى على الخلاص منها إلا بتتويجها بقالب حكمي يعيد إليه الراحة النفسية، حتى ولو كان في مجال العواطف والحب والغزل. كما رأيناه في قصيدة (مابي وعد) التي بيّن فيها أنه لايريد أن يعود إلى حب يفقده الحشمة، لأن:

من عاد لامرٍ خابره قبل مذموم
يستاهل الحسرات عقب الذميمه

وتظل الحكمة لديه دروسًا مفيدة مستقاة من الحياة، ومن الواقع، ومن المعاناة ومن المعارف والثقافات والخبرات والتجارب، لتظل صائبة وصالحة على مر الأزمان.

ومهما أبعدته الأجواء الرسمية، وشغلته أعباء المسؤولية، فإنه يظل قريبًا من الناس، ومشكلاتهم وأحوالهم، مُبصرًا لأحوال البائسين والمحتاجين، يتحسس معاناتهم، ويعيش واقعهم، فيترجمه فنًا وأدبًا اجتماعيًا وإنسانيًا.

ولقد رسم لنا بكلماته الشاعرية صورة لطفلة بائسة حزينة، باكية، ومظلومة، في أحد الشوارع المزدحمة، فقال فيها قصيدة (طفلة خطا)، وقسم كبير منها من البحر الطويل، وبخاصة في أشطر أعجاز أبياتها، فراح ينجز لوحته الفنية بفرشاته وألوانه وكأن تلك البائسة مسمّرة أمامه:

لقيت الحزن في عيون طفلة خطا مرسوم
قضى دمعها والعين تبكي ظلايمها
لفظها رصيف العمر في شارعٍ مزحوم
تزاحم عيون الناس والهم زاحمها
ترد النظر لعيون من ناظروا مهزوم
إلى شافت العينين فيها هزايمها
على هامش الدنيا رضت حظها المقسوم
وراحت تمرّغ بالندم روح ظالمها

كما أنه يقدر الصداقة، ويستخلص لنا أسمى قيمها ومعانيها من حب وود وتعداد لسجايا صديق لايذكر اسمه في قصيدته (ياصديقي) لفيض حبه، وكرم أخلاقه:

ياصديقي ولاني ياصديقي مسمّيك
من غلاك احفظ اسمك واتمثّل سجاياك
من عطاياك تسمح لي ولو مرة أعطيك
من صدوق المودة نفحةٍ من عطاياك

عالم خالد الفيصل الشعري
بين الواقعية والمثالية (٢)

لكنه لايرضى عن بعض الصور البشعة من النماذج البشرية التي يجدها تعيش بيننا، فيقول فيها شعرًا لايخلو من النقد الاجتماعي:

يا شايلٍ نفسه على الخشم حذراك
النفس لاثقلت تهين الخشومِ
بالهون لاتكسر طريقك بما طاك
إن طاح بك دربك حشا ما تقومِ

وإذا كان ذاك موقفه من تلك الصور البشرية المنفِّرة في المجتمع، فإن له رؤية عن الناقد، فيمنحنا حُكمًا عنه وحكمة في تقويمه.. وأبرزها حاسة سادسة هي التي تميز المفارقات، وتستشف الأصيل الجميل:

ما كل من يكتب عن الشعر نقّاد
والاّ انت في نقد المعاني بصيرِ
فراسة الرجال تميز الأضداد
لاصار غيره بالمعرفة ضرير

وللشاعر خالد الفيصل شعر غزير في معاني الحب والغزل، وتباريح الهوى، وبخاصة في ديوانه الأول ـ قصائد نبطية ـ تستأهل دراسة مستقلة مستفيضة، وسيكون لنا معها وقفة أخرى. ولكننا نكتفي هنا بالقول: إن غزله يجمع الحب الرومانسي، في تلاحم جمال الملهمة والطبيعة في كيان واحد، والحب العذري في نقاء المشاعر والأحاسيس بينه وبين المحبوبة، والحب الواقعي في تصوير الجمال كما يراه الإنسان العربي على مر العصور في حسّيته ومعنويته. وفي كل ذلك يرسم لنا لوحات فنية بخيال مبدع. وسنقف عند بعضها، في كلامنا التالي عن الصورة الشعرية والفنية في شعره:

في لوحات الرسام الفنان خالد الفيصل تشكيل متسق بين ألوان ريشته، ومرئياته الحسية المستمدة من مفردات الطبيعة في الصحراء، وما يزينها من ألوان وظلال، وحركات، ودبيب الشموس والكواكب والنجوم، والغيوم والشروق والغروب، والزهور والطيور والخيول.

وتأتي لوحاته التشكيلية ناطقة بجمال الطبيعة التي رسمها مبدع الكون والخالق الأوحد وإنها لمحاكاة فنية، وإبداعية، من الفنان خالد الفيصل.

ولهذا نجده في شعره فنانًا آخر في توظيف، واستخدام عدته الشعرية من خيال مصوًر، ومفردات موحية بجزئيات ودقائق من الحس والشعور.. تتضافر في تصوير لوحات شعرية تكمل لوحاته الفنية.

ومن هنا وجدنا بعض اللوحات التشكيلية في ديوانه (قصائد نبطية) ترافق بعض قصائده. فثمة لوحة فنية لامرأة عربية قرب خيمة في الصحراء، ورجل عربي بقربها يمسك بطرف رسن فرس ترفع طرفيها إلى الأمام، والرأس شامخ إلى الأعلى. وبالمقابل أبيات شعرية بعنوان (ياغالي الأثمان)، يصور فيها الشاعر حالته مع ملهمته، التي لها فاعلية سحرية في حسه ومشاعره، فراح خياله يرسمها له كتلك الفرس التي يحاول تطويعها لإرادته بذلك الرسن الذي يمسك به، وهي شامخة بكبرياء إلى الأعالي. لكنها تسري في قلبه وعروقه سريان الهيل في مذاق محبّي القهوة، سريان الغيم والنسيم في الليل؛ فأصبح الشعر والرسم متلاحمين:

اشبهه باللي عسيف من الخيل
تلعب واناَ حَبل الرسن في يديا
أوراق غرامه مثل غرسٍ على سيل
مشهات قلبي يوم جالي شهيا
أعن له عنّة هل الكيف للهيل
ماذاق راعي الكيف ذقته هنيّا
حبه سرا بي سرية الغيم بالليل
نسيم ليله قال للشوق هيا

وتتابع الصور الشعرية في قصائده بذلك الرسم الفني الذي يجمع ملامح عديدة وأشكالا متنوعة للوحات تشع بدلالتها ومعانيها ورموزها، وبحركاتها ودبيب إيقاعاتها وألوانها وظلالها . وأغلب مادتها من الواقع البري والصحراوي والبيئة الفطرية التي تسكن خياله وحسه، فتجيء صور خياله ناطقة معبرة عن فيض أعماقه ومشاعره.

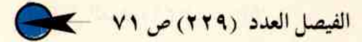
وفي قصيدة (لاتسألوني) لوحة فنية نبصر فيها ظبيًا فوق تل يطل على غدير، وعلى مقربة منه روض يحط عليه سرب من القطا.. وقت الغروب وقدوم الليل، وثمة ركب يتطاير ضوء الشرر من موقد جمرهم، متعانقًا مع ضوء نجوم السماء:

اشفق على حزّة ظبي
في طعس من فوق الغدير
ومشاهدة سرب القطا
من روض لثّاني يطير
الله على شمس المغيب
والليل الى نسنس هواه
الضوء تقدح بالجمر
والنجم يقدح في سماه(٢)

وكثيرًا ماتجمع صوره الشعرية تلاحمًا حميما، وتمازجا رومانسيًا بين مرئيات عالم الطبيعة الخارجي، ودبيب المشاعر في عالم الوجدان الداخلي.. إلى درجة لانرى معها سوى عناق ذينك العالمين وتلاحمهما الواحد مع الآخر. ففي قصيدة (فز الخفوق) إيقاع منسجم بين خفق القلوب وإطلالة القمر وخفق الطير من جهة، وأحاسيس الفراق وتيبس غصون القلب من جهة أخرى. ثم نقرأ في البيتين الأخيرين من تلك القصيدة واحة واحدة من تلاحم واحتين في الخارج والداخل، تتأرجح بين الجدب والخصب، بين الربيع والمحل.. وثمة سحب وأمطار تسقي زرعًا وغرسًا، فتنمو بذور الأرض والقلوب خصبًا واخضرارًا، وحبا وغرامًا:

ربّع بروحي عقب ماهي معاسير
سحابة هلّت بقلبي مطرها
واسقي بها زرعة هوانا بتقدير
غرسة غرام بالمحبة بذرها

أو أننا نجد ذلك التلاحم والتمازج الرومانسي من خلال تلك الموازنة بين جمال



عالم خالد الفيصل الشعري
بين الواقعية والمثالية (٢)

بلاده، وجمال ملهمته. ففي قصيدة (أنورت) نقع على ذلك الحب الرومانسي، والشاعر يرى جمال عسير وجمال المحبوبة في لوحة واحدة، وربما كانت الملهمة هي التي أضفت على المنطقة العسيرية كل ذلك الرونق البديع:

أنورت سودة عسير بطلعتك
وازهرت من وطيتك خدانها
اجتمع ورد الجنوب وبسمتك
والهوى نشوان في وديانها
ما حلى مس السحاب لوجنتك
والندى سكران من ريحانها
يوم هبّت من شمال نسمتك
انتعش فابها رجا ولهانها

وصور الشاعر خالد الفيصل الفنية لاتحصى، ولاسيما في قصائده الرومانسية التي يصور فيها إحساسه بالطبيعة. ففي قصيدته (شمس العصر) التي يرسم لنا فيها صورة الطبيعة قبيل الغروب، وعند الأصيل، يجسد لنا مفردات الحب المنتزعة من مادة الطبيعة بألوانها وظلالها، المتناغمة مع إيقاع القلوب، الذي نسمعه غناءً وموالاً:

شمس العصر في وردة الخدّ تلمع
بالقلب أغني له وبالقلب يسمع
والكل منّا في هوى القلب يطمع
ساعٍ لنا حال وساعٍ لنا حال
شمس العصر سوّت على الغيمة اقواس
ألوانها في نظرة العاشق إحساس
زرقة بحر حوّل بها حمر الاطعاس
غنىّ لها عشاقها كم موال
شمس العصر فوق السحابة توهّج
والمزن من زاهي ذهبها تتوّج
ذاب الذهب فوق السحاب وتموّج
سبحان من شكلّ سمانا بالامثال

والجملة الشعرية التصويرية لدى الشاعر خالد الفيصل لاتنفصم عن التعبير المجازي والتجسيد المعنوي، لتظل المفردات والمعاني الوجدانية متوجة متلاحمة مع نبض الطبيعة وفتنتها ومباهجها، ولنقرأ دوماً رسماً فنياً، قد يتشكل في بيت شعري واحد؛ كما في قصيدة (تقول تنساني):

أرسل مع النجمات بالشوق مرسول
حتى غدت نجمات شوقي قلاده

وكثيراً ماتتخذ صوره الفنية شكلاً متحركاً ينطق بالحياة؛ لأن الصورة المتحركة تحرك الحس والمشاعر.. ففي قصيدته (محري بالخير)، نرى المحبوبة الملهمة ناطقة بالحيوية حين رسمها لنا بأوصاف وطبيعة الظبية، وجمالها البري وصورتها الفطرية:

فيك من طبع الظبي ليمن مشى
ثم عاود والتفت ثم استراب

وإذا أراد أن يصور لنا تأثير تلك الملهمة في خافقه فلايجد خيراً من تأثير الغيث في البيداء المقفرة:

ياقطرة الغيمة على يابس البيد
رد الحياة لخافقي يا ذهابه

ونعود لنقف عند صورة كاملة، وهو يتأمل، بروح رومانسية، الطبيعة والحياة والأيام، وقد خلع عليها حسّه وفكره، وألبسهما تلك الطبيعة التي أخذت تنطق بحسه.. فسرت أحزانه في أوصال الطبيعة الحزينة:

على حد الزمن واقف
واشاهد عبرة الأيام
وشمس العمر تغرق
في بحرها لين يخفيها
واشوف الليل يكبر
والنهار يذوب في ظلام
حزينة لحظة المغرب
وداع النور يطفيها
واشوف الموج يرقص
والدموع من السحاب رزام

عجيبة رقصة الموجه
ودمع الغيم يبكيها

وقد تقوم الصورة الأدبية عند الشاعر خالد الفيصل على التشبيه التمثيلي، كما في قصيدة (شمس نصف الليل)، حين شبه اختفاء الحبيبة عن عينيه وسكنها في خياله.. بالشمس المختفية في نصف الليل، ولكنه تشبيه أعمق وأبلغ في إيحاءاته:

شمس نصف الليل ماتحرق المتدفّي
نورها بالقلب والعين ماتجهرها
تشتعل بالقلب ساعة وساع تطفّي
والجدايل لا انتثر شعرها تسترها
يا شعاع ساري بالدجى متخفّي
كل روحٍ لمسها بالهوى يغمرها

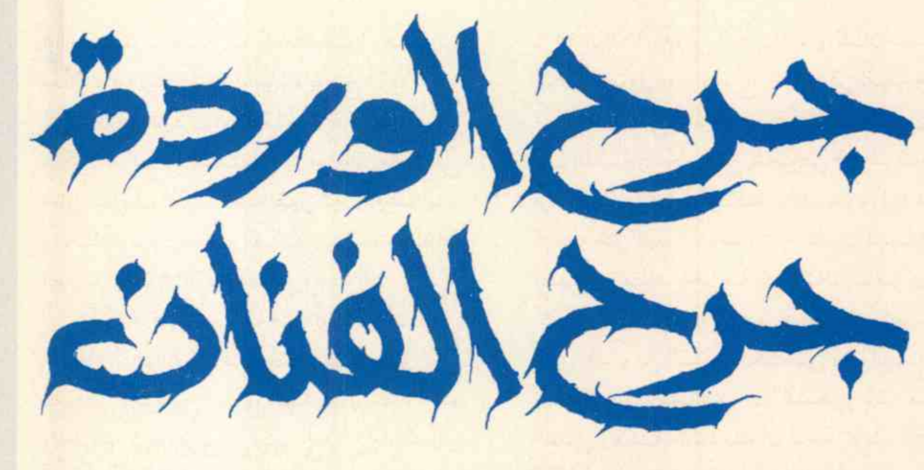
وإن شعر الأمير خالد الفيصل المقترن بالغنائية، وميله إلى أن يُؤَدّى بعضه بصوت شجي، يجعله من حين لآخر يفصح عن عمق إحساسه، ورهافة مشاعره، واحتواء عالم حبه كله، بحيث لو نطقت الربابة بمعاناته لبكت:

ياربابه على المسحوب غني
من قصيدي بكى قوس الربابه

وأخيراً نقول: إن عالم خالد الفيصل الشعري عالم رحب.. يجد فيه المتلقي - أيّاً كانت شخصيته وتكوينه الثقافي - بغيته؛ لأن الشاعر يخاطب العامة فيحاورهم بلغة سهلة واضحة، ليسمو بهم إلى المستوى المعرفي والثقافي الذي يجد فيه المثقف - وقد ارتفع إلى مستوى الخاصة - غايته. وفي الحالين يظل ذلك العالم الشعري يفوح بأريج الأوطان، ويشع بخواطر الوجدان، ويتعالى بنشيد العنفوان، ويصدح بالأغاني والإيقاعات الموسيقية، ويتألق بالتصويرات الشعرية، واللوحات الفنية، والأخيلة الرومانسية، والأصالة الفطرية.

الهوامش:

(١) دعذع النسيم: نفحة النسيم.
(٢) ونجد مثل تلك اللوحة في قصيدته (أنا والصحارى) من الديوان الثاني.



جرح الوردة جرح الفنان

دراسة في قصة «طبيب ريفي»

د. حسين مجيد

يوجد بين الذات الواعية للفنان وماضيه اللاواعي حاجز مغمور من الخداع والوهم وظيفته حماية الفنان. عالم ضبابي نرى من خلال مستوياته التركيبية الهشّة تلك المعاني العميقة الغور في دخيلة الفنان والتي تؤلف شخصيته. والفنان نفسه هو من يسلط الضوء على مكنون نفسه، أو أنه يستعيض عن التفسير الغيبي لذلك المكنون بتفسير طبيعي عقلاني يتمثل في عملية الإنطاق أو الحذف.

إن القصيدة أو القصة - عادة - تحوز على صفتها من العمق الفني حينما تخفي أو تنتقل بمعناها من طريق عامل خاص يحميها من تلك الجذوة المزروعة في قلب اللاشعور والتي تشكل كل العقد الذاتية للفنان. وقصة «طبيب ريفي»(*) التي نشرها فرانز كافكا عام ١٩١٨م لا تُعدّ أعظم ما أنتجه هذا الأديب، لكن ميزتها أنها تقدم الوظيفة الرئيسة للفن، كونه كفّارة لذنب غير واضح لم يرتكبه الكاتب، أو أنه دعوة إلى القارئ للمشاركة في تحمُّل وزر هذا الذنب، وميزة للدفاع غير الواعي أمام الجرح الأبدي الذي يحمله كل فنان، وهو جرح غالبا ما نعدّه فمويا، أي بالكلمات، تخرج من الفم إلى الفم.

إن الفنان يجعل من الأم صورة غير ضرورية وذلك بخلق عالم من الكلمات بدل ماتعطيه الأم من حليب، وبهذا يخلق واقعا مطلق السيادة لعملية الاستحواذ التي لاجدال فيها، والتي كان قد أُجبر على التنازل عنها، وإن أي تدخل بهذا التعلق الطفولي بالثدي يودي حتما إلى حالة من العقم الفني. إن وظيفة الفن ليست مجرد إخفاء الفن وحسب، ولكن إخفاء دور صاحبه أيضا، وذلك في محاولة لحمايته والمحافظة عليه من تأثير أية معرفة ذاتية لقدراته ومشاعره ودوافعه، وهي معرفة يمكنها أن تتلف أو تدمر قدرته على الخلق والإبداع.

إن الأم في جميع أعمال كافكا امرأة محجوبة عن معرفة الابن، ولايوجد غير الأب الذي يتهم الولد المتحير بذنب لايستطيع اكتشافه، ويعهد إليه برسالة لايستطيع تأديتها كاملة، وينفذ فيه قصاصا مكتوبا لا مَفَرَّ منه، حتى إنه يرفسه أثناء مايغرس فيه ذلك الكره البدائي للأب، فينسلخ الابن على هيئة صرصار كبير يحذر الرجل العصري بأن هذا هو قدره المحتوم (قصة المسخ).

قد نعذر الفنان في رفضه معرفة نفسه، ذلك أن عرضه لدفاعه اللاواعي شرط ضروري لفنه. لكن الدارس غير معذور في إخفاقه في قراءة حلم الشاعر قراءة صحيحة. إن الخوف الذي يخامرنا، وإحساسنا بذنب غير محدد، وبحثنا عن الأدب الذي أنكرنا وجوده، والموت الرمزي المتكرر... كل هذه دلائل على تعلقنا بالطاقة الجنسية ما قبل الذكورة.

تعود الأم في قصة «طبيب ريفي» إلى الغرفة يحيطها ضوء القمر الذي يغمر بنوره أرجاء المكان حيث الصبي المريض ممدد على فراشه الوحيد، يحيط به والده وأخته، يزوره في الليل طبيب لا كاهن، على الرغم من أن سحر اللاشعور الطفولي يعري الطبيب من ملابسه ويجبره على النوم إلى جانب الصبي المجروح، في حين يغني الأطفال الواقفون أمام البيت لحنا بسيطا ينطوي على السحر الشيطاني.

كانت الخطيئة الأزلية عزيزة على نفس كافكا بما تتضمنه من قبول وإذعان للقدر، وقد سمحت له بتبديل عنصر الأم في القصة. لقد رفض بغريزة الفنان الحافظة إمكان المداواة من طريق التحليل النفسي وذلك لأنه يريد الكتابة. وفي وهم الانتحار كان الاعتداء الكاذب على الأب قد انغرس في نفسه لينقلب ضده. لقد أخفى كافكا التعلق الحقيقي من طريق جرح موهوم، ولا يستحسن به معرفة معنى الحصانين، أو السماح لمن جاء لمساعدته أن يعاونه فعلا، أو الاستغراق مليًا في مهاوي النفس العميقة، كما يحدث في «طبيب ريفي». في القصة نجد أن الطبيب الذي فقد حصانه لا يملك أية فكرة من أين جاءه هذان الحصانان الجديدان على الرغم من أنه يتبين لاحقا بأن أحدهما يشبه حصانه الأول.

تتعلق القصة - كما هي الحال في جميع قصص كافكا الأخرى - بعملية فحص وامتحان شديدين لمكنون النفس والطريقة التي تتفاعل بها. لم يعثر الطبيب أبدا على النفس التي تحييها المعجزة أو الخبرة، لكنه يدعي بأنه ما يزال يبحث عن الشيء الذي لايتلف في روحه، فيستجيب للنداء الخاطئ لجرس الليل فيجد أن حصانه الوحيد قد اختفى في ناحية لا يعرفها، عندها، وبتعزيمة الحلم الذي دخل الطبيب عالمه، تقوم

البنت الخادمة التي ينظر إليها بشهوة لأول مرة، يساعدها السائس (وهو تصوير جميل للاشعور) بتجهيزه بحصانين قويين لا يعرف تماما من أين جاءا، ولكنهما جاءا من مكان ما من حظيرة الخنازير التي لم تستخدم منذ سنوات والتي تقع ملاصقة لبيته (أو الذات الواعية). إن تنامي العوامل اللاعقلانية في ذهن الطبيب، والتي تبدأ فعلها المدمر منذ بداية القصة، قد جاءت نتيجة «للدق الخاطئ لجرس الليل»(ص١٢٠). في البدايه يلاحظ الطبيب غياب حصانه في غمرة استعداده للقيام بتلك الرحلة العاجلة إلى مريض مجهول يبعد مسافة عشرة أميال منه. هكذا، ومنذ البداية، نجد صورة أدبية للحصان يتطور معناها الرمزي في ثنايا القصة. إن الحصان هنا يذكرنا باستعارة أفلاطون الشهيرة؛ إذ يقارن الرجل بسائس العربة وهو يجاهد للسيطرة على حصانين جامحين هما العقل والعاطفة. وكان حصان الطبيب الأول قد نفق من أثر الإرهاق الشديد. إذا فهو - مثل فاوست - قد وصل الحدود القصوى لاكتشاف العالم من طريق العقل. هنا، وكما يحدث في قصص الخيال الشعبي، يظهر حصانان آخران من فتحة الباب. ولابد من الانتباه هنا إلى الطريقة التي يصف بها كافكا الحصانين التوءم وكأنهما جنينان يخرجان من رحم الأم: «وإذا بحصانين قويين عظيمي الكفلين، يندفع الواحد منهما وراء الآخر، يضمان أرجلهما إلى بدنيهما، ويطامنان برأسيهما الجميلين اللذين يشبهان رأس الجمال، فيبرزان على أثر قوة دوران جسميهما من فتحة الباب ويملآنها تمامًا»(ص١١٧).

لانخطئ الآن في فهم المعاني النفسية في هذا الوصف الشبيه بالحلم. ويمكننا الموازنة بين الحصان الأول الذي مات، وهو العقل، والحصانين الجديدين، رمز العاطفة. لقد استطاع الطبيب الآن أن يحرر عاطفته المكبوتة ويطلق لها العنان من طريق هذين الحصانين والسائس الذي جاء بهما. ومن الآن تبدأ العاطفة بالسيطرة على وعي الطبيب. وحينما يصيح السائس قائلا: «هيا ياأخي، هيا ياأختي!»(ص١١٧)، فإن دوره ينحصر في القوة المحركة للـ«هُوَ»، مصدر الطاقة الغريزية اللاشعوري. وهو في سيره على أربع زاحفا كالحيوان يقوم بدور المناصر للطبيب أو «الأنا» الذي يروم تلبية نداء الواجب - الأنا العليا أو الضمير -. ولو تركنا كافكا قليلا وعدنا إلى مقالات فرويد المتأخرة لوجدناه يوضح أن الأنا هي التي تحمل رغبات الطاقة الغريزية اللاشعورية، وتكون قد قامت بمهمتها خير قيام لو نجحت في خلق الظروف المواتية لتحقيق تلك الرغبات. ويمكننا أن نوازن العلاقة القائمة بين الذات والطاقة الغريزية بعلاقة مماثلة بين الفارس وحصانه.

الحكاية كلها غريبة كالحلم، أو أنها ذات معنى كالحلم كما يقول فرويد؛ إذ إنها تحتوي على العناصر المسموح لنا برؤيتها ومايكشفه الحلم ويحرفه. كما يظهر لنا فيها الدفاع أمام التعلق الأولي بشكله الكامل. تتسلل «فينوس» من الشباك وتنتشر كضوء القمر في غرفة رديئة الرائحة، مكتومة الهواء خانقة حيث المدفأة تنفث دخانا حارا. الجنس هنا معطل عن كونه قوة دافعة، والعائلة مجتمعة الشمل بطريقة أبوية:

: «وهاهي ذي الأسرة تحس بالسعادة إذ تراني أعمل. الأخت تحدث بذلك الأم، والأم الأب، والأب بعض الضيوف الذين يدخلون من خلال ضوء القمر النافذ من الباب المفتوح» (ص١١٩).

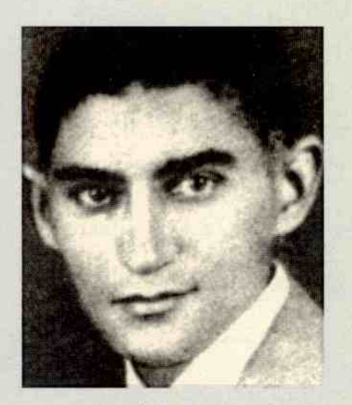
أما مدرّس القرية فيأتي على رأس فرقة الإنشاد المدرسية، ويقف أمام البيت، وتبدأ المجموعة بغناء لحني بسيط ينطوي على معنى الانتقام من الطبيب:

عرّوه حتي يُشفى المريض،

فإذا لم يشفه فاقتلوه!

فما هو إلا طبيب، ما هو إلا طبيب! (ص١٢٠).

إن الطبيب الذي تجتاحه الآن حيرة مصدرها موجات متقاطعة من الحلم لا يقوم بشيء غير أن يحلم، ويزور في حلمه الطفل الموجود في دخيلة نفسه، وهو لا يكف عن تذكر «روزه»، خادمته التي أحس بوجودها أول مرة بطريقة مثيرة أثناء قيامها بتجهيز الحصانين اللذين أُحضرا من مكان مجهول (من اللاشعور). وحينما يفشل الطبيب في النظر بجلاء إلى جرحه القديم يعرف في الحال بأن السائس قد حطم باب البيت وذهب يبحث في أثر «روزه» التي ضاعت منه إلى الأبد، تماما كما فعل كافكا حين أراد لكل النساء أن يضعن منه. نجد الآن أن المرحلة الأولى من التحوّل والانسلاخ قد وصلت ذروتها بكشف العوامل الدافعة المتخفية في نفس الطبيب. لقد كشف كافكا عن العوامل الذاتية المتطابقة في عقل رجل وهب نفسه لمهمة إنسانية سامية. ومادامت القصة قد كتبت بين عامي ١٩١٦-١٩١٧م، في الوقت الذي كان فيه كافكا يحاول حل الصراع المحتدم في نفسه من جراء الخيبة التي أصابته من اقترانه بفيليس بوير، فإن القصة وماتحويه من شخوص قد وفرت له فرصة مناسبة لتأمل علاقته بخطيبته، وروزه في القصة تمثل فيليس، وما رغبة الطبيب فيها إلا مظهر من مظاهر الحاجة التي كان يشعر بها كافكا للتعبير عن عواطفه. في البداية ظن الطبيب الذي جاء من القرية (الشعور) أن الصبي يتمارض، ولم ينقذه من هذا الشعور غير تعلق الصبي برقبته طالبا منه أن يدعه يموت. لكن الحصانين السماويين اللذين جاءا عونا من السماء «لقد تخفف الحصانان الآن على نحوٍ ما من اللجام، وفتحا النافذتين من الخارج عنوة، لا أعرف كيف؟ وأطل كل منهما من إحداهما،

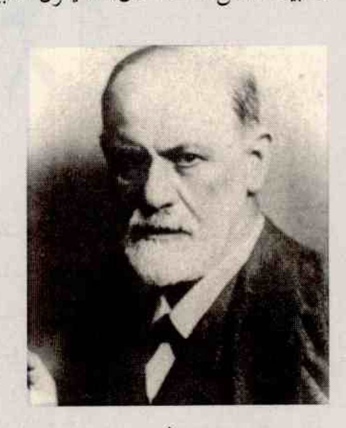


فرانز كافكا

لايحفلان بصراخ الأسرة، ويحملقان في المريض»(ص١١٨). لكن الحصانين لايستطيعان التحدث بلغة العاقل التي لايعرفها غير الطبيب. إن الصبي المريض في القصة صورة أخرى للطبيب نفسه، والتزاوج الفريد بين البراءة والطفولة والمرض أمر يناسب مفهوم كافكا لتلك القيمة المعنوية التي قادته إلى الكتابة. إن امتحان كافكا لنفسه، ذلك الامتحان الذي يكشف عن حاجته إلى الكتابه، يؤلف القسم الثاني لرحلة الطبيب وتحوله من إنسان متمسك بالأعراف والتقاليد إلى ذلك الفرد المنبوذ في قرية بعيدة يحف بها الثلج. لقد حاول الطبيب في بداية الأمر التغاضي عن حالة الانقسام التي أصابته من جراء تلك الزيارة التي قام بها إلى الصبي، وهو انقسام بين الحاجة إلى التعبير عن عواطفه والعيش بسلام مع الآخرين

من جهة، والحاجة إلى الكتابة والعزلة من جهة أخرى. ولغاية في نفسه، يسيء الطبيب فهم الإشارة التي يقوم بها الحصانان، ويعتقد أنهما يطالبانه بالرحيل والعودة إلى روزه. لكن نظرة منه إلى عائلة الصبي تجعله يحجم عن إنهاء زيارته. بعدها تبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة في بحث الطبيب عن نفسه، وهي مرحلة تبدأ بصهيل الحصانين: «آه، وهنا صهل الحصانان، وربما كان هذا الصخب الذي صدرا به أمرا من مكان عال، يهدف إلى تسهيل فحص الصبي، وإذا أنا أتبين أن الصبي مريض»(ص١١٩).

نلاحظ هنا أن للحصانين أدوارا متعاقبة في القصة، فبعد دورهما كرمز للجنس، ثم الفن، هاهما الآن حصانان غيبيان جاءا بنداء خارق للطبيعة ـ «من مكان عال» ـ. يقول الطبيب: «ولو



سيجمند فرويد

لم أجد فيها حصانين، لكان عليّ أن أدع خنزيرتين تجران العربة» (ص١١٩)، وهذا يفيد المعنى الرمزي في صورة الحصان الذي ينقلب الآن إلى معنى ميثولوجي مادامت الخنزيرتان قد خرجتا أصلا من عملية اللاشعور الجمعي لكل الشعوب، أي إنهما حصانان طوطميان. على أية حال فالأمر ميؤوس منه، وكأن الحصانين يطالبان الطبيب بالرحيل، وها هو ذا الصبي ممدد في الغرفة دون أمل بالبعث، فلنقم أنفسنا بإلقاء نظرة على الجرح:

«ورديٌّ بتنويعات اللون الوردي الكثيرة، معتم في العمق، يزداد نصوعا عند الحواف. رقيق البثرات، يتجمع فيه الدم على نحو متفاوت، مفتوح كمنجم فوق سطح الأرض. وهكذا بدا من بعد. أما من قرب فقد ازداد الأمر صعوبة. مَن هذا الذي يستطيع أن ينظر إليه دون أن ينفث صفيرًا خفيفا؟ كانت هناك ديدان في سمك وطول إصبعي الصغير، وردية بما فيها من دم وعليها ـ علاوة على ذلك ـ دم مرشوش، تتلوى، وتتعلق في داخل الجرح، ولها رؤوس صغيرة بيضاء وأرجل كثيرة ناحية الضوء. ياللك من صبي مسكين. ليس هناك من سبيل إلى مساعدتك. لقد وجدت جرحك الكبير. هذه الزهرة التي على جنبك ستسوقك إلى حتفك»(ص١١٩).

إنه من أكثر الجروح تشويها في الأدب العالمي. هنا يهمس الصبي من جديد، ولكنه يبكي هذه المرة وهو مبهور بالحياة في جرحه ويقول: «هل ستنقذني؟». لكن لا، فحالة الصبي ميؤوس منها. إن من صفات العبقري العيش على فضيلة الجرح الذي يحمله، وهو خلاصه كفنان حتى لو قضى عليه كرجل. إنه بروميثيوس مربوطا إلى صخرة عذابه، يبدع لأنه يعاني من المهانة كرجل. أما الطبيب المهزوم الذي شاخ قبل أوانه فمخلوق ميت لا يمثل الحياة بعد الموت: «هأنذا، وأنا الرجل الهرم، أضرب في جنبات الأرض، عاريا، معرضا لبرودة هذا العصر المنحوس، بعربة أرضية، وحصانين لا أرضيين. ومعطفي الفرائي من وراء العربة، لاأستطيع بلوغه، وليس هناك من بين الحثالة المتحركة من المرضى من يحرك إصبعًا. خدعوني! خدعوني! لقد اتبعت مرة الدق الخاطئ لجرس الليل، ولن ينصلح الخطأ أبدًا»(ص١٢٠).

حينما يتبين الطبيب الجرح في جنب المريض يعبر بنفسه من عالم العقل وخداع النفس والعواطف والشهوة، إلى عالم الحقيقة المرة. ويعرف أن الجرح سببه رسالة الفنان وطريقته في التضحية بنفسه: «لقد وجدت جرحك الكبير. هذه الزهرة التي على جنبك ستسوقك إلى حتفك»(ص١١٩). هنا يتقبل الطبيب القيام بدور الشاعر، ويتعرى من ملابسه كالقس أثناء أدائه مراسم التكريس، في حين يحمله شيوخ القرية إلى سرير المريض، ويضعونه إلى جانب الجرح. إن كافكا يواجه ثقافته وطموحه من طريق الصبي الذي يختاره قرينا لنفسه، ويتبين أن مهمة الشاعر السمو بالأشياء إلى عالم الحقيقة والنقاء. وبعد الفحص الدقيق للجرح يثبت للطبيب أنه داء عضال، لاشفاء منه. هنا يرتشف كافكا معنى الحقيقة من المفارقة التي يقدمها هذا الاكتشاف، وهي عجز الشاعر عن الاستمرار في رسالته

جرح الوردة جرح الفنان

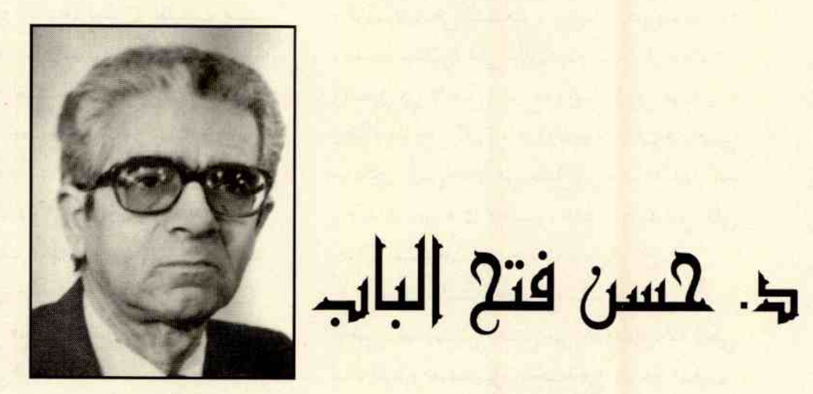
دراسة في قصة «طبيب ريفي»

العظيمة، وهذه حقيقة تهيمن في النهاية على الطبيب ومريضه.

تمثل الرحلة التي قام بها الطبيب واجب الفنان في السفر مرة بعد أخرى إلى عالم ثلجي غريب، يرافقه النسيان وتسكنه الأوهام والخيالات حيث يواجه العبث واللاجدوى والموت. وسرعان ماتتحقق الرؤية التي يقدمها رمز الجرح للطبيب في حياة كافكا نفسه، فبعد فترة قصيرة من إنهائه كتابة هذه القصة يكتشف أنه مصاب بالسل. هنا تتحقق قصة الطبيب في الواقع الحي للكاتب، فقد ظهرت علامة من علامات الذات الأخرى لكافكا على هيئة عُصيات في بدنه. عليه الآن أن يحجم عن الزواج، ويكف عن إيذاء والده الذي يمقته، ويقوم بدوره المطلوب كشاعر، وهو على يقين بأن الموت هو الكفارة والحل الوحيد لمأزقه. يقول كافكا إن جميع أعماله لم تكن غير محاولة للهرب من أبيه. كان كافكا حتى في نهاية عمره يفضل لنفسه ولنا أن نختبئ في صراعه الذي لا ينتهي مع النفس، ذلك الجرح الذي يقيح «ديدانا في سمك وطول الإصبع». وكان مثل الصبي المجروح في قصته يرغب في العيش بعد أن تمنى الموت كثيرا. ومن المحتمل أنه اختار ـ كفنان ـ أن يخفي حزنه العظيم بكرهه الشديد لأبيه. من هنا قد نعطف على البطل في كشفه لنفسه وطلبه منّا القيام بالعمل نفسه في كشفنا لأنفسنا. وقد تكوَن تلك الوردة الرمزية التي تنشأ من الأرض التي يتمرغ بترابها أدونيس اعترافا بأن الفنان حتى لو عاد إلى أنوثة الأم أو إلى وعيه الخاص بخصوبة هذه الأنوثة، فإنه إنسان لا يزال يعيش روحيا في الشعر وعالم حلمه الرائع.

ومع من أن كافكا لم يكن مبشرًا ذا رسالة، كما لم يكن فيلسوفا، إلا أنه كان يفضل حلمه على الحقيقة الموضوعية. هنا يتوجب على القارئ أن يستعيد حلم الشاعر بشرط أن يحلله لا في كونه حلمًا لإرادته الموهومة، ولكن كما يخلقه الفنان، أي عمل متعدد الجوانب.

(*) «طبيب ريفي»، ترجمة د. مصطفى ماهر، مجلة «الفيصل»، العدد ١٠١، آب/أغسطس ١٩٨٥م، ص١١٧-١٢٠. وجميع النصوص الواردة هي من هذه الترجمة، وستأتي مشفوعة برقم الصفحة.



د. حسن فتح الباب

رحلتي مع الشعر

بين الضوء الخافت المرتعش والظل الشاحب كالأيدي المعروقة المنسدلة، ولدت تجربتي الشعرية مرآة لحياتي في أحضان العناة الصابرين من عشاق مصر المحروسة وأحباب النيل العذب الكوثر كما كنا نصفه في الزمن الخالي. ومن أحلام الرومانسية وأخيلة الوهم الغيبية وجماليات الطبيعة الصامتة الحية وعذابات الحب المحروم وموسيقى الكون الغامض، كانت قصيدة الطفولة والصبا الباكر أول خيوط مانسميه الإبداع على النَّوْل المقدس للحرف.

ويخيل إليّ أن شعري قد سبق تكويني حين تخلل "الجينات" إلى جنب الملامح التي ورثتها عن أبي، كما عرفت حين شببت عن الطوق؛ إذ كان قد تولى عني معجلا مخلّفا مع هذه الملامح بضع وريقات غشاها شحوب الاصفرار، كوردات صوّحت في عز الشروق أو أوراد طللية بكت عليها مآقي الغيوم في أمسيات خريفية. ولاأدري حتى اليوم، أكانت الأبيات التي ضمتها تلك الأوراق قطرات من نبع أبي أم من تلك المنظومات التي كنت أحفظها بعد ذلك في المدرسة الابتدائية. ذلك أن أمي لم تحدثني عنه إلاّ نادراً، ولم أشأ أن أنكأ جراحها.. كان من فئة الكادحين.. وكل ماعرفت عن مدى إلمامه بالعلم أنه التحق بالأزهر حين هجر قريته في صعيد مصر بحثًا عن فرصة عمل بالقاهرة، فأمضى حينا مجاورا بالجامع الأزهر، وأنه كان يرتل القرآن ترتيلا، وتغلب اللغة الفصحى والاستشهاد بالشعر على حديثه.

من هنا.. كانت البداية

ومازلت لاأدري أيضا ما إذا كانت بذرة الموهبة الأدبية والتوهج الشعري مرجعها إلى أبي أم إلى أمي إذا كانت الوراثة لابد أن تؤثر في القدرات الإبداعية، وأن تثيرها من مكمنها، فقد كانت أمي - يرحمها الله - مرهفة الشعور، وكانت جدتها - فيما تقول - ترتجل الشعر الشعبي. أما جدي الذي كفلني بيته فوقاني من ضياع اليتيم الفقير في بطن الحوت فكان له أخ يهرف أكثر مما يعرف. ولكنه منحني - نظير خدمتي إياه وشراء لفافات تبغ من "مصروفي" الضئيل لأقدمها إليه ولمحبته لي - بعض أسرار «الزير سالم ودياب وجساس وتغريبة الهلاليين»؛ إذ كان يحفظ كثيرا من الملاحم الفلكلورية تدخلني كالمسحور في عالم بعيد بهيج.

لقد عرفت الشعر من هذه الينابيع الصافية الأولى على سذاجتها؛ بل لسذاجتها.. عرفت حين أتيح لي مقعد في التعليم أن تلك السطور الذابلة التي أضاءت في عيني يومئذ هي الشعر ذو الشطرين المتماثلين، وأن الأساطير التي شنف سمعي وبهر ناظري بها صاحب «صندوق الدنيا» وجدي «سيد» هي جوهر الخيال الشعري كما أدركت في كبري.. لقد فتحت لي مغاليق عالم فسيح بهيّ ومشرق.. عالم الحب والرؤى.. عالم الرؤى التي تطمس حقيقتها قبح الواقع وتكسر نصله قبل أن يمزق الحنايا وتقلل من

الشعور بقسوة العلاقات بين البشر.. فكانت أناشيدي التي أسلمت نفسي إليها دون مراودة، واستعضت بها عن مرارة الفقد والحرمان والإحساس بالملل والشقاء كلما أراد الطريق أن يضل بي.

البحث عن حلم ضائع

وفي تلك السن الصغيرة التي لم تجاوز التاسعة بعد موت أبي تعودت أن أتسلل من فراشي فجرًا حتى لاتشعر بي أمي، فأصعد إلى سطح بيتنا هناك في ذلك الحي الشعبي القاهري العتيق «شبرا»، لأشهد لحظة المولد العجيب، وأنتشي بالدهشة لحظة اختراق الساق الدقيقة لحبة قمح أو ذرة كنت قد دفنتها في أُصيص من الطين.. اختراقها لسطح التربة. ولم يُقدَّر لي أبدًا ـ بطبيعة الحال ـ أن أمسك بهذه اللحظة الكشفية رغم كثرة ماتسللت وتوسلت. ولكن العينين قد اكتحلت بمنظر النبتة وقد اشرأب عنقها فجأة ذات شروق، ولو كنت أحفظ حينئذ الآية: ﴿وأشرقَت الأرضُ بنور ربها﴾(الزمر:٦٩) لتلوتها خاشعًا.

ولم أنس أبدا حلمي الضائع، فمازلت حتى اليوم ـ وبرودة الشيخوخة تنخر عظمي ـ أحن إلى تحقيق المعجزة: أن أشهد لحظة التكوين في أدق الكائنات، ولعل هذا هو سر مايقولون من ازدياد شعري حرارة وتدفقا وتوهجا كلما مضت عليّ السنون الطوال.. إنه البحث عن المجهول، عن الكائن الحي الخفي، عن البراءة الأولى، عن الجذور النقية، والأمل أن تولد من رحم الأرض وتشرق تحت مظلة الشمس زهرة بيضاء، فتعانق أعراس النور، الأمل أن أشهد مولد الإنسان الحق: مولد الحرية والعدل.

لم ينفصل الحبل السُّرِّيّ الذي يربط مابين التوءمين: الشعر والشاعر، البذرة والتراب، الوردة والجذر المستخفي في أحشاء هذا التراب.. لم ينفصل حبل الوصل أبدا رغم طول السرى ووعثاء الطريق، رغم الأيدي والأظافر المدببة التي تتسلل في الظلام لتسرق الأحلام، رغم القيد الذي يدمي المعصمين ـ كما يقول ناجي ـ ويكبّل القدمين، ولكنه يعجز عن وأد الروح المسكونة بعشق الوجود أو اعتقالها.

جراحات الطفل اليتيم

ومن ورْد العذابات والأحلام والأشواق التي كابدْتها في عهد الطفولة استقيت ماء الشعر، فغنيتها صغيرا، ومازلت أكتوي بلهيبها كبيرًا. فلا غرو أن تتفجر الينابيع التي ظننتها كامنة خامدة كلما انتكأ الجرح في جسد الوطن ـ أفرادا أو شعبا ـ أو جسد الأمة أو جسد الإنسانية، فعانيته من أدق ذرة في التراب إلى أبعد نجمة في السماء، وأول مايتفجر هو جراحات الطفل اليتيم القديم:

نفضت عني كل ريشة
لطائر الطفولة الذي
كان يغنّيني قليلا
ويمنّيني طويلا
وكنت عاشقا غناءه
وزاهدا في الأمنية
وحينما فارقني
هاجت بي الذكرى
بكيت مازهدته وماعشقت
جردتُ صدري من نُسيمة عليله
نما به الصبار.. ماحزنت
كان رفاق «حارتي» لايعرفون الورد
أودعت صدري حزمة من نار
نصبت فيه راية حمراء ما شفيت مرة غليله
وكلما تألقت جوهرة من الندى تحت الشروق
وجمت.. أعشى عيني البريق
لأنني شاهدت في مرآتها
عيون قطَّاع الطريق!!

ومنذ البدء اتَّشحت قصائدي برداء شفيف من الحزن، وكان كبيرا ومريرا.. أكبر من سنوات عمري الذي تقدم وَضيَّعْته عبثا مجالدة الصخر الذي لايلين، ومحاولة الفكاك من الحصار، الحصار الذي لم يُطْبق فكيه حولي وحدي بل أطبقهما على عنق الوطن والشعب كله، فلم يكن همي الخاص بمعزل عن هموم الذين غنيت لهم وعنهم بلغة لايفهمونها لأنهم لايعرفون إلا أبجدية التراب: الخبز والملح:

الحزن كان موعدي مع الرفاق والسنين
وكان لحظة الغواية
وروعة اليقين
الحزن كان موعدي وموطني
أحرس فيه ملكيَ العقيم
لأنني قامرت في البداية
وقفت حين كان سيد المدينه
جلادها المغامر المشؤوم
وحينما خيِّرت أن أقدم الذبيحَ
فدية للُكتي
ووجهك الحزين
لم أتردد.. صرت بعده اليتيم
وكانت النهاية
وكان حزني أنني بلا ولد

والعبور القسري من عالم الطفل إلى عالم الكبار وجدته في قصيدتي «أنت وأنا» في صيغة تراوح بين الواقع والأسطورة والجو التاريخي والاستغاثة بالحب القادر بقوّته ونقائه على انتشال السفينة الصغيرة الضحية:

تستيقظين في إهابي.. في دمي
ولا ألقاك، والحب الذي أرضعته كأنه دمٌ شهيد
مضى عليه ألف عام لم يجف
يحلم بارتياد كوكب بعيد
ولم أكن من رائدي الفضاء
وُلدت تحت عالم لم يُكتشف
ولم يكن له سفين
فلم أجد طفولتي

.. ويبقى حب الوطن

إنها العودة بعد لقاء المحبوب إلى الماضي لا كجنة موعودة وإنما كطفولة مفقودة، إلى الجذور والجرح القديم الذي «مضى عليه ألف عام لم يجف» إلى «حارة المجدلي»، بين بهجة طفل الحب الكبير في حاضر القصيدة ومرارة اليتم لطفل الأمس البعيد، طفل لم يمت؛ فهو يحمل جناحا من نار خالدة يلقي ظله على الحاضر، لان الحاضر ليس أقل كآبة ولاشقوه من الماضي، وما الحب البهيج لامرأة من غير عالمنا بقادر على تحطيم الأغلال التي يحملها الوطن ويحملها معه طائر الفينيق «العنقاء» المنبعث حيا من

الرماد، لأنه حلم سرعان مايصحو على هدير العاصفة تصفع شبابيكه المنسدلة الستور على اثنين يتناجيان. وحتى هذا الحب الحلم القصير يتحول إلى ذكرى بعد أن ذهبت به العاصفة. ففي زمن العذاب والتعذيب والقهر الجماعي والفردي لايبقى إلا حب واحد ينكشف في نهاية القصيدة.. إنه الوطن:

وعاشق لم يعرف الطفولة
كان الصغار يُوأدون كل فجر
ويكبرون فجأة في الليل
وفجأة تدهمهم على رصيف الانتظار
حوافر المأساة والبطولة
ولم تعودي أنت بعدها
ضلَّ بك السفين في فضائك الغريق
وكان ملاحوه يصرخون: لا انتظار
يموت من يقف
أما أنا فقد عرفت ذات يوم مركبة
تُقلُّني إلى التراب
ياوطني.. ياكوكبا لم يُكتشف
لاتعترف
موطنها السحاب
وأنت سر الرعد والبروق
دمٌ شهيدٌ لايجف
ينزف أمطارا.. ويلفظ الزَّبد
منتظرا ضمتها إلى الأبد
إلى الأبد..

ضابط في القرية

الإرهاصة بالشعر الحر في ديواني الأول "من وحي بورسعيد" قُدِّر لها أن تتجذر وتتطور حتى تبلغ أوجها في قصيدة التفعيلة عندي منذ عام ١٩٥٧م، ولم يكن هذا التطور الدرامي ليتاح لي لولا تجربة عاصفة خضتها وكانت أهم تجارب حياتي وشعري. ذلك أنني بعد حصولي على شهادة إتمام التعليم الثانوي انتظمت في سلك الدراسة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة الآن» سنة ١٩٤٢م. حيث قضيت عاما دراسيا واحدا، ولكني لم ألبث أن فارقتها إلى كلية الحقوق مضحيا بسنة من عمري؛ إذ أحسست يومئذ أنني أرتاد دربا مطروقا، وكان طموح الفتى العصامي لايقف عند حد. وواصلت دراسة القانون حتى تخرجت في عام ١٩٤٧م، وكنت قد اضطررت - تحت ضغط ظروف الأسرة الاقتصادية الصعبة - أن أعمل في وظيفة حكومية خلال ذلك العام والذي قبله، مثلما اضطررت في صغري أن أمارس العمل في مكتبة بشارع عبدالعزيز في حي العتبة الخضراء وكنت - حينها - في العاشرة من عمري.

غير أن المشيئة الالهية كانت تدخر لي طريقا آخر غير الحقوق وغير الآداب، طريقا لم يذهب خيالي يوما إليه، وهو أن أصبح ضابط شرطة.

ومن ثم حدث تحول جديد وجذري في مجرى حياتي، ولكنه هذه المرة أشد حدة. ولم أكن مُكرها؛ فلقد أتيحت لي فرصة العمل مفتشا للتحقيقات في إحدى الوزارات، وفرصة في الوقت ذاته للالتحاق بكلية الشرطة في قسم الليسانس، فاخترت الثانية، لا لما تغري به فتى في ريعان الشباب من مستقبل مرموق يعوض به بعض حرمانه القديم فحسب، وإنما لكي يدخل الفرحة إلى قلب امرأة ترملت في زهرة العمر، فكانت أمه وأباه حين تراه يرفل في زي الحكام تزين كتفيه النجوم، فيتحقق حلمها الذي راودها آناء الليل وأطراف النهار، وكأنها «بنيلوب» التي مكثت أعواما طوالا- كما تحكي الاسطورة الإغريقية - تغزل على نولها ثم تفك نسجها، وتبدأ من جديد حتى يعود البطل الحبيب.

ولكن سفينة الشاعر الضابط كانت منذورة لخوض أمواج عالية كالجبال، ورياح عاتية لا قِبَلَ لها بمقاومتها بأشرعتها الشاعرية وأجنحتها الرقيقة، فقد وجدتني في «نقطة الشرطة» التي توليت رئاستها والتي تضم بضع قرى، غريبا في زي غريب، بسبب تلك العقدة التاريخية المستحكمة في أعماق الريفيين، وهي كراهية الشرطة باعتبارها ممثلة للسلطة التي طالما اغتصبت أرضهم التي رووها بالدمع والدم، وفرضت عليهم الإتاوات، واختطفت الأبناء والآباء لتسخيرهم في مزارع العثمانيين والمماليك والإنجليز دون مقابل إلا السياط تلهب الظهور، وجندتهم في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

لقد طاردني الفلاحون الفقراء بنظرات صامتة ولكنها أشبه باللعنات، رغم محاولاتي الدائبة أن أقنعهم أنني ماجئتهم إلا للحفاظ على أمنهم ودرء الجرائم عنهم:

شربت أحزان القرى، لم تتبعني
لم أكن بتابع أمين
كان ردائي صفرة نزفتها
من عرق السنابل
ولم يكن لخطوتي التي جهدت كي تلين
غير أصداء السلاسل

وهكذا أشعل التناقض بين مهنتي بوصفي ضابط شرطة وهويّتي كشاعر خرج من صلب فقراء مصر شرارة قصيدتي «ضابط في القرية» ١٩٥٧م، وسائر القصائد التي تضمنها ديواني الثاني «فارس الأمل» سنة ١٩٦٥م، كما تغنَّى هذا الديوان بالانتفاضات والثورات وحركات المقاومة في الجزائر وفي فلسطين والعراق والأردن وفي أمريكا اللاتينية، فرثى أبطال الحرية الشهداء، وأشاد بالمناضلين الأحياء في نسيج شعري كتب عنه الناقد الكبير مصطفى عبداللطيف السحرتي يقول: «يتمكن الشاعر حسن فتح الباب في أداء قصائده من التجرد من التقريرية، والابتعاد عن الخطابية، والتأدية الصخابة المثيرة، وهي العيوب الشائعة في شعرنا السياسي والنضالي. إن قصائده تكتب نفسها بنفسها».

دواوين من وحي الرحلات

بعد طواف طويل في أقاليم مصر أوفدتني وزارة الداخليه سنة ١٩٦٥م في بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة وسائل مكافحة الجريمة، فرأيت وسمعت ووعيت، وكتبت ديواني الثالث «مدينة الدخان والدمى»، وقد عبر الصحفي الروائي صلاح حافظ عن هذه التجربة بقوله: «لقد عاد حسن فتح الباب من أمريكا فزعًا مما رأى، وخائفا من السلطة بالمفهوم الذي لمسه هناك.

وكان طبيعيا وهو يترجم رحلته إلى أبيات من الشعر أن يغني بلهجة الخائفين، وأن يتعاطف مع الغرباء والهاربين. إن الفزع من سرطان السلطة كما عاد به حسن فتح الباب لايمكن أن يكون فزع ضابط، وإنما هو فزع شاعر حقيقي بكل معنى الكلمة. فزع رجل ينبض الشعر في عظامه، ولايحاول على الإطلاق أن يفتعله، واللهجة التي يغني بها لهجة رجل مُطارَد لا رجل يطارد الآخرين. ولأنه شاعر فإن الإيمان بالإنسان يجد طريقه بين أبياته من خلال الضباب والأسى. هذا الشاعر العذب الحزين».

ويبتسم لي مرة أخرى طالع الإبداع الشعري المستلهم من السفر خارج الوطن، إذ أراني سنة ١٩٧٠م على رُبى بيروت في صحبة وفد المحامين المصريين بوصفي من أبناء كلية الحقوق.. بيتنا وأُمّنا التي وهبتنا للدفاع عن أصحاب الحقوق المهضومة وعن الحرية والعدل الاجتماعي، غير أن فرحة النصّ الإبداعي قد تنبثق من مرارة الواقع. وكان هذا الواقع هو مأساة الفلسطينيين الذين لجؤوا إلى لبنان، فليس لهم إلا المخيمات مأوى في قيظ الظهيرة وفي زمهرير الشتاء وعواصفه بعد أن طردهم أحفاد "يهوذا" من أرضهم واغتال وطنهم، وحاول ـ ومازال يحاول ـ أن يزوّر تاريخهم.

مسرات التنقل بين الروابي الخضر تعلوها أشجار الأرز والصنوبر الباسقة وشجيرات الزيتون المونقة والوجوه النضرة، ذابت في تلك المأساة التي زلزلت روحي، وأشعرتني مرة أخرى بمرارة العجز عن تغيير الأمر الواقع المفروض على اللاجئين بأشعاري التي لاتروي غُلة طفل صَاد ولاتشبع من جوع. ومن ثم امتزجت الأشجان الفلسطينية بجماليات المكان متمثلا في الطبيعة اللبنانية. ومنذ تلك الرحلة؛ بل منذ استشهاد البطل عبدالقادر الحسيني في معركة القسطل على الأرض المقدسة في ٨ نيسان/أبريل ١٩٤٨م، ومرثيتي له التي ضمّنتها ديواني الأول، غدت المقاومة دفاعًا عن فلسطين وترًا أساسيًا آخر في قيثارتي بعد الوتر الذي عزفت عليه معاناة الفلاحين والصيادين والثوار المناضلين في ديواني الثاني.

أتيح لي بعد ذلك أن أشهد مدينة السويس التي دمر العدو بعض أحيائها الجميلة و«خط بارليف» الذي اجتاحه جند مصر في الضفة الشرقية لسيناء خلال فترة الهدنة التي أعقبت حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣م، وأوحت إليّ تلك المشاهد والمشاعر التي غمرتني بديوان «حبنا أقوى من الموت» الذي صدر في مطلع عام ١٩٧٥م، وكتب عنه الدكتور رشاد رشدي قائلا: «بهرني شعر حسن فتح الباب بطابعه الفني والإنساني. إنه شاعر عالمي بكل المقاييس».

الوردة والمواويل

كانت هجرتي إلى الجزائر في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧م منعطفا حادًا في حياتي وعلامة فارقة في شعري. فقد تضاعفت الغربة، ومن ثم اشتدت، فشاركت في العمل السياسي الوطني والقومي دون أن أتورط في تنظيم سري. وتزايدت أعبائي بين تدريس القانون بجامعة وهران وتعريب أبناء الجزائر من جهة، وشواغل الأدب والنقد والإبداع الشعري من جهة أخرى. وفي ظل المنفى الاختياري كسرت كوابح القلم فأفصحت ـ عبر الوسائل الفنية ـ عما كان مضمرا في قصائدي قبل الرحيل إلى وهران. وكان ديواني «وردة كنت في النيل خبأتها» الذي صدر في تونس في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥م الثمرة الأولى لتلك التجربة، وأعقبه ديوان «مواويل النيل المهاجر» الذي نشر بعد أن عدت إلى أرض الوطن.

وكانت جلّ قصائد هذا الديوان استطرادًا وامتدادًا لسابقه، وكان الباقي تصويرًا لمشاهد من مدينة «بودابست» التي قضيت فيها شهرا وبعض الشهر في أثناء العطلة الصيفية، وفيها رأيت النيل مشعًا على نهر الدانوب الذي ألهم «شتراوس» أعذب أنغامه. كما رأيت طيفي الفدائيّتين «دلال المغربي» و«سناء محيدلي» يصبغان أمواه هذا النهر الأوربي بلون الورد والشفق والدم ممتزجا بألوان للطبيعة والنفس والناس، للحب والموت، للماضي والحاضر والآتي، وحدة واحدة من المتشابهات والمتناقضات زمانًا ومكانًا وإنسانًا.

وتعاقبت مجموعاتي الشعرية، فصدر لي ديوان «أحداق الجياد» سنة ١٩٩٠م، وهو تنويعات على قصيدة «ضابط في القرية»، وقد حصلت به على جائزة البابطين للإبداع الشعري، ومن أبرز التقنيات الحديثة في هذا الديوان تلك القصائد القصار ذات الشحنة الدرامية المتفجرة؛ إذ جاءت ومضية أشبه بالإشارات لشدة اكتنازها واتساع دلالاتها وعمقها. وكان آخر دواويني المطبوعة ديوان «كل غيم شجر.. كل جرح هلال».

محاكمة الزائر الغريب

كان حلمي القديم أن أدخل عالم المسرح الشعري عودًا على بدء، إذ كتبت في مطالع الشباب مسرحيتين مستلهمتين من الأساطير «الميثولوجيا» الفرعونية وهما «أوزوريس» و«إخناتون». ولكنني في مسرحيتي الأخيرة التي نشرها اتحاد الكتاب العرب في دمشق سنة ١٩٩٤م بعنوان «محاكمة الزائر الغريب» استدعيت من التراث العربي شخصية حية في وجداننا بإبداعها وشموخها، هي شخصية المتنبي الغنية بالتجارب وروح المغامرة في سبيل تأكيد الهوية وتأصيل الانتماء في عالم الصراع بين النقائض، ولتحقيق حلمها بالحرية والعدل والكرامة، في مواجهة نماذج بشرية من عصرنا متباينة المشارب والمذاهب والمصالح السياسية والاجتماعية، يحاكمها المتنبي وتحاكمه.

ولي ديوانان تحت الطبع الآن في مصر وسورية، هما «سلّة من محار» و «حزمة من جذور». وإذا كان في العمر بقية فإنني آمل أن أتابع مسيرتي الفنية متفرغًا للمسرح الشعري بوجه خاص، إخلاصًا لفن العربية الأول في صيغته الدرامية، وإيمانًا بدوره في ترقية الوعي الاجتماعي والجمالي للفرد والجماعة، وإنقاذ إنسان العصر وخاصة في الوطن العربي من آفات الاستلاب والقهر وتشويه الروح.

العنوان: يوم في ذاكرة التاريخ.
المؤلف: عبدالله بن حمد الحقيل.
الناشر: دار أضواء المعرفة، الرياض، ط١، ١٤١٦/١٩٩٥م (١١٥٥ص).




عبدالله الحقيل

عبَّر الأديب عبدالله الحقيل في كتابه (يوم في ذاكرة التاريخ) عن اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية بمعان عديدة، وأفكار متنوعة، استخلص فيها رموز ذلك اليوم ودلالاته الذي خلد التاريخ لصانعه الملك عبدالعزيز ذكريات لاتنسى بأمجادها وانتصاراتها، وإنجازاتها الحضارية والفكرية والثقافية.

ولهذا وجدنا الأديب الحقيل ينهل من بحور تلك الذكريات قيمًا ومبادئ ومواقف ورؤى مشفوعة بصياغات أدبيه لاتعوزها الجودة، ومشاعر زاخرة بالحماسة والعواطف الوطنية. وقد كانت كتاباته تجمع روح الالتزام والانتماء للواجب الوطني الذي يحتم على الأدباء والمفكرين السعوديين توظيف طاقاتهم الفكرية والأدبية والتعبيرية والفنية، للإشادة بأبطال المملكة، ورجالاتها، ولاسيما موحدها وصانع أمجادها ووحدتها.

ويبدو أن الأديب الحقيل أخذته ذكريات اليوم الوطني السعودي؛ فانهالت عليه الأفكار والمشاعر والخواطر، ولم تتوقف إلا بعد أن سطر مجموعة من المقالات التي تُوِّجت بعناوين مختلفة، ولكنها أفرزت مشاعر وعواطف ومعاني واحدة. ومن تلك العناوين: اليوم الوطني ذكرى خالدة وتاريخ مجيد، اليوم الوطني إشراقة في جبين التاريخ، اليوم الوطني عبق المجد وذكريات التاريخ، اليوم الوطني إطلالة خير ومسيرة بناء ونماء، اليوم الوطني ذكر بطل الانتصارات، اليوم الوطني يوم الأمجاد والوحدة، اليوم الوطني تاريخ مشرق الصفحات وضاء المعالم، اليوم الوطني رمز للأمن وعنوان مضيء لتاريخ خالد، اليوم الوطني ثبات على المبادئ وسجل للبطولات، اليوم الوطني عهد من الإنجازات والطموحات.

ومن هنا جاءت كتابات الحقيل مواكبة لمشاعر جماهير هذه البلاد، وهي تحتفل بهذا اليوم المجيد، لذلك ترجمت كتاباته كل مايمكن أن يخالج ضمير المواطن السعودي، وما يعتلج في خاطره وفكره. فكنا نتابعه في كل ما سطَّره من تعريف وتحليل في مقدمته، ومتون سياق كلامه، فيرى ذلك اليوم مشرق الصفحات، وضاء المعالم، يتفاعل حبًا في القلوب، وفرصة للتأمل في الماضي والحاضر والمستقبل، وأنه أحد الأيام المضيئة والمشرقة في تاريخ هذه البلاد، ونقلة حضارية عملاقة، تذكر بتاريخ ناصع يفخر به أبناء هذا الوطن الكريم؛ حيث وحَّد ثراها «البطل الملهم والقائد العظيم الملك عبدالعزيز رحمة الله عليه»، فصنع «ملحمة بناء الكيان والإنسان تحت مظلة الشريعة الإسلامية»، «وهي ملحمة لاتزال فصولها العظيمة تتواصل بمسيرة الأبناء الذين حملوا الأمانة على عاتقهم، فكانوا خير خلف لخير سلف».

كما يرى الحقيل أن اليوم الوطني جدير بالاهتمام والتأمل، وقمين بالإشادة والذكرى، وشرح أهميته وما تم فيه من إنجاز عظيم لأجيالنا، لتكون على بيِّنة من ذلك. على أن هناك جوانب أخرى تطرق إليها الحقيل، وبخاصة الجانب الثقافي والفكري، فضلاً عما قيل في الملك عبدالعزيز من شعر وطني وحماسي وملحمي. فقد بين أهمية إثراء الدراسات التاريخية عن الملك عبدالعزيز، فمازال التاريخ مزهوًا بإنجازاته وجهاده ودولته الإسلامية، «ودوره الرائد وكفاحه المشرف في سبيل بناء هذا الوطن المهتدي بتعاليم الإسلام وشريعته الخالدة»، هذا فضلاً عن ذكر أهم المعارك والأحداث التي خاضها الملك عبدالعزيز ولاسيما في فتحه الرياض. وإن تلك الأحداث الملحمية تتطلب من الحقيل كتابات مستفيضة، لكنه اكتفى بتعداد أكثر من أربعين موقعة حربية، وببعض النصوص المنقولة من كتب الذين ألفوا أو كتبوا عن الملك عبدالعزيز وبخاصة الذين عاصروه وكانوا على مقربة منه، أمثال: فؤاد حمزة، وحافظ وهبة، وأمين الريحاني، ومحمد المانع. كما ذكر الحقيل أسماء أخرى بمقالاتهم وكتبهم، أمثال: عبدالله بن خميس، وعبدالوهاب فتال، وإبراهيم بن عبيد العبد المحسن، وعبدالعزيز بن محمد الأحيدب، ومحمد منير البديوي، وأحمد عسه، وصلاح الدين المختار. ثم أسماء أجنبية، وما ذكر في الموسوعة الحديثة للمملكة العربية السعودية. وإذا كان الحقيل ذكر أسماء المعارك والمواقع التي خاضها الملك عبدالعزيز ضد أعدائه، فإنه ذكر أسماء الرجال الذين خاضوا معه تلك المعارك وشاركوا فيها مشاركة شجاعة، واختلف المؤرخون في عددهم. لكن الحقيل يورد أسماء ثمانية وخمسين رجلاً يرى أنها «هي الأسماء الأكثر ترجيحًا من غيرها» مستندا إلى بعض المصادر.

أما الشعراء الذين استشهد الحقيل بشعرهم الذي يصفون به سيرة الملك عبدالعزيز وبطولاته، ومزاياه الشخصية، فهم كثر، وقد ذكر عددا منهم، مثل: محمد بن عثيمين وعلي بن محمد السنوسي وخالد الفرج وخيرالدين الزركلي وبولس سلامة وأحمد بن إبراهيم الغزاوي وفؤاد الخطيب وفؤاد شاكر ومحمد بن بليهد وعبدالمحسن الكاظمي ومحمد العيد الخطراوي وعبيد مدني، وغيرهم.

ويجد الحقيل أن ذلك الشعر الذي أورده مما قيل في الملك عبدالعزيز هو قليل من كثير، وغيض من فيض، كما أنه نماذج وعينات وتمثيل لبعض الصور الشعرية «ولايمكن أن يحيط الكاتب أو الباحث بالكم الهائل من الشعر الذي تغنى بأمجاده قرابة نصف قرن».

وقد أجاد بعض أولئك الشعراء إجادة لم يبلغها غيرهم، أمثال الزركلي؛ حيث نستمع إليه يقول:

تتطاحن الفرسان وهو كأنه
ما بينها علم يموج، وحيدُ
لاتبلغ الأسياف من جثمانه
إلا كما خدش الحديد حديدُ
عقل كأن الغيب منبسطٌ له
سفرًا، ورأي في الصعاب سديدُ
تتعاقب الأحداثُ دُهمًا حوله
ويُجيل فيها طرفَه فتحيد
ويثور بركانًا إذا استغضبته
للحق، ما للَظاهُ فيه خمود

العنوان: حمد الجاسر: دراسة لحياته مع بيليوجرافيا شاملة.
إعداد: إدارة التكشيف والاستخلاص، مكتبة الملك فهد الوطنية.
الناشر: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م (٢٥٩ص).

قامت إدارة التكشيف والاستخلاص في مكتبة الملك فهد الوطنية بإعداد كتاب كبير في حجمه ومادته عن الأديب حمد الجاسر، عرفانًا بمجهوداته الثقافية والمعرفية المتصلة بالجزيرة العربية. فضلاً عما حققه لتلك

البلاد من وسائل إعلام ونشر؛ إذ كان أول من أصدر صحيفة اليمامة عام ١٣٧٢هـ، ثم صحيفة الرياض عام ١٣٨٥هـ، فمجلة العرب عام ١٣٨٦هـ.

وقد تضمن الكتاب ثلاثة أقسام بارزة: الأول تناول حياة الشيخ الجاسر وأعماله، والثاني كان ضبطًا بيليوجرافيًا لأعماله، والثالث اشتمل على قائمة بتلك الأعمال. وكان القسم الأول - في عشرين صفحة - أغنى ما في الكتاب للقارئ العادي.

تناول الدكتور يحيى الساعاتي الكلام على حياته التي تضمنت ولادته ونشأته، فكانت الولادة في قرية «البرود» غرب النفود من منطقة نجد عام ١٣٢٨هـ، وكان يعاني المرض منذ طفولته الأولى، حتى إن أخته أخبرته بأنه حُفِرت له أربعةُ قبور، وفي كل مرة كان يدفن في القبر غيره. مارس فلاحة الأرض ولم يفلح. ثم بدأ مسيرته التعليمية بقراءة القرآن في قرية مجاورة هي (حزمية). ثم كانت وجهته إلى الرياض عام ١٣٤١هـ، ليبدأ التعليم على نهج السلف ممن وجدوا في تلك الفترة. وفي عام ١٣٤٨هـ التحق بالمعهد الإسلامي السعودي، وما أن أنهى التعليم فيه حتى راح يمارس مهنة التدريس في ينبع، وكان ذلك عام ١٣٥٣هـ. ويستمر حتى عام ١٣٥٧هـ، لينتقل إلى سلك القضاء. ولكنه بعد عام يلتحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة إلا أن الظروف لم تساعده على مواصلة الدراسة. ويرجع إلى التدريس، ثم يشغل بعض المناصب التعليمية، منها مدير عام التعليم في نجد عام ١٣٦٩هـ، ثم مدير كليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض.

وفي عام ١٣٧٢هـ يترك مجال العمل الوظيفي لينصرف إلى «الصحافة، حيث زاولها مهنةً وعملاً».

أما قصته مع البدايات الأولى للكتابة والتأليف، فكانت عام ١٣٤٩هـ، يصفها الجاسر في مقال نشره في مجلته (العرب)، حيث يقول:

«نشرت صحيفة (صوت الحجاز) مقالاً للأستاذ رئيس تحريرها، كان محل تعقيب لزميل لي في الدراسة في المعهد، ولم تكن بيني وبينه أية صلة، وهو فضيلة الشيخ عبدالله الخياط، الذي كتب مقالاً بعنوان: (لاتسبوا الدهر) وذلك في سنة ١٣٤٩هـ، فرأيت أن أشاركه في موضوعه مؤيدًا ومناصرًا، فكتبت مقالاً بعنوان: (قل الحق ولو كان مرًا). ولا أقدر أن أصف الفرحة التي غمرتني عندما رأيت ذلك المقال منشورًا في تلك الصحيفة». ثم راح ينشر بعد ذلك مجموعة من المقالات النقدية والقصائد.

وكان منهج الجاسر في التأليف - كما يقول الساعاتي - يتمثل في الحرص على إيصال المعلومة بكل أمانة، مستندًا إلى الدلائل التاريخية والشواهد القائمة مع التحليل والتعليل في سبيل تقديم رأي يعتقد صوابه.

كما أن بدايات الجاسر الأولى في الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ووصف الأمكنة وتحديدها، تعود إلى حادثة وقعت له وهو يدرّس المحفوظات في ينبع، حيث راح يشرح أبياتًا من قصيدة المعري: ألا في سبيل المجد.. وقد روى الجاسر تلك الحادثة بقوله: «وكنت قد راجعت شرح بعض مفرداتها، ومنها البيت التالي:

يهم الليل بعض ما أنا مضمر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل

فكان مما قلت في أول يوم دخلت المدرسة، وفي أول درس ألقيته: رضوى جبل قريب من المدينة، سهل ترقاه الإبل، ولعلي رجعت في ذلك إلى أحد شروح مقامات الحريري، فما كان من الطلاب، عندما سمعوا هذا الكلام مني، إلا أن قالوا بصوت واحد:

- لا ياأستاذ ها هو رضوى أمامك - وكانت النافذة مفتوحة - وليس قريبًا من المدينة، ولاتستطيع الإبل أن ترقى أعلاه. وسررت من هذا التصحيح وبينت لهم أن أكثر الذين يحددون المواضع في بلاد العرب كانوا يعتمدون على النقل، وما كانوا يكتبون عن مشاهدة، فجاءت كتاباتهم ناقصة خاطئة، وحمدت لتلاميذي موقفهم».

ثم توالت كتاباته بعدها عن الأماكن الجغرافية والتاريخية والأدبية في جزيرة العرب من خلال مجلته والمجلات السعودية الأخرى، لتستقر أخيرًا في كتبه المعروفة.

كما أن ميدان التحقيق لديه لايقل عن ميدان التأليف، «فقد حقق أو شارك في تحقيق نصوص تراثية عديدة».

وإذا كان القسم الأول من هذا الكتاب، عن حياة الجاسر وأعماله، هو المادة الشائقة للقارئ العادي الذي يجد فيها سيرة وترجمة مفيدة (وممتعة)، فإن قسم البيليوجرافيا هو المفيد والمثمر للباحثين في ثقافة الجاسر وفكره ومؤلفاته ومقالاته، من خلال ذلك الكشف المنير لمواضيع كتابات الجاسر ومواضعها وتواريخها، وغيرها من كشوفات وإضاءات، احتوتها تلك الفهرسة الموثقة، السائرة على قواعد منهجية، وأصول علمية.

ولقد اعتمد الكتاب، أو معدوه، في جمع المادة لأعمال الجاسر وضبطها البيليوجرافي، على مجموعة من الأعمال الأدبية والموسوعية. مثل: شعراء نجد المعاصرون لابن إدريس، ودليل الكاتب السعودي المعد من الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، والموسوعة الأدبية للساسي، وحمد الجاسر: دراسة مع بيليوجرافيا مختارة من أعماله المتعلقة بالجزيرة العربية للساعاتي، والسعوديون في الرسالة لحماد السالمي، ومعجم المطبوعات العربية: المملكة العربية السعودية لعلي جواد الطاهر، ومعجم الأدباء والكتاب المعد من الدائرة للإعلام.. فضلاً عن المواد المنشورة في بعض الدوريات السعودية والعربية ولاسيما المجلات. حيث لم نقع على مصدر يعود منبعه إلى الصحف السعودية الغنية بالمقالات الثرة عن الجاسر وكتبه ورحلاته.

ونخص منها ما نشرته جريدة الجزيرة، عبر حلقات مستفيضة عديدة، بعنوان: (الإنسان في رحلات الجاسر) لمحمود رداوي، منذ عقد ونصف وذلك قبيل حصول الجاسر على جائزة الدولة التقديرية.



العنوان: الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية.
المؤلف: د. مسعد بن عيد العطوي.
الناشر: نادي القصيم الأدبي ببريدة، ط١، ١٤١٥هـ (٣٢٣ص).

تعددت الكتب التي بحثت في القصة السعودية، وقد أوردها د. العطوي في هذا الكتاب، منها: فن القصة في الأدب السعودي الحديث لمنصور الحازمي، والبناء الفني في القصة السعودية المعاصرة لنصر محمد عباس، والقصة القصيرة المعاصرة في المملكة العربية السعودية لمحمد صالح الشنطي، والقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية لسحمي ماجد الهاجري، ودراسات في القصة السعودية لمحمود رداوي، وغيرها من الكتب التي عرّف بها أو اعتمد عليها مرجعًا في بحثه ودراسته.

كما عرّف المؤلف القصة القصيرة والأقصوصة من خلال رؤى الآخرين، ليصل إلى فصوله الأربعة عن القصة في مراحلها الثلاث، وبنائها الفني - شمولاً، ولغة، وبناء من استهلال وحوار - واتجاهاتها الفنية - من سرد وتقرير وتفتيت ورمزية -، وأخيرًا تلك الدراسة لبعض المجموعات القصصية، وجاءت مستفيضة، وشملت حوالي عشرين قاصًا وقاصة.

وقف المؤلف محللاً بعض قصص رعيل المرحلة الأولى، أمثال: السباعي، والعواد، والعطار، والآشي، والخياط. على أنه لم يفصل بين تلك المرحلة والأخرى التي تلتها عند كل من الزواوي والعريف وحسين عرب

ومحمد علي قطب؛ لأنه وجد أن المستوى الفني والموضوعي للجيلين كليهما متقارب.

وحين تعرض المؤلف لأصول فن الأقصوصة، كان يقصد بها العناصر الفنية لتكوينها، ولاسيما الشخصيات والحوار. ومما أطلقه من أحكام عن الحوار بأنه «غالبًا مايكون مفتعلاً يفتقر إلى الحياة..»، ويتابع قائلاً إثر الكلام السابق: «من هنا كان الحوار ذا تأثير» ص٢٦. فكيف يكون مفتعلاً وذا تأثير؟!

وإذا كان المؤلف قد بحث في (الأصول الفنية) للقصة في المرحلة الأولى، فإنه يتناولها في المرحلة الثانية بما أسماه (بناء القصة)، وقد أخرج الحوار من ذلك البناء، فأفرد له عنوانًا مستقلاً عن البناء. أليس الحوار من أبرز عناصر بناء القصة؟ على أن المؤلف عاد في ص٧٥، وأدرج الحوار مع بناء القصة، إذ جعله أحد عناصر بناء القصة القصيرة.

ومن الكتّاب الذين أوردهم المؤلف تحت مظلة تلك المرحلة كل من: أحمد رضا حوحو، وإبراهيم الناصر، وعبدالله الجفري، وغالب حمزة أبو الفرج.

ولئن حدد المؤلف بدايات كل مرحلة، الأولى فيما يقارب عام ١٣٥٠هـ، والثانية من بعد سنة ١٣٧٠هـ، فإن الثالثة لايستطيع «تحديدها بعام محدد، لكنها تقترب من عام ١٣٩٠هـ وتمتد حتى زمننا هذا». على أن التداخل فيما بين تلك المراحل سيبرز في الكثير من رؤى المؤلف وأحكامه؛ ولاسيما في فصله الثاني المعنون بـ (البناء الفني) ذي العناوين الفرعية الثلاثة: شمولية القصص، واللغة، وبناء القصة. وهنا تداخل آخر والتباس في المسميات الفنية للقصة القصيرة. وقد بحث المؤلف «شمولية القصص» حسب مناطق المملكة دون تمييز لمراحلها. ويبرز هذا التداخل بشكل أوضح في فصله الثالث: (الاتجاهات الفنية) التي تناولها من خلال العناوين الأربعة التالية: (السرد، التقريرية، التفتيت، الرمزية)، إذ بعد أن وضع تلك العناوين أو الرموز، أخذ يدرج تحتها قائمة من الأسماء التي تجمعها تلك العناوين دون تمييز لمراحلهم الزمنية أو التاريخية. وقد يقحم المؤلف نفسه في تعريفات لتلك الأسماء ومؤلفاتها القصصية من حين لآخر، بلا ضرورة منهجية. ولو ساقها في فصله الرابع والأخير - دراسة فنية لبعض المجموعات القصصية - لكان أنسب.

ورغم ذلك الزخم من كُتّاب القصة السعوديين الذين وقف عندهم المؤلف، فإن ثمة أسماء أخرى مهمة ومشهورة في عالم الفن القصصي لم يتعرض لها، لا من بعيد، ولا من قريب، مع أنه تعرض لمن هم أقل منهم مستوى، أمثال: سباعي عثمان، وعلي حسون، وناصر العديلي.. وغيرهم، ممن نجد في قصصهم إبداعًا وفنًا قلّما نجدهما في بعض تلك القصص التي منحها المؤلف أكثر مما تستحقه.

حاول المؤلف أن يظل منهجيًا في دراسته لتلك المجموعات القصصية، حين حصرها ضمن عناصر محددة من الأبعاد الاجتماعية والمكانية والزمانية والشخصية واللغوية؛ مما قد تحد من الإيحاء الفني، والإبداع القصصي، لكتّابه، أو قد تخمد إشعاعات مضيئة في عالمهم القصصي الذي قد يكسر كل الحدود المنظّرة، والقوالب المقعّدة، ولاسيما أن لكل قاص أجواءه وتألقه. ولهذا كنا نتمنى لو غاص في تلك الأجواء كي ينتزع لنا الجماليات الفنية، والإحساس بها، والتعبير عنها بقدر تعبير مبدعيها.

وإذا كان المؤلف قد أعطى بعض دارسي القصة السعودية، حقهم من التقدير والتقويم، فإنه قد غبن البعض الآخر في تقديره وتقويمه. فالحازمي مثلاً «كاتب مطلع على تطور الأدب في بلادنا، وقد واكب النهضة الأدبية وبلورة فنونها، وله علاقة حميمة مع رواد الأدب في بلادنا... وله الحضور المتواصل مع الندوات الأدبية، لهذا فالكتاب يمثل إضاءة لسالك سبيل البحث في هذا الميدان». وكتاب الهاجري «يمثل الحلقة الأولى من الدراسة للأقصوصة السعودية التي يجب أن تلحق بها دراسات مماثلة ومتأنية وراصدة لتفاعل الحركة، ومكملة لبناء البحث العلمي». ولدى نصر عباس «تعميم ينأى عن الواقعية ويسقط الاعتدال.. وانتقد بعضًا من النتاج الفني بما يحتويه من فكر متطرف وأسلوب متباعد عن المنهجية». ونقد الشنطي «يقوم على الإنشائية والتواصل مع النص وانصهارهما، مما أفقد بلورة المضمون والأفكار في صراحة ووضوح، وهو أيضًا يفتقد البعد الاجتماعي الذي يتواصل مع المحلية والفن الهادف إلى المتعة والمنفعة، فأعرض عن المنفعة والالتصاق بالواقع الاجتماعي». وقد اختلف مع الرداوي في كتابه (دراسات في القصة السعودية والخليج العربي) حين تحدث عن السالمي في مجموعته (مكعبات من الرطوبة): «وأشار إلى صعوبة إدراك قصص السالمي، غير أنني لا أوافقه في هذا الاتجاه، فهي تلجأ إلى الوضوح، إلا إذا أراد الرداوي أن يعسف القصص على البناء العضوي للقصة ثم الرمز الكلي، وهذا تحللت منه القصة القصيرة في مراحلها الأخيرة».

ويبدو أن العطوي قد تخونه أحيانًا دقة التعبير المتأنية من التسرع في إصدار أحكامه وتقويمه ورؤاه، مما يوقعه في بعض الالتباس. وعلى سبيل المثال يقول عن القاصة لطيفة السالم - وهو بصدد دراسة قصتها: (عرض على المسرح الآخر) -: «تتبلور الكاتبة بمعالجة لم نعهدها في حكاياتها، حيث تكلمت بلسان شخصية القصة.. إلخ»، أي ينفي عن الكاتبة اتباع أسلوب المتكلم في قصصها إلا في هذه القصة.. علمًا أن تلك الذاتية في السرد بلسان البطلة، نجدها في أربع قصص أخرى من المجموعة، هي (اغتيال الفرح، الحوار الأخرس، بكاء في حلقي، قهقهة). ولا ندري كيف فطن ليقول، في نهاية دراسته للمجموعة، بأن الكاتبة «تتحدث بلسان المتكلم، وأحيانًا بلسان الغائب».

كما نجده يقول عن قصة (واختلفت الخطوة) لخيرية السقاف بأنها «توحي بوفاء المرأة وكفران الرجل للمعروف، وفي ذلك بعد عن الواقع»؛ مع أن واقعية القصة لديها تكمن في صدق تحليلها لمشاعر المرأة حيال الرجل، مما أكسب تلك القصة روعة التألق.

وحتى في حكمه السابق عن الرداوي تهمة لم تثبت عليه؛ لأنه لم يجد صعوبة في فهم عالم السالمي، وإنما كان ينصح بوجوب تهيئة القارئ ثقافيًا ونفسيًا وفنيًا قبل الولوج إلى عالمه؛ لأن دراسة الرداوي عن السالمي أبرزته بأنه «يطرح قضية الإنسان المعاصر في خضم الحياة المادية والحضارية التي أخذت تنذر بالسقوط والانهيار.. إنه يجسد بعمق أزمة الإنسان المعاصر، الضعيف، المسحوق الذي يتمرغ في واقع أخطبوطي». وكانت أفضل كتابة حظي بها السالمي.

وإذا كان المؤلف العطوي معجبًا بالحازمي وكتابه - كما ذكرنا - فإن الكثير من آرائه تعترض وتخالف آراء العطوي ومنهجيته، ولاسيما في الاتجاهات الفنية، حين قسّم الدكتور الحازمي كتاب القصة القصيرة السعودية إلى: شعبيين ورومانسيين وواقعيين وغرباء، وهي اتجاهات فنية غير مارآها العطوي. وفي نفيه البعد الاجتماعي عن كتاب القصة من الشباب، إلا بما تعكسه المشكلات من أحاسيس ذاتية غامضة، ولهذا يقول الحازمي: «ومن الصعب أن نبحث عن موضوع معين في القصة الجديدة - على الطريقة التقليدية - ذلك لأن الموضوع الحقيقي هو القاص نفسه الذي اقتربت لغته من لغة الشعر، والذي يرى العالم الخارجي من خلال تأملاته وأحلامه وأفكاره التي لاتنتظم منطقيًا في اتجاه محدد». وهذا المنظور يلتقي مع منظور الشنطي السابق الذي عارضه العطوي.

إن الاتجاهات الفنية التي أرادها العطوي، تنأى عن مدلولها المعهود ماعدا الرمزية التي حددها في هذه العناصر الأربعة كما ذكرنا: السرد، والتقريرية، والتفتيت - ومعها المفارقة والإيحاء - والرمزية.. ثم استهل كل عنصر بتعريف ممهد، ثم أخذ يحث، بين قصاصيه، عمن تنطبق عليه تلك التعاريف والأوصاف. ولكن قصاصيه وقصصهم تستدرجه في أحيان كثيرة إلى شؤون فنية أخرى، لا علاقة لها بما استهله من تعاريف وقواعد فنية لتلك العناصر.. كأن يخرج إلى سير وتراجم أولئك القصاصين، معرفًا بهم وبنتاجهم.

ومن هنا فقد خرج عنوان الكتاب - الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية - عن مدلوله، ليبحث في كل مجالات القصة السعودية وأعلامها، مضمونًا وفنًا وتعريفًا وسيرة وترجمة. ولتختلط العناصر الفنية بالمحتويات الموضوعية والدراسات الأدبية. وقد تضيق لبوسه الفنية بمحتوياتها، أو قد تتسع بها. مما أوقعه في شيء من الالتباس التقويمي، والحكم التقديري الذي منح به بعض قصاصيه مالا يستحقونه.


ابداع صحفي جديد
صباح كل سبت
أنتم على موعد مع
مجلة
الشرق
AL SHARQ
أسبوعية سياسية ثقافية اجتماعية
نقلة صحفية في عالم المجلات الأسبوعية
مقالات لأشهر الكتاب والمتخصصين
الجديد والمفيد من الموضوعات التي تهم كل أفـراد الأسـرة



الصيد بالصقور

رياضة الأجداد تكتسب حياة جديدة على يد الشباب

كامل يوسف حسين

متى بدأ الصيد بالصقور لأول مرة في تاريخ البشرية؟ وأين كان ذلك؟ ومن العربي الأول الذي مارس هذه الرياضة العريقة؟ ولماذا انحسرت تقاليدها في العواصم ومعاقل الحضارة العربية ولم يبق منها شيء إلا لمحات في المخطوطات والمنمنمات؟ ولماذا واصلت - في المقابل - الحياة عبر القرون في البادية العربية؟ ومالسر في عودة الازدهار إلى هذه الرياضة من الأطلسي وحتى أرخبيل اليابان؟ ثم كيف السبيل إلى المزيد من دعمها في العالم العربي بالاستعانة بالتقنية (التكنولوجيا) وتوظيف الأساليب العلمية الحديثة؟

تلك كلها أسئلة لا تنقصها الصعوبة، وتكتنف محاولة الإجابة عنها مشكلات متعددة، يخيل للمرء معها في كثير من الأحيان أنه يشعر بأنه يضرب في غابة حقيقية من علامات الاستفهام، يوشك أن يكون الخروج منها إلى ضوء النهار حلمًا صعب المنال.

ولكي ندرك مدى رحابة المجال الذي نجد أنفسنا تحت سمائه هنا، فإن علينا أن نلقي نظرة على موسوعة هارتنج الشهيرة، المعروفة باسم «بيبلوتيكا إكسبترادبا» التي صدرت طبعتها الأولى في العام ١٨٩١م، حيث تورد قوائم بمراجع أصلية في الصيد بالصقور يبلغ عددها ٣٧٨ مرجعًا في ١٩ لغة، منها السويدية والبروفنسالية والتركية واليابانية.

وقبل أن نلج هذا البحر اللجيّ من التفاصيل (وهناك معلومات وافية سبق نشرها في العددين «١٣» و«١١١» من المجلة)، فإن علينا أن نبدأ من البداية الصحيحة، من خير البدايات، من قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يسألونك ماذا أُحلَّ لهم قل أُحلَّ لكم الطيبات وماعلَّمتم من الجوارح مُكلِّبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾(المائدة:٤).

وأول مانلاحظه في الآية الكريمة أن المراد بالجارح؛ إما الجارح على وجه الحقيقة واليقين، أي الجارح بنابه أو مخلبه، فيكون مشتقًا من الجرح، بمعنى الجراحة، وإما أن يكون المقصود به

الكاسب للصيد ليعود به على أهله ومن تلزمه نفقتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾؛ أي ماكسبتم، وكما في قولهم: جرح فلان واجترح، بمعنى كسب واكتسب، ويمكن حمل الجوارح على المعنيين معًا، فيشترط في الحيوان أو الطائر الصائد أن يكون من الكواسب على أهله، وأن يجرح طريدته، كما يشترط فيه أن يكون مُعلَّمًا، أي جرى تعليمه وتدريبه.

ومن الجليّ أن الجوارح بهذا المعنى مجال أوسع بكثير مما نتطرق إليه هنا؛ فالعرب أدرجت ضمن الجوارح: العقاب، والبازي، والصقر، والشاهين، والكلب، والفهد، وعناق الأرض. وقد عرفتها العرب جميعها، واستخدمتها على امتداد فترات ليست بالقصيرة.

ونحن حينما نقول إننا يعنينا من هذه الجوارح الصقور وحدها؛ فإنما نفتح على أنفسنا مشكلة التعريف والتصنيف، وهي مشكلة لاتنقصها الصعوبة ولا التعقيد.

وقبل أن نتطرق إلى هذه المشكلة دعونا نتذكر أن معظم المراجع العالمية التقليدية تطرح مشكلة البدء في الصيد بالصقور في مقدماتها كموضوع أثير لدى مؤلفي هذه المراجع. ومع الولع بهذا الموضوع وإدراج تفاصيل تاريخية وأثرية لا حصر لها تحته؛ فإن الحقيقة هي أنه ما من أحد يعلم على وجه الدقة متى بدأ الصيد بالصقور، ولا في أي أرض كان ذلك.

ومع هذا، فإن هناك العديد من الأدلة التي تضيق نطاق البحث والتكهن، ولكن بمعنى يظل بالغ الاتساع على نحو مذهل، فهي تشير إلى أن الصيد بالصقور يمكن أن يكون قد رأى النور في أي منطقة تقع في الرقعة الممتدة من الصين وحتى بلاد ما بين النهرين!

أما الإغريق والرومان فقد عرفوا بوجود رياضة الصيد بالصقور، ولكنهم لم يمارسوها بأنفسهم، ولم تصبح المؤشرات الدالة على الصيد بالصقور متوالية في أوروبا إلا بعد انحسار النفوذ الروماني. وفي العصور الوسطى أضحت الرياضة الأثيرة عند الملوك والأمراء والنبلاء، وظلت هذه الرياضة تحتل مكانة رفيعة حتى القرن السابع عشر الميلادي؛ لكنها تراجعت إلى الهامش والظلال مع التقدم في صناعة الأسلحة النارية، واختراع المزيد والمزيد من المبيدات، التي تستقر في أمعاء الصقور، لكونها الحلقة الأخيرة في دائرة غذاء متسعة. ولكن ـ مؤخرًا ـ عاد الازدهار إلى



اهتمام كبير بكل ما يتعلق بحياة الحُبارى

هذه الرياضة مع العناية العالمية الكبيرة؛ لا بالصقور وحدها وإنما بطرائدها كذلك، وتوظيف التقنية (التكنولوجيا) في خدمة هذا الاهتمام.

وفي العالم العربي أخذت الأمور منحى مختلفًا تمام الاختلاف. ومن الحقائق المسلم بها أن الصيد بالجوارح له عند العرب تاريخ طويل، ويقال إن أول عربي صاد بصقر ودربه على الانقضاض هو الحارث بن معاوية بن ثور من كندة، ومن بعده اتخذت العرب الصقر بصفة خاصة جارحًا للصيد.

ولكن هذا يعيدنا إلى مشكلة التعريف والتصنيف في التقاليد العربية، وهي تقاليد - كما رأينا - ممتدة إلى حد كبير.

هذه المشكلة سوف نتسلح في مواجهتها، وكذلك في مواجهة المهمة الصعبة المتمثلة في رصد محطات تاريخ الاهتمام العربي بالصقور، بذخيرة رائعة، هي وجود خمسة مراجع أساسية في الصيد والمصايد، هي بمثابة جواهر هذا التخصص التي ترصع تاج المعرفة العربية بهذا الجانب.

وأول هذه المراجع الكبرى هو كتاب «المصايد والمطارد» لأبي الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندي بن شاهك، المعروف بكشاجم، وثانيها هو كتاب «البيزرة» ومؤلفه مجهول، وإن أشارت بعض المصادر إلى أنه ربما كان لأبي عبدالله الحسن بن الحسين البازيار، الذي تولى الوزارة للخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار الفاطمي المتوفى سنة ست وثمانين وثلاثمائة للهجرة، وثالثها هو كتاب «الصيد والطرد عند العرب» ومؤلفه مجهول كذلك، والكتاب الرابع هو «الاعتبار في ذكر المنازل والديار» لمؤيد الدولة أبي المظفر أسامة بن منقذ، البطل العربي الشهير، أما الكتاب الخامس فهو «الجمهرة في علوم البيزرة» لمؤلفه عيسى بن حسان الأسدي.

وكما هو واضح من عناوين هذه المراجع نفسها، فإن مشكلة التصنيف تفرض نفسها بقوة. ودون الدخول في غابة التقسيمات والتقسيمات الفرعية، يمكن القول بأبسط المعاني إن التقليد المعتمد لدى علماء البيزرة العرب للطير الجارح هو تقسيم أبي الفتح كشاجم الوارد في كتابه «المصايد والمطارد». وهو تقسيم - كما سنرى حالاً - على بساطته لاينقصه التركيب.

يبدأ كشاجم بتقسيم الطائر الجارح إلى أربعة أنواع، هي: البازي، والشاهين، والصقر، والعُقاب. ويعود كشاجم فيقسم البازي إلى خمسة أصناف، هي: البازي، والقصي، والزرق، والباشق، والبيدق. ويمضي فيقسم الشاهين إلى ثلاثة أصناف، هي: الشاهين، والأنيقي، والقطامي. ثم يجعل الصقور ثلاثة أنواع، هي: الصقر، والكونج، واليؤيؤ. أما العقاب فهو صنف واحد، ثم يلحق بهذه الأنواع طير الزُمّج. وهكذا تصبح عنده جملة الجوارح ثلاثة عشر جارحاً.

ولكن هذا التقسيم بذاته سيعيد إلى الأذهان إحدى المعضلات التي ظلت لغزًا حقيقيًا من ألغاز الحضارة العربية العديدة.

إننا نعرف أن هذه المراجع الخمسة



الانتقال على الوكر





يقف على الوكر في هدوء



الصقر.. خلال التدريب

الكبرى إنما كتبت - في معظمها - استناداً إلى التقاليد الشامخة لهذه الرياضة كما مارسها الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء وعلية القوم في مراكز الحضارة العربية، ولكن شيئاً من هذه التقاليد لم يبق متدفقاً بالحياة، وإنما بقي مافي بطون هذه المراجع وبعض ماورد عن الصيد بالصقور في كتب مثل «ألف ليلة وليلة»، و«الأغاني»، والكثير من المنمنمات. فلم اندثر هذا كله وبقي النوع الآخر المختلف تماماً من تقاليد هذه الرياضة، وهو الصيد بالصقور كما عرفته البادية العربية؟

لا أحد يعرف الإجابة الدقيقة عن هذا السؤال، وربما لن يُقَدَّر لأحد أن يعرفها في يوم من الأيام. ولكن المؤكد أن رياضة الأجداد هذه بقيت من خلال ممارستها في البوادي العربية، وهي اليوم تعيش عودة حقيقية إلى عصرها الذهبي، بفضل الاهتمام الكبير بها، وبكل مايتعلق بها، بما في ذلك أدواتها ورعاية صقورها وصقارتها وطرائدها، خاصة مع انتقال هذا الاهتمام إلى الأجيال الجديدة من الشباب العربي في شبه الجزيرة العربية.

والواقع أن الصقور على أنواعها المختلفة، والحرار والشواهين - دون الوقوع في الخلط التقليدي بين الأخيرة والصقور - هي الطيور القانصة الأثيرة في الساحل الغربي للخليج. ولكن الذين شاهدوها وهي في لحظة تألقها الفاتنة، بانقضاضها الشهير على طريدتها، ينسون أن وراء هذا كله جهداً هائلاً.

وتبدأ دائرة هذا الجهد بالإمساك بالصقور خلال هجرتها التقليدية في الخريف؛ ففي هذا الموسم تقدم شبه الجزيرة العربية طريقين هائلين لتحرك كل الطيور من المنطقة الشاسعة الممتدة من جنوب شرقي أوروبا إلى روسيا وآسيا الوسطى. الطريق الأول يمتد من البوسفور إلى شرقي المتوسط وصولاً إلى خط بداية الوادي المتصدع الكبير في سورية ولبنان وعبر الأردن إلى جبال الحجاز والبحر الأحمر. أما الطريق الثاني فيمتد من القوقاز عبوراً إلى جبال كردستان وهبوطاً إلى سهول مابين النهرين ثم منطقة الخليج.

وهكذا، فإنه في الفترة من سبتمبر إلى منتصف نوفمبر تصبح أراضي هذين الممرين فردوساً حقيقياً لهواة مراقبة الطيور مع انطلاق ملايين الطيور ابتداء بالبجع إلى الطائر المغرد المعروف باسم الزقيقية، مروراً بعشرات الأنواع الأخرى من الطيور وهي تشق طريقها إلى الجنوب الدافىء. وبالطبع، تقبل معها الجوارح، ومنها النسور والصقور والشواهين والحرار بالآلاف، حيث يواصل القادر منها التحليق، ويتهاوى الأكثر ضعفاً في دراما الانتقاء الطبيعي.

ومنذ قديم الزمان كانت وسائل الصَّقَّارين العرب في اصطياد الصقور بسيطة وفاعلة، وهي تشمل من بين العديد من الوسائل الأخرى الطرق التالية:

- الحمامة: تشمل هذه الطريقة استخدام إطار خفيف تربط به حوالى اثنتي عشرة أنشوطة مفتوحة. ويشد الإطار إلى ظهر حمامة. وإذا ما قتل الصقر الحمامة، أو حتى خدشها من خلال الانقضاض عليها؛ فإن قوائمه سوف تتشابك في الأنشوطات الموجودة في الإطار. ومع أنه بمقدور الصقر أن يحلق عالياً والحمامة متدلية من قائمته، إلا أن هذا الوضع المربك



باز جوال جاثم على الوكر، والبرقع غير بعيد منه

الصقر والصقار.. لايفترقان

سيجبره على أن يحط في غضب وسخط غير بعيد من المكان مما يمكن معه اصطياده بإلقاء عباءة أو حتى غترة عليه والإمساك به بقوة.

- الطُّعم: لما كانت الصقور بطبيعتها غيورة وتحرص على اقتناص وجبة سهلة بأيسر سبيل، فقد يمكن اجتذابها إلى أن تسلب صقرًا صغيراً وجبته. وهكذا يعمد الصقَّار إلى استغلال هذا الجانب، ويقوم بصيد الصقور باستخدام صقر صغير أو باستخدام ذكر حر بعد تثبيت جوانب جفونه جزئيًا واستخدام أنشوطات في إضافة مجموعة من الريش إلى القيود التي تعلق في قوائمه، وعندما يلقى هذا الطائر بعيداً



البرقع في موضعه

فإنه عادة مايحلق في اضطراب ظاهر إلى الأعلى، وفي دوائر متخبطة، محاولاً تجنب الطيران باتجاه العوائق المحيطة به، ثم يهبط إلى الأرض



باز جوال جاثم على المنقلة وقد تدلى السبوق إلى الأسفل



مرتطمًا بها. فتظن الصقور الأخرى أنه يحمل طيرًا صاده فتنقض عليه لانتزاع الطريدة منه، مما يوقعها في حبائل الصقار.

ـ الشبكة: تتميز الشبكة المخصصة لصيد الصقور بامتدادها علوًا إلى ثلاثة أقدام بعرض خمسة أقدام. وعندما يحط الصقر لاصطياد الطعم فإنه يقع في حبائلها؛ لأنه ليتجنب هذا لابد له من الاقتراب إلى حد كبير والابتعاد من الجانب المفتوح لدى إدراك جلية الأمر، وهو شيء نادر إلى حد إمكان استبعاده. ومايحدث عادة هو أنّ انقضاض الصقر على الطعم يفضي به إلى الشبكة مباشرة.

ـ العريش: يتم بناء عريش أو كوخ صغير بالسعف والجريد والأغصان فوق حفرة في الرمال، يقوم الصَّقّار بالمراقبة منها مستخدمًا حمامة حية مربوطة في خيط قوي، وعندما يرى صقرًا فإنه يدفع الحمامة إلى التحليق في الريح، حيث ترفرف عند نهاية الخيط، فيقتلها الصقر ويشرع في التهامها، وهو يفعل ذلك في مواجهة الريح حتى لايتعرض ريشه للتطاير، ولكي يطير ريش الضحية بعيدًا منه، الأمر الذي يعني أنه لن يكون في مواجهة العريش. وعندئذ يسحب الصقار الخيط ببطء ومعه الحمامة والصقر العاكف على التهامها على الرمال، وهنا ينقض الصقار على الصقر فيمسك به بقوة من قوائمه.

بعد ذلك تأتي المهمة الكبرى للصقار، وهي تدريب الصقر على الصيد بالتعاون مع من يصحبه في رحلة الصيد وعلى إطاعة التوجيهات التي تصدر إليه، وهي عملية طويلة تبدأ برعايته وعلاجه ودراسة مدى استعداده، وتنتهي إما بتحويل الصقر إلى كنز حقيقي لبراعته في الصيد وطاعته للصقار، وإما إلى تحويله إلى طائر لاقيمة له إذا كان يفتقر للهمة والجرأة والطاعة.

ولكن الصقار لايعتمد على مهارته وحدها في تحويل الصقر إلى طائر قانص؛ وإنما لابد له من عدد من الأدوات التي لاغنى عنها، ومن أبرزها مايلي:

ـ الوكر: اللفظة تعني في العربية عش الطير، لكن المراد بها هنا قاعدة خشبية مدورة الشكل ومغطاة بالجلد يثبت بها سيخ من الحديد له نهاية مدببة ليمكن غرزه في الرمل.

ـ المنقلة: يقال لها أيضًا الدس أو

صقر جاثم
على الوكر



الكف، وهي حامية يد الصقار، وتتخذ من قماش سميك، أو جلد يلبسه الصقار في كفه، ويغطي قسمًا من عضده أيضًا، ويقف عليه الصقر فلا يجرحه.

ـ الملواح: يقال له كذلك التلواح، وهو عبارة عن مجموعة من ريش الحُبارى تجمع وتربط بحبل وتشد على طرف عصا يلوح بها للصقر الذي يوشك أن يفقد طريقه ويبتعد من وكره، وذلك لإعادته إليه، وهي وسيلة من الوسائل الفاعلة في تدريب الصقر على القنص.

ـ الكوخ: قفص الطير، وخاصة الطير القانص كالصقر والشاهين.

ـ البرقع: غطاء لعيني الصقر القانص لضمان ثباته وعدم حركته.

ـ السبوق: خيط يتراوح طوله بين ١٣ إلى ١٥ سنتيمترًا قد يتخذ من القطن أو الحرير أو النايلون، ولا يرفع عن الصقر أبدًا، إلا لإحلال سبوق جديد محله، وهو مؤلف من قسمين أحدهما في قائم الصقر والآخر في المنقلة.

ـ المخلاة: حقيبة يحملها الصقار على كتفه بشريط متين فتتدلى حتى الخصر، ويوضع فيها عادة التلواح وسكين وبرقع احتياطي كما يوضع فيها المصيد وكل مايحتاجه الصقار.

بالاستعانة بهذه الأدوات وبالخبرة والمهارة والصبر وتجارب السنين تخاض عملية تدريب الصقر، والتي يمكننا أن ندرك مدى صعوبتها إذا عرفنا أنه عمليًا لايمكن إجباره على الإذعان بالعقاب أو بالتجويع، وإنما هو يدفع دفعًا إلى وضعية ذهنية وعضوية يمكن معها أن يستجيب للتعليمات الصادرة إليه بشكل يمكن التنبؤ به في الميدان.

وفي بوادي الخليج حكمة مفادها أنه كلما قلت الأيدي التي يمر بها الصقر في غمار هذه العملية كان ذلك أفضل، وربما كان المقصود بذلك تقليص مجال الخطأ والفشل في التدريب.

وإذا مااكتمل تدريب الصقر على أن يكون طيرًا قانصًا فإنه يوجه نحو الطرائد التقليدية الآتية:

الحبارى: الطريدة الأثيرة بالنسبة للصقار الخليجي، نظرًا للحمها اللذيذ الطعم، ولما في عملية صيدها من حيوية متوهجة وحركة نشطة. ومع أن الإنسان عرفها وسجلها بشكل موثق منذ ستة آلاف عام (حيث وجد رسم واضح لها في كهف تاجو سيجورا في جنوبي إسبانيا يعود إلى هذا التاريخ) إلا أن هذا الطائر الذي يوجد منه اثنان وعشرون نوعًا رئيسيًا وينقسم إلى سبعة وأربعين نوعًا فرعيًا لايعرف عنه إلا أقل القليل من المعلومات.

وطائر الحبارى العربي يقطن ـ غالبًا ـ المناطق القاحلة من نطاق عريض يمتد من شمالي أفريقيا وصولاً إلى موريتانيا وأثيوبيا وجيبوتي والسودان ثم إلى البحر الأحمر فجنوب غربي شبه الجزيرة العربية.

وخلافًا لما يظنه الكثيرون فإن طائر الحبارى العربي طائر كبير الحجم يبلغ وزن الذكر منه نحو عشرة كيلو جرامات، بينما تزن الأنثى ٤٫٥ كيلو جرامًا، ويصل طول جناح الأنثى إلى ٣٤٥ مليمترًا، ويتميز ـ كما سبق القول ـ بالمذاق الطيب، وإن كانت عملية إنضاجه تؤدي إلى تقلص حجمه كثيرًا.


أنثى الحر تقف على الوكر

ومع الانحسار الكبير في أعداد طائر الحُبارى تمت أول محاولة لتفريخه في الأسر في منطقة الشرق الأوسط في دبي، وحققت نتائج باهرة، وكذلك تم التوصل إلى نتائج ممتازة في أكثر من مركز مختص في المملكة العربية السعودية، مما أثار اهتمامًا كبيرًا على المستوى العالمي.

الكروان: غالبًا مايصيده الصقارون والهواة من أبناء الخليج في أول الموسم، وهو أصغر من الحبارى، حيث يصل طول جناح أنثاه إلى حوالى ٢٣٥٫٥ مليمترًا والذكر إلى ٢٥٢ مليمترًا. وهو يماثل الحبارى في حذره الشديد، وفي عادة التجمد في موضعه لدى أدنى بادرة خطر.

الأرنب: النوع الموجود منه في شبه الجزيرة العربية أصغر من نظيره الأوروبي، ويميل إلى اللون الفاتح، ويتميز بسرعته الكبيرة.

الغزال العربي: يعد قليل الحجم بالموازنة بنظرائه في المناطق الأخرى. وقد تقلصت أعداده بشدة في الأعوام الثلاثين الأخيرة.

وهناك طرائد أخرى أقل أهمية وتوافرًا في الخليج، كالإوز البري، وغيره.

والحقيقة الأساسية هي أن الصيد بالصقور يلقى اليوم، في إطار الاهتمام بالجوانب المادية والمعنوية للتراث، عناية كبيرة من أبناء الخليج، وخاصة من جانب الشباب الذين يحرصون على تعلم مهاراته من الكبار؛ حيث تشكل هذه الرياضة جانبًا مهمًا من جوانب التراث الخليجي، الذي تبذل قصارى الجهود للحفاظ عليه ونقله من الآباء إلى الأبناء، بالإضافة إلى تسجيله ودراسته، في إطار من التأهيل العلمي الدقيق للحقائق المتعلقة به، لتبقى ملكًا للأجيال المقبلة.

المراجع:

١. Mark Allen - Falconary in Arabia - Orbis Publishing - London - 1984

2. Wilfred Thsiger - Visions of a Nomad - Motivate Publishing - Dubai - 1994.

٣ـ باتريك أوسبورن ونيجيل كولار وبول جوريوب، الحبارى، ندوة الثقافة والعلوم ـ دبي، د.ت.

٤ـ فالح حنظل، معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وزارة الإعلام، د.ت.

٥ـ جولات ميدانية للكاتب في عدد من المختبرات ومراكز الأبحاث والعيادات المتخصصة في علاج الصقور في منطقة الخليج.

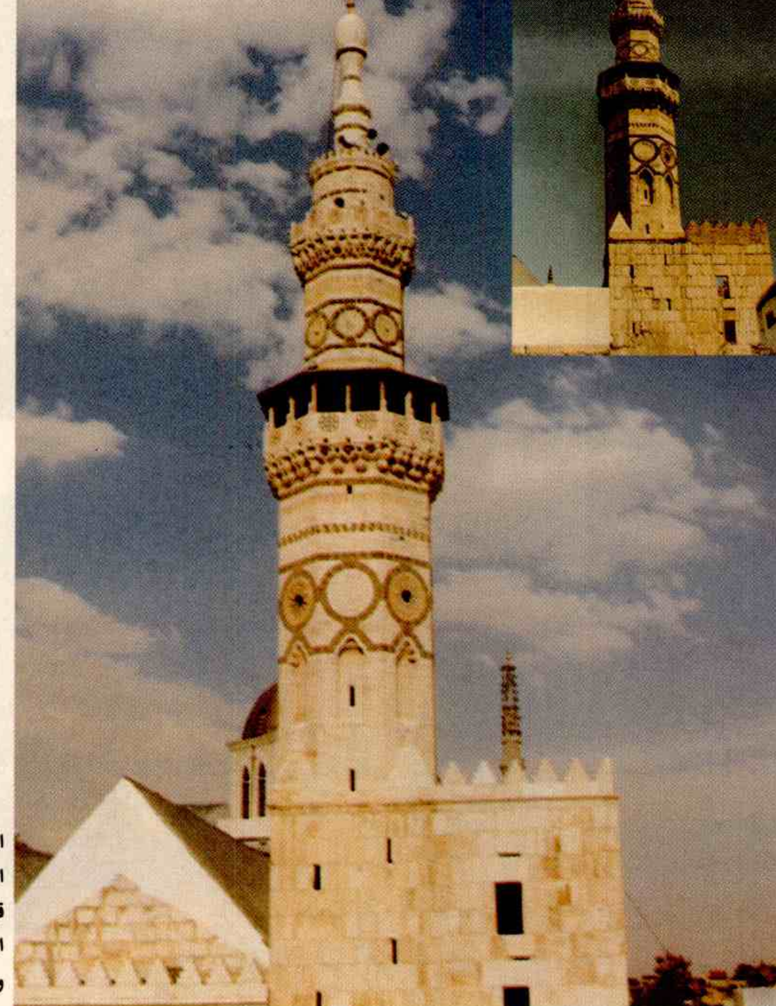
الجامع الأموي الكبير في دمشق

يعود كما كان في أيام الوليد بن عبدالملك

جان الكسان

هو الجامع الشهير بين جوامع العالم الكبرى، صرح ديني شامخ، وتحفة هندسية معمارية عربية نادرة. بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك، واستغرقت عملية البناء عشر سنوات (٧٠٥ - ٧١٥م)، وعمل فيها أكثر من عشرة آلاف عامل.

يتميز بسعته وارتفاعه، وجمال مآذنه الثلاث، وقبّته، ولوحات الفسيفساء التي تمثل بيوت دمشق القديمة وغوطتها ونهر بردى الذي يجري فيها..



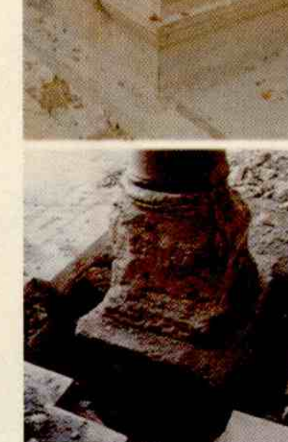
المئذنة الغربية قبل الترميم وبعده

وهذه هي أول عملية تطوير شاملة يخضع لها هذا الصرح الإسلامي البارز منذ أُنشئ قبل ألف ومئتي عام، وهي عملية موضعية تتناول المواقع التي تضررت مباشرة بفعل الزلازل والحرائق، وآخرها الحريق الكبير الذي تعرض له الجامع عام ١٨٣٩م. وقد شملت عملية الترميم مختلف واجهاته وجدرانه، وحتى تمديدات الكهرباء والتدفئة والمياه، وشارفت هذه العمليات على الانتهاء بعد أربع سنوات من العمل المتواصل، ووصلت التكاليف إلى عدة مئات من ملايين الليرات.

وقد تشكلت لذلك لجنة من كبار المؤرخين والمختصين، أُنيطت بها مهمة إصلاح الجامع



مدخل الجامع قبل الترميم

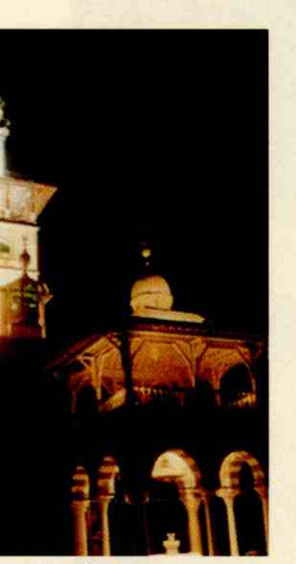


المدخل بعد الترميم

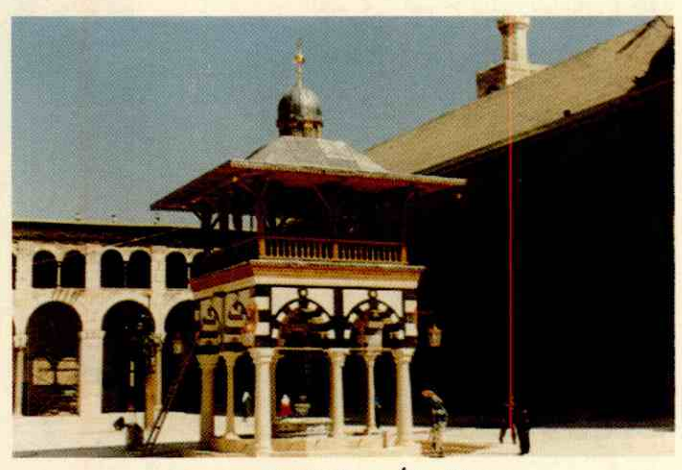




الأعمدة أثناء عملية الترميم



الجامع يزدان بالأنوار ليلا



الجامع الأموي من الداخل (الصحن)

وتطويره حتى يعود إلى سابق عهده كما كان أيام الخليفة الوليد بن عبدالملك. وقد شملت عملية الإصلاح خمسة وعشرين موقعا إنشائيا جرى فيها الفك والتركيب والترميم والتدعيم بغية تأمين سلامة المسجد والمحافظة على النواحي الأثرية والتاريخية منه.

وانحصرت الاستعانة بالخبرات الأجنبية في الترميم بالمستوى الاستشاري؛ حيث قام اختصاصيون سوريون بزيارات ميدانية للاطلاع على أعمال ترميم صروح تاريخية خاصة في فرنسا وإيطاليا، في حين أُعتمد في الأعمال

الجامع الأموي.. درة تتوسط جبين دمشق العريقة



الواجهة الغربية للجامع قبل الترميم

الواجهة نفسها بعد الترميم

التنفيذية كليًا على الكفاءات المحلية المؤهلة التي نجحت في ترميم وتدعيم مرافق المسجد ومنها مآذنه الثلاث، وبعض جدرانه الداخلية التي مالت مع مرور الزمن.

وقد تمت عملية الترميم بطريقة تطيل في عمر المسجد؛ إذ إنه صرح أثري حي مايزال ـ منذ إنشائه ـ يستخدم مسجدًا جامعًا للصلاة، ويستقطب هذا الصرح العديد من الزوار والسياح، فقد زاره خلال عام ١٩٩٤م أكثر من مليوني زائر وسائح من خارج سورية.. والمعروف أن الآراميين كانوا قد شيدوا في موقع الجامع معبدًا للإله حدد، حوله الرومان بعد ذلك إلى معبد لجوبيتر، وحوله البيزنطيون إلى كنيسة، ثم قام الوليد بن عبدالملك مع الفتح الإسلامي بإقامة مسجد بالقرب من هذه الكنيسة، ثم تم توسيعه في عهده وضمت الكنيسة إليه.

من أعمال الترميم: الواجهة الغربية

تأثر جدارها بالزلازل فتصدعت حجارته، وحدث ميل في أعلاه، وسقط منه مدماكان، فتم استبدال أحجار من النوع نفسه بالأحجار المتصدعة، وأعيدت للجدار استقامته، واستكمل بناء المدماكين الناقصين، وأعيدت إليه الشرافات التي عرف بها قديمًا.

المئذنة الغربية والبرج الجنوبي الغربي

كانت حجارة هذا البرج



متصدعة، وسقطت أسقفه، وكانت حجارة صنوبرة المئذنة متفككة، وزخارفها مطموسة، وقد أعيد بناء البرج بعد فك حجارته، واستبدال التالف منها، كما استفيد من الفراغات، ووظفت كمستودعات، وأعيد بناء المدماك الأخير، واستبدلت الصنوبرة، ودُعمت زخارفها ورُممت.

مشهد عثمان (قاعة الشرف)

تم ترميم المشهد وتقوية سقفه، وتحديث القفاعات وتزويدها بنوافذ من الزجاج الملون، كما تمت تغطية السقف بالخط العربي والزخارف النباتية، وزخرفت الأقواس بـ (الأبلق)، كما كُسيت الجدران بالرخام المجزع، وفُرشت أرضية المشهد بالرخام المشقف، وأُحدثت بحرة ثُمانية من الرخام النادر المشقّف، وفُرشت القاعة بالقماش الدمشقي (الدامسكو).

مشهد أبي بكر

كان مشهد (أبي بكر) مهملاً، وفي جداره تصدع كبير بسبب استخدامه كمتوضأ، وفيه خزان ماء سبَّبَ تلف الجدران، وقد أعيدت لهذا المشهد مكانته؛ إذ أبعدت منه المياه والتعديات، وأزيل خزان المياه، وأعيد بناء سقف القاعة والقفاعات، وكسيت جدرانه بالرخام، وكذلك المحراب، وأحدثت فيه بحرة جميلة.

الباب الغربي (مدخل الجامع)

كان المدخل الخارجي للباب الغربي يرتفع عن مستوى أرض الجامع، وكان رخام المدخل تالفًا ومشققًا، كما أزيلت مظلة المدخل منذ فترة طويلة، وبعد الترميم تم خفض منسوب مدخل الجامع من الخارج بحيث تم إظهار بوابة الدخول بكاملها، وجُعل المدخل بمستوى أرض الجامع، أما داخل الجامع فقد عُملت سجادة رائعة من الرخام المشقف غطت المدخل بكامله، كما أعيد بناء مظلة المدخل كما كانت تمامًا.





المدخل الغربي للجامع قبل الترميم وبعده

البحرة الفوارة

كانت قد أزيلت في الستينيات. فأعيدت كما كانت وفق الصور القديمة، ونُفِّذَت بالمواصفات نفسها، كما نفذ نظام إضاءة ليلية للجامع لتجميل منظره في الليل.

ومن الأعمال الأخرى:

- ترميم جمالونات الجامع التي تشكل الحرم، وتغطيتها بألواح الرصاص بعد كسوتها بطبقة من الطين والحصر.
- ترميم قبة النسر، ووضع شدادات تمسك طرفي الجملون من الشرق إلى الغرب.
- كانت أكثر قواعد أعمدة الجامع مهترئة، وبعض الأعمدة متشققًا بفعل الحرائق، وقد تم استبدال قواعد جديدة بالقواعد القديمة من نوع الحجر نفسه، وذلك بعد رفع الأعمدة بطريقة هندسية فنية متطورة، وسحب القواعد التالفة واستبدالها، وقد أجريت هذه العملية دون أن تتأثر الأقواس أو الفسيفساء التي فوقها.
- تم فك وإعادة تركيب الجدار الشمالي بعد إصلاح ميله الخَطِر، كما أُخليت البيوت غير المنظمة حول الجامع في منطقة الكلاسة والزاوية الحلبية، ليقام مكانها حدائق ومتوضأ جديد، وإعادة بناء مدرسة الفسيفساء وفرن تذويب الرصاص، وتمت تدفئة الحرم، ومشهد الحسين وتدعيم الجدار الجنوبي من الخارج، وإعادة مظلة الباب الجنوبي، وتكسية جدران الأروقة من الداخل بالرخام المجذع.

وهكذا يعود جامع بني أمية الكبير إلى رونقه السابق كما كان في عهد الوليد بن عبدالملك.

الخطر عام ٢٠٠٠ قنابل موقوتة على كوكبنا



تأليف: هلموت هوفلينغ
عرض: د. فيصل المصطفى الحسن

صدر هذا الكتاب باللغة الروسية عام ١٩٩٠م، وهو للكاتب الألماني هلموت هوفلينغ ويقع في ٢٧٢ صفحة، ويتألف من سبعة فصول ومقدمة.

كتب هوفلينغ في رسالته إلى دار النشر الروسية، يقول: "إذا سعينا، وبشكل دائم لتجديد الحقائق، فإن مثل هذا الكتاب تجب إعادة طباعته كل عام، بعد إضافة معطيات جديدة إليه. لكن هذا غير ممكن وغير ضروري في الوقت نفسه، إذ إن المشكلة ـ للأسف ـ تبقى كما هي!".

لكن مع ذلك فإن الطبعة الروسية شملت الكثير من المعطيات الجديدة المأخوذة من المطبوعات الألمانية والعالمية.

يتحدث عنوان الكتاب، بحد ذاته، عن الكثير، وعناوين الكثير من فصوله تحمل في طياتها الخطر القادم، والنموذج المدروس هو ألمانيا، أكبر الدول الأوروبية سكانيًا واقتصاديًا، ومن الدول العظمى في العالم.

وقد اختار هوفلينغ ألمانيا مثالاً؛ لأنها واقعة تحت ضغط بيئي قوي جدًا. وهناك عوامل محددة لهذه الحالة البيئية المعقدة في هذا البلد، وهذه العوامل هي:

ـ كثافة سكانية مرتفعة (أكثر من ٢٥٠ نسمة/كم٢) مقرونة بدرجة مدنية عالية (أكثر من ٩٠٪ يعيشون في المدن)، وهذا يؤدي إلى تأثير مركز في البيئة.

ـ تركيز اقتصادي وصناعي جبار (تحتل ألمانيا المركز الثالث في العالم من حيث الإنتاج الصناعي) في مساحة صغيرة نسبيًا إذا ما قورنت بالدول المتقدمة الأخرى.

ـ كثافة عالية في طرق المواصلات (١٫٩٦كم طريق لكل ١ كم٢ مساحة)، وتحتل المرتبة الرابعة في العالم، وفيها أكبر شبكة طرق سيارات في أوروبا (أكثر من ثمانية آلاف كم) بالإضافة لشبكة واسعة من خطوط السكك

الحديدية السريعة (١٥٠-٢٠٠ كم/ساعة).

- النمو المفرط في عدد السيارات (أكثر من ٣٦ مليون سيارة وفق ما ورد في مجلة "العلم والحياة" الفرنسية، عدد تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٢م)، وكثافة السيارات تزيد على مئة سيارة لكل كيلو متر مربع واحد من المساحة. وهذه السيارات تسبب ٥٠-٥٥٪ من التلوث في المدن والتجمعات السكانية.

- في المساحة الصغيرة لألمانيا هناك أكثر من عشرين محطة كهرنووية تسبب "التلوث الحراري" للأنهار بالإضافة إلى التلوث الإشعاعي.

لذلك فإن مثال ألمانيا هو مثال نموذجي، وهو خير «تنبيه» للبلدان الصناعية الكبرى في العالم التي لم تتخذ بعد إجراءات فعالة ضد «تعاظم المشكلات الخطيرة» حسب تعبير أحد مؤسسي نادي روما أوريليو بتشي Aurelio Peccei.

«القنبلة الموقوتة» هي في حالة ما: تلوث الهواء، وفي حالة أخرى: فقدان منابع المياه، وفي حالة ثالثة: خطر الكيماويات وخطر الإشعاع النووي، وغيرها كثير مما يتعرض له هذا الكتاب بين دفتيه.

يتطرق الكتاب إلى المسائل المهمة للمشكلات البيئية: الماء، القاذورات، الهواء وتلوثه على نطاق واسع، الضجيج، الخطر الكيماوي، والأخطار المتعلقة بالطاقة النووية. ويعرض هوفلينغ كل مسألة منها بشكل مفصّل مع عرض تاريخي وأحيانًا من الماضي البعيد جدًا (وحتى من الزمن البدائي الأول).

حول السؤال عن تاريخ بدء تدخل الإنسان في الطبيعة يستشهد هوفلينغ بكلام بول إيرليك Paul Ehrlich مؤلف كتاب «القنبلة السكانية»؛ حيث يقول: «لا أستطيع القول متى بالضبط، لكن حدث هذا - على ما يبدو - منذ آلاف السنين. وبدأ كل شيء عندما نثر الفلاح الأول البذرة الأولى في التربة على أمل أن تعطيه نبتة جديدة. وبازدياد متطلبات الإنسان بدأ هذا الأخير يتدخل في النظام الطبيعي القائم. والآن ذلك الإنسان نفسه، الذي بذر أول حبة، بدأ بتحويل الطبيعة بشكل مستمر. فما الذي أرغمه على ذلك؟ لقد أراد الإنسان أن يزيد في إمكان بقائه حيًّا، دون أن يعلم بأنه - بأفعاله تلك - بدأ يحفر تحت أساس وجوده».

في عام ١٩٨٤م تبيّن - حسب معلومات «أطلس السرطان في ألمانيا» - أن نسبة الإصابات بالسرطان قد ارتفعت خلال الثلاثين سنة الأخيرة عند الرجال من ١٥ إلى ٢٣٪، وعند النساء من ١٧ إلى ٢٥٪؛ ويموت بسبب السرطان واحد من كل أربعة من سكان ألمانيا، وهذه النسب أعلى بكثير في المناطق الصناعية الملوثة في البلاد منها في غيرها.

يبين البروفسور إقرس من الجامعة التقانية في برلين أن خسارة «السوق الاقتصادية» في ألمانيا من جراء تلوث الهواء فقط هي في حدود ٢٠ مليار مارك، والخسارة السنوية من التلوث البيئي بشكل عام تصل إلى مائة مليار مارك.

وبسبب التلوث البيئي أصبح الحفاظ على الغابات إحدى المشكلات الحادة في السبعينيات والثمانينيات، إذ إن نصف غابات ألمانيا على أقل تقدير مصابة حسب رأي صحيفة welt am sonntag «فيلت» ١٩٨٥م. أما صحيفة GEO «غيو» ١٩٨٢م فقد توقعت موت غالبية الأشجار، وفقدان الغابات قيمتها في حفظها للمياه. لكن هذا ليس كل شيء؛ فالمؤتمر العالمي حول البيئة «أوسلو ١٩٨٤م» نوه إلى خطر آخر هو خطر تملح التربة Soil Salinazation والذي سوف يكون تأثيره أكبر من تأثير الأمطار الحامضية Rain Acid. ومن المعلوم أن أحد أسباب انهيار الحضارة الآشورية - البابلية يعود إلى تملح التربة الخصبة بين دجلة والفرات الناتج من السقاية الخاطئة.

وألمانيا لا تلوث بيئتها فحسب لكنها تعد أيضًا «مُصدِّرًا» كبيرًا للتلوث جوًا وبحرًا. فالتلوث، كما هو معروف، لا يعيقه عائق: ٨٠٪ من الكبريت في السويد يأتي من بلدان أوروبا الغربية (في ألمانيا ٥٥ كغ كبريت لكل هكتار واحد من الأرض، وفي السويد ١٢ كغ كبريت معظمه مستورد).

وفق توقعات معهد غيديلبرغ للبيئة (معطيات ١٩٨٧م) وحتى عام ٢٠٠٠م؛ فإن كمية أكاسيد النتروجين وثاني أكسيد الكبريت المطروحة في الجو سوف تبلغ نحو ٥٣ مليون طن. وبالموافقة مع برنامج الحكومة الفيدرالية فإن طرح أكاسيد الأزوت حتى عام ١٩٩٥م سوف يقل بحدود ٣٪ أما في العام ٢٠٠٠ فسيقل بنحو ١٦٪. ومع ذلك فإن هذا التخفيض لن يشكل أي تخفيف عن غابات البلاد وذلك وفق تقديرات المتخصصين.

ويؤكد علماء معهد كاليفورنيا التقني (التكنولوجي) أنه من وسائل النقل والمجمعات الصناعية فقط يطلق في الجو سنويًا حوالى ٣٠٠ ألف طن من الرصاص، وهذا يزيد كثيرًا على الحد الطبيعي؛ حيث إن «الحصة الطبيعية للرصاص» - وهي بشكل عام من البراكين - تشكل ٢٫٦ ألف طن.

لكن يبقى المتهم الأول في هذا المجال غاز ثاني أكسيد الكربون الذي قد يؤدي ارتفاع نسبته في الجو إلى تغيرات واضحة في المناخ. وتقديرات العلماء، في هذا المجال، مختلفة جدًا. فقد ورد في أحد الأمثلة الأمريكية «العالم عام ٢٠٠٠» Global 2000 (١٩٨٠) خمسة توقعات أو تصورات مناخية مستقبلية:

١- ازدياد البرودة بشكل حاد وعلى نطاق واسع.

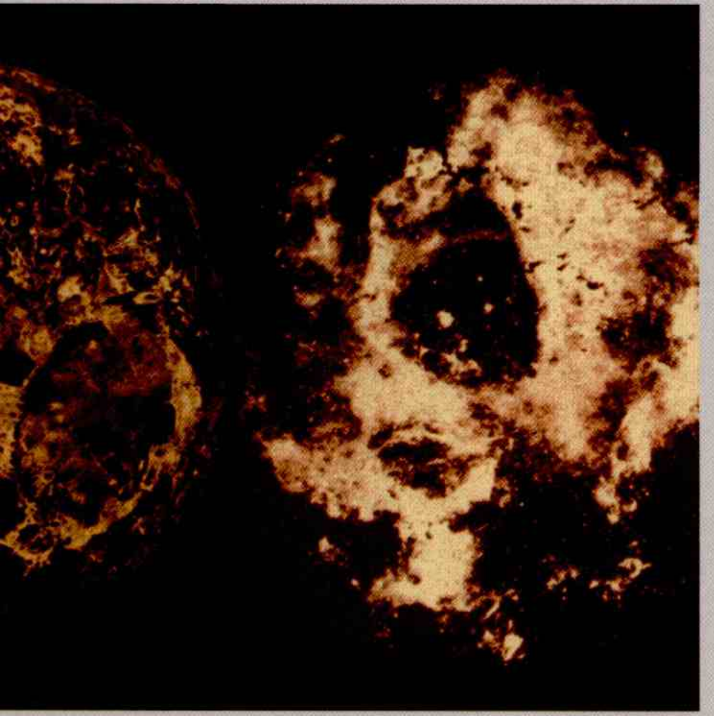
٢- برودة معتدلة على نطاق واسع.

٣- الاحتفاظ بظروف الثلاثين سنة الأخيرة.

٤- ازدياد طفيف في درجات الحرارة.

٥- ازدياد كبير في درجات الحرارة.

فالمشكلة إذن كبيرة ومعقدة؛ إذ إن



الأرض وما سيحل بها فيما لو استخدمت الأسلحة النووية



الخطر عام ٢٠٠٠

قنابل موقوتة على كوكبنا

ارتفاع درجات الحرارة، وعلى نطاق واسع، وخيم جدًا ويمكن أن تكون عواقبه كارثية. فبارتفاع درجات الحرارة سوف يرتفع منسوب مياه المحيطات العالمية الذي ارتفع في المئة سنة الأخيرة من ١٠-١٥ سم. وليس عبثًا أن مجلة «دير شبيغل» Der Spigel (١٩٨٦م) نشرت ذات مرة - وفي الصفحة الأولى - مقالاً مكرّسًا حول هذه المشكلة، وظهرت كاتدرائية كيلن على شكل جزيرة محاطة بالماء، وكان عنوان المقالة «الكارثة المناخية».

وتبقى هناك وجهات نظر أخرى حول الموضوع. فمن الخطأ أن يعزى ارتفاع درجات الحرارة خلال المئة سنة الأخيرة إلى ارتفاع محتوى غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو فقط، والحديث يدور الآن حول متحولات فيزيائية كثيرة وماهية العلاقة فيما بينها وضمن نظام حركيّ (ديناميكي) معقد ومركب. وكذلك حول العلاقة المتبادلة بين «المحيط - الجو» ودور طبقة الغيوم.

بحر الشمال، الذي كتب المؤلف عن تلوثه الحاد، لم يصبح، للأسف، أنظف. ففي عام ١٩٨٧م انعقد في لندن المؤتمر الدولي حول مشكلات بحر الشمال. فما الذي تقرر فيه؟

الأمير تشارلز - ولي العهد البريطاني - الذي أطلق على بحر الشمال اسم «البالوعة» صرّح بأنه «إذا بقينا ننتظر تشخيص الطبيب فإن المريض سيموت»، والصحافة الألمانية دعمت هذا الكلام وَسَمَّت البحر Cloaca maxima (باسم المجرور الرئيسي في روما القديمة).

المعطيات الدقيقة عن درجة التلوث مختلفة نوعًا ما، لكنها تبقى ذات تأثير كبير. فبحر الشمال تصب فيه سنويًا ١١٠ أطنان من الزئبق، و١١٠٠ طن من الكادميوم، و٢١٨٠٠ طن رصاص، و١٠٩٠٠٠ طن زنك ومئات الآلاف من الأطنان من المواد الأخرى.

وانتهى مؤتمر لندن دون نتائج مهمة، ولم يصبح بحر الشمال «منطقة خاصة»؛ حيث يمنع إلقاء النفط والكيماويات فيه. وألمانيا الوحيدة التي وعدت بتخفيض ٥٠٪ من المياه الصناعية المحتوية على المعادن الثقيلة والنفايات الكيماوية. والوضع بالنسبة للبحار والمحيطات الأخرى ليس أفضل من الوضع القائم في بحر الشمال.



ويتحدث هوفلينغ عن كارثة تشرنوبل، ويوردها مثالاً للأخطار النووية. فكارثة تشرنوبل - التي وقعت في ٢٦ نيسان/أبريل ١٩٨٦م في مدينة تشرنوبل الأوكرانية - أدت إلى أنْ منعت الحكومة البريطانية أكل لحوم أكثر من نصف مليون رأس من الأغنام نظرًا لإصابتها بالاشعاعات النووية، وذلك في آب/ أغسطس ١٩٨٧م (أي بعد خمسة عشر شهرًا من الكارثة). وهذا إن دلّ على شيء فإنه يؤكد أن الكارثة النووية لا يمكن حصرها في منطقة ما؛ فهي تتخطى كل الحدود لتصبح كارثة عالمية. فماذا لو علمنا أنه حتى عام ١٩٨٩م كان هناك ٤١٦ مجمعًا كهرنوويًا يستثمر في خمسة وعشرين بلدًا، مضافًا إليه نحو مائة وثمانية مجمعات قيد الإنشاء.

إن النتيجة الأهم التي يجب أن نستخلصها من حادثة تشرنوبل هي ضرورة تفاهم المجتمع الدولي وتعاونه في مجال الطاقة النووية التي يجب أن تصبح تحت إشراف المجتمع الدولي ككل وليست خاصة ببلد واحد، ففائدة هذه المحطات تعود للبلد المستثمر لها، أما الكارثة، إن وقعت، فإنها تصيب الجميع.

لم نتطرق إلى كل فصول الكتاب؛ فهي كثيرة وتحتاج إلى عرض أوسع مما تحدثنا عنه. لكن يبقى السؤال: أين إذن يكمن المخرج من المأزق البيئي؟

لقد تحدث هوفلينغ عن الفرضيات الأهم للحيلولة دون وقوع الحرب النووية وضرورة الحفاظ على العالم؛ حيث كتب يقول: «إن الكارثة الحرارية - النووية العالمية قد تقود إلى تغيير في المناخ على نطاق واسع»، وهذا ما يؤكده العلماء الأمريكان والروس حيث تتحدث أعمالهم عن حتمية «الشتاء النووي» ونهاية النظام البيئي للأرض، بشكل مشابه لما عرضه هوفلينغ.

المسألة رقم واحد هي حماية العالم، وهذا يتم من طريق تقليص الإنفاق الحربي وتفكيك الترسانة النووية العالمية والتعاون الدولي من أجل بناء الأمان الإيكولوجي.

وليس مصادفة أن «الخضر» في ألمانيا كانوا قد انتقلوا من المشكلات البيئة الصرف إلى الصراع ضد نصب الصواريخ على أراضيهم. وكذلك فإن نشاطات المنظمة البيئية العالمية «السلام الأخضر» أصبحت معروفة على نطاق واسع بعد أن وقفت في وجه الاختبارات النووية الفرنسية في المحيط الهادي.

فالمقولة العالمية السابقة «هذا لا يخصنا» قد اختفت من المفهوم البيئي، وتجربة واحدة قاسية (مثل كارثة تشرنوبل) تعلّم أكثر مما تعلمه السنون.

أخيرًا: فإن هوفلينغ عرض كتابه بلغة مفهومة جماهيريًا، وهذه ميزة مهمة من ميزات الكتاب؛ إذ إنه في «موضة البيئة» ألّفت الكثير من الكتب بمختلف الفنون البيئية. فبعضها يصعب تقبله ومكتوب للمتخصصين فقط، وبعضها الآخر بسيط للغاية. أما كتاب (الخطر عام ٢٠٠٠) فإنه يجمع بين وضوح عرض المشكلات الصعبة وسعة اطلاع المؤلف وتعمقه. والحالة في ألمانيا تخدم فقط مثالاً للانطلاق نحو التعميم الأشمل.



الحنين إلى الأوطان

نال موضوع الحنين إلى الأوطان عناية العديد من علماء اللغة العربية منذ بدء عصر التأليف، وشهد القرن الثالث الهجري حركة واسعة في هذا المضمار، ومن هذه المؤلفات: «حنين الإبل إلى الأوطان» لربيعة البصري، و«حب الوطن» لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، و«الشوق إلى الأوطان» لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، و«حب الأوطان» لأبي الفضل أحمد بن طاهر، و«الحنين إلى الأوطان» لموسى بن عيسى الكسروي، و«الحنين إلى الأوطان» لأبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء (ت ٣٢٥هـ)، وغيرها من الكتب، بالإضافة إلى الفصول العديدة في كتب الأدب العام في التراث العربي.

والكتاب الذي نحن بصدده هو كتاب «الحنين إلى الأوطان» لأبي منصور محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي البغدادي أحد أئمة الأدب والبلاغة البارعين وأحد الفصحاء البلغاء. ولد في بغداد وعاش فيها، وتوفي بعد سنة ٣٢٢هـ، ومن مؤلفاته: «المنتهى في الكمال» ويحتوي على اثني عشر كتابًا، هي: مدح الأدب، وصفة البلاغة، والدعاء والتحاميد والألفاظ، ونفائس الحكم، وجميعها مفقود. والشوق والفراق، والحنين إلى الأوطان، والتهاني والتعازي، والآمل والمأمول، والتشبيهات والطلب، والحمد والذم، والاعتذارات.

وقد حقق كتاب «الحنين إلى الأوطان» الدكتور جليل العطية، وقدّم له بدراسة ضافية.

ويتضمن الكتاب بعد خطبة المؤلف عددًا من الأبواب، هي: ما جاء في حب الوطن، والحنين إلى البقاع لأهلها، ومن اختار الوطن على الثروة، ومن اختار الثروة على الوطن، وذل الغربة، وما قيل في نوح الحمام، ومن تداولته الغربة، ومن جسمه بأرض وقلبه بأخرى، ووصف الوطن بالطيب والنزهة، وما قيل في الأشجار والضياء والبروق وغير ذلك، وما قيل في حنين الإبل، وفي المساءلة عن الحنين، وفي التمني عن التغرب، وفي سرعة السير.

يقول المؤلف في سبب تأليفه الكتاب: «الذي حضني على تأليف هذا الكتاب مفاوضتي بعض من جلا عن وطنه، وحلّ بلادًا أخصب من بلاده، في عيش أرغد من عيشته، فنال فيها عزًّا بعد ذلة، ورفعة بعد ضعة، ولم يبق في البلد الذي حلّه إلا راَغب فيه، أو راهب منه، فكان إذا ذُكر الوطن حنّ إليه حنين الإبل إلى أعطانها، وكثيرًا ما كان ينشد:

لقرب الدار في الإقتار خير
من العيش الموسّع في اغتراب

فتصفحت كتابه فوجدته قد سلك فيه غير قصد من نَظم كل كلمة إلى قرينتها، ورأيته ترك كثيرًا من محدث الأشعار والرسائل وبارع الأخبار والمعاني اللطيفة في هذا الفن، فأخذت من كتابه ما استحسنت، وضممت إليه ما سمعت، وبوّبته لئلا يخرج عن سبيل قصدي في كتابي».

ومما ذكره المؤلف مما جاء في حب الوطن:

- قوله تقدست أسماؤه: ﴿وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ (البقرة:٢٤٦). فجعل القتال بإزاء الجلاء، وكفاك أنه عز وجل جعله عقوبة وجزاء للّذين يحاربون الله ورسوله، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الخروج من الوطن عقوبة»، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا حب الوطن لخرب البلد السوء»، وكان يقال: بحب الأوطان عمِّرت البلدان.

- أخبرني بعض بني هاشم قال: قلت لأعرابي: من أين أقبلت؟ قال: من هذه البادية، قلت: وأين تسكن منها؟ قال: مساقط الحمى، حمى ضريَّة، موضعة أرضها لعمر الله ما أريد بها بدلاً، ولا أبغي عنها حولاً، حفَّتها الغلوات ونفحتها العذوات، فلا يملولح ماؤها، ولا تَحمى تربتها، ولا يُمعر جنابها، ليس فيها قذى ولا أذى ولا وعك ولا موم، فنحن بأرفه عيش وأوسع معيشة وأوسع نعمة.

قلت: فما طعامكم؟ قال: بخٍ بخ! عيشنا والله عيش يعلل جاذبه، وطعامنا أطيب طعام وأهنؤه، الغثّ والهبيد، والضباب واليرابيع والقنافذ والحيات، وربما والله أكلنا الجلد، وشوينا القدّ، فلا نعلم أحدًا أخصب منا عيشًا، فالحمد لله على ما بسط من النعمة والسَّعة، ورزَق من حسن الدَّعة، وأنشد:

ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة
إلى موطني قبل الممات سبيلُ
فيا أثلات القاع من بطن توضح
حنيني إلى أطلالكن طويل
ويا أثلات القاع قلبي موكَّل
بكُنّ وجدوى خيركُنّ قليلُ
ويا أثلات القاع قد ملّ صحبتي
مسيري فهل في ظلّكنّ مقيل
أريد انحدارًا نحوكم فيصدّني
ويمنعني دَينٌ عليَّ ثقيلُ
أحدِّثُ نفسي عنك أن لست راجعًا
إليك، فحزني في الفؤاد دخيلُ



غصن شجرة

سامي حمزة

تحلّب الدمُ في عروقي، كماء ينزُّ من صخرة، فلا يتصل قطره، وطفق غمٌّ وشيءٌ من الهمِّ يغشيان الحشا، وفي الحين نفسه اصطفقت حبّةُ القلب ببطانة تجويف الصَدر، تدعكُ اللحم بغضاريف عظم القصّ والضلوع، كمطرقة تهدُّ جدارًا دكّه الزلزال للتوِّ، فباتتْ كوّةٌ فيه على وشك الحدوث.

أمِنْ تأثير المفاجأة؟ أم تراهُ الخجلُ؟ أم هو الخَوفُ؟

لحظةٌ أحبُّ أن أنساها، ولكن أنّى لي ذلك، وهي وشمٌ على شمم نبل اليفاعة؟

ـ لهْ ياولد.. خرّبت الوطن!!

عبارةٌ تسري في روحي أين منها أجيجُ النار؟! وإن هي إلا لحدٌ لفرحة كانت أقصر من أن تملأ الرئتين بأكثر من شهقتين، بعد تقطع النفس مرارًا، وقد وثبتُ بقدر ما استطعتُ، مستطولاً قامتي، علَّ أيّ إصبعين في كفي تلتئمان على ذؤابة هذا الغصن المُعنْقد بكريات كالذهب من مشمش متورد الوجنات، إلى أن علق بعضُهُ بين السبّابة والوسطى، فمال وقد تلقفتهُ بيدي الثانية، فحنيتُهُ إلى أسفل معلقًا به ثقلي، فرفعني، فأوجزتُ قامتي وقوّستها، ثم ثنيتُ ركبتيَّ حتى دقّتا الأرض، فسمعتُ صوت انسلاخ اللحاء، وتقصف العود من وشيجته، ومافتئ متدليًا كشيء ليس من أصل الشجرة.

صوتُ الرجل يلسعني كسوط، وأنا أنسحبُ واجمًا متواريًا خلف سور الحجرِ البازلتي، منزلقًا بين الصبّار وقد استدقت أشواكُهُ كزنابير تلسعني مهتاجةً مما نطقهُ الرجلُ، كأنهُ لفظها أسرابًا، فانفلتت على متون كلمات تلك العبارة.

الهواءُ أمسك كأنّه يُصيخُ السمع لدبيب الأسى في جوانحي، فلم يعد منهُ قدَّام أنفي مايكفي لألتقط أنفاسي!

والمسافةُ من البستان إلى بيتنا أمست لا تنتهي، والزمنُ بات أطول من السنوات التي عشتُها منذُ وُلدتُ وحتى وقوع الحادثة؛ بل الكارثة، وأيُّ كارثة أكبرُ من هذه؟ فالرجلُ لن يسكت، وستتداول الأمور في مجلس القرية ـ كالعادة ـ عقب صلاة العصر، ومن بينها ـ حتمًا ـ أمري. فواحزناه عليك بأبي، وأنت بابنك في موضع خجل بين القوم، وإن لم يَلمْك لائمٌ، يكفيك أن يقصَّ الرجلُ حكايتي مستدرًا ضروع مخيلته، لينصرف رهطُهُم عنك، وفي صمتهم تقريعٌ أقسى عليك مما لو جاهروك بأنك لم تُحسن تربيتي.

أخيرًا دخلتُ فِناء الدار، فأسرعتُ إلى الجبِّ أنتحُ الماء دون توقف، أملأُ الجُرن والبرميل والقدْرِ والأباريق وصفيحة المرحاض، سقيتُ حوض الورد والبقلة والنعناع، وأوردتُ البغل والحصان، ونثرتُ الذرة للدجاجات، وملأتُ التنور بعرًا وقشًّا.

تدخلتْ أمي قائلةً: لو تركت ذلك لإخوتك، فاليوم ليس دورك. كنت أريد التكفير عن إثمي بأيِّ شكل، ولما فرغت من كل مايمكنني فعلُهُ، جلستُ أمام غرفة أبي بانتظار أوبته، ولينزل بي العقاب الذي أستحقُهُ، علّي أرتاحُ من هذا الملح المذرور على وخز ضميري، ولهب ما أتوقعُ اضطرامه في ناموس أبي، وقد سمع ما كان مني، وهو الحليمُ الذي لا يخرجه عن حلمه إلا شكوى بحق أحد أولاده.

خذلني خجلي، فغافلتُ أمي ودخلتُ شونة المؤونة، وفي سرِّي أتضرع بأدعية وقصار السور، بسملتُ وحوقلتُ وسبّحلتُ وهللتُ كثيرًا، حتى سمعتُ صوت أبي يسألُ عني، ويبعثُ إخوتي ليبحثوا عني، وحين مضوا قال لأمي: سأنسيه طعم المشمشِ، فالقتل وكسرُ الأشجارِ سيّان.

مضت على عقوبة تلك الفعلة أربعةُ عقود، ومافتئت تلك العبارة تقرع في جمجمتي وتثير في نفسي شجنًا.

دعوت له، وأنا أشعرُ براحة عجيبة، وأكتمُ فرحتي بألم، مخافة تخرصات قد تقالُ: لهْ.. أيفرحك موتُ أبيك يارجلُ؟!

ولا أحد سيفهمُ أني إنما أغبطُهُ، إذ لم ير كيف اغتيلت أشجار البَستان شجرة إثر شجرة.

جحا في أدب الأطفال
قيم تربوية غائبة

محمد بسام ملص

يتطلب التعامل مع التراث في أدب الأطفال رؤية واعية تدرك ما يجب أن يقدّم وما ينبغي أن يترك، ولا يمكن لهذه الرؤية أن تنفصل عن القيم الإسلامية التي لابد أن ينشأ عليها أولاد الأمة. فالأمر في التراث لا يقف عند موضوع مثير شائق قد يحمل في طياته جوانب لا تصلح للنشء، بل إنه يتصل بإعادة صياغة هذا التراث بما ينسجم وتربية الأولاد وتنشئتهم النشأة الصالحة التي تؤهلهم ليحملوا الأمانة؛ فكل عمل ثقافي يجب أن يكون على ارتباط وثيق بالتوجه المرجو للأمة، وينبغي على من يتولى أمر ثقافة النشء أن يدرك أن عمله مرهون بالتربية، مرتبط بقيم الأمة، وما عدا ذلك فهو لغو وزَبَد ربما حاد عن الصراط المستقيم ليسير في دروب الفساد والضلال والعياذ بالله.

جحا وأدب الأطفال

تمثل شخصية جحا نموذجا طريفا مرحا يقبل عليه النشء، ففي حكاياته التي تكاد لا تنتهي يتعرض جحا لمواقف ويقوم بأمور في قوالب طريفة يختلط فيها الهزل بالجد، وتنقلب المفهومات. وقد وَجَد مَن يكتبون للنشء مادة خصبة في حكاياته، فهي في حد ذاتها تتميز بالقِصَر(١)، وتنبض بالحركة مما يجعلها بعيدة مِن الملل، قريبة من النفس. ولعل المواقف التي يشكل جحا محورها تتمتع بطرافة تثير الابتسامات حينا والضحكات حينا آخر، ويكون عنصر الفكاهة على حساب قيم كثيرة. فهل استطاعت الأعمال المقدمة للنشء أن تراعي جانب القيم أم أن الأمر مجرد تقديم حكاياته في قصص ومسرحيات دون كبير اعتبار لها؟

هذا ما سنعرفه من خلال عرض بعض الأعمال التي قدمت في أدب الأطفال عن جحا:

برميل العسل

هذا الكتاب يعد من المحاولات المبكرة نسبيا في هذا المجال، إذ يعود تأليفه إلى عام ١٩٤٤م/١٣٦٤هـ كما يوضح الكاتب في مقدمته(٢)، وقد يدهش القارئ وهو يتعرف إلى جحا وأصله بوصفه شخصية حقيقية(٣)؛ فهو أبوالغصين دجين بن ثابت الملقب بجحا الذي يظهر في نهاية القرن الهجري الأول وأوائل الثاني، والذي كانت أمه تخدم أم سليم بنت ملحان والدة مالك بن أنس(٤)، والصواب أن أم سليم هي والدة أنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه

وسلم. ومن المصادر التي تذكر أبا الغصين "مجمع الأمثال" وفيه أن جحا هو رجل من فزارة وكان يكنى أبا الغصين(٥)، و"الصحاح" ويرد في كلمة (غصن): "وأبو الغصن: كنيته جحا"(٦)، و"حياة الحيوان الكبرى" وفيه: دجين بن ثابت أبو الغصين الذي ضعّفه بعض رواة الحديث، وهو جحا الذي يعد من أحمق الناس(٧)، ولا يرد فيها ولا في غيرها من المصادر التاريخية(٨) أن والدة أبي الغصين كانت خادمة أم سليم، والله أعلم.

يرد في مقدمة كتاب "برميل العسل" أن الناس أعجبوا بأسلوب جحا السهل الممتنع في فهم الحياة، وأعجبوا بما سمعوا عنه نافتتنوا بطرائفه، وأضافوا إليها كثيرا(٩) ليغدو شيخ الفكاهة المشرقة الباسمة الساحرة ورمز الدعابة الفلسفية الجادة الساخرة(١٠)، وفي المقدمة - أيضًا - تعريف بجحا التركي المدعو نصير الدين خوجا الذي عاش في القرن الثاني الهجري ويُعدّ أحد أعلام الدعابة التركية(١١)، وفيها عن تأثير شخصية جحا في الغرب وظهور أكثر من شخصية مرحة عجيبة في أدبهم(١٢)، وما لقي جحا العربي من إهمال وجحود في حين أن جحا التركي لقي عناية كبيرة، حتى إن قبره أصبح مزارا يُحج إليه(١٣)، وكان يتوجب الحيطة هنا، لأن مصطلح الحج في الإسلام خاص بحج البيت، ولأن جحا وضع في مرتبة عالية كأنه أحد أولياء الرحمن.

بعض القصص أظهرت «جحا» جاحدا وسارقا وحاسدا وخائنا، ورغم ذلك لم تقع عليه أية عقوبة نتيجة لذلك!

في قصة "برميل العسل" يبرز أمر تملق الناس لوالٍ جديد يحب العسل كثيرا(١٤)، وبدل إظهار دور الوالي الراعي الحريص على إقامة العدل حتى تصلح رعيته وتستقيم، توجه القصة نصيحة إلى القارئ، وهي أنه لو تعاون الناس في تقديم كمية قليلة من العسل لامتلأت الجرة الكبيرة هدية للوالي(١٥)، وهذه تؤكد على قيمة سلبية، فما كان للوالي أن يتلقى هدية الناس، وتوجب على الناس أن يطلبوا منه أن يكون عادلا يؤدي الأمانة.

سارق الحمار وقصص أخرى

في هذا الكتاب أربع طرائف يضطر فيها جحا إلى التغابي واصطناع البله حتى يتخلص من مآزق أمام أكثر من لص، ففي حكاية "عودة الحمار" يلجأ إلى مداراة لصين متظاهرا بالصمم، راضيا بأن يتهم بالغفلة حتى يتفادى مواجهة معهما(١٦)، وتظهر الحكاية جانبا من دهائه الذي يمكّنه من استعادة ما خسر وتلقين اللصين درسا(١٧)، أما في قصة "سارق البيت" فيكافأ جحا رغم موقفه السلبي أمام السارق، فالسارق يعجب بحيلته في كشف أمره ويعيد إليه ما سرقه دون أن يفكر في أذيته(١٨)، وربما ظن القارئ أن ما فعله جحا أمر محمود. وتتناول حكاية "في الخزانة" اللص الذي يدخل دار جحا ولا يجد ما يسرقه فيلجأ جحا إلى الاختباء في الحصير وقد شعر بالحرج حتى لا يواجهه ويخبره عن فقره، ويبتسم اللص لدعابته ثم ينصرف(١٩)، وهنا يكافأ جحا - أيضا - وهو يشعر بالحرج من فقره أمام لص يحصل على رزقه بالحرام، والفقر أمر لا يعيب إلا إذا كان صاحبه مصرا على ألا يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله حق توكله.

ومما يلاحظ في الكتابين السابقين اللغة المستخدمة التي قد تكون فوق مستوى النشء، فيتم اللجوء إلى مرادفات لشرح الألفاظ، ومع ذلك فهي تظهر أسلوبا قويا يفيدهم في إغناء ثروتهم اللغوية في وقت يتعرضون فيه لمختلف اللهجات والمصطلحات الغريبة التي تبعدهم من لغة القرآن.

جحا والصرة

في هذه الحكاية القصيرة ينجح جحا في تعليم جار بخيل درسا في عدم استراق السمع والنظر، وعدم الطمع والأنانية؛ إلا أنها لم تراع عدة أمور على طرافة حوادثها وسرعة إيقاعها وتشويقها، فجحا قد أصيب بضائقة مالية نغصت عليه عيشه، ولجأ إلى أصحابه يستقرضهم فما أقرضوه، ولا يفهم معنى أن تنغّص ضائقة مالية عيش امرئ وقد أُمر بالصبر على ما يصيبه، ولا يفهم لماذا رفض أصحابه أن يقرضوه(٢٠)، وكان يتوجب أن توضح الحكاية سبب رفضهم. وقد ورد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كُرْبَةً فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة»(٢١)، وهذا في مجتمع إسلامي متكافل يكون فيه المؤمنون إخوة كما أظهرت القصة، وعندما رفض أصحاب جحا إعطاءه مالاً أخذ يكثر من الصلاة ويختم صلاته بهذا الدعاء: "أريد منك ياربي صُرَّة فيها ألف دينار، ولن أقبل تسعمائة وتسعة وتسعين"(٢٢)، وقد يبدو الأمر طريفا، ولكنه في حقيقته تواكل وسؤال بشرط، وإنَّ أمر الدعاء حيث يكون فيه المرء قريبا من ربه لا يُقدّم على أنه دعابة لإثارة الابتسامات.

وفي موضع من الحكاية يتغابى جحا أمام جاره وهو على علم بأن صرة الدنانير منه، وكان الجار يسترق السمع والبصر وهو يدعو ربه فأراد أن يختبر جحا(٢٣)، ويظهر جحا دهاء ومكرا وهو يطلب منه ثوبا يليق به ليقف أمام القاضي حتى يحكم بينهما(٢٤)، ويلجأ جحا إلى الكذب ليبين للقاضي طمع جاره وكذبه وعادته السيئة في استراق السمع والنظر، ويصدّق القاضي ما يقوله ويعتبره من عباد الله الطيبين(٢٥). ويبدو أن جحا في حاجة إلى دروس في التوكل والصدق. وعند موازنة معالجة هذه الحكاية مع معالجة الحكاية نفسها في مسرحية شعرية بعنوان "جحا والبخيل" يتبين أن دعاء جحا لم يكن إلا حيلة ليعلم جاره درسا، وكان يتعمد أن يسمع جاره دعاءه(٢٦)، ولا ينسى أن يزكّي نفسه قائلا: "أحمد ربي أن أعطاني الخلق الطيب"(٢٧)، ويسمح لنفسه أن يتصنت إلى ما يقوله جاره(٢٨) فيدخل عمله في باب التجسس، فأين هذا من الخلق الحسن؟! ويلجأ جحا إلى الكذب بأن يدّعي أمام القاضي أن الثوب والحمار له(٢٩) حتى يعلّم جاره درسا. وتؤكد حكاية "جحا والصرة" على أن الغاية تبرر الوسيلة، ويبدو أن ما يقوم به جحا في إطار الفكاهة والمرح أمر حسن مادام يعلّم الناس في حدود تفكيرهم وتصورهم، فجحا فوق الشبهات، وحكاياته دروس وعبر لا يصح أن تتغير! والكذب والاحتيال عنده مقبولان حتى يصل إلى غايته فيغدو الناس صادقين وطيبين!

جحا في أدب الأطفال

قيم تربوية غائبة

جحا والسمكة الكبيرة

في هذه القصة لا يُقدَّم جحا صاحب النوادر والفكاهة الذي طالما تناقلت كتب الأدب ملحه ونوادره؛ بل هو نمط آخر يميل إلى الجد(٣٠)، ففي البداية يبدو راضيا وهو يعمل أجيرا عند حائك ملابس، ثم يقرر أن يختار مهنة الصيد حتى يكسب أكثر. وينجح في عمله الجديد فيجمع ثروة ويصير معلما كبيرا في البحر، ولا تحمل القصة سمات شخصية جحا المعروفة، كما أنها لا تنتمي إلى عالم جحا بصلة، وتبرز كيف غدا جحا ثريا ومعلما كبيرا في البحر باجتهاده الخاص الذي يبيح له عمل أي شيء. فمن ذلك أنه يختار مهنة الصيد بعد أن تبينت له مزاياها وأرباحها، يفعل هذا بدافع الحسد لجار جديد يعمل صيادا(٣١)، ويجد أن ما يكسبه إلى جانب ما يكسب جاره قليل(٣٢)، ويتضح في ثنايا القصة أن جحا لا ينفق من القروش الخمسة التي يكسبها إلا جزءا يسيرا بسبب توافر معظم حاجاته وحاجات أسرته في البيت(٣٣)، وكان سعيدا للغاية(٣٤)؛ فهو حائك ماهر تتحدث عنه المدينة(٣٥)، إلا أنه يكفر بنعم الله عليه ويبدأ يحسد جاره على ربحه الوفير، ويدفعه الحسد والطمع ليسرق من خيطان معلمه حريرا لينسج شبكة(٣٦)، وهو يعلم أن لمعلمه فضلا عليه في تعليمه وفي الإحسان إليه(٣٧)، وينسى أنه قد بلغ الأربعين(٣٨) فاكتملت شخصيته ونضجت في بسطة مما رزقه الله عز وجل.

وترصد القصة صعوده درجات الثراء، وهو الذي بطر عيشه وسرق وخان وحسد، ويقول وهو يفكر في جاره بعد أن فرغ من صنع الشبكة: "غداً سيجتمع السمك لدي وأبيع منه كل يوم بدينار، وسأصبح غنيا في شهر واحد ولدي مثل ثروتك، بل ضعفها بعام واحد أو عامين. تبًا لك يا مسعود. سترى جحا كيف يزدريك وأنت تحمل سبتا واحدا"(٣٩)، يقول هذا عن جاره وهو لم يؤذه قط، وتكافئه القصة بأن تجعله غنيا مسموع الكلمة(٤٠). ومن العجب أن يقف موقفا نبيلا من السمكة الكبيرة التي وقعت في شباكه وكانت سببا في غناه فيتركها قائلا لها: "ولكنني لن أكون جاحدا وأظلم من علّمني، حتى ولو كان سمكة"(٤١)، فهو لا ينكر فضل سمكة عليه في حين يتنكر لما فعله معه معلمه من خير. والتركيز على الثراء الذي يأتي من طريق الطمع والحسد والكذب والسرقة إنما يشجع النشء على التخلي عن الأخلاق الكريمة الفاضلة التي أكرمنا بها الخالق سبحانه وتعالى.

جحا وابنه والحمار

في القصة حكايتان: الأولى تحمل عنوان "جحا وابنه والحمار" والأخرى عنوانها "جحا والخروف"، وفي الحكاية الأخرى يعود جحا إلى دهائه ومكره وهو يحاول أن يساعد جارة له على بيع خروف لها؛ فقد راح يقيس الخروف باهتمام شديد أمام تاجر طمّاع ظنّ أن في الخروف سرًا، فطمع فيه واشتراه بمائة دينار دون أن يعرف حيلته(٤٢). وإذا كان جحا قد تعاطف مع جارته إلاّ أنه لجأ إلى وسيلة فاسدة ليحقق بها بيع الخروف بغض النظر عن كون المشتري طماعا، وتذكر الحكاية أن الجارة طيبة(٤٣) فلو كانت كذلك ما وافقت على فعلة جحا ولا قبلت إلاّ طيبا. وفي النهاية يلجأ جحا إلى الكذب عندما يسأله التاجر الطماع عن سر اهتمامه بالخروف فيجيب قائلا: "كنت أقيسه لأرى إن كان جلده يصلح لعمل طبلة"(٤٤)، وقد تثير الإجابة الابتسامة، ولكنها جبلت على الكذب وهذا لا يتفق مع ما يجب أن يتربى عليه أولاد الأمة.

مسرحيات جحا

هذه سلسلة من حكايات جحا في شكل مسرحيات أعرض لثلاث منها:

جحا.. والحذاء الهارب

يلجأ جحا إلى حيلة تمكنه من كشف سارق، ولكن المسرحية تقع في أمور كان ينبغي تجنبها، فمن ذلك شخصية "الحاج" رضوان. واستخدام كلمة "الحاج" شائع عند العامة، كأنما أداء ركن من أركان الإسلام يتطلب التفاخر وإطلاق لقب "الحاج" وإذا كان الأمر كذلك فيقال المصلي والمزكي والصائم فلان! والمفروض في "الحاج" رضوان تقوى الله وأداء الحقوق وخاصة حقوق زوجته، ولكنه يترك زوجته كل يوم بعد انتهاء عمله وبعد العشاء ليزور أي صديق(٤٦) مفضلا الصحبة على أن يبقى معها(٤٧)، ودفعها سلوكه هذا إلى أخذ حذائه دون علمه والكذب عليه(٤٨). كذلك فإنه لا يهتم بأداء حقوق الآخرين؛ فهو لم يدفع للإسكافي ثمن حذاء ينتعله(٤٩)، أما الأمر الثالث فهو بخله؛ فيلجأ إلى تناول شرابه وطعامه في منزل أي صديق حتى يوفر المال(٥٠) مع أنه في يسر من أمره فعنده حقول قمح(٥١). وهذه صورة طفيلي بخيل يتظاهر بالتدين أو أنه لا يعرف الإسلام حق المعرفة، ومثلما كان ينبغي الحذر في استخدام كلمة "الحاج" كان من الضروري استبدال شخصية أخرى بشخصيته حتى لا يثار أمر من يتستر بالدين ليحقق مآربه، وقد يؤدي إلى التشكيك في المسلم الصالح على العموم، وتصبح القضية تعميما، وبخاصة أن هناك حملات خبيثة ترمي إلى النيل من الإسلام والمسلمين وعرضهم في صور سيئة شتى، وإن كان "الحاج" رضوان قد اعترف لزوجته بأنه قد أهمل حقوقها ووعد بأن يدفع ثمن الحذاء(٥٢)، وهذا يُسجل لصالح تطور الشخصية نحو الخير.

أما جحا فيُقدَّم وهو يلعن حمارته لأنها كانت السبب في هروب فكرة من رأسه كان يريد تسجيلها، ويعترف بأنها جائعة وأنه سيطعمها فيما بعد لأنه منهمك في البحث عن الفكاهة التي وصفها بأنها غذاء النفس والعقل(٥٣)، وكان ينبغي عليه ألا يلعن حمارته وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن لعن البهيمة(٥٤)، وكان يجب أن يقدم لها طعاما رحمة بها، وهذا نابع من حرص الإسلام على الرأفة بمخلوقات الله، أما إذا أريد من ذلك إثارة عنصر الفكاهة فهذا مخالف للتوجيه التربوي الصحيح علما بأنه لم يقدم أساسا على أنه شرير قاسي القلب، فلعنه حمارته وتركه لها على هذه الحال لا يتفق مع شخصيته، وعندما يقف ليقطف بعض النعناع يحيي شخصه ويتمنى لنفسه سنة طيبة جديدة(٥٥) وكان الأجدر به أن يحمد الله على نعمه ويسأله العفو والعافية.

جحا.. يطعم ثيابه

حاولت هذه المسرحية أن تبين اهتمام بعض الناس بالمظهر دون الجوهر، فقد ذهب جحا إلى صديقه جمال للعشاء، وكان أشعث أغبر في ملابس العمل(٥٦)، فأعرض عنه صديقه وتجاهله مثلما تجاهله ضيفان عنده(٥٧)، ثم عاد جحا إلى صديقه مرة أخرى في ملابس نظيفة وشكل حسن

فلقي ترحيبا حارًا(٥٨)، ولكنه لا يأكل بل يضع الطعام في عمامته وجَيْبَيْ معطفه وحذائه، ويخبر صديقه والضيفين أن الحفاوة التي لقيها لم تكن لشخصه ولكن لملابسه(٥٩)، ويتضح أن جحا كان مخطئا في الموقف الأول لأنه لم يتقيد بأدب الزيارة، ولكنه في الموقف الآخر يستنكر حاله وقد بدا في شكل حسن، وهذا يتصل بتطور الشخصية وتغيير حالها، فمن المتوقع أن يدرك جحا خطأه ويعرف أهمية التزامه أدب الزيارة، ولكن المسرحية تنقل شخصيته من حال سلبية إلى أخرى أكثر سلبية، فتطوُّرُ شخصيته يتجه هبوطا بدل أن يصعد؛ فهو يعد اغتساله وارتداءه ثوبا نظيفا من باب المظاهر، وكان يتوجب عليه أن يعتذر إلى صديقه، إلا أن خاتمة المسرحية تركت الصديق والضيفين ينظرون بعضهم إلى بعض في دهشة بسبب ما فعله وما قاله، وبذلك يكونون في موضع اتهام! وكان على صديقه أن ينصح له وهو يعرفه معرفة حسنة(٦٠) لا أن يتجاهله.

مع أن حكايات «جحا» ترمي - في مجملها - إلى السخرية والإضحاك؛ إلا أنها كرست مفاهيم تربوية خاطئة!

وتنقل المسرحية فكرة جحا الخاطئة عن المظاهر إلى بيته فتقول له زوجته بعد أن اغتسل ومشط لحيته ولبس ثوبا نظيفا: "لم أرك تبدو بهذه الأناقة منذ سنوات"(٦١)، ويفهم من كلامها أنه لا يهتم بمظهره أمامها، فَمَنْ غير الزوجة أحق بأن تمتع ناظريها بمظهر زوجها الحسن النظيف؟! والنظافة والمظهر الحسن ينبغي ألا يقتصرا على مناسبات ودعوات وحفلات، وهذا مفهوم في حاجة إلى إعادة نظر ضمن مفهومات لا تحصى يجب أن تدرك وتصحح حتى ينشأ مجتمع إسلامي قويم.

جحا.. صانع الحمير

إذا كانت المسرحيتان السابقتان تقدمان نصائح للنشء مع التحفظ حول تقديمهما فنيا، فإن هذه المسرحية تركز على جانب الفكاهة، فمن المواقف الفكاهية فيها عندما يكذب جحا على جاره أبي الغصن ويخبره بأن حمارته ليست في الدار فيكتشف أنها فيها عندما يسمع نهيقها فيجيب جحا قائلا: "هل تصدقها وتكذبني؟" ويقهقه أبوالغصن(٦٢)، وعندما يسرق أبوالغصن جبة جحا ويظن أن الحمارة قد سرقتها فيأخذ برذعتها عقابا لها(٦٣)، وحين يكذب أبوالغصن أمام السلطان(٦٤)، وقد وردت هذه المواقف على سبيل إثارة الابتسامات. وتستغل المسرحية عنصر الفكاهة عندما يقف جحا بين يدي السلطان؛ فالسلطان يصدّق بأن حمارة جحا كانت في الأصل حمارتين صنع منهما حمارة واحدة(٦٥)، وأن الحمار الجديد يجيد القراءة بعد أن علّمه جحا، فيثني عليه السلطان ويصفه بأنه أمهر صانع حمير في الدنيا(٦٦)، ويركب الحمار، والحمار يرقص على صوت الموسيقى (٦٧). وأما أمر صنع الحيوانات فقد ذكرت في مواضع عدة(٦٨)، وليس أدل على ذلك من عنوانها "جحا.. صانع الحمير"، وإن كان هذا مجرد سخرية واستخفاف بالسلطان غرضه تصعيد عنصر المرح والفكاهة، فإن أمر الخلق خاص بالخالق سبحانه وتعالى، ويجب ألا يثار في موضع كهذا ولو على سبيل الدعابة. وأما أمر السخرية من السلطان ففيه نظر وهو الحاكم الذي ينبغي أن يحكم بما أنزل الله، فإن هان أمر الحكم إلى هذا الحد فكيف نقدم للنشء نماذج عن الحكام الصالحين؟!

تنقل المسرحية صورة اجتماعية عن علاقة جحا بزوجته، وقد تم بسط جانب من جوانب هذه العلاقة في مسرحية "جحا.. يطعم ثيابه" وفيها يبدو مهملا لنظافته لا يحرص على أن يظهر في شكل حسن أمام زوجته، وفي هذه المسرحية تشكو الزوجة من وجود الحمير في البيت وتصفه بأنه مورستان(٦٩) وتعني بذلك مشفى الأمراض العقلية، ويلجأ جحا إلى السخرية منها فهو يقرنها مع الحمير في عدم طاعته(٧٠)، وعندما تطلب منه أن يشتري لها عقدا يخبرها بأنه سيشتري لها عقلا(٧١)، ويعلن لها قائلا: "عندي لإخوتي الحمير.. ولك أيضا" فتجيبه بقولها: "عشت لي يا جحا"(٧٢)، إنها امرأة ترضى بمعاملة زوجها غير الحسنة فتقبل بالذل والإهانة وسوء المعاملة أمام المال، فكيف ينشأ أولادها؟!

ولم يطرأ أي تغيير إيجابي يذكر على شخصيات المسرحية: فأبوالغصن يسرق ويكذب دون أن يجازى على فعلته؛ ويبقى السلطان ساذجا يبدد أموال الدولة دون حساب ليحصل على حمارة فارهة يباهي بها السلاطين(٧٣)، ويلاحظ اضطراب واضح في تصوير شخصيته، فهو من ناحية يبدو ساذجا إلى حد الغباء يصدّق بأن جحا يصنع الحمير ويعلّمها القراءة، ومن ناحية أخرى هو لا يرحم من يعده ويخلف ويعاقبه عقابا شديدا وقد يأمر بضرب عنقه(٧٤)، والتأليف في مسرح الأطفال بصورة خاصة يتطلب عناية شديدة في رسم الشخصية حتى يكون هناك انسجام بين قولها وفعلها، وزوجة جحا ترضى بسوء المعاملة والذل مادام زوجها يملك المال ويحبها كما يحب حميره، وجحا يكذب ويحتال ويسخر من جاره والسلطان وزوجته ويخرج فائزا بآلاف الدنانير سعيدا يستعد لزواج حمارته(٧٥).

مسرحية حكايات جحا العربي

تعد هذه المسرحية من أحدث ما قدم عن حكايات جحا للنشء، وقد نشرت عام ١٩٩٢م/١٤١٢هـ، وعند قراءة بعض حكاياتها تظهر أمور تحتاج إلى إعادة نظر: فمن ذلك اتهام جحا جارا له بالغباء والجهل لأنه لا يعرف القراءة في حين أن حمار جحا يعرفها - في إطار مفهومه لمعرفة القراءة - ويحكي الحكايات(٧٦)، وله مكانة في نفسه لا تقل عن مكانة جاره(٧٧)، وعندما يصرّح بأنه "أذكى من البعض"(٧٨) (إدخال اللام في كلمة بعض هنا خطأ)(٧٩) فإنه يخالف سنّة من سنن الخالق عز وجل الذي قال في محكم التنزيل ﴿ولقد كَرَّمْنَا بني آدم﴾ (الإسراء: ٧٠)؛ فمنح الإنسان عقلا يميز به بين الحق والباطل والخير والشر، فالحمد لله على نعمه التي لا تحصى.

وتظهر المسرحية جحا مهتما بإقامة العدل في حكايتين(٨٠)؛ ففي حكاية "جحا العادل" يتولى منصب القضاء(٨١)، ويتعرض لأغرب قضية حول فقير استمتع برائحة الشواء دون أن يدفع لصاحبه ثمنها، فيحكم لصالح الفقير عندما يأمر بأن يأخذ البائع رنين القروش(٨٢) ويبدو في

موقف الفقير استجداء خفي، والمرجو في أدب الأطفال أن ينشؤوا أعزة متعففين يرضون بما قدّر الله لهم ويسعون للكسب الحلال، والحكاية تنتصر للفقير وما يمثله من استجداء دون إشارة أو تنبيه إلى دور الحاكم في تولي أمر الرعية وحل مشكلة الفقر والتسول والسؤال من غير ضرورة.

وفي حكاية "جحا والرمان" يظهر شاب طالب علم يبحث عن رجل مشهور - المقصود به جحا - ليسأله بعض الأسئلة(٨٣)، وتخلط الحكاية بين سؤال طالب العلم، وهو أمر جاد، وأخذ جحا رمانة عن كل سؤال يجيب عنه وهو أمر يميل إلى الهزل(٨٤)، ولابد أن يتهم الشاب بالغفلة والغباء، وقد أعطى ما معه من رمان إلى جحا مقابل إجابات عن أسئلة لا تزيده علما نافعا، وما ينبغي أن يُقَدَّم طالب العلم بهذه الصورة وهو الذي تستغفر له الحيتان في الماء(٨٥). والأمر الآخر المرتبط بأمر العلم التحديد النفعي للبحث عن المعرفة، فيقول الشاب لجحا: "أنا طالب علم، أبحث عن العلماء والأساتذة، أسألهم عن الأمور التي لا أعرفها لأستفيد من معلوماتهم عنها"(٨٦)، واستخدام كلمة "معلومات" لا يتفق مع أجواء المسرحية الزمنية، والكلمة بمفهومها بعيدة من أمر طلب العلم الذي كان عليه السلف الصالح والذي نريده أن ينشأ عليه أولادنا، فليس المهم في طلب العلم الجانب النفعي الذي يقتصر على المعلومات؛ بل المهم الجانب المعنوي المتمثل في أثر المعلم في تلامذته من خلال ما يمثل من قيم تتعلق بالتقوى وإخلاص النية والصدق والأمانة والبعد من النفعية، ومن المدهش أن الشاب الذي يتحلى بأخلاق حسنة - فهو يلقي السلام ويطلب العلم - يريد أن يقابل الشيخ جحا العالم الأستاذ المشهور الحكيم(٨٧).

وفي حكاية "جحا والمتسول" يظهر سخط جحا عندما يلقي عليه جاره تحية الصباح بدل السلام فيجيب مستنكرا: "من أين يأتي الخير يا جاري؟"(٨٨) وسبب سخطه أن حماره لم يأكل منذ ثلاثة أيام ويخشى أن يكون مريضا(٨٩)، ويبدو أنه قد غاب عن الحكاية أمر قضاء الله وأمر الخير، فالمؤمن دائما إلى خير في السراء والضراء يحمد ويصبر(٩٠)، وما نطق به جحا هو مما يتردد على ألسنة بعض الناس، ولعل هذا لا علاقة له بأمر الفكاهة، ومن الملاحظ أن هذه الحكاية وردت مباشرة بعد حكاية طالب العلم فهل يمكن لجحا أن يكون قدوة صالحة له؟

في حكاية "جحا الكسول" (ورد لفظ الكسول في الحكايات في أربعة مواضع(٩١) والصواب كَسِل أو كسلان، وكسول نعت للجارية المنَعمة التي لا تكاد تبرح من مجلسها)(٩٢) يبدو الاهتمام بأمر الفرح والبسمة(٩٣) في إطار تشجيع الكسل والكذب أكثر من الاهتمام بأي أمر تربوي آخر، فهنا يكذب جحا في سبيل دجاجة يأكلها عندما يخبر جاره بأن لا صديق له إلا هو وأنه عزيز عليه(٩٤) وينتحل العذر تلو العذر حتى لا يساعد جاره، ويحين وقت الطعام فيقرر أن يساعده في الأكل(٩٥) ويُترك جحا ليُكافأ على كذبه وكسله حرصا على أن تبقى الحكاية في إطار المرح.

يبقى أمر حول عنوان العمل "مسرحية حكايات جحا العربي" وكان في الحقيقة عشر مسرحيات قصيرة تتسم كل حكاية فيها بوحدة يربطها شخص جحا الساخر والذكي والعادل والعالم الحكيم المشهور والكاذب والكسلان(٩٦) دون اهتمام واضح بتطور الشخصية من خلال تعرضها لمواقف عدة تؤثر فيها إيجابيا.

خاتمة

يتضح من عرض جوانب لبعض الأعمال الخاصة بجحا في أدب الأطفال الميل إلى الأخذ من حكاياته دون مراعاة إعادة البناء في عملية إبداعية تتطلبها الاستفادة من التراث الأدبي، ويلاحظ عدم الاهتمام بأمور تربوية فيما تشمله الحكايات من قيم سلبية تتطلب حذرا في إعادة صياغتها؛ فهي تشكل معينا لا ينضب للكتاب الذين يبحثون عن المرح والفرح؛ ولكن إبراز القيم الإسلامية وضرورة أن ينشأ عليها أولاد الأمة من الأمور المهمة، وتُعدّ الأساس في أي توجه ثقافي. والله نسأل أن يوفق الكتّاب وأن يغفر لنا ويرحمنا ويجعل هذا العمل خالصا لوجهه من باب العلم النافع، وآخر دعوانا

الهوامش:

١- فاروق سعد: جحا ونوادره، ط٣، بيروت، دار الآفاق الجديدة ١٩٨٦م، ص٣٥.

٢-٤- كامل كيلاني: برميل العسل، تونس، الشركة التونسية (مقدمة ١٩٤٤م) ص ص ٢-٣٤).

٥- الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، عيسى البابي الحلبي (مقدمة ١٩٥٨م) ج١ص٣٩٦.

٦- الجوهري: الصحاح، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٣، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٨٤م، ج٦ ص٢١٧٤، وانظر: ابن منظور: لسان العرب، بيروت: دار صادر، ج١٣ص٣١٤.

٧- الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ط٤، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٩م، ج١ ص٤٦٢-٤٦٣. وانظر: مجمع الأمثال، ج١ص٣٩٦.

٨- انظر على سبيل المثال: ابن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ج٨ ص ٤٢٤-٤٣٤، والهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٨٢م ج٩ص٢٦١، وابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، القاهرة، دار الشعب ١٩٧٠م، وابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس وآخرين، دمشق، دار الفكر ١٩٨٤م، ج٥ ص ٦٤-٧٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤط وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨١م، ج٢ ص٣٠٤-٣١١، وابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار الكتب العلمية (طبعة مصورة) ج٨ ص٢٤٣-٢٤٤، وانظر أيضا: جحا ونوادره ص ٨-٩، ٧٦.

٩-١٥- برميل العسل (ص ص: ٢-٣٦).

١٦-٢٠- كامل الكيلاني: سارق الحمير وقصص أخرى، تونس، الشركة التونسية (مقدمة ١٩٤٤م) ص ص٢٢-٤١.

٢٠- جحا والصرة (إعداد وإشراف مركز الموارد التربوية: الإنترناشونال كولدج) بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٧م، ص٣.

٢١- البخاري: صحيح البخاري، القاهرة، مطابع الشعب، باب المظالم، لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ج٣ ص١٦٨.

٢٢-٢٥- جحا والصرة (ص ص٣-٩).

٢٦-٢٩- أحمد سويلم: جحا والبخيل، القاهرة، مؤسسة الخليج العربي ١٩٨٧م، ص ص٧-١٨.

٣٠-٤١- أحمد جبر: جحا والسمكة الكبيرة، عَمّان، دار الكرمل، ١٩٨٨م (ص ص٥-٢٦).

٤٢-٤٥- جحا وابنه والحمار، القاهرة: المركز العربي الحديث (ص ص: ١١-١٦).

٤٥- عبدالتواب يوسف: جحا.. والحذاء الهارب، مسرحية فكاهية للأطفال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م، ص ١٥. وانظر: موضوع بدعة السبحة، محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، ط٥، بيروت، المكتب الإسلامي ١٩٨٥م، ج١ص١١٠-١١٧، وج٣ ص٤٧-٤٩.

٤٦-٥٣- جحا.. والحذاء الهارب (ص ص ١١-٢٣).

٥٤- أبو داود: صحيح سنن أبي داود، صحح أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٩م، كتاب الجهاد، باب النهي عن لعن البهيمة، ج٢ ص ٤٨٧. وانظر: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ط٣، بيروت، المكتب الإسلامي ١٩٨٣م، ج١ص٢٨-٣٨.

٥٥- جحا.. والحذاء الهارب ص١٧.

٥٦- عبدالتواب يوسف: جحا.. يطعم ثيابه، تمثيلية فكاهية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م (ص ص٢-٢٠).

٦٢-٧٥- عبدالتواب يوسف: جحا.. صانع الحمير، مسرحيات للأطفال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م (ص ص١٢-٢٦).

٧٦- عماد زكي: مسرحية حكايات جحا العربي، عَمّان، دار الفردوس، ١٩٩٢م (ص ص٤ - ٢٢).

٧٧- المرجع نفسه ص٢٢.

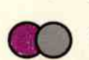
٧٨- المرجع نفسه ص٦

٧٩- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م، ص٨٢٢، وانظر: محمد العدناني: معجم الأخطاء الشائعة، ط٢، بيروت، مكتبة لبنان ١٩٨٠م، ص٤٠.

٨٠-٨٤- مسرحية حكايات جحا العربي (ص ص١٢-١٩).

٨٥- ابن ماجه: صحيح سنن ابن ماجه (تحقيق) محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٦م، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ج١ ص ٤٣.

٨٦-٩٦- مسرحية حكايات جحا العربي (ص ص١٨-٢٠).



القيلولة والقيّال

د. صلاح يحياوي

قال يقيل قيلاً وقائلةً وقيلولةً: نام، واستراح في نصف النهار، فهو قائل والجمع قُيَّل وقُيّال. فالقيلولة هي نومة نصف النهار والاستراحة فيه وإن لم تكن نومًا.

ليست القيلولة إشارة بسيطة إلى الكسل، ولاترتبط بالطعام الكثير؛ فقد بينت الدراسات حول الإيقاعات الأحيائية (البيولوجية) للنعاس والسهر أن الجسم البشري مستعد دائمًا إلى معاناة هذه الأدوار من الغفوة في الساعات الأولى لما بعد الظهر.

لقد تحقق البروفسور سكوت كمبل SCOTT CAMPBELL من معهد الفيزيولوجيا في بوسطن في الولايات المتحدة، كما تحقق الباحثون في النوم في معهد «ماكس بلانك» في ميونيخ في ألمانيا عام ١٩٨٦م من أن الجسم بحاجة إلى نوم القيلولة، وبرهنوا على أن القيلولة مرتبطة بأدوار أحيائية وبجداول مواعيد العمل.

تبدأ أكثر اللحظات المؤاتية للقيلولة بعد مدة تتراوح بين ثماني ساعات واثنتي عشرة ساعة من الاستيقاظ من النوم الليلي؛ وبذلك فإن كل من يستلقي في فراشه الساعة الثانية عشرة ليلاً ويستيقظ الساعة السابعة صباحًا ينتابه النعاس نحو الساعة الرابعة بعد الظهر.

وقد برهن الباحثون على أن للنوم بعد الطعام خاصيات علاجية ممتازة، فهو - بالإضافة إلى أنه يحسّن الهضم - يفيد في الوقاية من الجلطة. إن نوم نصف ساعة كل يوم يُنقص من احتمالات معاناة الأمراض القلبية بمقدار ٣٠٪، ويعود ذلك إلى أن الاستهلاك القلبي والتوتر الشرياني ينقصان بفضل هذا الدور من الراحة.

وقد عُدَّت القيلولة في السنوات الأخيرة بمنزلة ترياق ضد مرض المجتمعات المتقدمة؛ ألا وهو الكَرْب أو الوطأة STRESS، ووسيلة ناجعة للحفاظ على التوازن الطبيعي الفيزيولوجي، وبخاصة عند أولئك الذين عليهم أن يتحملوا يوم عمل شاق مستمر.

وقد اتفقت آراء العلميين على الإشارة إلى أن الدماغ يعمل بعد القيلولة على نحو أجود، وتزداد سرعة البديهة، وتنمو المنعكسات، وتتحسن حالة النفس، ويتألق حسن الخلق.

يقول الدكتور بروغتون BROUGTHON أستاذ العصبية في جامعة أوتاوا في كندا: «تضيع فوائد القيلولة إذا تجاوزت هذه القيلولة حدها. ويجب كي تكون ذات تأثيرات صحية، وكيلا تعكر النوم الليلي ألا تتجاوز ما يتراوح بين ٣٠ و ٩٠ دقيقة».

هذا ويعد المتقدمون في العمر ممن تجاوزوا الخامسة والستين من أكثر الناس هواية للقيلولة. إن ٥٠٪ من المتقاعدين (المحالين إلى المعاش) ينامون أكثر من ثماني ساعات يوميًا بفضل هذه القيلولة.

لقد غدت القيلولة شيئًا مفيدًا ومنتجًا، والمؤمنون بهذه الممارسة ليسوا كسالى، لا؛ بل توصي المجتمعات المحبة للعمل - كالمجتمع الياباني - بممارسة القيلولة في يوم العمل لزيادة الإنتاج.

وبالفعل فإن بعض الشركات اليابانية والأوربية قد هيأت مقيلات (المقيل هو موضع القيلولة) خاصة من أجل هذه الممارسة عندما اكتشفت أن الإنتاجية تتحسن بنسبة ٢٠٪ بعد هذه الغفوة.

ومع ذلك فإن العدو الأكبر للقيلولة هو التقدم، إذ كلما ازداد التصنيع في بلد ما ازداد القضاء على هذه الممارسة نتيجة لإعادة توزيع جدول مواعيد العمل بعد الظهر.

لقد كان رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرتشل من القُيَّل أو القُيّال الذين ساهموا في هدم المفهوم المنتقص من قدر القيلولة عندما اعترف، والحرب العالمية الثانية في أوجها، بأنه ينام القيلولة دائمًا لتجديد قواه.

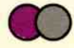
وكان الفنان الرسام سلفادور دالي لايواظب على أخذ قسط من القيلولة فحسب؛ بل كان يفرض على مَدْعوية الموجودين في داره بأن يذهبوا للاستراحة بعد طعام الغداء. غير أن قيلولة الفنان العبقري كانت قيلولة قصيرة جدًا، ذلك أنه ما إن ينتهي من ارتشاف فنجان القهوة حتى يغط في النوم والملعقة في يده، وما إن تسقط الملعقة على طبق فنجان القهوة حتى يوقظه ضجيج السقوط فيتبين بأنه قد نال قسطًا كافيًا من الراحة.

ومن مشاهير القُيَّال في العالم نابليون بونابرت، وتوماس أديسون، وفيكتور هوغو، وبنيامين فرانكلين. أما من مشاهير القيال المعاصرين فرئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت ثاتشر، ورئيس الولايات المتحدة السابق جورج بوش، ورئيس الجمهورية الفرنسية جاك شيراك.

ويقول الكاتب برومو كومبي COMBY بأن القيلولة هي من النشاطات الأكثر ديمقراطية لأنه يتساوى فيها الجميع من الملوك حتى المزارعين.

يقضي الإنسان ست سنوات من عمره حالمًا، فإذا أضفنا إلى ذلك جميع الساعات التي نقضيها نيامًا، فإننا نتبين أننا نكرس ثلث حياتنا للنوم.

لكننا لسنا جميعًا قادرين على النوم نومًا عميقًا لايعتوره هم أو قلق؛ بل إن ثلث الناس يعانون من اضطرابات كثيرة في أثناء النوم. وقد تبين في المؤتمر الوطني لعلم النفس الأحيائي الذي عقد في «نافارّا» في إسبانيا في آب/أغسطس ١٩٩٢م أن ستًا من كل مئة امرأة، وثلاثة من كل مئة رجل يلجؤون باستمرار إلى المنومات كي يناموا.



الوقاية من الجريمة في الإسلام (١)

د. تماضر حسون

تدفع المجتمعات الإنسانية اليوم ثمنًا باهظًا من أجل مكافحة الجريمة، وإذا كان في الإمكان تقدير الخسائر المادية التي تنجم عن الجريمة، فإنه من المتعذر أن نثمن الأضرار الاجتماعية والنفسية والأخلاقية التي تخلفها وراءها. إن الذعر والخوف والرعب الذي تزرعه الجريمة في المجتمع المنتشرة فيه يسرق منه الأمن والاستقرار ويخطف منه الفرحة والبسمة من وجوه أفراده وشفاههم، ويعمل على تدمير بنيته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية.

لقد شهد هذا القرن تطورًا تقنيا ماديا سريعا فجًا وغير مخطط له، وبدأت المجتمعات - بنظمها الاجتماعية والثقافية - تجري لاهثة للحاق بهذا التطور المادي على حساب العلاقات الإنسانية والوجدانية وحتى القيمية والأخلاقية. ومع مضي الوقت اتسعت الفجوة بين المجالين، وسحق تقدم الجانب المادي في حياة الإنسان والمجتمع العنصر الإنساني والاجتماعي والأخلاقي، ومن ثم انعكس هذا التخلف على حياة الفرد، وولَّد لديه شعورًا مستديما بالقلق وعدم الاستقرار والخوف الدائم من الغد، ونتج عن ذلك عدم الثقة بالنظام والقانون، وظهر التحدي المنظم وغير المنظم للسلطة في شتى الأشكال والصور من ثورات وحروب وقلاقل وخروج عن القانون في شتى أشكاله، وعلى رأس هذا كله الجريمة والانحراف.

إن الهدف الأساس لمجتمعات العالم دون استثناء أن تعيش آمنة حرة من الجرائم والانحرافات، التي أصبحت خطرًا يهدم المجتمعات ويسرق أمن الإنسان وإنسانيته، ولقد جاء عن السيد (دي جايزو) رئيس لجنة الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة سابقا قوله: «قد يكون من العسير أن نعدد أسباب الجريمة في العالم، والواقع أن هناك تعقيدات وعوامل متشابكة تساعد على زيادة الجريمة. إن هذه التعقيدات تؤدي إلى الوصول إلى شيء مهم جدًا، هو أن ضياع الإيمان هو السبب الأساس في زيادة الجريمة في العالم كله».

لقد نظمت الشريعة الإسلامية السلوك الإنساني، ووضعت له قواعد وضوابط ورسمت له حدودًا في معاملاته ينبغي ألا يتعداها في مختلف الأمور وأنواع التعامل لتنتظم شؤون الإنسان والمجتمع.

فالإسلام ليس عقيدة أو عبادة روحانية فحسب، يعزل أتباعه عن الحياة وحركتها. فإلى جانب نظام العبادة الذي شرع الله فيه التكاليف العبادية المختلفة من صلاة وصيام وحج وزكاة، هناك النظام الاجتماعي الذي يشمل نظام الأسرة من زواج وطلاق وحضانة ونفقة ونسب وميراث. وهناك أيضا النظام الاقتصادي ونظام المعاملات التي تحكم العلاقات الاقتصادية المتنوعة. وهناك أيضا النظام السياسي وحكم الشورى، وطريقة اختيار الحاكم، وحقوق وواجبات المواطنين والحكام وحدود وسلطات الرئيس..إلخ. كما رسم الإسلام رسمًا مبدعًا النظام القضائي والتشريعي والتشريعات والقوانين القائمة على العدل والمساواة والحرية والإخاء. لقد انطلق التشريع الإسلامي من الآية الكريمة ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ (الإسراء: ٧٠)، وتكريم الإسلام للإنسان يعني تحقيق الأمن والسعادة له، ورفع الظلم والقهر عنه بغض النظر عن جنسه وعرقه ولونه وموطنه. ولاريب في ذلك فقد جعله الله خليفته في الأرض، جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة: ٣٠). ولكي يكفل الإسلام أمن وسعادة الفرد والمجتمع فقد وضع نظامًا جنائيًا متمثلا في إقامة الحدود الشرعية لبعض الجرائم الخطيرة، ومن شأن هذه الحدود أن تستأصل الجريمة أو تضيق الخناق عليها إلى أقصى حد ممكن. فأهم مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ الضرورات اللازمة للناس في حياتهم والتي ترجع إلى خمس، هي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

وقد انتهج الإسلام أسلوبين رئيسين للحفاظ على هذه الضرورات وضمان استمرارها؛ الأول وقائي، والثاني علاجي، وسنكمل الحديث عنهما إن شاء الله.

قراقوش والوجه الضائع

إلياس قطريب

قراقوش، تلك الشخصية التي يضرب بها المثل على الإنسان الذي يتصف بالظلم والجبروت والسفه والتخبط في إصدار الأحكام، والأوامر الشاذة المضحكة. هذه الشخصية ما قصتها؟ وما نصيبها من الحقيقة والواقع؟ ثم ما مدى صحة الحكايات التي تروى عنها؟

تلك أسئلة نسعى في هذا البحث إلى محاولة الإجابة عنها، وإلى تبيان حقيقة هذا الرجل، موضحين الأسباب التي جعلت منه - في نظر الناس - رجلاً جائراً متسلطاً سفيهاً، بحيث أصبحت هذه الصفات هي الصفات المعروفة عنه، والمستقرة في أذهان الناس على مر العصور.

قراقوش في التاريخ

علينا - في البداية - أن نتعرف شخصية قراقوش كما جاءت في كتب التاريخ. ورغم قلة المصادر التاريخية التي تحدثت عنه، إلا أننا نستطيع أن نتبين ملامح هذه الشخصية بشكل عام.

يستدل من اسمه أنه لم يكن عربياً؛ فقراقوش لفظ تركي مؤلف من (قره) بمعنى أسود و(قوش) بمعنى نسر، فكلمة قراقوش تعني النسر الأسود. ويقول ابن خلكان: «قراقوش، بفتح القاف والراء، وبعد الألف قاف ثانية، ثم واو، بعدها شين معجمة، وهو لفظ تركي تفسيره بالعربي العقاب، الطائر المعروف، وبه سمي الإنسان»(١).

ولد قراقوش في قرية من قرى آسيا الصغرى، وكان مملوكاً لرجل من رجال هذه القرية، وقد استطاع الفرار والتنقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى بلاد الشام، وكان يحكمها يومذاك الملك عماد الدين بن زنكي، وتوصل بذكائه إلى معرفة القائد أسد الدين شيركوه الذي توسم فيه الشجاعة والنجابة، فقربه إليه، وأخذ يدربه على أعمال الفروسية وفنون القتال، وفي دمشق تسمى باسم بهاء الدين بن عبد الله الأسدي.

وظل قراقوش يرتقي في سلم الجيش حتى وصل إلى مرتبة الإمارة، وشهد انهيار الدولة الفاطمية، وقيام الدولة الأيوبية، وصار صديقاً لصلاح الدين الأيوبي وقائدا عنده، ويبدو أنه كان موضع ثقته، فعندما استقل صلاح الدين بمصر عينه نائبا عنه فيها، وفوض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه. وعندما كان قراقوش واليا على عكا، هاجمها الإفرنج واستطاعوا الاستيلاء عليها، وأخذوه أسيراً، فافتكه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار(٢).

وكانت وفاته في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وخمسمئة بالقاهرة. ودفن في تربته المعروفة به بسفح المقطم(٣).

أعماله

وتذكر كتب التاريخ بعض الأعمال التي قام بها هذا الأمير، والتي تبرهن على شجاعته وحكمته وبراعته في الأمور السياسية والحربية، فمن ذلك مثلاً حراسته للقصر الفاطمي، والمحافظة على ممتلكاته من النهب والضياع بعد قضاء صلاح الدين على الحكم الفاطمي، ويذكر ابن تغري بردي أن قراقوش بنى قلعة الجبل ثم قلعة المقس ثم سور القاهرة.(٤)

ويقول عنه ابن خلكان: «وكان رجلاً مسعوداً، وصاحب همة عالية، وهو الذي بني السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وعَمَّرَ بالمقس رباطا، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، وله وقف كثير لا يعرف مصرفه، وكان حسن المقاصد، جميل النية»(٥).

كما استطاع أن يحمي عرش العزيز بن صلاح الدين عندما ناب عنه في حكم مصر، وقضى على الفتن التي حاولت زعزعة الحكم الأيوبي، وعندما مات العزيز أوصى بالملك من بعده لابنه (المنصور) وكان صبياً في التاسعة من عمره، فأوصى العزيز أن يكون قراقوش وصياً على عرشه، فقام بهذه المهمة خير قيام.

من هذا الاستعراض السريع لسيرة قراقوش تتوضح لنا جوانب شخصيته، ولعل من أبرزها طموحه ورغبته في حياة مضطرمة بالمغامرة والكفاح، وهذا ما يتلمسه المرء في رفضه لحياة العبودية عندما كان مملوكاً لرجل من رجال قريته، مما حدا به إلى الهرب على ما في ذلك من خطر على حياته، ثم تنقله بين البلدان حتى حطّت به الرحال في بلاد الشام، فوجد فيها المكان المناسب له، كما قاده طموحه إلى الانخراط في الجيش، والتدرب على فنون

الفروسية والقتال، والارتقاء في المناصب العسكرية حتى وصل إلى مرتبة الإمارة، وهنا يتجلى جانب آخر من جوانب شخصيته، هو الشجاعة، وهذا ما تشهد عليه المهمات التي كانت توكل إليه من قبل صلاح الدين.

فقد ذكر ابن تغري بردي أن صلاح الدين بعث «الخادم بهاء الدين قراقوش إلى اليمن، فتوجه وقبض على سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ»(٦).

كما عرف عنه الوفاء والإخلاص، اذ ظل مخلصا للعرش الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين، وقضى على الفتن التي حاولت زعزعة هذا الحكم.

وهكذا تتجلى لنا شخصية قراقوش، وفيها يبدو قائدا توافرت فيه كل الصفات التي يجب توافرها في القائد الناجح كالشجاعة والحنكة والذكاء وسياسة الأمور.

وهنا نعود إلى طرح سؤالنا الذي سقناه في بداية حديثنا عن الأسباب التي كانت وراء تشويه حقيقة هذا الرجل، وتغيير ملامحها وصفاتها، بحيث غدت على النقيض مما هي عليه في الواقع.

وقد يعجب المرء ويستغرب حين يعلم أن وراء ذلك رجلاً أديباً دفعه بغضه وحقده على قراقوش بأن سَخَّرَ أدبه لتشويه شخصيته.

واسم هذا الأديب ابن مماتي ـ بتشديد الميم الثانية ـ وقد جاء في ترجمته: «أسعد بن الخطير بن مهذب بن زكريا بن مماتي أحد الكتاب في الديوان الفاضلي، ذو الفضل الجلي، والشعر العلي، والنظم السوي»(٧).

كانت ولادته في سنة (٥٤٤هـ-١١٤٩م)، ووفاته في سنة (٦٠٦هـ-١٢٠٩م). وكان ناظرا للدواوين المصرية، وقد اشتهر في زمانه بالأدب، وأصبح من كبار الأدباء في مصر، وله مصنفات وتآليف عديدة في الأدب والفقه والسيرة والتراجم الإسلامية المختلفة.

وسنقف عند كتابه (الفاشوش في حكم قراقوش)، الذي كان السبب في تشويه معالم شخصية قراقوش، ولكن قبل ذلك نشير إلى أن هذا الكتاب لم يكن الكتاب الوحيد الذي ألفه ابن مماتي للتشهير بوزير أو أمير ممن كان يحقد عليهم، ويريد أن يشفي نفسه بالانتقام منهم، فقد ألف كتابا أخر في النيل من صديق له اسمه (علم الدين بن الحجاج) كان يعمل معه بديوان الجيش، وفي هذا دليل على طبيعة هذا الرجل عندما يحقد على شخص، كيف يسخر أدبه للنيل منه، والحط من قدره، وتشويه صورته.

وكلمة الفاشوش الواردة في عنوان الكتاب مشتقة من الفعل فشفش، يقال فشفش الرجل إذا ضعف عقله وأفرط في الكذب والادعاء، والفشوش الأحمق. وعنوان الكتاب يوحي بمضمونه؛ إذ يبرز حماقات قراقوش في الحكم من خلال إيراد حكايات وقصص تتعلق بتلك الممارسات والأعمال المضحكة التي كان يقوم بها قراقوش، وسياسته الغريبة في إصدار الأحكام الجائرة والأوامر الشاذة. وإذا بقارئ الكتاب أمام شخصية هي أبعد من العقل والمنطق في تصرفاتها وأقوالها وتعاملها مع الأخرين. وقد جاء في مقدمة الكتاب:

«إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش، محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، ولا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، النكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتاط اشتياط الشيطان، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان... صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين»(٨).

والمقدمة تنم عن مبلغ الحقد الذي يكنه ابن مماتي على قراقوش، وتفصح عن دوافعه لتأليف هذا الكتاب.

يضم الكتاب ثلاثاً وعشرين حكاية، بعد إسقاط طائفة من حكايات اشتملت على الفحش في اللفظ، والإسفاف في المعنى، كما أشار إلى ذلك ناشر الكتاب.

وقد لجأ ابن مماتي في تأليف هذه الحكايات إلى أسلوب السخرية والمبالغة واستخدام الألفاظ العامية التي تستدعي الإضحاك، وتجلب المتعة إلى القارئ، وكأنه أدرك أن هذا الأسلوب أقدر من غيره على تحقيق غرضه، ولا بأس من إيراد بعض هذه الحكايات:

الحكاية الرابعة:

قيل إن قراقوش سابق رجلاً بفرس له، فسبقه الرجل بفرسه، فحلف قراقوش أنه لا يعلف فرسه ثلاثة أيام، فقال له السابق: يا مولاي أخشى أن يموت الفرس، فقال له قراقوش: احلف لي أنك إذا علفته يا هذا لا تعلمه أنني دريت بذلك. فحلف له الرجل، وأعطى العلف للفرس.

الحكاية الرابعة عشرة:

حُكي عن قراقوش أنه نشر قميصه، فوقع القميص من على الحبل، فلما بلغه ذلك تصدق بألف درهم، وقال: لو كنت لابساً هذا القميص وقت وقوعه لانكسرت.

الحكاية التاسعة عشرة:

وحُكي أن قراقوش كان له (باز) يعتزُّ به ويعنى بتربيته، فطار الباز يوما من عنده، وبلغ ذلك الأمير قراقوش، فقال: اقفلوا باب القصر، واقفلوا باب زويلة، حتى لا يجد الباز له موضعاً يطير منه فيعود إليّ.

أيعقل لأحد ـ بعد أن عرف شخصية قراقوش، وبانت له حقيقة هذا الرجل ـ أن يصدق مثل هذه الحكايات، أو يتوهم أنها صحيحة.

لا شك أن المرء سيرى أنها مجرد حكايات مختلقة وموضوعة، وأن ما نسبه ابن مماتي إلى قراقوش من أعمال وأحكام غريبة هو محض افتراء وادعاء، لا أساس له من الصحة والواقع، ولا يمكن أن تصدر مثل هذه الأعمال عن رجل عرف بالحنكة والذكاء، واستطاع بهذه الخصال أن يصير أميرا وحاكما بعد أن كان عبدا وخادما، وقد شك القدماء في صحة ما نسب إليه.

يقول ابن خلكان: «والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته، حتى إن الأسعد بن مماتي المقدم ذكره له جزء لطيف سماه

(الفاشوش في حكم قراقوش) وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة»(٩). ويقول العماد الأصفهاني، وهو يتحدث عن وفيات السنة التي توفي فيها قراقوش: «وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء وشيوخ الدولة الكبراء. أمير الأسدية ومقدمها، وكريمها ومكرمها، ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في عظم مآثره الفحول، وله في الفتوحات والغزوات مواقف معروفة ومقامات موصوفة»(١٠).

إذا كان ابن مماتي قد حقق مأربه، وشفى غليله من قراقوش بتأليف هذا الكتاب، وإذا كان الناس قد تداولوا هذه الحكايات جيلاً بعد جيل، وربما أضافوا إليها حكايات أخرى، مما أدى إلى تشويه صورة قراقوش، وصار مضرب المثل على الحمق والظلم والتندر، فإن كتب التاريخ تبقى شاهدا على أن قراقوش كان ذا شخصية عظيمة، وقائدا ناجحا استحق إعجاب صلاح الدين وثقته.

الهوامش:

١- وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٥٥.
٢- وفيات الأعيان ص٢٥٤، والنجوم الزاهرة ص١٧٨.
٣- وفيات الأعيان ص٢٥٤-٢٥٥.
٤- ابن تغري بردي ص٥٤.
٥- وفيات الأعيان ص٢٥٤.
٦- النجوم الزاهرة ص٨٩.
٧- خريدة القصر ص١٠.
٨- الفاشوش في حكم قراقوش ص٧.
٩- وفيات الأعيان ص٢٥٤.
١٠- خريدة القصر.

المراجع:

١- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م.
٢- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمن، الجزء الثالث، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة.
٣- ابن مماتي: الفاشوش في حكم قراقوش، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت.
٤- العماد الأصفهاني: خريدة القصر ودمية العصر، قسم شعراء مصر، الجزء الأول، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

قصيدة:

ومضة الإيمان

شعر: د. حسن الأمراني

أين في الناس حبيب كحبيبي؟
نَفَس الصبح وأحلام الغروب
عَبَق الحلم وأشواقُ الرؤى
صبوة الشِّعر وأنّات الطيوب
ومضةُ الإيمان تسعى غَضَّةً
نظرة تَهتِك أسرار الغيوب
أبدًا لم يخطئ الظن وقد
شامَ فيك العزمَ يزهو كاللهيب
يشهَقُ الحرفُ وتهفو ريشةٌ
فيضوع الطِّيب في كل الدروب
أين في الناس حبيب كحبيبي؟



ألوان الخيل في التراث العربي والإسلامي

إعداد:
عبدالحميد حسانين حسن علي



الأبْرَشُ:

(واحد البُرش) وهو الذي فيه نُكت صغار تخالف سائر لونه. وهي برشاء. والمصدر: البَرَشُ والبُرْشة. وجاء في كتاب الخيل لأبي عبيدة: إذا اجتمع من شعره من كل واحد من اللونين نُكيتة صغيرة تخلص من اللون الآخر.

المُبرقَعُ:

ذكر في اللسان (برقع): أنه الفرس الذي أخذت غرته البيضاء جميع وجهه من غير أن تصيب العينين.

الأبْلق:

كل لون خالطه بياض، والبَلَقُ هُجنة في الخيل، وذكروا أن الأبلق: الفرس الذي فيه سواد وبياض والمحجَّل إلى الفخذين. يقال هو أبلق وهي بلقاء. وأكثر ما يستعمل فيه فعلاً؛ ابلاق وابلَقّ: بلقًا وبُلقةً.

البَهيمُ:

في اللسان (بهم): البهيم من الخيل: الذي لاشية فيه، الذكر والأنثى في ذلك سواء. وقيلَ البهم: الذي لايخالط لونه لون غيره.



الأجْأى:

لون من ألوان الخيل والإبل وهو الحمرة تضرب إلى السواد، وذكر الجوهري أنها لون من ألوان الإبل. يقال: فرس أجأى والأنثى: جأواء.

المُجبَّبُ:

الفرسُ الذي يَبْلُغ تحجيله إلى ركبتيه، وفي اللسان (جبب): وفرس مُجَبَّب: ارتفع البياض منه إلى الجُبَب فما فوق ذلك ما لم يبلغ الركبتين، وقيل هو الذي بلغ البياض منه ركبة اليد وعرقوب الرِّجل، أو ركبتى اليدين وعرقوبي الرجلين. وقال أبو عبيدة: إذا ارتفع البياض في القوائم إلى الجُبَب فما فوق ذلك ما لم يبلغ الركبتين والعرقوبين.

(الجبب جمع جبّة: ملتقى الوظيف في أعلى الحوشب. والحوشب: عظم في باطن الحافر. وقيلت معان أخرى قريبة مما ذكر).



المُحَجَّلُ:

في لسان العرب (حجل): أنه بياض يكون في قوائم الفرس على ألا يبلغ البياض ثلث الوظيف أو نصفه بعد أن يتجاوز الأرساغ. وذكر أبو عبيدة أنه إذا كان البياض في الأربع من قوائمه فهو (محجل الأربع)، وإذا كان التحجيل برجل واحدة فهو (أرْجَلُ).

المُحْلفَةُ:

هَو الكُمَيْتُ الأحمّ والأحوى حتى يُختلف في كمتته. وفي قاموس الألوان: أن المحلفة: يعني أنها خالصة اللون، وهو الكميت الأحمُّ والأحوى حتى يشك البصيران فيحلف هذا أنه كميت أحوى، ويحلف هذا أنه كميت أحَمُّ، وذكر قول الشاعر:

كميت غير مُحلفة ولكنْ
كلونِ الصِّرف عُلَّ به الأديم

الأحَمُّ:

من الخيل ما هو أخضر أحم، وهو أدنى في الخضرة إلى الدُهْمَه وأشد الخضرة سوادًا، غير أن أقرابه وبطنه وأذنيه مخضرة كما في قاموس الألوان، وروى قول الشاعر:

وأنا الأخضر من يعرفني
أخضر الجلدة من نسل العرب

والشاعر هنا يقصد بالخضرة السواد.



المُخَمَّرُ:

في لسان العرب: أن المخمَّر من الخيل (خمر) الأبيض الرأس وسائر لونه ما كان.



الدُّعْمِيُّ:

الفرس الذي في صدره بياض، أما إذا كان في خواصره فهو مُشكّل، وذكر ابن منظور (دعم): أنه الفرس الذي في لبَّته بياض، وقال نقلاً عن أبي عمرو: إذا كان في صدر الفرس بياض فهو أدعم، فإذا كان في خواصره فهو مُشكَّل.

الأدغمُ:

(والأنثى: دغماء). وفي لسان العرب، (دغم): أن الأدغم: الفرس الذي يضرب وجهه وجحافله إلى السواد مخالفًا للون سائر جسده، ويكون وجهه مما يلي جحافله أشدّ سوادًا من سائر جسده (الجحافل جمع: جَحْفَلة وهي لذوات الحافر كالشفة للإنسان).

وذكر غيره من أصحاب المعاجم مثل ذلك.

المُدنَّرُ:

في اللسان (دَنَر): فرس مدنَّر، فيه تدنرٌ وسوادٌ يخالطه شُهبة. ونقل عن أبي عبيدة أن المدنّر من الخيل الذي فيه نكت فوق البَرَش. وفي المحيط (دنر): نُكت فوق البرش تخالف سائر لونه.

الأدهَمُ:

في لسان العرب (دهم): أن الأدهم: هو الأسود من الخيل، وأن الدُّهمة من ألوان الإبل وهو الذي تشتد وُرقته (الوُرْقة: ما في لونه بياض إلى سواد) حتى يذهب البياض الذي فيه. وذكر أبو عبيدة أن هناك أدهم غيهب وهو الأشد سوادًا، وأدهم وجُوجِيّ دونه في السواد وهو صافي اللون، وأدهم أكهب الذي لم يشتد سواده. وقال عنترة:

يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئر في لبان الأدهم

وفي الحديث عن أبي قتادة الأنصاري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيْرُ الخيل الأدهم، الأقرحُ المحجَّلُ، الأرْثمُ، طلق اليد اليمنى، فإن لم يكن أدْهم فكُمَيْتُ على هذه الشية» (الأقرح: ما كان في جبهته قرحة وهي بياض يسير في الجبهة دون الغرة. والأرثم والرُّثم: ما كان فيه بياض في أنفه).



الأذْرأُ:

في لسان العرب (ذرأ): أنه الفرس الأرقش الأذنين، وفي محيط المحيط (ذرأ): أنه الذي في رأسه بياض، أو أرقش الأذنين، وسائره أسود.

المُذهَبُ:

في اللسان (ذهب): إذا علت حُمرته صفرة، والأنثى مُذْهبة، ويقال كميت مُذْهب للذي تعلو حمرته صُفرة، فإذا اشتدت حمرته، ولم تَعْلُه صفرة فهو المُدَمَّى.



الأرثَمُ:

في لسان العرب (رثم): أن الأرثم: هو ما كان فيه بياض في طرف أنفه، وقيل في جحفلته العليا، وقيل هو كل بياض قلّ أو كثر إذا أصاب الجحفلة العليا إلى أن يبلغ المَرْسَن، وقيل هو البياض في الأنف. وذكر أبو عبيدة مثل ذلك، وذكر قول الشاعر:

ونأت في الشمراخ رثمته
قدر الرواجب بينها رتبُ

وفي الحديث ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «خير الخيل الأدهم، الأقرح، المحجّل، الأرثم...» وقد مر في الأدهم.

الأرْجَلُ:

جاء في الصحاح (رجل): الأرجل من الخيل الذي في إحدى رجليه بياض، وذكر أبو عبيدة أنه إذا كان البياض في الرجلين فالفرس (محجّل الرجلين)، وإذا كان برجل واحدة، فهو (أرجل)، وذكر قول المرقش الأصغر:

أسيل نبيل ليس فيه مَعَابَة
كُمَيْتٌ كلون الصِّرف أرجَلُ أقرَحُ

وفي قاموس الألوان أنه الأبيض الظهر ولم يصل البياض إلى البطن ولا إلى العنق.



الأسْعَفُ:

ذكر الجوهري في صحاحه (سعف): أنه الأشيب الناصية، وناصية سعفاء وذلك مادام فيها لون مخالف للبياض، فإذا ابيضت كلها فهو الأصبغ، ونقل صاحب لسان العرب المعنى نفسه ونسبه إلى أبي عبيدة. وجاء في كتاب الخيل أيضا أنه إذا شاب الناصية بياض فهو أسعف مادام فيه شيء مخالف للبياض وذكر قول امرئ القيس:

وأركب في الرَّوع خيفانةً
كسا وجهها سَعَفٌ منتشر



الأشْدَخُ:

في لسان العرب (شدخ): أن الأشدخ هو ذو الشادخة، وهي الغرة إذا انتشرت وسالت سُفلاً فملأت الجبهة ولم تبلغ العينين، وذكر أبو عبيدة نحو ذلك، وجاء بقول الشاعر:

غُرَّتنا بالمجد شادخَةٌ
للناظرين كأنها البدرُ

الأشْعَلُ:

في لسان العرب (شعل): الشَّعَلُ والشُّعلَة: البياض في ذنب الفرس أو ناصيته في ناحية منها، وقد يكون في القذال وهو في الذنب أكثر.

الأشْقَرُ:

الشُقرة حمرة صافية في الخيل، وفي اللسان (شقر): حُمرة صافية يُحمَّر معها

السَّبيب والمعرفة والناصية والذنب. فإن اسودَّا ـ أي العرف والذنب ـ فهو الكُمَيْت (السَّبيب: شعر العُرف والناصية والذَنب، والعُرف: شعر عنق الفرس، والمَعْرَفة: موضع العُرف من الطير والخيل، والناصية: مقدم الرأس)، وذكر أبو عبيدة أن هناك الأشقر الأدْبس الذي اشتدت حمرة شقرته حتى علاها سواد، وناصيته وعُرفه وذنبه أقل سوادًا من لون شعر جلده، والغالب عليه حمرة. وأما الأشقر المدمّى، فالذي لون أعلى شقرته تعلوه صفرة كلون الكميت الأصفر، وذكر أيضًا أن هناك الأشقر الأفضح وهو الذي شقرته إلى البياض، وعُرفه وناصيته: البياض فيها أفشى من الحمرة، وهناك الأشقر الأقهب الذي شقرته كلها في جسده وعرفه وذنبه حمرة.

وفي الحديث ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنَّ يُمْنَ الخيلِ في شُقْرِها». والكُمَيْتُ أو الأشقر إذا خالط شقرته شعرة بيضاء فهو الصِّنابيُّ (اللسان: صنب).

الأشْهَبُ:

في اللسان (شهب): الشَّهَبُ والشُّهبَة: لون بياض يصدعه سواد في خلاله. وقيل: الشُّهبة البياض الذي غلب على السواد. وقد شَهُبَ شُهبةً واشهَبّ اشهابا واشهابّ اشهيبابًا فهو أشهب.



الأصْبَغ:

في لسان العرب (صبغ): أنَّ الصَّبَغَ في الفرس: أنْ تبيَضّ الثُّنّة كلها ولايتصل بياضها ببياض التحجيل، والصَّبَغُ أيضا أن يبيضَّ الذنبُ كله، والناصية كلها (الثنّة: الشعرات التي في مؤخّر رُسغ الدابة التي تكاد تبلغ الأرض، والجمع: الثُّنن). وذكر أبو عبيدة أنه إذا خلصت الناصية بيضاء كلها فهو أصبغ.

الأصْدأ:

في اللسان (صدأ): الصُّدأة: شُقرة تضرب إلى السواد الغالب، فالأصدأ هو الأسود المشرب حُمرة. والأنثى صَدآء.

الأصْفَرُ:

في لسان العرب (صفر): أن الفرس الأصفر هو الذي يسمى بالفارسية زَرْدَهْ، وذكر قول الأعشى:

تلك خيلي منه، وتلك ركابي
هُنَّ صُفْرٌ أولادها كالزَّبيب

وذكر قول الأصمعي: لايسمى أصفر حتى يصفرَّ ذنبه وعُرْفه. وذكر أبو عبيدة أن هناك أصفر أعفر وهو أصفر الجنبين والعنق، ووجهه أصفر وناصيته وعرفه وذنبه أسود فيه صهبة، والأصفر الفاقع الذي عمته صفرة خالصة.



الأطْحَلُ:

في اللسان (طحل): ابن سيده: الطُّحْلَة لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد. ويقال فرس أخضر أطحلُ للذي يعلو خضرته قليل صفرة. وذكر أبو عبيدة أن الأطحل الذي تعلوه في خضرته صفرة كلون الحنظل البالي.

المُطْرَّف:

في اللسان (طرف): وفرس مطرّف: خالف لون رأسه وذنبه سائر لونه. ونقل عن الجوهري: المطرَّف من الخيل هو الأبيض الرأس والذنب وسائره يخالف ذلك. وفي القاموس المحيط (طرف): أنه الأبيض الرأس والذَّنَب، أو أسودهما وسائره مخالف ذلك.



المُعَمَّمُ:

في لسان العرب (عمم): وفرس مُعَمّم: أبيض الهامة دون العنق، وقيل الخيل الذي ابيضَّت ناصيته كلها ثم انحدر البياض إلى منبت الناصية وما حول القونس (القونس: عظم ناتئ بين أذني الفرس) وهناك الأدرع المعمم، وهو الذي يكون بياضه في هامته دون عنقه.



المُغرَبُ:

في لسان العرب (غرب): أن المُغرب من الخيل: الذي تتسع غرته في وجهه حتى تجاوز عينية، وفي محيط المحيط (غرب): كل شيء أبيض، أو ما كلُّ شيء منه أبيض، أو ما ابيضَّ أشفارهُ من كل شيء. وذكر أبو عبيدة أنه ما ابيضَّت أشفاره.

الأغَرُّ:

الغُرَّة بياض في الجبهة، والأغرُّ من الخيل الذي غرته أكبر من الدرهم، قد وَسَطَت جبهته ولم تصب واحدة من العينين، ولم تَمِل على واحد من الخدّين، ولم تسل سُفلاً.. (اللسان:غرّ)

الأغْشَى:

من الخيل: الذي غَشيَتْ غُرَّتُهُ وجهه واتسعت، وقيل الأغشى من الخيل وغيرها ما ابيضَّ رأسه كله من بين جسده (اللسان: غشا).



الأقْرَحُ:

في لسان العرب (قرح): أن الأقرح هو ما كان في جبهته قُرحة، وهي الغُرة في وسط الجبهة، وقيل: كل بياض يكون في وجه الفرس ثم ينقطع قبل أن يبلغ المَرْسَن. وذكر الثعالبي أن الأقرح: هو الذي يكون البياض في جبهته قدر الدرهم. وذكر أبو عبيدة قول الشاعر:

ولها قرحةٌ إذا اختلط الليـ
ـل أضاءت جبينها كالشهاب



الأَقْنَفُ:

هو الأبيض القفا من الخيل، وفرس أقنف: أبيض القفا ولون سائره ما كان. والمصدر: القَنَف: (اللسان: قنف)



الأكْسَعُ:

في لسان العرب (كسع): أن الأكْسَعَ من الخيل: أن يكون البياض في طرف الثُّنَّة في الرِّجْل، والكُسْعَةُ: النُكْتَةُ البيضاء في جبهة الدابة وغيرها، وقيل في جنبها.

الكُمَيْتُ:

في لسان العرب (كمت): أنها حُمرة يدخلها قنوءٌ (سواد)؛ الذكر والأنثى سواء بغير هاء. وذكر قول الشاعر الكلحبة:

كُمَيْتٌ غيرُ مُحْلفة ولكن
كلونَ الصِّرْف عُلّ به الأديمُ

يعني أنها خالصة اللَون، والاسم: الكُمْتَة. والجمع: كُمْت.

وذكر أبو عبيدة أن منه أنواعًا كثيرة، فمنها: كميت أحْم، وكميت أضخم، وكميت مدمًّى، وكميت أحمر، وكميت أكلف. وقد قال امرؤ القيس وهو يصف فرسه بالكُمْتَة:

كُمَيْتٌ يَزِلُ اللبْد عن حال متنه
كما زلّت الصفواء بالمتَنَزِّل

ويعد هذا اللون من أحب ألوان الخيل عند العرب.



اللَّطيمُ:

ذكر ابن منظور (لطم): أن اللطيم من الخيل الذي يأخذ خديه بياض. وذكر أبو عبيدة أن اللطيم أعظم الغرر وأفشاها في الوجه، ولايكون لطيمًا حتى تصيب عينيه أو إحداهما أو خديه، فإذا أصابت العين أو الخد فهو لطيم، فشت الغرة على خيشومه أم لم تفش. والجمع: لُطُم، والأنثى: لطيم بغير هاء. ولا فعل له بهذا المعنى.

الألْمَظُ:

في اللسان (لمظ): أنّ اللمَظَ واللُمْظَة: بياض في جحفلة الفرس السُّفلى من غير الغُرَّة، وكذلك إن سالت غُرَّته حتى تدخل في فمه فيتلمظ بها. والفرس: ألمظ.

المُلمعُ:

في اللسان (لمع): يقال: ألمعت الفرسُ والأتان.. إذا أشرقت للحمل واسودّت حلماتها فهي ملمع.. ويقال ذلك لكل ذي حافر وللسباع أيضا. ونقل عن كتاب الخيل قوله: إذا أشرق ضرع الفرس للحمل قيل: ألمعت؛ واللُّمعة: السواد حول حلمة الثدى خلقة.

الأمْغرُ:

في اللسان (مغر): المُغَر والمُغْرَة: لون إلى الحمرة. والمَغْرة: طين أحمر يُصبغ به، وفرس أمغر: ليس بناصع الحُمرة وليست إلى الصفرة، ولون عُرفه وناصيته وأذنيه كلون الصُّهبة ليس فيها من البياض شيء، وقيل الأمغر نحو من الأشقر، وشقرته تعلوها مُغْرَة أي كدرة. وَعَدَّ أبو عبيدة هذا اللون من الأشقر، فذكر الأشقر الأدبس، والأشقر المدمى، والأشقر الأقهب، والأشقر الأمغر.



النَّطيحُ:

في اللسان (نطح): فرس نطيح: إذا طالت غُرّتُه حتى تسيل تحت إحدى أُذنيه وهو يُتشاءم به. وقيل النطيح الخيل الذي وسط جبهته دائرتان، وان كانت واحدة، فهي اللطمة وهو اللطيم.

الإنْعَالُ:

في الصحاح واللسان (نعل): أن الإنعالَ في اليد أو الرجل أو كليهما من الفرس هو البياض في مآخير أرْساغ رجليه أو يديه ولم يستدر وهو أقل وَضَح القوائم، ويسمى الإنعال، مادام البياض في مؤخر الرسغ مما يلي الحافر.

الأنْمَرُ:

في لسان العرب (نمر): أنه الذي فيه نكتة بيضاء وأخرى سوداء ؛ والأنثى: نمراء. وقيل الذي تكون فيه بقعة بيضاء وأخرى من أي لون كان، وهو على شبه النمر.



الوَرْدُ:

هو لون للفرس بين الكُمَيْت والأشقر، وفي لسان العرب (ورد): قول ابن سيده: الوَرْد لون أحمر يضرب إلى صفرة حسنة في كل شيء. وهناك الورد الأغبس وهو الذي تكون كمتته بين البياض والسواد، وهو الذي تدعوه الأعاجم السَّمَنْدُ.

المراجع:

١ـ الإفصاح في فقه اللغة، حسين يوسف موسى، عبدالفتاح الصعيدي، ط٢، دمشق: دار الفكر العربي.

٢ـ سنن ابن ماجة، طبعة محمد مصطفى الأعظمي، الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٣ـ الصِّحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٤ـ فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، بيروت: دار الكتب العلمية.

٥ـ قاموس الألوان عند العرب، د. عبدالحميد إبراهيم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

٦ـ القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٧ـ كتاب الخيل، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، حيدر آباد الدكن (الهند): مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

٨ـ لسان العرب، ابن منظور، بيروت: دار صادر.

٩ـ محيط المحيط، بطرس البستاني، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٧م.

١٠ـ مسند الإمام أحمد، طبعة شعيب الأرناؤط، القاهرة: مؤسسة قرطبة.

١١ـ وصف الخيل في الشعر الجاهلي، كامل سلامة الدقس، الكويت: دار الكتب الثقافية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

أبها.. عروس الفجر

شعر: محمد سعد دياب

كم تيّمتني.. واستهام وريدُ
وسبى الفؤادَ بهاؤها الممدودُ

أبها.. عروسُ الفجر.. تلك المُنتهى
في الرائعاتِ.. فكلُّها تغريدُ

عَبَقُ الخُزامى يستريحُ بكفّها
وعلى الجبالِ الزاهياتِ وعودُ

مثلَ الأماني البيض هوَّمت الذُرى
وأضاءَ في رملِ الضِّفافِ وجودُ

الرابياتُ شربْنَ من بَوحِ النَّدى
وَجْدًا.. وأوْرَقَ في الغصون نشيدُ

يا وَجْهَها القمريَّ أشرقَ بالمنى
فصباحُه فألٌ يضيءُ.. وعيدُ

سكبَ الهَزارُ البِشْرَ شَدْوًا حالمًا
فإذا الأزاهرُ صَبْوةٌ وقصيدُ

وزهت مروجٌ بالصِّبا مفتونةٌ
تغدو الطيوبُ بساحِها وتعودُ

كالحلم هامستِ العنادلُ غَيْمَها
سافرنَ أنغامًا.. لها ترديدُ

العشبُ والريحانُ يشهقُ فتنةً
والكَرْمُ عَرَّش.. والزمانُ سعيدُ

يسري النسيمُ الحلوُ ريَّان الخُطى
يصفو كليل الوَصْلِ وهو يجودُ

مدَّ الأصيلُ ظلالَه نشوانةً
وانداحَ ألحانًا بها تجويدُ

سكبَ المسا ريَّاهُ في أفيائها
فاحَ الأريجُ البِكْرُ.. فاحَ العُودُ

أبها عروسُ الفجرِ تِيهًا ترتدي
ثوبَ التفرُّدِ وحدها.. وتُجيدُ

أنا كلما ناجيتُها في خلوة
أدمَنْتُ عينيها.. هما تنهيدُ

وجهٌ كَلَمْحِ الكوكبِ الدُّرِّيِّ مِنْ
خلف الحجابِ أطلَّ.. كيف الغيدُ؟

صورٌ مُنَغَّمَةٌ تتيهُ على الرؤى
وتهلُّ سِحْرًا.. ماله تَحْديدُ

هي جنةُ الفردوس.. تصرخ أعيني
وجوارحي.. هي شَهْدُها الموعودُ

يستيقظ العُمْرُ الجميل ببابها
ويعودُ نبضُ حنينِه المفقودُ

ويصيحُ في الشريان وَعْدٌ مُترَفٌ
تجتاحُ أوردتي القوافي الصِّيدُ

أبْهى من الطلِّ المُنضَّدِ بالشذى
أبْهَا.. كماءِ النبعِ وهو وَليدُ

كتبَ الهوى قاموسَه في عشقها
كلُّ المَدارِ فواصلٌ وورودُ

يا مهرجانَ الحسنِ.. يا فَرَحَ الضُّحى
هذا الرحيقُ رواؤه تغريدُ

تبقينَ يا عُرسَ القصائدِ روعةً
تزهو على هامِ السُّها.. وتزيدُ

قصة قصيرة:



للكاتب الإسباني: **بلاسكو إيبنز**
ترجمة: **د. صبري أحمد نصرة**

كنت أعيش في إحدى قرى إسبانيا التي أورثها العرب فضائل وتقاليد أصيلة.. كان في مطلعها: إكرام الضيف، ووفاء العهد، وحماية الضعيف، والدفاع عن الشرف. وكان أساس هذه الفضائل جميعها يكمن في تقديس الشرف. بيد أنني ـ بغتة ـ تبيَّنتُ يداً أثيمة تصيب ذلك الشرف، فتزعزع أركانه وتجعله ينهار أمام عيني.. وتلك هي المصيبة التي أصابتني.

كان ذلك في صباح يوم زفاف ابنتي، وكانت الدار في غمرة من الضجيج، حيث انهمك الخدم في الإعداد لحفل المساء. وفي وسط هذا الابتهاج.. كنت ـ وحدي ـ أقطر ألمًا، ذلك أن كل شيء قد انهار أمامي بغتة: أمنيتي، دنياي.. كل ذلك انهار الآن.. يوم ابتهاجي وسعادتي.. يوم زفاف ابنتي الوحيدة «دالوريس».

ابنتي! .. كلا.. إن دالوريس ليست ابنتي!.. لا شيء فيها يمت إليّ بصلة.. مع ذلك فقد كنت أحبها كابنة لي.. أشعر بحق أنها ابنة لي.. لقد ظللت أُعنى بتربيتها سبعة عشر عامًا، وكنت أشعر أنها جزء مني.. لكن يالفظاعة ما حدث! لكم أرجو أن أمحو عاري بارتكاب جريمة القتل! لقد واتتني هذه الفكرة فعلاً حين أصابتني الحقيقة الشنعاء.

حدث ذلك قبل قليل.. كانت «كارمن» زوجتي الجميلة في غرفتها تتخير الثياب والحلي التي ستتزين بها في حفل المساء، وما إن أعلن الخادم قدوم السيد «ألكساندرو» صديقي الحميم وصديق العائلة منذ عشرين عامًا، حتى هرولت زوجتي لملاقاته. وفي هذه الأثناء.. كنت قد غادرت غرفة ابنتي، ورحت لأخبر زوجتي بمقدم الحائكة حاملة ثوب الزفاف. وبينما كنت أدير بصري في الغرفة تراءت لي رسالة زرقاء، فلم أبال بها أول الأمر، ثم شرعت في الخروج، بيد أن شيئًا خفيًا وقويًا شدني نحو الرسالة الزرقاء، فانعطفت إليها وألقيت نظرة على العنوان.

كانت الرسالة خاصة بزوجتي، وعندئذ استبد بي الفضول، فبدأت أقرأ.. وكما يدوي صوت الرعد في سكون الليل ويليه البرق الذي يومض الظلام الدامس، راحت كلمات الرسالة المفجعة تدوي في رأسي وأذني وتومض ظلام الماضي الذي عشته. لقد تبينت يوم زفاف ابنتي أن زوجتي قد غدرت بي، وأن دالوريس لم تكن مني، بل ابنة لذلك الصديق الخائن الماكر ألكساندرو. لقد كنت أعد ذلك الدنيء أقرب أصدقاء الصبا إلى نفسي، وقد وثقت فيه كل الثقة، فتسلل إلى داري في السنة الأولى من زواجنا، وعرف كيف ينصب لزوجتي فخاخ الغواية في الوقت الذي كان يتظاهر أمامي بالشرف والوفاء.

لم يكن ـ إذ ذاك ـ يبدر منه أي مسلك شائن، ولم يدر بخلدي أن يخون عاداتنا ولايرعى حرمة الشرف التي نقدسها.. لقد سطر هذه الرسالة لزوجتي، ولم يمهلها ابتهاجها بزفاف ابنتها أن تخفي هذه الرسالة التي أوضحت لي الآن الأمر كله.

ما الذي يمكن أن أفعله؟.. لست أجرؤ على القتل.. ليس في مقدوري أن أخضب حفل الزفاف بالدم. إذن! هل أجاهر بعاري وليحدث مايحدث؟! أم أهجر زوجتي وأمنع استكمال هذا الزواج وأضيع مستقبل هذه الابنة المسكينة؟.. كيف يسمح لي قلبي أن أعاقبها بإثم غيرها؟.. إنني أحبها وهي ابنة لي في واقع الأمر.. لا.. لن أضحي بها.. سأتركها تتزوج الليلة وبعد ذلك أهجر أمها.. سأنبذ تلك المرأة الخائنة الماكرة.. وبهذا أكون قد انتقمت لشرفي.. إن السعادة سانحة فلن أتركها تمر.. إن الجاني في داري.. فلأضيق حوله الحصار.. ولأستخدم دالوريس وسيلة للثأر منه.

تمالكت نفسي وخرجت إلى الردهة، فإذا بزوجتي تدخل غرفة ابنتها وتغلق خلفها الباب.. ورأيت ألكساندرو يتحدث إلى دالوريس من خلف باب الغرفة ويستحثها على الخروج كيما يراها في ثوب الزفاف، ويطوق عنقها بهديته التي جاء بها. كان ألكساندرو يتوق إلى حديث الفتاة في لهفة، ويحادثها برقة بالغة وابتسامات ملأى بالحنان.

وبقيت هنيهة أرقبه وأنا أرتجف من الحنق، ثم تحاملت على نفسي وذهبت إليه مرحبًا. وبعد أن همست في أذنه بكلمة، جذبته من ذراعه ويممنا شطر البستان، وعندما أدركنا خميلته أوْمأتُ إليه أن يجلس على مقعد خشبي، ثم جلست في مواجهته.

لم أقو على الحديث، فَرُحْتُ ألملم قواي ووضعت يدي المرتجفة على

كتفه، وقلت وأنا أمعن النظر في وجهه:
- ألكساندرو.. أحقا تحب دالوريس؟
- أحب دالوريس!.. أهناك شك في ذلك؟.. إنك لم تحبها أكثر مني.
أنعمت النظر في ملامحه وقلت:
- إذن لِمَ تحاول أن تتعسها؟
- أنا!
وعندئذ أمسكت بذراعه وحدثته بحزم قائلاً:
- ألكساندرو، إنك ستقتل دالوريس.
وهب الرجل مرتعبًا وهو يقول:
- ماذا يعني هذا الكلام؟
- ستقتلها.. أجل.. أنت أبوها.. ستقتلها.
شردت عيناه من شدة الروع وحاول النهوض، فأمسكت به وأجبرته على الجلوس، ثم قلت وأنا أبدي له الرسالة الشنعاء:
- اقرأ.. اقرأ ما خطت يداك، إنك غدرت بي سنوات طويلة وأنا صديقك.. أليست دالوريس ابنة لك؟.. كيف خنت تقاليد عشيرتك ومرغت بالطين عقيدة الشرف التي ورثتها عن أجدادك؟.. هذه هي دالوريس ابنتك.. خذها.. خذها من الآن.. إن الزواج لن يتم.. لن تحمل دالوريس اسمي أبدًا.. لن تكون لها أية رابطة بي.. سوف أجاهر بالفضيحة أمام المدعوين.. سوف أنبذ زوجتي وأنكر الفتاة التي ظننتها ابنتي.. سوف أتركها هي وأمها لك ملطختين بالعار.. هل ترضى أن تضيع مستقبل ابنتك؟ أجبني عما ستفعله؟.
تهاوى ألكساندرو على مقعده وهو يتهدج قائلاً:
- ماذا تريدني أن أفعل؟
- أنت تعلم تقاليدنا، وتعلم عقوبة الزنا في قريتنا.. يحق لي أن أقتلك، لكنني لا أريد أن ألطخ يدي بدمائك.. إن من حقي أن أرسلك إلى أهل القرية لينتقموا منك بأن يجذبك القوي فيهم إلى جذع شجرة ثم يضربونك حتى الموت، وذلك هو عقاب الزاني..
لكنني لا أريد لك هذا.. أتفهم؟.. يجب أن تتذرع بالشجاعة، وأن تعثر على المنفذ الذي يخرجك، وأن تؤدي ما يوجبه عليك الشرف.
ووقف ألكساندرو وهو يصيح:
- إنني أفهمك تمامًا.. إنني أدرك ماتروم إليه.. لكنك مأفون وما هذا سوى وهم..
إنك تستطيع أن تجهر بالفضيحة إن شئت.. أما أنا، فإن أحدًا من سكان القرية لن يمسني بسوء، فأنا رجل ثري.. انظر.. من بنى هذا المستشفى؟.. من أقام هذه المدرسة؟ ألست أنا؟ إذن فإن أحدًا لن يصيبني بأذى.. سآخذ ابنتي وأسافر بها خارج البلاد، وستتزوج هناك برجل آخر وتنعم بالسعادة.
وعندئذ صرخت في وجهه:
- إذن لتبح بهذا لابنتك.. لتكن شجاعًا وتصارحها قبل أن أصارحها.. أسرع.. تقدم إلى قتلها أمام عينك.. سأستدعيها لك.

وأسرعت كالمأفون واتجهت نحو الردهة، وقلت صائحًا:
- دالوريس .. دالوريس
وبدت الفتاة في ثوبها الأبيض عذبة المحيا باسمة الفم، فخطوت إليها وأمسكتها من يدها إلى الخميلة، وبعد أن أومأت إلى ألكساندرو، قلت لها:
- إن صديقنا ألكساندرو يريد أن يفضي إليك بشيء.
وانتفض الرجل بعنف ونظر إلى ابنته شاردًا ولم يفض بشيء، ثم تقدم نحو الفتاة وحاول أن ينطق، وإذ ذاك زفر زفرة قوية وانسالت العبرات من عينيه، وبدلاً من أن يعلن الحقيقة الشنعاء ويذيع التعاسة والشقاء، تغلب عليه إحساس الحب، فوضع يده في جيبه وأخرجها ممسكة بعقد من اللؤلؤ النفيس، وراح يطوّق به عنق دالوريس ويطبع على جبهتها قبلة طويلة وهو يبكي.
وعند عودة الفتاة إلى الردهة منتشية وهي تظهر العقد، استدار ألكساندرو بوجهه وأمسك بذراعي قائلاً:
- اجلس.. امكث لحظة.. عليك أن تعيرني انتباهك قبل أن تصدر حكمك الأخير..
هل ظننت أن ضميري لم يوبخني.. هل تظن أنني عبثت بعقيدة الشرف.. لا.. هذه العقيدة حية في دمائي.. لقد كان ألم الضمير يخز جوانب نفسي منذ أن خنتك.. ولكي أرضي ضميري، فقد نبذت زوجتك وواصلت كفاحي لأجمع ثروة طائلة قد تنقذني.. وأنا الآن غدوت ثريًا.. لقد قررت أن أكفر عن ذنبي بكل ما أملك من مال، وعقدت العزم على أن أمنحك ثروتي كلها.. فإذا وافقت هذا فإنني أشكرك من أعماق قلبي.. وإن لم يوافقك، فلك ماتريد من أي عقاب آخر تراه يتلاءم وهول ما ارتكبت.
ألقيت عليه نظرة قاسية ثم قلت صارخًا:
- المال لايحمي الشرف.. ورغم أنني فقير؛ فلست أرضى أن أمرغ شرفي في وحلة المال فيتضاعف بذلك عاري.. لا.. لست بحاجة إلى أموالك.. أما دالوريس فسوف تتزوج الليلة.. وعشيقتك زوجتي لن أثأر منها رأفة بابنتها المسكينة، لكنني سأنبذها بعد أشهر.. إنني سألتزم الصمت على أن تقدم الإرضاء التام لشرفي.
وخفض ألكساندرو رأسه، ثم رفعه بأنفاس لاهثة وعينين زائغتين وهو يقول:
- لن أخون تقاليدنا.. امنحني اليوم فقط حتى أتدبر الأمر.. ثم حادثني صباح الغد في الفندق الذي أقيم فيه.
أنعمت النظر في وجهه ثم قلت:
- الأمر كما تريد.. أنا على يقين من أنك لن تفر.. إنني أثق فيك.
عض على شفتيه كيما يكتم صراخه المكبوت، ثم صاح:
- احرص على دالوريس واعتن بها.
في صبيحة اليوم التالي اتصلت هاتفيًا بالفندق، فرد عليَّ مديره قائلاً:
- يؤسفني إبلاغك أن السيد ألكساندرو قد انتحر قبل قليل، وذلك بأن شنق نفسه بحزام جلدي كان يحكم به وثاق حقائبه.



مجمع جديد للغة العربية ينضم إلى ركب المجامع العلمية

إنشاء «كرسي الأمير نايف للدراسات الإسلامية» في روسيا

مهرجان شعري عالمي بمناسبة مرور تسعة قرون على رحيل المعتمد بن عباد

صدور مجلات وصحف جديدة، وإقامة مهرجانات ثقافية ومسابقات أدبية

إعلان أسماء الفائزين بجوائز نوبل لعام ١٩٩٥م

السعودية

توصيات ندوة «ظاهرة الضعف اللغوي»

أنهت ندوة «ظاهرة الضعف اللغوي في التعليم الجامعي» أعمالها يوم الخميس ٢٥ من شهر جمادى الآخرة المنصرم بعد أن استمرت ثلاثة أيام (٢٣-٢٥ جمادى الآخرة ١٤١٦هـ)؛ حيث رفع معالي مدير الجامعة د. عبدالله بن يوسف الشبل الشكر إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز لموافقته على إقامة هذه الندوة، كما أعرب عن شكره لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز لرعايته الندوة، ولصاحب السمو الملكي الأمير سطام بن عبدالعزيز نائب أمير منطقة الرياض لتشريفه حفل الافتتاح.

وتلا د. محمد بن علي الصامل أمين عام الندوة التوصيات التي توصل إليها المشاركون، وأهم نقاط هذه التوصيات:

- ضرورة إصلاح مناهج تعليم اللغة العربية وطرق التدريس بها في جميع مراحل التعليم.
- أهمية التزام الأساتذة والطلاب اللغة الفصحى في المحاضرات والمناقشات، واجتناب التساهل اللغوي.
- إنشاء «جمعية سعودية للغة العربية» في المملكة تكون جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مقرًا لها.
- إقامة سلسلة من الندوات اللغوية المتخصصة في جامعات المملكة.
- التزام الجامعات تدريس العلوم جميعها باللغة العربية.
- استحداث مادة «تقويم» اللسان والقلم في التعليم الجامعي.
- تقويم البرامج التي تعد مدرسي اللغة العربية وتؤهلهم لتدريسها.
- دعوة وسائل الإعلام إلى التزام اللغة الفصحى، وتذكير الدوائر الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص بالتزام الفصحى في المراسلات والمكاتبات وفق التوجيهات الملكية في هذا الشأن. كما أقرت الندوة توصيات أخرى ترمي إلى تعاون الأسرة والمؤسسات التربوية والإعلامية في غرس محبة لغة القرآن في نفوس الناشئة.

ندوة البحث العلمي في الجامعات

ينظم مركز البحوث في كلية الآداب بجامعة الملك سعود في الرياض ندوة للقائمين على حركة البحث العلمي في الجامعات السعودية خلال يومي ٢٧، ٢٨ رجب الجاري.

ترمي الندوة إلى تنشيط حركة البحث العلمي في الجامعات السعودية من خلال مناقشة واقعها، وقضية التنسيق بين مراكز البحوث، ويصاحبها معرض للدراسات والبحوث العلمية التي نفذها أعضاء هيئة التدريس والباحثون في الجامعات السعودية يمتد إلى ٢٩ رجب الجاري.

مسابقة لقصص الأطفال

أعلن مكتب التربية العربي لدول الخليج عن مسابقة في كتابة قصص الأطفال للعاملين في مجال التربية والتعليم وطلاب الثانوية العامة الموهوبين.

اشترط المكتب أن تتسم القصص بأسلوب التشويق المناسب للأطفال من سن التاسعة إلى الثانية عشرة، مع مراعاة الحاجات النفسية والوجدانية التي يتميزون بها إلى جانب كتابة القصص باللغة العربية الفصحى المناسبة لهذه المرحلة العمرية، وألا يزيد عدد كلمات القصة عن ألفي كلمة. وتحددت نهاية شهر رجب الجاري موعدًا نهائيًا لاستقبال الأعمال المشاركة. وسوف يمنح الفائز الأول جائزة قدرها عشرة آلاف ريال، والثاني ثمانية آلاف، والثالث ستة آلاف.

جائزة خليجية للحميد

مُنح الباحث د. عبداللطيف بن محمد الحميد، أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية عن كتابه «البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني - البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى».

وقرر المكتب حجب جائزته للعام الماضي في مجالات التربية، واللغة العربية، والعلوم والتقنية.

كتب جديدة

مبادئ علم الاجتماع الجنائي، تأليف د. مساعد بن إبراهيم الحديثي.

تربية المعلم للقرن الحادي والعشرين، تأليف د. محمد أحمد مشوف، د. محمد مالك محمد سعيد.

صدر الكتابان السابقان عن مكتبة العبيكان في الرياض.

الحوار النافع بين أصحاب الشرائع، تأليف الشيخ عبدالرحمن حسن حبنَّكة، صدر ضمن سلسلة «دعوة الحق» عن إدارة الإعلام والثقافة برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

الحاشية العصرية على شرح شذور الذهب، تأليف د. عبدالكريم محمد الأسعد، صدر عن دار الشواف للنشر والتوزيع في الرياض.

مساقط الرمل، مجموعة قصصية لمحمد المنقري، صدرت عن دار البلاد للطباعة والنشر في جدة.

أساليب التنصير في البلاد الإسلامية، تأليف د. قاسم السمرائي.

كُنّاشة الرفاعي، تأليف عبدالعزيز الرفاعي، صدر ضمن سلسلة «من دفاتري».

صدر الكتابان السابقان عن دار الرفاعي في الرياض.

قصائد للوطن، ديوان للشاعر علي آل عمر عسيري.

شذا العبير: من تراجم علماء وأدباء ومثقفي منطقة عسير في الفترة ما بين ١٢١٥-١٤١٥هـ، تأليف هاشم بن سعيد النعمي.

صدر الكتابان السابقان عن نادي أبها الأدبي.

معجم الأسماء الملوَّنة، إعداد عبدالرحمن علي الدوسري، صدر عن دار المداد للنشر والتوزيع.

السنوات الأولى: ترجمة حياة، للشاعر محمد حسن فقي، تقديم د. عبدالله مناع، صدر ضمن سلسلة كتاب «الاثنينية» برقم (٦) عن منشورات عبدالمقصود خوجة في جدة.

توزيع جائزة أبها الثقافية

رعى صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز، أمير منطقة عسير، في الأسبوع الأول من شهر جمادى الآخرة الماضي، حفل توزيع جائزة أبها الثقافية على الفائزين بها.

وكانت التسابق نحو الجائزة قد أسفر عن النتائج التالية: في مجال البحث الأدبي حُجبت الجائزتان الأولى والثالثة، ونال الجائزة الثانية د. مسعد عيد العطوي. وفاز بالجائزة الأولى في البحث العلمي (بالمشاركة) كل من مسفر حسين القحطاني وأحمد حمدي رياض، وفاز بالجائزة الثانية جمال عثمان فضل؛ فيما حجبت الجائزة الأولى في مسابقة الشعر الفصيح، ونال المركز الثاني عبدالرحيم عبدالله آل عبدالكريم، وجاء ثانيا مكررًا د. محمد بن سعد الدبل، وفي المركز الثالث حمد أحمد العسعوس، والمركز الثالث مكرر شريفة سلامة أبو مريقة.

وحصل سعيد محمد بكر على المركز الأول في مسابقة القصة القصيرة، تلته شريفة الشملان ثم أحمد محمد عبده المهندس. وحجبت الجائزتان الأولى والثالثة في مجال الرواية، فيما نالت الجائزة الثانية ليلى سعيد الجهني. واحتل أحمد إبراهيم أحمد المركز الأول في مسابقة المسرح ثم ملحة عبدالله مريع، فغازي مختار طليمات. وفاز بجائزة الشعر الشعبي عبدالرحمن العطاوي، وتقاسم المركز الثاني أحمد سعيد شامي، وعبدالمجيد عبدالعزيز البيز، وجاء ثالثًا مدني أحمد حنيشي. وفي مجال الفن التشكيلي جاء فايع يحيى الألمعي في المركز الأول، تلاه محمد فارع علي، ثم مفرح علي عسيري. ونال حسن محمد عسيري الجائزة الأولى للتصوير الضوئي، تلاه عبدالله محمد الوليدي، ثم جملة الهاجري.



الإمارات

إعفاء الكتب والمجلات والصحف من الجمارك

أدرجت السلطات المختصة الكتب والمجلات والصحف والنشرات الدورية ضمن قائمة المواد المعفاة من الرسوم الجمركية.

تأتي هذه الخطوة دعمًا للكتاب والثقافة، وتعبيرًا عن رعاية الدولة لكل ما من شأنه أن يرتقي بالمواطن ثقافيًا.

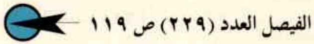
توصية بوضع ببليوجرافيا للمطابع العربية في القرن ١٩

أوصت ندوة «تاريخ الطباعة العربي حتى نهاية القرن التاسع عشر» في ختام اجتماعاتها بدبي بوضع ببليوجرافيا بأسماء المطابع العربية في كل بلد من بلدان العالم، والمطبوعات التي قامت بطباعتها، وأيضا ببليوجرافيا بأسماء الناشرين والمصححين والمنفذين للكتب العربية حتى نهاية القرن الميلادي الماضي.

وطالبت الندوة، التي نظمها مركز جمعه الماجد للثقافة والتراث، دور النشر العربية التي تقوم بإعادة طباعة الكتب العربية القديمة بالإبقاء على أسماء المطابع القديمة التي طبعت فيها تلك الكتب للمرة الأولى، وكذا أسماء المحققين والمصححين وسائر أصحاب الحقوق القدامى.

معرض الكتاب بالشارقة

شارك ٦٦٦ ناشرًا يمثلون ٣٠ دولة عربية



وأجنبية بقرابة مائة ألف كتاب في معرض الشارقة الدولي للكتاب، الذي اختتم أعماله في السابع عشر من شهر جمادى الآخرة الماضي (١٢ نوفمبر ١٩٩٥م).

أقيم على هامش المعرض ملتقى فكري حول الثقافة العربية وتحديات المستقبل، وجرى تكريم عدد من الناشرين العرب عرفانًا بدورهم في تأصيل صناعة الكتاب، كما تم عرض عشرة أجزاء من دائرة المعارف الإسلامية كأول إنتاج لمركز النشر العربي، الذي هو عبارة عن مشروع مشترك بين الهيئة المصرية العامة للكتاب ودائرة إعلام الشارقة.

كتب جديدة

مشاطرة شكلية، تأليف رينيه شار، ترجمه إلى العربية شاكر لعيبي.

طاغور: أغان وأشعار، تأليف براتيما باويز، ترجمه إلى العربية د. عبدالواحد لؤلؤة.

ذكرياتي، تأليف رابندرانت طاغور، ترجمه إلى العربية صلاح صلاح.

إمبراطورية هولندا البحرية ١٦٠٠-١٨٠٠م، تأليف ك.د. بوكسر، ترجمه إلى العربية شوقي جلال.

صدرت الكتب الأربعة السابقة عن المجمع الثقافي في أبو ظبي



الملتقى الأدبي الخليجي

يقام في الكويت الملتقى الأدبي الرابع لدول مجلس التعاون الخليجي خلال الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ رجب الجاري (١٢-١٤ ديسمبر ١٩٩٥م).

يستعرض الملتقى محاور النقد الأدبي وآلياته، وكيفية تفعيله من خلال بحث الطروحات التالية: تاريخ النقد الأدبي في دول المجلس وأولياته خلال النصف الثاني من القرن العشرين، واتجاهات النقد في دول المجلس، وآفاقه وروافده، والخطاب الشعري والمسرحي. كما يقام حوار نقدي عن إشكالية الخطاب النقدي المعاصر، وكونه دافعًا أو معوقًا للإبداع.

كتب جديدة

اليهود في البلدان الإسلامية ١٨٥٠-١٩٥٠م، تأليف صموئيل أتينجر، ترجمه إلى العربية د. جمال أحمد الرفاعي، وراجعه د. رشاد عبدالله الشامي.

جيران في عالم واحد، ألفته لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي، وأشرف على الترجمة العربية د. عبدالسلام رضوان.

صدر الكتابان السابقان ضمن سلسلة «عالم المعرفة» عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.



ملتقى لحرف العمارة الإسلامية

تستضيف القاهرة ملتقى عالميا هو الأول من نوعه عن حرف العمارة الإسلامية «المشربيات والزجاج المعشق»، خلال الفترة من ١٠ إلى ١٦ رجب الجاري (٣-٩ ديسمبر ١٩٩٥م) يناقش عددًا من المسائل المتعلقة بتطوير المهارات التقليدية في هذه الحرف.

يشمل الملتقى العديد من النشاطات، من بينها مسيرة تقام تحت شعار «إحياء التراث العمراني الإسلامي وحمايته» يشارك فيها مجموعة من المفكرين والمثقفين والغنائيين والحرفيين إضافة إلى أعضاء الوفود المشاركة في الملتقى.

كما تقام ورش عمل لحرفيي المشربيات والزجاج المعشق، ومعرض يضم نماذج من هذين الفنين، وآخر للصور الفوتوجرافية عنهما من خلال التراث الإسلامي، فضلاً عن عروض فلكلورية لفرق فنون شعبية.

ينظم الملتقى مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في استانبول بالتعاون مع وزارة الثقافة المصرية.

سلاسل كتب ثقافية وأدبية أسبوعية

قررت هيئة قصور الثقافة - في إطار احتفالاتها باليوبيل الذهبي لإنشائها - تحويل بعض السلاسل الثقافية والأدبية الشهرية إلى أسبوعية.

وتضمن القرار إنشاء سلسلة جديدة تحمل اسم «التراث» يتم من خلالها تقديم مختارات منتقاة من التراث ونصوص تراثية كاملة أقرب إلى المعاصرة.

توصيات مهمة لمؤتمر الفن والثقافة

أوصى المؤتمر العلمي الأول لكلية الفنون الجميلة في الاسكندرية في ختام اجتماعاته بضرورة الاهتمام بدراسة أنثربولوجيا الفن في إطار إعداد المعماري المبدع من أجل إدراك علاقة الإنسان بالمبنى ثقافيا ونفسيًا واقتصاديًا، ليتحقق الدور المتبادل بين ثقافة المجتمع وفن العمارة.

وتضمنت توصيات المؤتمر الذي عقد تحت شعار «الفن والثقافة وآفاق القرن الحادي والعشرين» تأكيد ضرورة الاهتمام الحقيقي بتطوير التعليم من أولى مراحله، بحيث يمكن تهيئة النشء لتكوين جيل قادر على التفكير ومعايشة الأبعاد الجديدة لتقنية القرن المقبل وثقافته ومواجهتها، والاهتمام بإنشاء المراكز المتخصصة في الجامعات ومراكز البحث لتسجيل التراث الفكري والثقافي وتوثيقه، وكذلك النتاج المعاصر والحرص على توضيحه والتعريف به من خلال النشر، مع الاهتمام بتطوير محتوى التربية في اتجاه تنمية القدرة على التفكير الحر وحب الاكتشاف، وإحياء ثقافة الكتاب وتسهيل طباعته ونشره مع توجيه عناية لإحياء حركة الترجمة لثمار الفكر الإنساني المتجدد، وتوصيات أخرى.

أيهما أقدم: الهيروغليفية أم المسمارية؟

أعرب آثاري ألماني عن اعتقاده بأن الكتابة الهيروغليفية قد تكون أقدم كتابة في التاريخ. وقال المدير المساعد للمعهد الألماني للآثار في القاهرة جونتر درير: إن الكتابة التي اكتشفها فريق ألماني عام ١٩٨٩م على قطع فخارية وأجزاء من العظام في قبر في أبيدوس (أقدم مقبرة ملكية في مصر) على بعد ٥٣٠ كيلو مترا من القاهرة تنسف ما كان يعتقده الآثاريون قبلاً من أن الكتابة الهيروغليفية قد اخترعت في



نحو الألف الثالث قبل الميلاد؛ حيث تعود الكتابات الجديدة المكتشفة إلى ٢٥٠ عامًا قبل ذلك التاريخ، مما يعني أن الكتابة الهيروغليفية عُرفت قبل التاريخ المعروف بقرنين ونصف القرن في حالة ثبوت ذلك.

إلا أن درير استدرك مشيرًا إلى أنه لايستطيع أن يؤكد أن هذا الكشف سيؤدى لاعتبار الهيروغليفية أقدم كتابة؛ لأن التاريخ الدقيق لظهور الكتابة المسمارية التي استخدمها السومريون في العراق لايزال موضع جدال.

خطة لإنقاذ معبد هيبس

أعدت وزارة الثقافة خطة عاجلة لإنقاذ معبد «هيبس» في الواحات الخارجة جنوب غربي القاهرة، تتضمن فكه ونقله من مكانه الحالي الذي هبطت أرضياته نتيجة الزراعات حوله والمياه الجوفية في التربة، إلى موقع آخر يبعد ثلاثمئة متر عن موقعه الأصلي.

ترجع أهمية المعبد إلى كونه يمثل أكثر من عصر؛ بدءًا بالعصر الفرعوني ومرورًا بالعصور الفارسية والإغريقية والرومانية. حيث بني في عصر الأسرة الـ ٢٦ واستكملت نقوشه في عهد الملك داريوس، وأُدخلت إليه إضافات أخرى في عصر الأسرة الثلاثين وعصور البطالمة والرومان.

كتب جديدة

مسلمون بلا قرآن، تأليف حسام رشدي، صدر عن المكتب العربي للمعارف.

الإنسان موقف، تأليف محمود أمين العالم، صدر عن دار قضايا فكرية.

العرب وإسرائيل: من الصراع المطلق إلى التعايش الصراعي، تأليف لطفي الخولي، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المسرحية الشعرية في الأدب العربي الحديث، تأليف د. أحمد شمس الدين الحجاجي، صدر ضمن سلسلة «كتاب الهلال» عن مؤسسة دار الهلال.

مقبرة عبريا: كشف في سقارة، تأليف آلان زيفي، ترجمة عماد عدلي، صدر عن دار الفكر للدراسات.

أنا وقطتي والحرب، رواية ميرفت إدريس، صدرت عن مكتبة مدبولي الصغير.

الغذاء في القرآن والعلم، تأليف د. جمال الدين حسين مهران، ومراجعة د. إبراهيم بدران، صدر عن مكتبة الأنجلو المصرية.

دراسات في تعدي النص، تأليف وليد الخشاب، صدر ضمن سلسلة «الكتاب الأول» عن المجلس الأعلى للثقافة.

رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، تأليف عبدالرزاق الكاشاني، تحقيق سعيد عبدالفتاح، صدر عن المكتبة الأزهرية للتراث في القاهرة.

الإسلام وخلق الهوية الأوربية، تأليف توماس ماستناك، ترجمة بشير السباعي، صدر عن دار النيل في الاسكندرية.

انتحار هادئ جدا، والقرمزي، مجموعتان شعريتان لظبية خميس، صدرتا عن مطبعة الجامعة الحديثة في القاهرة.

خفايا حصار السويس؛ مائة يوم مجهولة في حرب ١٩٧٣م، تأليف حسين العشي، صدر عن دار الحرية.

قمر على المستنقع، رواية لعلاء الديب، صدرت ضمن سلسلة «روايات الهلال» عن مؤسسة دار الهلال.

الجورنال، (كتاب عن التفاصيل الدقيقة داخل الصحف)، تأليف سمير صبحي، صدر عن دار المعارف.

موسوعة أخلاق الإسلام بالقصص للأطفال، تأليف أحمد نجيب، صدرت عن دار سفير للنشر.

خلاصة التوحيدي، تقديم جمال الغيطاني، صدر عن المجلس الأعلى للثقافة.

فلسطين

مجمع للغة العربية

انضم إلى ركب المجمعات اللغوية العربية مجمع جديد هو مجمع اللغة العربية الفلسطيني «بيت المقدس»، وانتخب مجلس تنفيذي لإدارته يتكون من يحيى جبر رئيسًا، ونبيل أبو علي نائبًا للرئيس، وأحمد السلوداي أمينًا للصندوق، وعبداللطيف البرغوتي ومحمود الدراويشي عضوين.

يعد هذا المجمع سادس مجمع لغوي عربي، وظهرت فكرته من خلال توصيات ندوة «التعريب الجامعي وأساليب التدريس في الجامعات الفلسطينية» التي عقدت عام ١٩٨٧م في القدس.

مجلة «الكلمة»

أصدر اتحاد الكتاب الفلسطينيين في القدس مجلة تعنى بشؤون الأدب تحت مسمى «الكلمة».

تضمن العدد الأول مجموعة من الإبداعات الشعرية والقصصية، إلى جانب دراسات نقدية من أهمها دراسة بعنوان «ثقافتنا المشروعة لزوابع التطبيع».

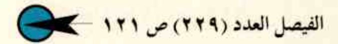


مهرجان إبداعي

احتضنت مدينة حمص - مؤخرًا - على مدى خمسة أيام فعاليات المهرجان الإبداعي السنوي الثالث؛ وذلك بمشاركة عدد كبير من الشعراء والقصّاصين والروائيين تضمن قراءات شعرية وقصصية بالإضافة لعقد ندوة بعنوان «الحداثة والإبداع في الشعر».

أمسية شعرية لمانع العتيبة

بدعوة من وزيرة الثقافة السورية د. نجاح العطار، وبحضور عدد كبير من رجال الفكر والإعلام والأدب والشعر، أحيا الشاعر د. مانع سعيد العتيبة أمسية شعرية في قاعة المحاضرات التابعة لمكتبة الأسد في دمشق، ألقى خلالها مجموعة من قصائده في السياسة والحب والغزل مع التركيز على محور التغنّي بأمجاد الشام. وفي ختام الأمسية، تم توزيع نسخ من ديوان العتيبة الجديد تحت عنوان (شاميات).



أسبوع العلم

بإشراف المجلس السوري الأعلى للعلوم، تنظم جامعة تشرين في مدينة اللاذقية بين الرابع والتاسع من شهر نوفمبر أسبوع العلم الخامس والثلاثين بمشاركة ثلاثمئة عالم وباحث من ٢٧ دولة عربية وأجنبية من بينهم نحو مئة عالم سوري. ويصادف ذكرى هذا الاحتفال مرور خمسة قرون على وفاة عالم البحار العربي أحمد بن ماجد بن محمد السعدي. لذا فقد تقرر إقامة ندوة حول حياته ومآثره على هامش فعاليات الأسبوع في مدينة اللاذقية. ومن المقرر أن يقام أيضا معرض للكتاب العلمي العربي والعالمي، وآخر للأجهزة العلمية والطبية والمخبرية، وثالث لإبداعات أساتذة وطلاب كليات الفنون الجميلة والهندسة المعمارية في الجامعات السورية.

كتب جديدة

أخبار المصحّفين، تأليف أبي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق إبراهيم صالح.

منتخب من كتاب الشعراء، تأليف الحافظ أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق إبراهيم صالح.

صدر الكتابان السابقان عن دار البشائر للطباعة والنشر في دمشق.

الأماكن الأثرية في بصرى، تأليف دريد مقداد، صدر عن دار الأهالي.

المرأة اليمنية وتحديات العصر، إعداد وإشراف أحمد الصياد، صدر عن دار المدى.

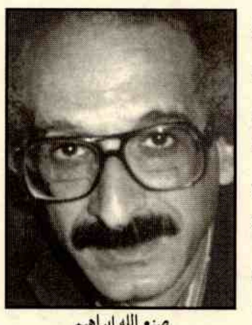
إبحار في الرمل، مختارات لمجموعة من الشعراء العراقيين، صدرت عن منشورات الثقافة الجديدة، ودار الينابيع.



الأردن

جوائز لأدباء عرب

أعلنت رابطة الكُتّاب الأردنيين - مؤخراً - عن أسماء الفائزين بجوائزها التقديرية لعام ١٩٩٥م.


صنع الله إبراهيم

فاز بجائزة تيسير سبول للرواية الروائي المصري صنع الله إبراهيم، ونال جائزة عرار الأدبية الشاعر الأردني يوسف أبو لوز، وحازت على جائزة محمود سيف الدين الإيراني القاصة الأردنية حزامة حبايب.

ونال جائزة نصيف الرزاز للدراسات والفكر الباحث اللبناني د. ناصيف نصار، وجائزة عبدالرحيم عمر لأفضل ديوان عربي الشاعر محمد العامري، وجائزة غالب هلسا للإبداع الثقافي الروائي السوري نبيل سليمان والأديب الأردني فايز محمود، وذهبت جائزة يعقوب عويس للمقالة الصحفية إلى خيري منصور، ونال جائزة د. منذر عنبتاوي لحقوق الإنسان كل من: مجلي نصراوين، وحاكم الفايز، وضافي الجمعاني.

معرض عَمّان الخامس للكتاب

شارك أكثر من مئتي دار نشر من مختلف قارات العالم في معرض عمان الدولي الخامس للكتاب الذي أقيم - مؤخراً - تحت شعار «لنضيء شمعة على طريق الثقافة».

نظم المعرض اتحاد الناشرين الأردنيين بالتعاون مع وزارة الثقافة، وأقيمت على هامشه نشاطات فكرية وثقافية متنوعة، طرحت خلالها العديد من القضايا الأدبية والإبداعية والمتعلقة بالنشر ومشكلاته.

كتب جديدة

المجموعة الشعرية الكاملة للدكتور جميل علوش، صدرت عن مكتب بيرزيت للصحافة والنشر في عمان.

محاضرات وندوات

«المرأة والقانون في لبنان»، عنوان محاضرة ألقتها في جامعة أكسفورد، كوين إليزابيث هاوس، وسعاد مقبل.

«مرض شلل الأطفال»، عنوان محاضرة جماعية أقيمت في مستشفى صفوى، شارك فيها عدد من المتخصصين في طب الأطفال.

«الذرّة في الحديث النبوي»، موضوع ندوة نظمتها جمعية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة بمسجد د. مصطفى محمود بالمهندسين، تحدث فيها د. أحمد شوقي إبراهيم، وأدارها د. كارم غنيم.

«أدب أكتوبر»، موضوع ندوة نظمتها رابطة الأدب الحديث في القاهرة، تحدث فيها د. عبدالعزيز شرف.

«البحوث الطلابية الجامعية: الظاهرة والعلاج»، عنوان ندوة نظمتها رابطة الأدباء في الكويت، تحدث فيها د. محمد المهيني، و د. عيسى جاسم.

«أثر الأدب في المجتمع»، عنوان ندوة أقيمت في قصر ثقافة الريحاني بحدائق القبة في القاهرة، تحدث فيها د. طه وادي، ومدحت الجيار.

نظمت مكتبة القاهرة الكبرى أمسية شعرية للشاعر محمد إبراهيم أبو سنة تحدث فيها د.أحمد درويش، و د. محمد عبدالمطلب.

«منتهى» رواية الأديبة هاله البدري، نوقشت في ندوة نظمها مركز الهناجر، تحدث خلالها الناقدان د. محمد برادة، و د. محمد عبدالمطلب. وأدارت الندوة د. هدى وصفي.

«الأصل التاريخي المشترك لقصص الكتب الدينية»، موضوع ندوة نظمها قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة إكستر البريطانية، تحدث فيها أحمد عثمان.

نظم مركز النساء العراقيات في لندن أمسية ثقافية للكاتبة سميرة المانع التي تحدثت عن تجربتها في عالم الإبداع.

«جرائم البيئة»، عنوان محاضرة ألقاها في المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، سليمان محمد الزين.

«نظرة حول مؤتمرات المرأة العالمية في ضوء الكتاب والسنة»، عنوان حوار نظمه



خليل زقطان: الأعمال الشعرية غير المنشورة، تحقيق زياد أبو لبن، صدر عن دار الكرمل.

وصف الماضي، رواية لغسان زقطان، صدرت عن دار أزمنة.



لبنان

أيام بيروت الأثرية

نظمت المديرية العامة للآثار، بالتعاون مع اليونسكو وشركة سوليدير، تظاهرة آثارية تحت عنوان «أيام بيروت الأثرية».

هدفت التظاهرة - التي استمرت خمسة عشر يومًا واختتمت في الثالث عشر من شهر جمادى الآخرة المنصرم - إلى كشف آثار بيروت وأسرارها، وماضيها الذي يعود إلى سبع عشرة حقبة تاريخية لم يُتعمق في معظمها، وأُهمل الكثير منها.

وكانت بيروت قد شهدت منذ عام ١٩٩٣م بداية عمل ورشة هائلة للتنقيب عن الآثار شارك فيها أكثر من ١٥٠ باحثًا لبنانيًا وأجنبيًا أثمر عملها عن اكتشافات كثيرة، ومازال تواصل العمل تحقيقًا للمزيد من الكشوفات.

كتب جديدة

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، تأليف فايد حماد عاشور.

بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، تأليف أنيس الأبيض.

صدر الكتابان السابقان عن دار نشر جروس برس في بيروت.

طريق الحرير، رواية لرجاء عالم، صدرت عن المركز الثقافي العربي في بيروت والدار البيضاء.

كتاب المراثي، مجموعة شعرية جديدة للشاعر عبدالوهاب البياتي

لا أثر يدل عليَّ، ديوان جديد للشاعرة شهيرة أحمد.

فتنة الزؤان، رواية لإبراهيم الكوني

صدرت الكتب السابقة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

أذهب لأرى وجهي، ديوان للشاعر محمد القيسي، صدر عن دار الآداب.



تونس

ندوة الرواية العربية

تستضيف مدينة سوسة خلال شهر رجب الجاري ندوة عن الرواية العربية، ينظمها اتحاد الكتاب التونسيين.

يشارك في الندوة مجموعة من النقاد والروائيين من مختلف الأقطار العربية، وتناقش عدة موضوعات في مقدمتها اتجاهات الرواية العربية.

كتب جديدة

حرائق المساء، حرائق الصباح، ديوان للشاعر محجوب العياري، صدر عن منشورات بيت البحر المتوسط.

المغرب

ندوة فكرية ومهرجان شعري في ذكرى المعتمد بن عباد

تقام في مراكش، في النصف الأول من شهر رجب الجاري، ندوة فكرية دولية ومهرجان شعري عالمي بمناسبة مرور تسعة قرون على رحيل الشاعر الملك الأندلسي المعتمد بن عباد.

تعقد الندوة والمهرجان تحت رعاية العاهل المغربي الملك الحسن الثاني، والعاهل الإسباني

نادي مكة الثقافي الأدبي، وشارك فيه الدكاترة عبدالله عمر نصيف، وأحمد محمد علي، وصالح بن حميد، وحامد أحمد الرفاعي، وزايد الحارثي.

«المشكلات النفسية للشباب»، موضوع ندوة نظمها قصر ثقافة مصر الجديدة بالقاهرة، تحدث فيها د. جمال ماضي أبو العزائم، وأدارتها آمال منصور.

نظم أتيليه القاهرة ندوة شعرية شارك فيها الشعراء رفعت سلام، محمد فريد أبو سعدة، إيمان مرسال، وفاطمة قنديل، وأدارها الناقد مدحت الجيار.

«الفن والأدب وأكتوبر»، موضوع ندوة نظمتها دار الأوبرا في القاهرة، شارك فيها كل من: جمال الغيطاني، سيد حجاب، أنعام محمد علي، وصلاح مرعي.

«نظرة جديدة إلى الشرق في إطار حوار الحضارات»، موضوع ندوة نظمتها مكتبة القاهرة الكبرى، شارك فيها كل من: د. أنور عبدالملك، ود. حسام عيسى، وبدر همام، والمستشار طارق البشري، وضياء رشوان.

«تحصين الوحدة الوطنية في الأقطار العربية»، عنوان محاضرة ألقاها في ديوان الكوفة بلندن معن بشور.

«وقفات مع آية الكرسي»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الفويلق بالقصيم الشيخ محمد إبراهيم الخزيم.

نظمت مكتبة الأسد في دمشق أمسية شعرية للشاعر الإماراتي د. مانع سعيد العتيبة.

«دور المؤسسات الاجتماعية»، عنوان محاضرة ألقاها مركز تنمية المجتمع بمنطقة الفردوس بالكويت، د. عيسى السعدي.

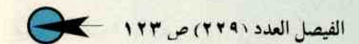
«المنظر السينمائي في مجال سينما الخيال العلمي»، موضوع محاضرة ألقاها في نادي الكويت للسينما، د. محمد عزب.

«حركة الترجمة في سورية.. واقعها وآفاقها»، موضوع ندوة نظمها فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب مؤخرًا، تناول المشاركون فيها محاور: الترجمة الأدبية عن اليوغسلافية والروسية، والمصطلح بين الترجمة والتعريب، وترجمة كتب الأطفال، وإشكاليات ترجمة النصوص الشعرية.

«نظام التشغيل الجديد في مايكروسوفت ويندوز ١٩٩٥م»، موضوع محاضرة ألقاها الأستاذ ياسر بيرقدار في دمشق.

«إيليا أبو ماضي.. ذكريات وشعر»، موضوع محاضرة ألقاها الأستاذ يحيى الشهابي في دمشق.

«دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية»، عنوان محاضرة ألقتها الدكتوره تغريد الهاشمي في المركز الثقافي لمدينة الحسكة السورية.



الملك خوان كارلوس، ويشارك في أعمالهما مفكرون وأدباء ومثقفون وفنانون عرب وإسبان، ومستشرقون من روسيا وإيطاليا


الملك الحسن الثاني

وبريطانيا والبرتغال وهولندا؛ حيث يحتفون بابن عباد الإنسان والرمز، والفضاء الأندلسي الذي قام على أساس من التسامح والحوار بين الحضارات والثقافات.

وترافق الندوة والمهرجان نشاطات جانبية، منها معرض للمخطوطات النادرة، وآخر لليونسكو، إضافة إلى أمسيات موسيقية أندلسية، وزيارات للمواقع التاريخية والأثرية الأندلسية.

تأجيل ندوة القدس

أعلن المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري عن تأجيل ندوة القدس التي كان مقرراً عقدها في واشنطن في منتصف الشهر الماضي إلى وقت لاحق لأسباب تنظيمية.

وأكد أن المنظمة الإسلامية ماتزال تواصل جهودها لتأكيد مكانة القدس ودعم المنظمات الفلسطينية والتنسيق مع اليونسكو لترميم معالم القدس وإنشاء دار للمخطوطات بها.

يذكر أن الندوة تنظم بالتعاون بين منظمة المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية والإيسيسكو.

أسبوع ثقافي ألماني

أقيم في مراكش أسبوع ثقافي ألماني خلال النصف الثاني من شهر جمادى الآخرة المنصرم.

اشتمل الأسبوع على ندوات فكرية وثقافية ومعارض فنية وفلكلورية تتمحور حول سبل التبادل بين مدن ألمانيا ومراكش. أشرفت على تنظيم الأسبوع وزارة الثقافة المغربية بالتعاون مع معهدي «جوته» و«فريدريك» الألمانيين وجامعة مراكش.

وفاة الشاعر المجاطي

نعى المكتب المركزي لاتحاد كُتّاب المغرب في الرباط الشاعر المغربي الكبير أحمد المجاطي الذي توفي عن عمر ناهز ٦٠ عاماً.

ولد المجاطي عام ١٩٣٥م في مدينة الدار البيضاء، واسمه الأصلي أحمد المعداوي، إلا أنه عُرف باسم «المجاطي» الذي كان يوقع به قصائده في مجلتي «الآداب» البيروتية و«المعرفة السورية» خلال فترة الستينيات الميلادية.

وقد عمل مدرساً في المدارس الثانوية ثم في الجامعة، ونال درجة الدكتوراه قبل ٣ سنوات عن أطروحة عنوانها «الحداثة في الشعر العربي»، وعُدَّ من أبرز شعراء القصيدة الحديثة في المغرب؛ حيث نال جائزة ابن زيدون الإسبانية وجائزة المغرب، وله ديوان وحيد بعنوان «الفروسية» صدر في منتصف الثمانينيات الميلادية.

كتب جديدة

المسرح والسيميولوجيا، تأليف حسن المنيعي، صدر عن دار نشر سليكي اخوان في طنجة.

مقالات الأديب عبدالكريم بن ثابت، جمعها وحققها وأعدها للنشر قريرة زرقون، وصدرت عن مطبعة فضالة المحمدية.

عبدالله بن عباس الجزري: دراسة تاريخية نقدية، تأليف مصطفى جوهري، صدرت عن منشورات نادي الجراري في الرباط.

عنبر أبو النور، مجموعة قصصية لإدمون عمران المليح، صدرت عن منشورات الفنك في الدار البيضاء.

فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، تأليف أبي عبيد القاسم بن سلام، دراسة وتحقيق أحمد عبدالواحد الخياطي، صدر عن مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

بنجلاديش

مؤتمر دولي حول تفسير القرآن الكريم

تستضيف مدينة شيتاجونج مؤتمراً دولياً حول تفسير القرآن الكريم خلال الفترة من ٢٦ إلى ٣٠ رجب الجاري (١٨-٢٢ ديسمبر ١٩٩٥م).

تنظم المؤتمر - وتشرف عليه منذ إنشائه عام ١٩٧٧م - الهيئة الاجتماعية الخيرية الإسلامية في شيتاجونج، بحضور مجموعة من المفكرين والعلماء من داخل بنجلاديش وخارجها، بغية نشر الدعوة الإسلامية على نطاق أوسع.



الباكستان

ندوة علمية عن أدب الوصايا والمواعظ

نظمت رابطة الأدب الإسلامي العالمية ندوتها العلمية السنوية الثانية عشرة حول موضوع «أدب الوصايا والمواعظ وخصائصه الأدبية» خلال شهر جمادى الآخرة الماضي في مدينة أعظم آباد.

تناولت الندوة تطور هذا اللون الأدبي في العهود الإسلامية المختلفة، وموازنته بما هو موجود في الآداب الأخرى، والكتب والمؤلفات التي تناولت المواعظ وقيمتها الأدبية والفنية، وشعر المواعظ وشعرائها.



روسيا

كرسي الأمير نايف للدراسات الإسلامية في جامعة موسكو

أنشأت جامعة موسكو كرسياً أكاديمياً للدراسات الإسلامية يحمل اسم صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز، وزير الداخلية السعودي.

ورحب رئيس الجامعة فيكتور سادوفنيتشي بإنشاء هذا الكرسي، مؤكداً أنه سيكون منبراً أكاديمياً للدراسات الإسلامية والعربية لتأهيل متخصصين يعملون على الفهم الصحيح للإسلام والحضارة العربية، ووجه الشكر والتقدير لسمو الأمير نايف والمملكة العربية السعودية على هذه الخطوة المتميزة.





وفاة الكاتبة يانا شن

توفيت الصحافية والكاتبة الصينية يانا شن هوسوي إثر إصابتها بالسرطان عن عمر ناهز ٧٧عامًا.

بدأت يانا شن مشوارها مع الحرف بالعمل مراسلة صحفية للعديد من الصحف الصينية إبان الحرب العالمية الثانية، وحين استولى الشيوعيون على الحكم في بلادها قاموا بإعدام زوجها، لكنها استطاعت الهروب إلى خارج الصين مع ثلاثة من أبنائها، حيث كافحت الشيوعية بكتاباتها القوية التي من أبرزها كتابها «ماو تسي تونج قاتل زوجي».



مهرجان الفياك

اختتم ـ مؤخرًا ـ في باريس مهرجان «الفياك» العالمي في دورته الحادية والعشرين.

ومع أهمية المهرجان باعتباره يبشر بطلائع الحداثة في مجال الفنون التشكيلية؛ إلا أن منظميه تعودوا غياب العالم العربي في ظل حضور عالمي مكثف، ولولا مشاركة بعض أصحاب الصالونات الذين ينحدرون من أصول لبنانية لكان المهرجان خاليًا من أي وجه عربي.

تصدى المهرجان الأخير لمشكلتين: أولاهما مجابهة أزمة تسويق الفن المعاصر، والأخرى محاولة تأكيد محورية فنون الوحدة الأوروبية.

جوائز فرنسية

منح معرض الكتاب في مدينة بوردو، الذي يعد ثاني أكبر معرض للكتاب في فرنسا جائزته السنوية للشاعر الإسباني رفائيل ألبرتي.

وكانت جائزة المعرض للترجمة من نصيب المترجم روبير ماراس، الذي عُرف بترجماته لأشعار ألبرتي إلى الفرنسية.

يذكر أن الشاعر رفائيل ألبرتي يعد أكبر الشعراء الإسبان عمرًا وشاعرية؛ حيث ولد عام ١٩٠٢م، وأصبح أبرز شعراء جيل الـ (٢٧) الذي جدد الشعر الإسباني.

من ناحية ثانية منحت الأكاديمية الفرنسية جائزة الفرانكفونية التي تقدمها كل عام لشخص أسهم في ذيوع اللغة الفرنسية إلى الشاعر اللبناني صلاح ستيتية.

وستيتية من مواليد بيروت عام ١٩٢٩م، وقد مارس العمل بالتعليم بعد انتهاء دراسته الأدبية والقانونية، وترأس تحرير صحيفة «الأوريان ليتيرار»، وعمل مستشارًا ثقافيًا لبلاده في العديد من الدول الأوروبية، وكذلك مندوبًا لها في منظمة اليونسكو.

كما منح الكاتب اللبناني جان بيار دحداح جائزة «فرنسا ـ لبنان» الأدبية للعام الحالي عن كتابه: «جبران: سيرة ذاتية».

تمنح الجائزة ـ التي دخلت عامها الخامس عشر ـ جمعية الكُتَّاب باللغة الفرنسية، وتُعطى لأفضل كتاب وضعه لبناني باللغة الفرنسية، أو أفضل كتاب وضعه غير لبناني لكنه يعالج موضوعا لبنانيًا.

جائزة أدبية للأطفال

أعلنت منظمة اليونسكو عن تأسيس جائزة أدبية للأطفال والشباب في خدمة التسامح.

تمنح الجائزة مرة كل عامين، اعتبارًا من أبريل ١٩٩٧م الذي يتوافق مع معرض كتاب الأطفال في بولوني؛ حيث ستتم مكافأة كتابين للأطفال، الأول لأطفال لم يتجاوزوا الثانية عشرة، والثاني لشبان من عمر ١٣ـ١٨ عامًا.

تقدم الجائزتين ومقدارهما ٨ آلاف دولار مؤسسة سانتا ماريا الإسبانية المتخصصة في نشر كتب الأطفال.

وفاة الشاعر والروائي الجزائري رابح بلعمري

توفي ـ مؤخرًا ـ في باريس الكاتب الجزائري رابح بلعمري عن عمر يناهز ٤٩ عامًا.

وكان بلعمري ـ الذي يعيش في فرنسا منذ عام ١٩٧٢م ـ قد أصيب بفقد البصر وهو في السادسة من عمره، ومع ذلك نبغ في مجال الأدب؛ حيث ترك ١٦ كتابًا ما بين شعر ورواية، وحازت روايته «النظرة المجروحة» على جائزة الثقافة الفرنسية.

قصيري يفوز بجائزة أنتيب

فاز الروائي المصري ألبير قصيري بالجائزة الأدبية الكبرى لمدينة أنتيب لعام ١٩٩٥م وتبلغ قيمتها ٥٠٠٠٠ فرنك فرنسي عن سبع روايات استقى أحداثها من الواقع المعيش للشعب المصري. ويذكر أن قصيري كان صديقًا لألبير كامو ولورانس واريل.

بيت زولا يتحول إلى متحف

تم رصد أربعمئة ألف فرنك من أجل تحويل المنزل الذي كان يقيم فيه الأديب الفرنسي إميل زولا في مدينة ميدن إلى متحف.

ينتظر أن يضم المتحف ـ إضافة إلى مقتنيات زولا الشخصية ـ مجموعة من مخطوطات رواياته بخط يده، قام حفيده كلود لوبلون زولا بإهدائها للمتحف لهذا الغرض.

أحدث الكتب

مقاتل من الصحراء، تأليف الفريق أول الركن الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز، صدرت ترجمته بالفرنسية عن دار هاشيت في باريس.

سيجموند فرويد وروح القرن العشرين، تأليف هرمان جلازر، ترجمه إلى الفرنسية جان بيير برناردي.

اكتشافات وطرائف أثناء قراءة فرويد، تأليف بيتر جاي، ترجمه إلى الفرنسية كلود مونو.

صدر الكتابان السابقان عن دار نشر بوف.

هجرة القلوب، رواية لماريز كونديه، صدرت عن دار نشر روبير لافون.

بريطانيا

الدول النامية تواجه فقر المعلومات

حذر تقرير أصدره معهد بانوس ـ وهو منظمة غير حكومية تعتمد إلى حد كبير على تمويل الدول الاسكندنافية ـ من أن الدول النامية تواجه نوعًا جديدًا من الفقر هو فقر المعلومات.

وأشار التقرير أن نحو ٧٠٪ من أجهزة الحاسب الآلي المرتبطة بشبكة إنترنت العالمية موجودة في الولايات المتحدة، في حين أنه لايرتبط بها سوى أقل من عشر دول أفريقية؛ مما يهدد سكان العالم بظهور حكم جديد في مجال الإعلام للصفوة، يمكن بشكل فعلي أن يزيد الهوة بين أغنياء العالم وفقرائه.

البريطانيون يفضلون كيبلنج على شكسبير ودون وبليك

احتلت قصيدة «إذا» للشاعر رديارد كيبلنج المركز الأول في استفتاء أجرته هيئة الإذاعة البريطانية حول القصيدة التي يحبها البريطانيون، متقدمة على قصائد لشعراء بريطانيين كبار مثل شكسبير وجون دون.

شارك في الاستفتاء أكثر من ٧٥٠٠ شخص، وحظيت قصيدة كيبلنج التي تمجد قيم الهدوء والفضيلة والعمل الجاد على أكثر أصواتهم، وجاءت قصيدة «سيدة سالوت» للشاعر ألفريد تنيسون في المركز الثاني، تلتها قصيدة «المستمع» للشاعر وولتر دي لامير. وأكّدَ المشاركون أن شعراءهم المفضلين هم كيبلنج ووليام بتلر بتس، ووليام وردزودث، وفشل شكسبير ودون وبليك في نيل أية مكانة بين الشعراء العشر الأوائل.

هل وصل بولو إلى الصين؟

أكدت باحثة بريطانية - في كتاب أصدرته مؤخراً - أن الرحالة الإيطالي ماركو بولو قد خدع العالم وكذب عليه حين ادعى أنه وصل إلى الصين في القرن الثاني عشر الميلادي.

ووصفت الباحثة فرانس وود الرحالة الإيطالي بأنه كاذب، وقالت إنه لم يصل إلى الصين ولم يجتز الشرق الأوسط؛ حيث لايعقل أن يصل إلى الصين دون أن يلحظ وجود سورها الكبير ووجود الشاي والبورسلين.

وأشارت وود إلى أن بولو استقى معلوماته عن الصين من منشورات وعبر روايات رحالة آخرين، وأن مواطنه روستيتشيلو الذي التقى بولو في سجن جنوه قد شاركه في صياغة كتابه وعمل على تضخيمه بحثًا عن الربح المادي.

وفاة الروائي كينجلسي إيمس

توفي - مؤخراً - الروائي البريطاني السير كينجلسي إيمس عن عمر ناهز ٧٣ عامًا.

ويعد إيمس من الروائيين الذين يكتبون في اطار التراث الواقعي، ويتبنى في أعماله الكثير من المواقف المشاكسة التي أثارت عليه جماعات عديدة من بينها جماعات الدفاع عن حقوق المرأة.

وعُرف إيمس للمرة الأولى في الأوساط الأدبية حين نشر عام ١٩٥٤م روايته الهزلية «جيم المحظوظ» التي أثارت ضجة، أعقبها بكتابة ٢٤ رواية خلال رحلته مع الحرف، حصلت إحداها «ذي أولد ديفلز» على جائزة بوكر الأدبية عام ١٩٨٦م، وآخر رواياته «شارب كاتب السيرة» نشرت في العام الميلادي الحالي.

أحدث الكتب

النهر الأعمى، ديوان للشاعر الشعبي العراقي عزيز السماوي، صدر عن دار الحكمة في لندن.

الثورة والإصلاح السياسي في السودان، تأليف عبدالوهاب الأفندي، صدر عن منتدى ابن رشد.

الثورة الديموقراطية: النضال من أجل الحرية والتعددية في العالم النامي. إعداد لاري دايموند، ترجمته إلى العربية سمية فلو عبود، صدر عن دار الساقي.

رسائل جامعية

«المسؤولية الدولية عن تلوث الهواء»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الحقوق بجامعة الزقازيق المصرية، تقدم بها محمد محمود لطفي.

«آثار الالتزام في حقوق العباد»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها حسين أحمد الغزالي.

«الواقع السياسي وأثره في القضاء الإداري والدستوري»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الحقوق بجامعة عين شمس، تقدم بها محمود أبو قمر.

«دراسة حول الحركات الإسلامية في مرحلة الثمانينيات»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة موسكو، تقدم بها أيمن أنور.

«نظم حكم الأمويين ورسولهم في الأندلس ١٣٨-٤٢٢هـ»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الدعوة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، تقدم بها سالم بن عبدالله عبدالعزيز الخلف.

«تحقيق جزء من كتاب البدر المنير من أول باب محرمات الإحرام إلى نهاية باب السلم مع دراسة باب خيار البيع: دراسة حديثية فقهية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تقدم بها عبدالرحمن صالح الشمراني.

«حساسية الأنف مع تغير الفصول»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الطب بجامعة القاهرة، تقدم بها إبراهيم حبيب أحمد.

«العلاقات الخارجية للمملكة العربية السعودية وتأثيرها على أمنها الوطني من عام ١٩٨٠م إلى ١٩٩١م»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية التجارة ببورسعيد التابعة لجامعة قناة السويس، تقدم بها ممدوح محمد موصلي.

«أدب المرأة السوداء في أمريكا»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت



الولايات المتحدة

معرض لفنان هولندي

يستضيف متحف الفن الحديث في نيويورك حاليًا معرضًا لأعمال الفنان الهولندي بيت موندريان (١٨٧٢ - ١٩٤٤م) يستمر حتى بدايات شهر رمضان المبارك المقبل (٢٣ يناير ١٩٩٦م).

يضم المعرض ١٥٠ عملاً للفنان روعي في اختيارها أن تعكس فترات تطوره الفني من رسم الطبيعة الصامتة وتسجيلها في بداية حياته الفنية، ثم اتجاهه إلى المذهب التكعيبي، ومنه إلى الفن التجريدي.

يذكر أن اهتمام موندريان بالفنون التشكيلية لم يقتصر على الممارسة العملية فقط؛ بل هَداه إلى وضع النظريات الفنية عبر مقالات صدرت عام ١٩٢٧م تحت عنوان «الفنون التشكيلية الحرة».

وفاة هنري روث

توفي - مؤخرًا - الروائي الأمريكي هنري روث عن عمر ناهز ٨٩ عامًا.

اشتهر روث بتعبيره عن معاناة رجل الشارع الأمريكي البسيط، وكفاحه اليومي من أجل الحياة، ومع أنه لم يقدم في حياته الطويلة سوى روايتين بينهما فاصل زمني يصل إلى ستين عامًا إلا أنه حظي بشهرة واسعة في الستينيات الميلادية بسبب روايته الأولى «صحوة النوم» التي كتبها عام ١٩٣٤م لكنها لم تحظ باهتمام إلا في الستينيات؛ حيث زادت مبيعاتها على مليون نسخة، فيما ظهرت روايته الثانية «نجمة تسطع على جبل موريس بارك» عام ١٩٩٤م.

أحدث الكتب

العصر المائي في الشرق الأوسط، تأليف جويس شيراستار، صدر عن دار نشر هنري هولت وشركاه في نيويورك.

فقر ما بعد الحداثة، تأليف جون.أو. نويل، صدر عن دار نشر روتليدج في نيويورك ولندن.

رجل القطار، تأليف إريك لوماكسي، صدر عن دار نشر نورتن.

إسبانيا

جائزة بلانيتا لدلجادو

منح الروائي والصحافي والشاعر فرناندو دلجادو جائزة بلانتيا الأدبية عن روايته «نظرة الآخر».

واختيرت الرواية الفائزة من بين ٢٥٠ عملاً تقدم بها ٤٤ روائيًا لنيل الجائزة.

يذكر أن دلجادو له ديوانا شعر وأربع روايات وكتاب في المقالة.

معرض دولي للفنون

شاركت ٢٣ دولة في المعرض الدولي للفنون الذي أقيم - مؤخرا - في مدينة كولونيا.

تنوعت المعروضات ما بين نحت ورسم ونقش وتصوير فوتوجرافي، من بينها أعمال لعدد من كبار الفنانين العالميين من مختلف المدارس الفنية.

جائزة فايمر لسمبروم

منح الروائي الإسباني جورج سمبروم جائزة مدينة فايمر عن أعماله التي كتبها عن هذه المدينة التي عاش فيها كبار أدباء ألمانيا من أمثال جوته وشيلر.

وكان سمبروم قد عاش عامًا ونصف العام

في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها ميرفت محسن.

«الدور السياسي لرجال الدين في إيران»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، تقدمت بها أمل كامل حمودة.

«دراسة تحليلية للتنظيم الإداري بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الأزهر، تقدمت بها ألفت إبراهيم جاد الرب.

«دور إذاعة الشباب والرياضة في حل مشكلات الشباب المصري وقضاياه»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة الزقازيق المصرية، تقدم بها محمد علي غريب.

«هندسة الجينات»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الطب بجامعة نوتنجهام البريطانية، تقدم بها عبدالعزيز علي الخضيري.

«الأسس المعمارية لتصميم المباني الجامعية في مصر»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الهندسة بجامعة أسيوط، تقدمت بها سحر مرسي.

«بناء القصيدة في دواوين شعر المهجر الجنوبي»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها هيا عبدالعزيز الدرهم.

«قضايا الإنسان في شعر عبدالوهاب البياتي»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة عين شمس ،تقدم بها محمد عبدالغفار منجي.

«جميل بن معمر.. دراسة أسلوبية»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في معهد الدراسات العربية في القاهرة، تقدم بها سالم الهروس.

«دراسة نقدية لرواية «الطريق إلى الهند» لفورستر»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت بجامعة عين شمس، تقدمت بها هاله أحمد عبدالعظيم.

«شذرات الكاتب الكوميدي أنا اكساندريس»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدم بها عادل النحاس.





في هذه المدينة التي كانت تحتضن الكُتّاب الهاربين من بطش سلطات بلادهم، وفيها كتب روايتين هما: «الرحلة الكبرى» و«الكتابة أو الحياة».

جائزة معرض فرانكفورت لدار نشر وفنان مصريين


محيي الدين اللباد

نال كتاب «لغة بلا كلمات» للفنان محيي الدين اللباد الذي أصدرته دار الشروق المصرية الجائزة الأولى «جائزة الشرف» في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب من بين ثمانمئة كتاب اختيرت من إصدارات ٣١ دولة من الدول المشاركة في المعرض.

يذكر أن المعرض شارك فيه ٢٣٢٠ ناشراً يمثلون ٩٧ دولة، وقد سبق للدار نفسها والفنان اللباد أيضا أن فازا بجائزة المعرض في العام الماضي عن إخراج كتاب «فن الواسطي من خلال مقامات الحريري» لمؤلفه د. ثروت عكاشة.

وفاة مؤلف «قصة بلا نهاية»

توفي الروائي الألماني ميشيل أنده بعد صراع مع مرض السرطان عن عمر ناهز ٦٦ عاماً.

وُلد أنده في ١٩٢٩/١١/١٢م، وكان والده فناناً تشكيليا، فتعلم الرسم على يديه؛ إلا أنه اتجه بعد الحرب العالمية الثانية إلى الكتابة المسرحية، وتحول إلى كتابة الرواية عام ١٩٦٠م؛ حيث صدرت روايته «جيم كنويف ولوكاس سائق القاطرة»، وقدم عام ١٩٧٩م أشهر رواياته «قصة بلانهاية»، وصدرت آخر رواياته «ليرون لارم» بعد وفاته بأسابيع.

أحدث الكتب

مخابرات ألمانيا الديموقراطية، تأليف كارل فيلهلم فريك، وبرنارد ماركو أردت، صدر عن دار نشر أونفرستيت فرلاج في برلين.

إيطاليا

كتالوج لكنوز الفن المسروقة

صدر - مؤخراً - كتالوج يضم صوراً لنحو ١٥٠٠ عمل فني من الأعمال التي سرقت إبان الحرب العالمية الثانية.

يحتوي الكتالوج على قائمة بأسماء الفنانين الذين سرقت لوحاتهم، ومن بينهم مشاهير مثل مايكل أنجلو ورمبرانت، كما يضم الكتالوج أسماء اللوحات وحجمها ومكان إصدارها وشرحًا للظروف التي اختفت خلالها، بهدف مساعدة الباحثين في العثور على المسروقات.

متحف للأحذية!

افتتح - مؤخراً - في فلورنسا متحف غريب في نوعه، ضم أنواعًا مختلفة من الأحذية التي صممها ونفذها الاسكافي الإيطالي سلفاتوري فيراجامو خلال بدايات القرن الميلادي الحالي وحتى العقد السادس منه.

استغرق العمل في تجهيز قاعات المتحف وترميمها تمهيدا لافتتاحها أمام الجمهور عشر سنوات!



الفائزون بجائزة نوبل

أعلنت أسماء الفائزين بجوائز نوبل لعام ١٩٩٥م في مجالات: الآداب، والسلام، والطب، والفيزياء، والكيمياء، والاقتصاد.

فاز بجائزة الآداب الشاعر الإيرلندي شيماس هيني (٥٦عامًا)، وهو ثالث إيرلندي يفوز بهذه الجائزة؛ حيث سبق أن نالها مواطناه وليام بيتس عام ١٩٢٣م وصموئيل بيكيت عام ١٩٦٩م، وهو يشغل حاليًا منصب أستاذ البلاغة الزائر في جامعة هارفارد الأمريكية، كما عمل في جامعة أكسفورد، ويعيش حاليًا في مدينة دبلن.

وإلى جانب الشعر فإن هيني باحث ومترجم قدير، ويعدونه في بريطانيا أكبر الشعراء الإنجليز الأحياء، وقد بدأ كتابه الشعر مصوراً طفولته في مزرعة أسرته في ديوانه «وفاة عاشق الطبيعة» الذي صدر عام ١٩٦٦م. ومن أشهر أعماله «باب إلى الظلام» ١٩٦٩م، «شمال» ١٩٧٥م، «الجزيرة المحطة» ١٩٨٤م، «مصباح الزعرور» ١٩٨٧م، و«رؤية الأشياء» ١٩٩١م.

ونال جائزة السلام الفيزيائي البريطاني البولندي الأصل جوزيف روتبلات (٨٧ عامًا) بالمشاركة مع حركة باغواش التي أسسها روتبلات وعشرة علماء آخرون من بينهم برتراند رسل وألبرت أينشتاين عام ١٩٥٥م لمكافحة استخدام الأسلحة النووية.

وحصل على جائزة الطب العالمان الأمريكيان إدوارد. بي. لويس (٧٧عامًا) وأريك. ف. فيشاوس (٤٨عامًا ومن أصل سويسري) والعالمة الألمانية كريستيان نوسلاين تقديراً لاكتشافاتهم في مجال التحكم بواسطة الهندسة الوراثية في النمو المبكر للجنين.

وفاز بجائزة الفيزياء العالمان الأمريكيان مارتن بيرل (٦٨ عامًا) من جامعة ستانفورد، وفريدريك رينز (٧٧عامًا) من جامعة كاليفورنيا، تقديراً لأعمالهما المخبرية المتميزة في مجال فيزياء الأجزاء الصغروية الدقيقة التي تتكون منها المادة، ولاسيما لاكتشافهما اثنين من الأجزاء الرئيسة للذرة.

ومنحت جائزة الكيمياء لكل من الهولندي بول كروتزن (٦١عامًا) والمكسيكي المولد ماريو مولينا (٥٢عامًا) والأمريكي فرانك شيروود رولاند (٦٨عامًا) تقديراً لأعمالهم في مجال دراسة كيمياء الجو، ولاسيما فيما يتعلق بتشكيل الأوزون وتفككه.

وذهبت جائزة الاقتصاد إلى الأمريكي روبرت لوكاس (٥٨عامًا) من جامعة شيكاغو نظرًا لتطويره وتطبيقه فرضية التوقعات العقلانية؛ مما أحدث تحولاً في التحليل الاقتصادي الكلي وعمقّ الفهم للسياسة الاقتصادية.

أعوامي الخمسون

ماذا بعدَها

شعر:
أحمد صدوق عبدالعليم صافي

خمسونَ عامًا، كُلَّما هادنْتُها
أو كُلَّما أوشكْتُ أن أدنو إلى
أعوامي الخمسون ماذا بعدها؟!
حلَّ الربيعُ وماأجاد عطاؤُه
طوّفْتُ في شرقِ البلادِ وغربها
لا تعتبي ياهندُ إن أخفقْتُ في
فلقد حشدْتُ إلى النجومِ قوادمًا
فتكسَّرتْ في النائباتِ قوادمي
حسبي وحسبُك إن سألتَ عن الغني
أو واحةٌ مسحورةٌ بجنانها
خمسون عامًا؛ والزمانُ يُدينُنا
عندي الكنوزُ معادنًا وصحائفًا
أو كُلَّما لحقتْ عمارةُ أرضِنا
بذل الشرابُ على اختلاف صُنوفِه
والغانيات تمايلتْ أعطافُها
أبصرْتُ من كُنْه النفوسِ عجائبًا
لحظاتُ صدْقٍ إنْ أنا مارسْتُها
والناسُ إنْ لمْ تتَّبعْ أهواءهُم
وسألتُ عن أهلِ المكارمِ والنُّهى
لبلابةٌ في الدّوحِ يُخطبُ ظلُّها
ذهبَ البُغاثُ بالمحامدَ كُلِّها
أعوامَي الخمسينَ! هل لي وقْفةٌ
أيامُ عمري أصبحتْ معدودةً
ماذا حملْتَ من الفضائلِ والتُقى
فإذا قضيْتَ وأنتَ خالٍ منهما

هذي الحياةَ تكشَّرتْ أنيابُ
سبب يشُدّ تقطَّعتْ أسبابُ؟!
هلْ بعْدُ في القلبِ العليلِ شبابُ؟!
هل تُرتجى عند الخريفِ رغابُ؟!
وغنائمي الأسقامُ والأوصابُ
طلبِ النجومِ، فما يُفيد عتابُ
خفَّاقةً لمِ يُؤتهُنَّ عُقابُ
شاء القديرُ.. وقدّر الوهّابُ
أدبٌ يُصاغُ بِهِ الفؤادُ يُذاب
هُزّي الحنينَ تفدْ إليك رطابُ
ماضٍ يئنُّ، وحاضرٌ هيّاب
والأرضُ من جورِ اليدين يباب
بحضارةِ لحِقِ النفوسَ خرابُ
ملء الكؤوسِ.. ومايلذُّ شرابُ
فرْط الدلالِ.. ولا هوىً غلاَّبُ
وعجمْتُ عيدانًا (فطار صوابُ)
سخط الصديقُ، وخاصم الأصحابُ
فهُمُ عليك أسنَّةٌ وحِرابُ
عنْ سِرٍّ غيبتِهِمْ فحار جوابُ
والسنديانُ مصيرُهُ الحطّابُ
والمحسنون بدارِهِمْ أغرابُ
وتلفُّتٌ.. وتطلُّعٌ.. ومآب
إن لم أمُتْ ندمًا فثَّمَ حساب
هذان في الأخرى هما الأنْساب
فعليك يشْهدُ سُنَّةُ وكتاب



الجزيرة
الجزيرة
تكفيك
المسائية
تثري
مساءك
تصدران يوميا عن« مؤسسة الجزيرة »للصحافة والطباعة والنشر.. ص.ب:٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف« ٤٠٢٥٥٥٥ »..تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.

الرحلات وأعلامها في الأدب السعودي المعاصر

كتاب يوازن بين رحلات العرب القديمة والحديثة والرحلات السعودية بمنظور معاصر لمفهوم الرحلات وأنواعها، وفي ذلك يقول مؤلفه محمود رداوي: «تظل الرحلات السعودية - بمختلف أنواعها - مندرجة تحت التراث والحضارة العربية الإسلامية، ويبقى الرحالة السعودي ينطلق في رحلاته - سواء كانت عبر الصحراء أم عبر الجوزاء - منطلقًا تراثيًا عربيًا إسلاميًا، لأن الصحراء واللغة والتاريخ والدين، تعيش وتسري في دمه، رغم وجوده في عالم حضاري آخر».

أعد المؤلف إصدارًا آخر - تمهيدًا لموضوع الرحلات السعودية - بعنوان «الرحلات العربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر»، وقسم الإصدار إلى أربعة أقسام: القسم الأول: الرحلات العربية القديمة، والقسم الثاني: الرحلات العربية الحديثة، والقسم الثالث: الرحلات الإسلامية المعاصرة، وفي القسم الرابع عالج نموذجين من الرحلات الأوربية.

أما في كتاب «الرحلات وأعلامها في الأدب السعودي المعاصر»؛ فقد تناول المؤلف نحو ١٥ رحلة قام بها أعلام سعوديون، منهم: فؤاد شاكر، وأحمد علي، وحمد الجاسر، وعبدالله بن خميس، وعبدالعزيز الرفاعي، ومحمد عمر توفيق، والجهيمان، والرويشد، وعبدالله الحقيل، وفهد العريفي، وعاتق البلادي، وعبدالعزيز المسند، وعبدالله الشهيل، ومحمد المفرجي، ومحمد ناصر العبودي، ويحيى المعلمي.

ويؤكد المؤلف: أن معظم الرحالة السعوديين يسعون وراء أهداف سامية في رحلاتهم، ويعبرون عن معاناتهم في بلوغها، فتتكشف لنا سيرتهم الذاتية، وهم يدأبون، ويكافحون، ويكابدون، ثم وهم يزهون ويفتخرون بما وصلوا إليه، وحققوه من ثقافات ومعارف علمية وعملية، ورسالات روحية ودينية. كما أن معظم الرحالة السعوديين الذين جابوا الصحارى، وبخاصة نجد، استطاعوا تصوير الأجواء والأضواء التي أضفاها الملك عبدالعزيز، ومن بعده أنجاله على الصحراء في تحقيق الأمن والرخاء والتحضر».

صدر الكتاب حديثًا في الرياض، ويقع في ٥٥٤ صفحة من القطع الكبير.

حرب القوقاز الأولى

يطلق على الحرب التي جرت في القرن التاسع عشر بين القوات الروسية القيصرية وشعوب القوقاز، إبان التوسع الروسي إلى الجنوب باتجاه القوقاز، عدة أسماء، منها الاسم الشائع «حرب القوقاز»، بينما تسميها مصادر تاريخية أخرى «حرب المريدين»، نظرًا لأن الحركة المريدية الإسلامية هي التي قادت شعوب القوقاز في هذه الحرب، كما يطلق عليها أيضًا اسم «حرب الجبلين»، في إشارة إلى الطبيعة الجبلية التي تميز بلاد القوقاز.

وقد قام د. أحمد موسى الشيشاني بتسليط الضوء على حرب القوقاز التي ظلت مشتعلة زهاء ثلاثين عامًا (١٨٢٩-١٨٥٨م)، وعرض المؤلف خلفية تاريخية وجغرافية عن منطقة القوقاز، توضح طبيعة الأحداث والظروف السياسية التي ساعدت على تحريكها، وأثرت فيها سلبًا وإيجابًا. ويسرد المؤلف المقومات التي جعلت المنطقة هدفًا لكل قوة غاشمة تريد احتلالها والسيطرة على ثرواتها، وتستثمر، سياسيًا، موقعها الاستراتيجي. وتابع المؤلف أطماع الروس في القوقاز منذ عهد القيصر بطرس الأكبر، ومن بعده كاترينا، مرورًا بألكسندر الأول؛ الذي كلف في عام ١٨١٦م القائد الروسي المشهور يرملوف، مهمة إخضاع القوقاز، وبالفعل حقق يرملوف تقدمًا نظرًا لأن القوى القوقازية لم يكن بحوزتها السلاح الذي يمتلكه الجيش الروسي، ولا التنظيم الكافي لاستمرار المقاومة.

وعرض المؤلف المرحلة الثانية الرئيسة في حرب القوقاز التي بدأت في عهد القيصر نيكولا الذي خاض حربين خلال ثلاث سنوات (١٨٢٦-١٨٢٩م) ضد كل من إيران وتركيا؛ فقد ظهرت بوادر حرب القوقاز مع ظهور حركة المريدين، وهي حركة إصلاح ديني، بزعامة غازي مولا الذي لاقى تجاوبًا من سكان المنطقة، وحقق انتصارات سياسية وعسكرية، رد عليها الروس بقسوة وتدمير شديدين، كما حدث في معركة غمري الملحمية التي استشهد فيها غازي، فخلفه حمزات، وبعد اغتياله انتقلت الإمامة إلى شامل دنغان الذي امتدت شهرته إلى العالم الإسلامي وأوربا؛ لأن فترة زعامته كانت العصر الذهبي للحركة المريدية التي قادت الجهاد في القوقاز.

أدار شامل أهم مراحل الحرب من بلاد الشيشان، بعد انسحابه من فولكو في جبال الداغستان، واتفاق زعماء الشيشان المحليين على إسناد الزعامة إليه، لتوحيد صفوف الأهالي الثائرين أصلاً ضد الروس. وعرج المؤلف على حرب شبه جزيرة القرم التي دارت بين روسيا من جانب وتركيا بمساعدة فرنسا وبريطانيا من جانب آخر.

وأورد المؤلف في خاتمة كتابه بعض الأسباب والعوامل التي يرى أنها ساعدت على انتصار الروس في حرب القوقاز.

يقع الكتاب في ١٨١ صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر عن رابطة العالم الإسلامي ضمن سلسلة «دعوة الحق».

الكتاب تحريره ونشره

تناول المؤلف د. موريس أبوالسعد ميخائيل صناعة الكتاب عبر الحضارات القديمة في الشرق الأوسط، وبداية طباعة الكتب العربية في الدول الأوربية، ثم الدول الإسلامية والعربية. والكتاب محاولة جادة لتقديم خطة عامة وشاملة لإخراج الكتب العربية على نمط واحد. وتناول المؤلف الضوابط التي تعالج موضوع حقوق النشر، وحقوق المؤلف، وعرض الاتفاقات الدولية (مثل اتفاقية برت لحماية المصنفات الأدبية والفنية)، والاتفاقات الإقليمية (مثل الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف)، والنظم المحلية (مثل نظام حقوق المؤلف في المملكة العربية السعودية، ونظام الإيداع القانوني).

كما قدم المؤلف عرضا للمواصفات القياسية الخاصة بعمليات النشر، شمل مختصرًا لبعض تلك المواصفات، وترجمة للبعض الآخر. ونظرًا لحداثة استخدام الرقم الدولي المعياري «ردمك» للكتاب في العالم العربي، فقد أفرد المؤلف بضع صفحات من الكتاب تناولت تعريف الرقم الدولي المعياري للكتاب وطرق الحصول عليه، وطريقة حسابه، وكذا الرقم الدولي المعياري للدورية «ردمد». كما خصص المؤلف فصلاً عرض فيه المكونات الأساسية المتعارف عليها دوليًا للكتاب.

وتناول المؤلف بالشرح الخطوات المتبعة في إنتاج الكتاب بدءًا من العمليات التحريرية التي يجب إجراؤها قبل دفع أصول الكتاب إلى عملية الصف، مرورًا بمرحلتي الطباعة والتجليد، ووصولاً إلى التسويق. وذيّل المؤلف كتابه بقائمة من المراجع العربية والأجنبية، إضافة إلى ثبتين للمصطلحات العلمية الواردة في متن الكتاب أحدهما عربي/إنجليزي والآخر إنجليزي/عربي، وهناك كشاف للموضوعات.

صدر الكتاب عن مكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض، ويقع في ٣٨٢ صفحة من القطع العادي.

مسابقة مجلة الفيصل

١ـ جوائز المسابقة :

جوائز عديدة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ ـ ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريالاً، ١٥٠ ريالاً)

ب ـ خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج ـ عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د ـ خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢ـ شروط المسابقة :

أ ـ الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية ـ وليس نسخة مصورة ـ للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثياً أو رباعياً ـ إن أمكن ـ وعنوان المراسلة.

ب ـ ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة ، مجلة الفيصل،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ ـ أية إجابات تصل بعد ٤٥ يوماً (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د ـ من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة (العدد ٢٢٦)

ج١ : المقصود بالرفث: الجماع؛ أي إتيان النساء، وكذلك دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء. أما الفسوق: فهو جميع المعاصي كما ذكر ذلك ابن كثير عن جماعة من الصحابة والتابعين. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

ج٢ : من الأحاديث التي دلت على تحريم مكة المكرمة قبل خلق السماوات والأرض:

١ ـ ماروي في الصحيحين عن عبدالله بن العباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنفّر صيده، ولا يُلتقط لقطته إلا من عرّفها، ولا يُختلى خلاها». فقال العباس: يارسول الله إلا الإذخر فإنه لِقينهم وبيوتهم، فقال: «إلا الإذخر».

٢ـ مارواه البخاري ومسلم عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد ـ وهو يبعث البعوث إلى مكة ـ: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به. إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخّص

نتائج مسابقة (العدد ٢٢٦)

أ ـ فازت بالجائزة المالية الأولى، وقدرها ٥٠٠ريال سعودي، مباركة جيّاب، المسيلة ـ الجزائر.

وفازت بالجائزة المالية الثانية، وقدرها ٣٥٠ريالا سعوديا، إيمان عبدالله عبدالرحمن الماجد، الرياض ـ المملكة العربية السعودية.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها ١٥٠ريالا سعوديا، الشيخاني ولد عبدالقادر، نواكشوط ـ موريتانيا.

ب ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤عدداً)، كل من:

١ ـ عبدالجواد عبدالجواد الإمام عيد، دمياط ـ مصر.

٢ ـ خليفة حسين العويِّد، دمشق ـ سورية.

٣ ـ محمد صالح ويحامة، الخرطوم ـ السودان.

٤ ـ محمد أحمد العامري، لاهور ـ الباكستان.

٥ ـ زينب حسن غنيم، الزرقاء ـ الأردن.

ج ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢عدداً)، كل من:

١ ـ سّارة رضا النجار، رادس ـ تونس.

٢ ـ عبدالحميد محمد علي الشريف، حماة ـ سورية.

٣ ـ هند إبراهيم زاهر، الدقهلية ـ مصر.

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)
الاسم: ....
العنوان: ....

بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا: إنّ الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم،وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ليبلغ الشاهد الغائب». وهناك أحاديث أخرى في هذا المعنى.

ج ٣ - هو الصحابي الجليل أبو عبدالرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي المكي المهاجري البدري، حليف بني زهرة.

كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين. شهد بدرا، وهاجر الهجرتين، وسكن على مقربة من المسجد، وشهد الغزوات كلها. وقف إلى جانب أبي بكر في حروب الردة. أرسله عمر إلى الكوفة ليشرف على بيت المال ويعلم الناس أحكام الدين. من المحدثين والمفسرين والفقهاء الأول، يتحرّى في الأداء، ويتشدد في الرواية والضبط. كتب بيده مصحفا، وروى عنه جماعة من الصحابة، وفي مسند الإمام أحمد مجموعة رواياته.

ج ٤ - ينسب هذا البيت للشاعر سُحيم بن وثيل الرياحي اليربوعي التميمي أحد المخضرمين، وقد استشهد به الحجاج بن يوسف على منبر الكوفة.

ج ٥ - هو الفيزيقي الأمريكي أنريكو فارمي (١٩٠١-١٩٥٤م)، ولد في إيطاليا، ودرس الفيزيقا في جامعاتها. قدم إلى أمريكا (١٩٣٩م) وعُيّن أستاذا للفيزيقا في جامعتي كولمبيا وشيكاغو. نال جائزة نوبل في الفيزيقا (١٩٣٨م)؛ لبحوثه ودراساته على المواد المشعة. وقد ساعدت أبحاثه على صنع القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية. وكان أول من افترض وجود الجسيم الذري المسمى «نيوترينو»، كما اكتشف العنصر رقم ٩٣ المسمى الآن: بنتونيوم.

٤ - حسين عبدالله حسين البحجان، الظهران - المملكة العربية السعودية.

٥ - شعاع علي محمد إسماعيل، المحرق - البحرين.

٦ - الشعيري يوسف بن عبدالسلام الخويمي، تطوان - المغرب.

٧ - عبدالله يوسف السلاق، عمان - الأردن.

٨ - وناس عامر جعفر، بوسعادة - الجزائر.

٩ - نبيل قائد عطاء نعمان، صنعاء - اليمن.

١٠ - عمر عبد المجيد غريب، ديرالزور - سورية.

د - كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

١ - منيرة حامد أحمد حمودة، الزقازيق - مصر.

٢ - عبدالقادر علي النعيم، شندي - السودان.

٣ - محمد محمد اللنجري، طنجة - المغرب.

٤ - توفيق بن مختار بن الشافعي الماجولي، بنزرت - تونس.

٥ - حامد هزاع غطيش البركاتي، مكة الكرمة - المملكة العربية السعودية.

أسئلة مسابقة (العدد ٢٢٩)

السؤال الأول:

حث الشارع الحكيم على الجهاد ضد العدو لإعلاء كلمة الإسلام، وأوجب الثبات في الميدان عند لقاء العدو. اذكر آيتين من كتاب الله تعالى تدلان على ذلك.

السؤال الثاني:

وردت أحاديث شريفة في بيان أن «الشهيد» يكون أيضًا في غير القتال. اذكر ثلاثة أحاديث في ذلك.

السؤال الثالث:

نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين عن كثرة الحلف. اذكر أربعة أحاديث تدل على ذلك.

السؤال الرابع:

اذكر الأسماء الكاملة للأعلام الاتية:

١- أبو الدرداء رضي الله عنه، أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، غسيل الملائكة رضي الله عنه، الرّميصاء رضي الله عنها، أبو ذر الغفاري رضي الله عنه.

السؤال الخامس:

ماحل هذا اللغز الشعري:

ماسمُ شيءٍ حسنٍ شكلهُ
تلقاه عند الناس موزونا
تراه معدودًا فإن زدتَّهُ
واوًا ونونًا صار موزونا

قسيمة مسابقة مجلة
الفيصل
العدد (٢٢٩)
مجلة الفيصل - ص.ب: (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

ويأتيك بالأمثال

يَأكُلُ قُوَيْبٍ وقَابًا يَرْتَقِبُ

يُضرب لمن يسأل حاجتين ويعد الثالثة حرصًا، كقولهم: «لا يُرسل السَّاقَ إلا مُمْسكا سَاقا»

يقال: القوب الفرخ، وكذلك القابة والقاب، ويقال: تقوبت القابة من قوبها، وقال بعضهم: القوبة البيضة، وقال بعضهم: القائبة البيضة.

والصواب أن يكون القوب والقاب الفرخ، والقائبة والقابة - بسقوط الياء - البيضة، فاعلة بمعنى مفعولة؛ لأن الطائر يقوب البيضة، وأصل القوب القطع، يقال: قُبْت البلاد؛ أي جُبتها، والقائبة هي البيضة تقوب - أي تنشق وتنفلق - عن الفرخ.

أول فرقة إطفاء

تأسست أول فرقة إطفاء في العالم في مدينة روما عام ١٠٠ قبل الميلاد، وقد أسسها يهودي يدعى ألينوس كراسوس، وكان يعمل سقاء، ويملك عدة عربات لنقل الماء، وعندما كان يشب حريق في منزل أحدهم كان كراسوس يفاوضه، قبل أن يساعده بالماء، في شراء بيته بسعر بخس، وبهذه الطريقة الوضيعة تمكن كراسوس من تحقيق ثراء فاحش، ومع الوقت صار لديه فرقة إطفاء تضم خمسمئة رجل مع كل تجهيزاتهم.

الشكر بالقلب والشكر باللسان

سئل حكيم أن يصف الشكر بالقلب والفرق بينه وبين الشكر باللسان، فقال: الشكر بالقلب يُعرف بالجنان، وذكر باللسان، وعمل بالأركان. أما الذي يشكر باللسان فقط، ولم يشكر بجميع جوارحه، فمثله كمثل من له كساء، فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

هكذا كانوا

شتم أحدهم الصحابي الجليل أباذر الغفاري رضي الله عنه. واستمع أبو ذر إلى الشتائم ثم قال في أناة وحلم: ياهذا لاتغرق في شتمنا، ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

ينتظر

كان الروائي البريطاني إدجار دالاس، أحد أشهر كُتّاب الرواية البوليسية سريعا جدا في الكتابة، حتى إنه كان يعتقد أن بضع ساعات تكفيه لكتابة رواية بوليسية كاملة. وذات يوم دقّ جرس هاتف منزله، وكان المتحدث أحد أصدقائه، فقال له الخادم: آسف لايمكن إزعاج السيد حاليا، إذ بدأ قبل قليل في كتابة رواية جديدة. فقال المتحدث: لابأس سأنتظره حتى يفرغ منها!

مقام الرضا

سُئل يحيى بن معاذ يومًا: متى يبلغ الصبر مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة فصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

أعجز الناس

سئل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه :مَن أعجز الناس؟ فقال: مَنْ عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيَّع من ظفر به منهم.

من نوادر اللغويين

كان العالم اللغوي أبو علقمة من هواة البحث



الواجهة الرئيسية الغربية لقلعة المصمك، وتبدو البوابة والبرج الشمالي الغربي ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م

استراحة العدد

عن أصول الألفاظ الغريبة، وله ولع باستخدامها، واحتاج يومًا إلى غلام يساعده، واشترط أن يكون ذكيًا نشيطا، وكان له ماأراد، وصحا يومًا مبكرًا لقضاء شأن ما، وحين لم يتعرف الوقت سأل الغلام: ياغلام، أصقعت العتاريف؟

وحار الغلام فيما يقول، فالجملة كانت غريبة عليه، إلا أن ذكاءه هداه إلى القول: زقفليم!

ولم يفهم أبو علقمة بدوره الكلمة، وراح يكد ذهنه لعله يجد لها معنى ففشل، فقال: ومازقفليم ياغلام؟ فرد الغلام: وما صقعت العتاريف؟ فقال أبو علقمة: صقعت العتاريف يعني صاحت الديوك! فرد الغلام: وزقفليم تعني أن الديوك لم تصح بعد .

فأدرك أبو علقمة مدى ذكاء الغلام وفطنته، فقربه إليه.

العلم النافع

قال حكيم: لاشيء يزكي النفس أو يسود القلب مثل العلم النافع، وليس هناك علم أنفع من التجربة، وما أصدق قول بعض العارفين في هذا المعنى: العقل سلطان وله جنود، فرأس جنوده التجربة، ثم الفكرة، ثم الحفظ، ثم سرور الروح؛ إذ لا ثبات للجسم إلا بالروح، والروح سراج ونوره العقل.

كل ينفق مما عنده

مما يروى عن السيد المسيح عليه السلام أنه مرَّ يومًا بجماعة من اليهود فقالوا شرًا، فقال لهم خيرًا، فقيل له: إنهم يقولون شرًا، وأنت ترد عليهم خيرًا، فأجاب المسيح عليه السلام: كل ينفق مما عنده.

السؤال ذاته

كتب أحد الأدباء يقول: إن حياة أي رجل منا تتألف من عشرين عامًا لاتكف أمه خلالها عن أن تقول له: إلى أين أنت ذاهب يابني، ومن أربعين عامًا أخرى لاتكف زوجته خلالها عن توجيه السؤال نفسه إليه، وفي النهاية يتداول المعزون السؤال ذاته.

الحجاج والأخيلية

دخلت الشاعرة ليلى الأخيلية يومًا على الحجاج بن يوسف الثقفي فأنشدته من الشعر ماجعله يهتز طربًا، فأمر أحد حجابه قائلا: ياغلام، اذهب إلى صاحب بيت المال وقل له اقطع لسانها!

فذهب الغلام إلى صاحب بيت المال ونقل له كلام الأمير، فأمر الأخير بإحضار الحجام لقطع لسان ليلى، التي صرخت فيه: ثكلتك أمك ونبذك ذووك، أما سمعت ما قال الأمير؟ قال: نعم سمعت، فقاطعته: إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. وارتبك صاحب بيت المال وأرسل رسولا إلى الحجاج الذي استشاط غضبا، وذهب بنفسه إلى بيت المال وهمَّ بقطع لسان صاحبه، لولا أن الأخيلية تشفعت لديه فعفا عنه.

حكمة

الذي يشتغل بيديه: عامل، والذي يشتغل بيديه وعقله: محترف، أما الذي يشتغل بيديه وعقله وقلبه فهو: فنان.

الدنيا

خطب الخليفة المهدي يوما فقال: الدنيا دار غرور، وبلاء وشرور، واضمحلال وزوال، وتقلب وانتقال، فقد أفنت مَنْ كان قبلكم، وهي عائدة عليكم وعلى مَنْ بعدكم، من ركَنَ إليها صرعته، ومن وثق بها خانته، ومن أمّلها كذبته، ومَن رجاها خذلته، عزها ذل، وغناها فقر، والسعيد مَن تركها، والشقي مَن آثرها، والمغبون فيها مَن باع حظه من دار آخرته بها.

بين أديبين

التقى الدكتور زكي مبارك يومًا بالأديب توفيق الحكيم، وكان الأول يوزع نسخا من كتابه «ليلى المريضة في العراق» هدية إلى بعض الأصدقاء. فقال له الحكيم: كيف يازكي بك تفرق ليلاك المريضة على أصدقائك وتنسى «الحكيم».

من نوادر الاسكتلنديين

من الفكاهات التي تروى عن بخل الاسكتلنديين أن اسكتلنديا استعار كتابًا من صديق ليقرأه، فكان ينهض كل دقيقتين ليطفئ نور المصباح، ثم يعود ليجلس ويقوم مجددًا لينير المكان، فسألته زوجته: لماذا تفعل هذا ياجورج؟ فقال: إنني اقتصد في الكهرباء، فلست بحاجة إلى مصباح حين أقلب صفحات الكتاب.

إجابة ذكية

سأل حكيم غلاما معه سراج: من أين تجيء النار بعد ما تنطفئ؟ فقال الغلام: إن أخبرتني إلى أين تذهب بعد انطفائها أخبرتك من أين تجيء.

عقوبة

قال عبدالله بن طاهر يومًا لشيخ أضحكه: يا شيخ قد تقرَّح شدقك. فقال الشيخ: تلك عقوبة من الله لكثرة ثنائي عليك بالباطل!

قالوا

- المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة، لايضل معهما رأي ولايفقد معهما حزم (عمر بن عبدالعزيز).
- إن المهزوم إذا ابتسم أفقد المنتصر لذة فوزه (شكسبير).
- إذا كانت جبال الألب الشاهقة تمنعني من التقدم فيجب أن تزول من الأرض (نابليون بونابارت).
- إننا نعيش في عالم غريب، أصبح كل شيء فيه ممكنا (بلزاك).
- لاتيأس، فلا حياة مع يأس ولا يأس مع الحياة (المجاهد المصري مصطفى كامل).
- يولد المرء حرًا، فإذا مشى على الأرض أثقلته الأغلال (جان جاك روسو).
- العمل يقتل أكبر أعداء الإنسان: الملل، والشر، والفقر (فولتير).

سقراط وضيوفه

دعا الفيلسوف سقراط جماعة من أصدقائه إلى الطعام، فلما رأى أحد أصدقائه بساطة الطعام قال له: كان الأجدر أن تزيد اهتمامك بضيوفك. فقال سقراط: إن كان ضيوفي عقلاء فعلى المائدة مايكفيهم، وإن كانوا غير عقلاء فعلى المائدة أكثر مما يستحقون.



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع.
وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

جذور العشق

شعر:

علي عبدالله الفرج

القطيف ـ السعودية

حين تغفو السنون... تستيقظ الأحـ ـلام تحيا.. تهزّ روحَ السواقي(١)

وتكونين في رؤاي سرايا الـ ـحبِّ تكوي مشارفَ الآماقِ

اصمتي.. إنها المسافات تضرى في دمي تلتوي على أعراقي

زفرة الوجد تستفزُّ خطى قلـ ـبي وتقسو على رماد احتراقي(٢)

وطيوفُ اللقاء أقبيةُ العمـ ـر.. عليها تناثرت أشواقي

آهِ.. ياليلها اللجوج بأسقا مِ الهوى كم سبحتَ في أعماقي

واستفاقت هناك أشرعة الذكـ ـرى ورفّتْ خواطرُ المشتاقِ

فإذا أنت ضحكةٌ خنقتها دمعةُ الحبِّ في حنايا الفراق(٣)

لملمي وجدَنا فلن يستحيل الـ ـعيشُ في روعة الهوى الدفّاقِ

والفراقُ الطويلُ تنحرُهُ الأعـ ـمارُ.. تمحو مهامه الآفاقِ

لن تموتَ الجذور عطشى فنبض الـ ـعشقِ روحٌ تدبُّ في العشاقِ

التعليق:

أبيات «جذور العشق» لعلي الفرج التزمت بحر الخفيف وقافية المتواتر ورَويّ القاف. وهي موزونة تجري مع وزن الشّعر، وقد وظّفَ الشاعر ماعنده من قريحة شعرية لتتبُّع جذور العشق والوصول إلى أعماقها، وقد سار في ذلكم سيرًا ملموسًا. ولعل الملاحظة هي في الأبيات التي أشرت إليها بالأرقام (١، ٢، ٣)؛ حيث جاءت تفعيلاتها «فاعلاتن» وهي تفعيلة خفيفة لكنّها طويلة المقطع في الوتد المجموع في وسطها، وكانت بقية الأبيات في تفعيلة الضّرب «مفعولن» وهي تفعيلة حاق بها زحاف التشعيث، ولو حذف أحد متحركي الوتد المجموع فتقصّر التفعيلة وتكون كلّها من أسباب خفيفة ثلاثة.

ومعلومٌ في العروض أن الزّحاف لايُلتزم؛ بل الذي يُلتزم هو العلّة، وهذا مقبولٌ في بحر الخفيف؛ حيثُ تكون تفعيلات الضرب أمشاجًا من التفعيلات التامة والأخرى المشعّثة. ولَكنّ من يتذوق الشّعر يُفضل التزام تفعيلة واحدة تامة أو مشعّثة.

هديل الجراح

شعر:
هيثم إبراهيم شعبان
درعا - سورية

لُمّي ضـيـاءك واهجـري مـصـبـاحي
طيـري إلى النجـمـات وحـدك صبـوةً
مُـرّي مـرورَ الموجِ تسـبـيـحًـا على
حُـزني بـحـجم الصمـت يقطر حكمـةً
لا تغـزلي سـهـلاً يضمُّ مَـواجـعي
وحـدي على حـدّ الحنين مـحـاربٌ
كـيـفَ الوصـولُ إلى قـرارة دمـعنا
لا قـبـرَ تحتَ الشـمـسِ يمنعُ ظلّه
لا جـرحَ يومَ العـصفِ يـصـرُ مـدّهُ
وروايةُ الأحـزانِ حـقلُ خناجـرٍ
يا راحـلاً حـتى الشـمـالةِ، لم يكدْ
مـازال في بالِ السـحـاب مـواسمٌ
ومن الليـالي ألفُ ألفِ حكايةٍ
سـافـرْتَ للنورِ الذي لا ينطفي
والموتُ فـتحٌ لا تُدارُ كـؤوسـهُ
يحـتـارُ فـيـه الناسُ وهْوَ حـقـيـقـةٌ
أيظنُّ قـبـرٌ يحـتـويكَ ظلامُـهُ
إنـي لمحـتـكَ في دمـوعِ ربابةٍ
ورأيت ظـلّـكَ والقـلوبُ نـواظرٌ
قـسـمًـا بمنْ جـعلَ اليراعـةَ في دمي
إنّي على عـهـد المحـبـة مـا همى
واعـذر بيـاني تسـتـرحْ آلامُـهُ

ودعي جـراحي تسـتـحثُّ جـراحي
فـأنا الذي هِيضَ الغـداةَ جناحي
بَوْحِ الشّـراع وبُحّـةِ الملاّحِ
والصـمتُ رجْعُ بلاغـةِ الأرواحِ
فـالريحُ تصـهلُ في مـدى أتراحي
وقـد استـفـقْتُ على دمـوع سلاحي
وعلى المفـارق مـديةُ الذبّاحِ
أن يسـتـطيل لخـاطرِ السـفّـاحِ
فـعلى الرمـال جَـمـاجمُ الأفـراحِ
بَتَـرَت يَد الكُتّـاب والشُّـرّاحِ
يزهو بزهرِ مـوسمُ التـفّـاحِ
للحـبِّ تنشـرها بكـل بِطاحِ
لم تكتـحلْ أجـفـانُهـا بصـبـاح..
وتركـتني في عـالم الأشـبـاحِ
إلا بكـفِّ الواحـدِ الفـتّـاحِ
والحقُّ لايحـتـاجُ للإيضـاحِ
أنّا سننسى زهـوةَ الأرمـاحِ
تحكي حنينَ الطيـرِ في الأرواحِ
يرتادُ حـقـلَ زنابقٍ وأقـاحِ
وهجًـا يُحـاكي هجـمـةَ الإصبـاحِ
مطرٌ يماثلُ عـبـرةَ الملتـاحِ
فـلأنت أكـبـرُ من هديلِ جِـراحي

التعليق:

«هديل الجراح» قصيدة نسجت في بحر الكامل وقافية المتواتر ورَويّ الحاء. وهي أبيات موزونة سايرت ميزان الشعر.

وقد استطاع الشاعرفيها أن يُعالج موضوعه بثقة وترو؛ حيث عقد مقابلة بين عالمين: عالم الفرح والنّشوة والانتصار، ورمز لهذا العالم بالضّياء والمصباح والموج والشراع والرّيح والسّلاح والسّحاب والصّباح والنّور والحقّ وزهوة الأرماح واليراعة والإصباح والمطر. وعالم الهزيمة والضيّاع والانكسار، ورمز له بالجراح والجناح المهيض ومدية الذّبّاح والسّفّاح والجرح وعالم الأشباح والموت وهديل الجراح. ولكنّ الشاعر انتصر لفرحته في عالم الفرح والنشوة والانتصار حين جدّت عباراته وهزم العالم النقيض؛ فقد كانت فيه شاعرية تُعطيه بعضا ممّا يرمي إليه، ويستطيعُ أنْ يمتطيها لأغراضه.

وكلماته سهلة واضحة المعاني خالية من الغموض الذي يمكن توجيهه توجيها لم يرده الشاعر.

د. محمد إدريس

متابعات:

الأخ مؤنس البخاري، دمشق - سورية:
نتمنى أن نقرأ لك موضوعات أفضل مما أرسلت، حاول أن تتعود على طرح أفكار مهمة وجديدة قدر الإمكان، أما الأسلوب فتطويره يعتمد على عاملين رئيسيين: القراءة الواعية وممارسة الكتابة باستمرار، وننصحك بألا تستعجل النشر حتى تتمكن من المهارات الأساسية للكتابة. نتمنى لك التوفيق في دراستك وفي ممارسة الكتابة.

الأخ مروان عريف، اللاذقية - سورية:
نحن متفقون طالما أنك ترى أن اختصار المقالات «أمر مشروع لكل مجلة نظرًا لمقتضيات الإخراج وحاجاته»، وموضوعك لم يُختصر إلا لكونه طويلاً بالفعل، ولعل هذه التجربة تفيدك في الاهتمام بتكثيف الفكرة مستقبلاً والتعبير عنها بعبارات أو كلمات أقل، وهذه قدرة لا تتأتي إلا بالممارسة. أما المكافأة فنأمل أن تكون قد وصلتك.

الأخ لحسن باكور، مراكش - المغرب:
«رحيل الليل» ينتظر دوره، وستجد محاولتك القصصية منشورة في هذا الباب مع قراءة نقدية توجيهية إذا كانت مناسبة للنشر، أو على الأقل ستقرأ تعليقا عليها ضمن هذه السطور في أحد الأعداد المقبلة.



الأخ عادل حمدي سليمان غانم، سرس الليان، المنوفية ـ مصر:

«ليـه بيـقـولوا أي كـلام؟ هذا التساؤل/العنوان الذي جعلته لما أسميتَهُ «قصيدة زجل» نوجهه بدورنا إليك! وبقدر اعتزازنا بمراسلتك إيانا نعاتبك كثيرا لأسباب، منها الكتابة بالعامية، في موضوع هابط، وتوجيه ما كتبته إلى مجلة «الفيصل».

نأمل منك ومن أمثالك من الشباب المتطلع إلى الثقافة الحقة احترام اللغة العربية على الأقل إن لم نقل: العناية بها، وترك الموضوعات التي لا معنى لها (أي كلام)، وتوجيه الطاقات الفكرية والهوايات إلى كل ما هو مفيد وبناء. والأفق أمامك واسع وجميل لو تأملت مليًا يا أخ عادل!

الأخوين عيسى محمد أحمد آدم، الخرطوم ـ السودان، عبداللطيف ياسين، الدار البيضاء ـ المغرب:

أحلنا رسالة كل منكما إلى الإدارة المختصة للتحقق من سبب عدم تلقيكم الجوائز التي فزتم بها في مسابقات أعداد ماضية، وستتولى إبلاغكم بالرد، ومعذرة!

الأخ جمال عبدالله، بنان ـ تونس:

طلبك الخاص بكتاب «تاريخ الإسلام السياسي» أحلناه إلى قسم خدمات المعلومات في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وسيتجاوب معك في حالة توافر الكتاب لديهم.

الأخ سيد أحمد سعيد الأفغاني، بيشاور ـ الباكستان:

نرحب بالتعاون معك، وبإمكانك إرسال مالديك لنطّلع عليه ثم نبلغك رأينا في إمكان نشره.

الأخ ناصر عبدالله الصقري، جامعة آل البيت ـ الأردن:

مشاعرك الفياضة نشكرك عليها، أما طلب منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية فيرجى أن يتم من طريق مراسلته مباشرة، وتجد عنوانه منشورا في باطن الغلاف الأخير من هذه المجلة.

الأخ عادل صالح باعشن، المكلا، حضرموت ـ اليمن:

جميع الملاحظات الواردة في رسالتك محل الاهتمام، مع شكرنا لك.

الأخ مخلص موسى الطويل، دمشق ـ سورية:

يتعذر علينا ـ مع الأسف ـ نشر تعليقك في «مناقشات وتعليقات» لكونه مكتوبًا على وجهي الورقة. أما استفساراتك الموجهة إلى فضيلة الشيخ د. صالح اللحيدان فقد عرضناها عليه وسيجيبك عنها في أقرب فرصة إن شاء الله.

الأخ محمد قاسم زيد، صعدة ـ اليمن:

شكرا على تهنئتك باليوم الوطني للمملكة العربية السعودية، ونقدر لك مشاعرك الأخوية الكريمة.

الأخ محمد أبكر محمد يوسف، الخرطوم ـ السودان:

تصحيح الدكتور الشنطي لك كان في محله؛ فكلمة «المتسببة» في قصتك المترجمة ليست صفة لكلمة «خفة» ولكنها خبر «إن»، أما بقية ملاحظاتك فهي مسائل أسلوبية كما تعلم.

الأخ بندر يحيى القحطاني، أحد رفيدة ـ عسير:

نرحب بمراسلتك لنا، ولكن نرجو الاطلاع على ردنا على القارئ الأخ عادل حمدي سليمان، والعتاب نفسه نوجهه إليك!

الأخ معوشي موسى، بجاية ـ الجزائر:

زاوية «بين القارئ والقارئ» فكرتها واضحة ومبينة في الزاوية نفسها، ومن ثم فهي مخصصة لتبادل المطبوعات النافعة وبخاصة القديمة منها أو المتوقفة عن الصدور. أما أن يتبرع قراء بقيمة اشتراكات لقراء آخرين فهذا ليس واردًا.

الأخ قعمز أحمد، الجلفة ـ الجزائر:

نرحب بصداقتك وبتعاونك معنا، فأهلا بك.

الأخ إسماعيل حقي صومر، حلب ـ سورية:

ردا على استفسارك حول شجرة النبع أو الشوحط، المستوحى من قراءتك لموضوع «الحرف والصناعات الشعبية» المنشور في العدد ٢٢٤، نجيبك بما يلي:

ورد الشوحط في «المعجم الوسيط» بأنه ضرب من شجر جبال السراة، تتخذ منه القسي، ونباته قضبات تنمو كثيرة من أصل واحد، وورقه رقاق طوال وله ثمرة مثل العنبة الطويلة؛ إلا أن طرفها دقيق وهي لينة تؤكل، واحدته: شوحطة. أما في «لسان العرب» فالنبع والشوحط شجرة واحدة، ولكن تختلف أسماؤها بكرم منابتها؛ فما كان في تلة الجبل فهو النبع، وما كان في سفحه فهو الشريان، وما كان في الحضيض فهو الشوحط. وقد لايكون الشوحط من النباتات التي تنبت في سورية، لكنه معروف في جنوب المملكة العربية السعودية واليمن.

الأخ لحمر لخضر، وهران ـ الجزائر:

قسم خدمات المعلومات في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية سيقدم لك الخدمة اللازمة بشأن بحثك، فترقب رسالة منه وشكرًا.

بين القارئ والقارئ

أرجو أن يتفضل أحد الإخوة الكرام بتمكيني من الحصول على:
أ- سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني.
ب - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
ولكم جزيل الشكر، والله لايضيع أجر المحسنين.

عبداللطيف جلاّب
زنقة السعديين - درب سيدي مبارك رقم ٥٠
مراكش، الرمز البريدي ٤٠٠٠٠ - المغرب

أرجو من القراء مساعدتي في الحصول على الإصدارات التالية:
- ديوان «مع الله» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري - يرحمه الله -.
- ديوان «رياحين الجنة» للأميري أيضا.
- «نظرات في الأدب» للشيخ أبي الحسن الندوي.
وشكرا.

صالح بورخصير
ص.ب ١١٠٤ بسكرة ٧٠٠٠ - الجزائر

أرغب في الحصول على بعض أعداد سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية التي فاتني شراؤها، وذلك من طريق شرائها أو مبادلتها بمجلات أخرى. وأرقام الأعداد المطلوبة هي (٦، ٨، ١١، ١٢، ١٣، ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٧٤، ٧٩، ٨٠). ولكم جزيل شكري.

محمد الحمادي بن علي ص.ب ٣١٠٥ حلب، سورية

أرغب في الحصول على كتب تتعلق بدراسة تاريخ الأدب الإنجليزي أو الأدب الأمريكي، وأنا مستعد أن أرسل لمن يرسلها لي مجموعة كبيرة وقيمة من الطوابع. وشكرا لمجلة «الفيصل»

محمد يحيى محمد ص.ب ٨٧٠٤٠ ذمار، اليمن

تنقصني مجموعة من أعداد «الفيصل»، وأرجو من القراء تزويدي بها مقابل مجموعة متنوعة من الكتب والمجلات، والأعداد المطلوبة هي: ٨٣، ٩٢، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٤٦، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٣. وشكرا.

خليل النقاش
ص.ب ١ - أ القرارم ولاية ميلة ٤٣١٠٠ - الجزائر

عناوين

الأخ حسن أحمد سليمان، الزرقاء - الأردن:
ناشر كتاب «عقود الجمان» هي دار المعلمي للنشر، وإليك عنوانها:
ص.ب ٦٨٣٧ الرياض ١١٤٥٢
المملكة العربية السعودية
فاكس ٤٧٨٦٢١٤ - ٩٦٦١

عنوان مجلة «المنهل» الثقافية السعودية:
ص.ب ٢٩٢٥ جدة ٢١٤٦١
المملكة العربية السعودية
عنوان «المجلة العربية» الثقافية السعودية:
ص.ب ٥٩٧٣ - الرياض ١١٤٣٢
المملكة العربية السعودية

الأخ خليل النقاش، القرارم، ميلة - الجزائر:
عنوان مجلة «الشرق» السعودية
ص.ب ٢٦٦٣ - الدمام ٣١٤٦١
المملكة العربية السعودية

الأخ عبدالوهاب التليلي، تونس:
عنوان دار الشواف:
ص.ب ٤٣٣٠٧ - الرياض ١١٥٦١
المملكة العربية السعودية

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفا من عدم تقديم اشتراكات مجانية، ومن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

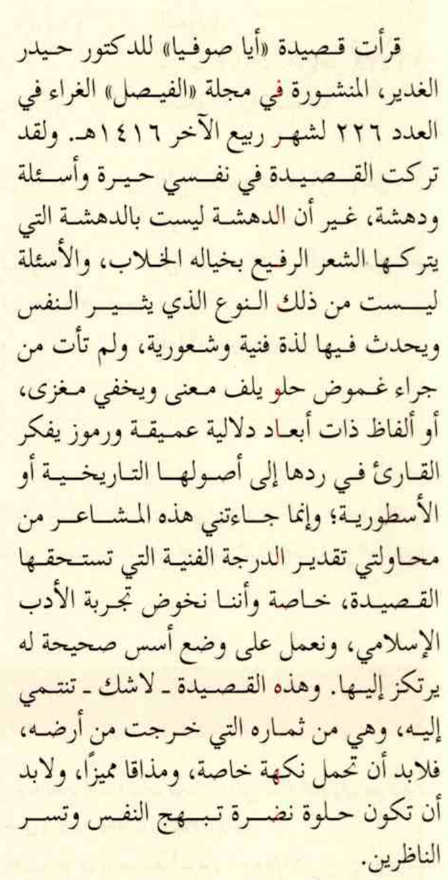
عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.







حول الأدب الإسلامي: نريده أدب جمال وخيال



قرأت قصيدة «أيا صوفيا» للدكتور حيدر الغدير، المنشورة في مجلة «الفيصل» الغراء في العدد ٢٢٦ لشهر ربيع الآخر ١٤١٦هـ. ولقد تركت القصيدة في نفسي حيرة وأسئلة ودهشة، غير أن الدهشة ليست بالدهشة التي يتركها الشعر الرفيع بخياله الخلاب، والأسئلة ليست من ذلك النوع الذي يثير النفس ويحدث فيها لذة فنية وشعورية، ولم تأت من جراء غموض حلو يلف معنى ويخفي مغزى، أو ألفاظ ذات أبعاد دلالية عميقة ورموز يفكر القارئ في ردها إلى أصولها التاريخية أو الأسطورية؛ وإنما جاءتني هذه المشاعر من محاولتي تقدير الدرجة الفنية التي تستحقها القصيدة، خاصة وأننا نخوض تجربة الأدب الإسلامي، ونعمل على وضع أسس صحيحة له يرتكز إليها. وهذه القصيدة ـ لاشك ـ تنتمي إليه، وهي من ثماره التي خرجت من أرضه، فلابد أن تحمل نكهة خاصة، ومذاقا مميزًا، ولابد أن تكون حلوة نضرة تبهج النفس وتسر الناظرين.

ولا نمو للأدب الإسلامي إلا بنماء هذه الزروع التي انزرعت في أرضه، ولا اعتزاز بالأدب الإسلامي وتفاخر به بين الاتجاهات والمذاهب الفنية إلا إذا استوى على سوقه وأينعت ثماره، وأعجبت أزهاره؛ وعند ذلك فقط يحق لنا أن نقدمه للناس، وأن نؤصّل له ونرسّخ لأركانه وقواعده.

فأين نضع هذه القصيدة في سلم الأدب الإسلامي الحديث؟ ومن خلال هذه القصيدة ومثيلاتها نستطيع أن نتساءل: إلى أين وصل الأدب الإسلامي الحديث؟

موضوع القصيدة جليل رفيع ـ لاجدال حوله ـ يثير مكامن الحزن والأسى، ويضرب على وتر المواجع والهموم الإسلامية؛ مع أن شعر الدموع والبكاء أضحى كثيرًا في هذه الأيام، والبكاء عامل قوي من عوامل تطهير النفس، وهو إحدى الغايات التي يرمي إليها الأدب الكلاسيكي منذ زمن أرسطو. وقديمًا بكينا على الأطلال، وبكينا على ضياع الأندلس، ورثينا الممالك الزائلة والأمجاد الماضية، وذرفنا الدموع على فلسطين والقدس، واليوم نتفجع على سراييفو وعلى أيا صوفيا حتى (ملّت ضلوعي من دموعي) كما يعبر الشاعر الغدير في قصيدته. وقد بتّ أخشى أن يكون الشعراء قد استمرؤوا هذا النوع من الموضوعات الشعرية كما استمرأت الخنساء ذات يوم العويل على أخيها صخر، ففقد شعرها ـ في النهاية ـ الصدق والحرارة والجمال، كما تقول الدكتوره بنت الشاطئ في كتابها عن الخنساء.

والقصيدة تحمل بين طياتها عواطف دينية سامية مؤثرة تشع بالسمو، ولكن المعاني فيها جاءت دانية قطوفها تصل إليك دون جهد أو عناء، تشف ألفاظها عنها في يسر وسهولة مما أوقعها في إسار المباشرة والتقريرية في بعض الأحيان. نعم الموضوع لايحتاج إلى عمق المعاني والغوص فيها، ولكن لابد أن تحمل نبضًا ليصل بها إلى المستوى الإنساني، وخاصة حين جاءت بعض الجمل مكررة المعاني ومألوفة تمامًا، أدنى إلى النثر منها إلى الشعر، مثل: «فتحكي لي وأحكي لها»، «وقلت له وقال»، و«أحن إلى بلال»، و«أحن إلى الأذان»، والجمل المعادة نحو: «عراني من شجاه ماعراني»، والصفات المكررة في «ومال المنبر المحزون نحوي» و«سألت المسجد المحزون». ورحم الله شوقيًا حين قال:

مررت بالمسجد المحزون أسأله
هل في المصلى أو المحراب مروان

إلى جانب بعض الألفاظ التي تحس وأنت تقرؤها بعدم الارتياح «يغرد فيّ في سمع الزمان». وقد استخدم الشاعر أسلوب التغليب في اللغة وذلك في لفظ «العاقبان» ليشير إلى تعاقب الليل والنهار، وفي القرآن الكريم: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾(الرعد:١١)، وفي اللغة كلمات استأثر فيها لفظ بلفظ آخر وغلب عليه مثل: المَلَوان لليل والنهار، والقمران للشمس والقمر، والعمران لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والمشرقان، والخافقان، وقالوا الأذلان للوتد والعير، والأسودان للتمر والماء، ويمكن توليد كثير من الألفاظ شرط أن تكون جميلة في نسقها.

والعتاب لايحتاج إلى إطراق كما نجد في هذا البيت:

ومال المنبر المحزون نحوي
وأطرق عاتبًا لما رآني

قلت: إن القصيدة مشحونة بالعاطفة وصدق الإحساس ونبل المشاعر، ولكن ماذا بعد هذه العاطفة المشبوبة؟ وماذا بعد مشاعر الحزن والأسى في العمل الفني؟!

الصور الفنية في الأبيات من النوع المبسط لاتبعد ولاتغرب ولاتطلق خيالاً ولاتحلق في أفق أو سماء، تصفق بجناح واحد، وكأن الشاعر يشدّه تقيُّده والتزامه.

أخذ بنصيحة القدماء الذين اشترطوا لصحة التشبيه أن يكون قريبًا وأن يكون وجه الشبه مما تقع عليه حواسنا، لا أن نرى في الصورة الفنية ما لايُرى كما في الشعر الحديث.

وأجهش لي وأجهشنا وكنا
أسيرَيْ غربة يتعانقان
حنانك ماتريد فقال عود
لأيام خلت كالمهرجان

«وكنا أسيري غربة» تشبيه بليغ، و«لأيام خلت كالمهرجان» تشبيه مجمل، وصنع الشاعر خيرًا عندما حذف وجه الشبه فترك المجال قليلاً لخيالنا للانفساح.

وهذا البيت حيرني وملأني بالدهشة كما قدمت من قبل:

أحنّ إلى بلال إذ ينادي
يغرِّد فيّ في سمع الزمان

وانظر إلى الإصابة الموفقة في التشبيه:

وبيض قد درجن إلى صلاة
قوانت نيّرات كالجمان

كم هو رائع حقًا أن توصف النساء القانتات في ملابس الصلاة البيضاء الطاهرة النقية وهن يصلين في خشوع وخضوع بالجمان الذي يكون للزينة والفتنة

وسلطان إذا ما حل ساحًا
أتاه عدوه ميْت الجنان

«عدوه ميت الجنان» كناية عن شدة الخوف والهلع اللذين أصيب بهما قلب العدو من سطوة السلطان! ولقد قالت العرب قصائد سميت بالمنصفات وفيها وصف للعدو بالشجاعة والبطولة، كما أن صورة «ميت الجنان» ليست جميلة.

والصورة الشعرية إذا تكررت ودرجت على ألسنة الشعراء وأسلات أقلام الأدباء فقدت حيويتها ونضارتها، وأصبحت كالكلام المألوف لايثير حسًا ولايحرك خيالاً كما في قوله: «أحنّ إلى الأذان حنين ثكلى»، وقوله:

فقلت بلى أطل الفجر يزجي
مواكبه ونحن الشاهدان

(يزجي مواكبه ـ حنين ثكلى).

وما بقي من الصور في القصيدة يمكن رده إلى المجاز اللفظي، أو العقلي، وذلك في الأبيات التي ارتفع بها الشاعر إلى المستوى الفني، فشخص فيها المسجد وأسبغ عليه مشاعر وأحاسيس إنسانية فهو يحكي ويقول، وتفيض مواجعه، ويجهش في البكاء، ويميل محزونًا، ويطرق عاتبا، وله مئذنة تشوف للأذان، وللمحراب بث ووجد، وهمس نجوى كما فعل ابن خفاجة تمامًا في وصفه للجبل.

وإذا أردنا أن نطبق نظرية الانزياح في الأدب التي شرحها لنا الدكتور نعيم اليافي في عدد المجلة نفسه على هذه القصيدة؛ فإنه يمكن أن يعدّ التشخيص نوعًا متميزًا من الخروج عن المألوف وعدولاً عن الحقيقة إلى المجاز؛ فيتجاوز خيالنا الواقع ويرتفع عنه فنحس بالنشوة الفنية. ولكن من ناحية أخرى جاءت بعض التراكيب ينقصها الفن والجمال وجاءت مرتبة في نسقها وتأليفها ترتيبًا نحويًا مثل: «وأغنانا السكوت عن البيان، ومعتكف يناجي من براه، وجمع إثر جمع من كرام، وتالٍ يقرأ السبع المثاني وكأن «تالٍ» غير يقرأ في المعنى!

وقد كررت بعض القوافي في القصيدة تكرارًا ملحوظًا: (الأماني، جنان، الزمان، البيان، الحسان). كما جاءت بعض الألفاظ غير مناسبة للشعر: «وجمع إثر جمع»، «وأرنو الدهر للجمع».

وأريد أن أسأل الشاعر: هل صفة الحسان مناسبة لموصوفها في قوله: وأرنو الدهر للجمع الحسان؟

إذا خلا أي أدب من الجمال والخيال، ولو كان ينطوي على أفكار عميقة وعواطف صادقة، فإنه يعّد أدبًا باهتًا لايؤثر في النفس ولايصل إلى الناس، وإذا كنا نريد لأدبنا الإسلامي الحديث الخير وطول البقاء وإقبال الناس عليه، فلننظر إلى التصوير الفني بأهمية بالغة ولنُعْنَ بالناحية الجمالية، لأنه إذا لم يستطع أن يصل إلى درجة الإبداع فلن يلتفت إليه أحد من الناس.

وأكبر الظن أن لدى شاعرنا ملكات وطاقات إبداعية أقوى مما لمسناه في هذه القصيدة، ولعمري فمن يتصدى لدراسة شاعر كبير مثل عمر أبي ريشة وينال عليها درجة الدكتوراه لاشك أنه يمتلك ناصية القول والأدب والشعر أيضا. مع تحياتي وتقديري للشاعر الغدير.

عبدالهادي عبدالعليم صافي
السالمية ـ الكويت





ورد في العدد ٢٢٤ في باب «صداع العقول» تحت عنوان «إن الأحكام أمانة» للشيخ أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري ما نصه: «وإعادة كتابة التاريخ مطلب ليس جديدا، وهو مطلب غير ممكن لأنه عن أشياء وقعت ودونت، وما دوّن غير ممكن محوه وغير ممكن طمس الذاكرة التي وعته». كما جاء أيضا في الموضوع نفسه ما نصه: «فالمجتمع الذي تُشرب

فيه الخمر سرا أو بتغافل من ولي الأمر غير المجتمع الذي يشرع فيه بيع الخمرة وتصنيعها وحرية تعاطيها».

وأنا مع الشيخ قلبًا وقالبًا فيما أورده في النص الأول؛ فإعادة كتابة التاريخ مطلب ليس بالجديد، إذ تعرضت مختلف الأقلام وشتى المنابر لهذا الموضوع الحيوي. وإنه من الوجهة العملية مطلب غير ممكن لأسباب ذكرها الكاتب وأتفق معه فيها.

أما ما جاء في النص الثاني فأخالفه تماما؛ إ ذ إن محتويات النص المشار إليه تخالف ركيزة أساسية من ركائز الإسلام؛ ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتخالف أيضا عدة أحاديث نبوية منها: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم وأحمد والأربعة والبيهقي، والحديث الآخر: «ما من قوم يعمل فيه بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لايغيرون إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب» رواه أبو داود.

وإني لأتوجه بالسؤال إلى فضيلة الشيخ أبي عبدالرحمن عن الفرق الذي قال به بين المجتمع الذي تُشرب فيه الخمرة سرا وبين نقيضه، فحبذا لو بيَّن لي وللقراء أين يكمن هذا الفرق؟ فأنا لا أقر بوجود أي فرق خصوصا أن ولي الأمر الذي يتغافل عن سرية تعاطي الخمرة وترويجها من المشاركين في المنكر بدليل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»؛ إذ إن تغافل ولي الأمر يعطي الفرصة لأعضاء حزب الشيطان كي يعيثوا في الأرض فسادًا، وهنا تحضرني نصيحة أبرويز إلى ابن أخيه شيرويه: «اجعل عقوبتك على اليسير من الخيانة كعقوبتك على الكثير منها، فإذا لم يطمع منك في الصغير لم يجترئ عليك في الكبير». والله أعلم.

وقد ورد في العدد ٢٢٥ في الباب نفسه تحت عنوان: «الواقع المغيب عن تكييف الحس البشري» مانصه: «وكل ما صنفه مفكرو علماء المسلمين اليوم تحت باب الغارة على العالم الإسلامي فهو من باب الدجل ومن باب فتن آخر الزمان».

لقد اعتبر الشيخ أبو عبدالرحمن الهجوم على العالم الإسلامي داخل في باب الدجل أي الكذب، ولكن الواقع عكس ذلك تمامًا؛ حيث تشهد الأمة الإسلامية كل سنة وكل شهر وكل يوم وفي كل وقت مختلف أنواع الإبادة والتنكيل والإهانة، ولعل هذا ما نلمسه جليا فيما يحدث حاليا في البوسنة والشيشان وبورما، وفي جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا وهلم جرا. أضف إلى هذا عمليات التنصير وتأثير مختلف وسائل الإعلام وفي مقدمتها الإعلام البصري الممثل خصوصا في الصحون الهوائية. وبعد هذا ذكر أن الذكاء البشري قد يكون نقمة وقد يكون نعمة، وأنا معه في كون ابن الراوندي أدّى إعجابه بعقله إلى الكتابة ضد الإسلام والأديان الأخرى بعد أن نبذ تعاليم المعتزلة وخرج من صفوفهم. أما إبراهيم النظام تلميذ أبي محمد الهذيل العلاف فصحيح أنه معتزلي وعارض آراء الفقهاء وانتقد الجبرية والمرجئة؛ إلا أنه ترك أثرًا كبيرًا في الفكر الإسلامي، وشيء من هذا القبيل نلمسه عند أستاذه الهذيل الذي حاول التوفيق بين أفكار أرسطو والقرآن فيما يتعلق بالخلق وبالله. أما الثالث ونقصد به أبا العلاء المعري فهو الأهم؛ إذ لم يحاول الشيخ أبو عبدالرحمن ربط فكر أبي العلاء بالمعتزلة، ولو ربطه بهم لاتضح الموقف تمامًا، فقد كان المعتزلة منذ بشر بن المعتمر في أوائل القرن الثالث الهجري يقدسون العقل ويكبرونه إكبارًا عظيمًا، ولبشر في ذلك أشعار مشهورة رواها الجاحظ في كتابه «الحيوان»، وقد وصل تقديس المعتزلة للعقل إلى درجة أن أبا علي الجبائي المعتزلي في القرن الثالث الهجري وابنه أبا هاشم ذهبا إلى إثبات شريعة عقلية بجانب الشريعة النبوية. وخير ما يثبت اعتزالية أبي العلاء الهجوم العنيف الذي شنه هذا الأخير على أبي الحسن الأشعري زعيم الفرقة المعروفة باسمه في «رسالة الغفران».

ومع احتراماتي للشيخ أبي عبدالرحمن فإني لا أدري كيف وصف المجموعة الأولى التي تضم أبا العلاء بقوله: «فهؤلاء ألهوا عقولهم واغتروا بها ونسوا العناية الإلهية التي تعصم العقل من الضياع...» وأبو العلاء نفسه وصف العقل بأنه مريض فاسد في هذا البيت الشعري الذي زعم بعضهم أنه يقدم فيه العقل على الشرع:

وقد كذب الذي يغدو بعقل
لتصحيح الشروع إذا مرضنه

والشروع هي الشرائع، وكأنما لفتهم في البيت تسجيله على الشرائع المرض، وهو لايريد ظاهر القول، ولا أن الشرائع مريضة ولاتستطيع العقول أن تشفيها، وإنما يريد أن أسبابها قد تخفى أو قل عللها، فلا يقف العقل على حقائقها فيظن أنها فاسدة، أو كما يقول أبو العلاء: مريضة.

والعقل هو المريض الفاسد؛ فما دام أن أهل السنة أنفسهم يذهبون إلى أن في الشريعة أشياء نؤمن بها تعبدًا، وينبغي ألا نحاول فهمها من طريق العقل تسليما منا وانقيادا، إذن فليس في البيت إنكار للشرع ولا ما يشبه الإنكار؛ وإنما كل ما فيه أن عقل الإنسان يتسع قياسه وتعليقه في الأمور المختلفة، حتى إذا انتهى إلى الشرائع وجب

أن يقف عند حده، ولعل هذا ما نلمسه في الأبيات التالية:

غدت حجج الكلام حجا غدير
وشيكا ينعقدن وينتقضنه
وللأشياء علات ولولا
خطوب للجسوم لما رفضنه
وغارت لانصرام حيا مياه
وكن على ترادفه يفضنه

والحجا الفقاعات، فأبو العلاء يقول بأن حجج العقول لاتكاد تثبت لها حقيقة، فهي كفقاعات المياه حين تسقط في غدير يكونها لا تلبث أن تتلاشى بمجرد انعقادها، ويقول بأن للأشياء عللاً وأسبابا توجد بوجودها وتنعدم بانعدامها، كما أن المياه تفيض إذا هطل المطر حتى إذا توقف غارت المياه دون مآب. وكأنه يريد أن يقول بعد أن وهَّن حجج العقول، إن لكل ما في الشريعة علة وإن غابت عن الفطن والبصائر النافذة. والله أعلم.

فؤاد الغلبزوري
الحسيمة ـ المغرب



وجود الأقليات إغناء للثقافة العربية



نشكر لكم اهتمامكم بموضوع اللغة العربية فهو مهم جدا. لكن أود أن ألفت الانتباه إلى موضوع يتعلق باللغة العربية وهو وجود أقليات يمكن القول بأنها مستعربة، موجودة في بعض أقطار الوطن العربي منذ مئات السنين، تتكلم بلغاتها الأصلية: كُرْديّة وتركية وشركسية وأرمنية وغيرها. وينبغي التعريف بها، وبأن هذه الازدواجية اللغوية والثقافية هي عامل إغناء وتنويع للثقافة العربية الأصيلة، وكذلك الأقلية البربريّة في الجزائر. فما المانع من أن يتكلم المُسْتَعْرِبُ لغته القوميـة؟ بل يجب على الجهات المعنيّة الحفاظ على الحقوق الثقافية والتعليمية لهذه الأقليات بوصفها جزءًا لايتجزأ من المجتمع العربي. والحال فعلاً كذلك بالنسبة لبعض الأقليات. أمّا طمس ثقافتهم وتشويهها بقصد أو من دون قصد؛ فإنه يتسبب في إضرار كبير بالمجتمع كَكُلّ، لأنهم حينئذ سيصبحون جنسًا آخر لايشعر بالانتماء لأيٍّ من الطرفين: العربي والقوميّ.

وقد نجم عن تجاهل هذه المسألة اضطرابات ومشكلات كثيرة وشقاقات في بنية المجتمع العربي. ويبدو هذا جَليًا واضحًا في مطالبة الأقلية البربرية المستمرة منذ سنوات عديدة بحق تدريس أولادهم اللغة الأمازيغيّة البربرية في المدارس، وما رافق هذا من مظاهرات ومشكلات تهدد أمن المجتمع. والمثال الثاني الواضح أيضا هو الأقلية الكردية في شمال العراق، ومطالبتها بالاستقلال في دولة خاصة بها. وخارج الوطن العربي كذلك في تركية وإيران.

وقد تم مؤخرًا افتتاح قناة تلفازية كردية في لندن، وفي هذا دليل على أن قمع القوميات يؤدي إلى سعيها لتأكيد وجودها وشخصيتها القومية. ولابدّ من التسليم بحقوق هذه الأقليات القومية ما دامت لاتتعارض مع طبيعة المجتمع العربي الموجودة فيه وأهدافه. أمّا إذا نبذنا هذه الأقليات وحقوقها القومية؛ فإنها ستسعى إلى الاستقلال وتحقيق الشخصية القومية المستقلة والثقافة الخاصة بها. وسيتسبب هذا في مشكلات ليست لها نهاية؛ لأن هذه الأقليات صارت جزءًا من نسيج المجتمع العربي. وإذا كنا نحتكم إلى العقل فإننّا باستقرائنا للتاريخ العربي منذ ظهور الإسلام وبدء الفتوحات، نكشف بسهولة كيف كان المجتمع متماسكًا في أكثر العهود، متعايشًا مع أقليات من نوع آخر هم أهل الذمّة من يهود ونصارى ـ مع بعض الفوارق في هذه الموازنة ـ واستمر هذا التعايش حتى الآن. وكذلك نجد في عهود كان الحكّام فيها أتراكًا أو أكرادًا أو مماليك من هؤلاء أو من الشركس أنّ المجتمع كان متماسكًا إلى حدٍّ كبير على الرغم من اجتياح التتار وحروب الصليبيين الأوروبيين.

ظلَّ المجتمع العربي متماسك الأجزاء فقط تحت راية الإسلام؛ من الحاكم السلطان نور الدين زنكي التُركماني وصلاح الدين الأيوبي الكُردي إلى سلاطين الأتراك العثمانيين، وكانت اللغة العربية تنتشر وتُدرَّس في مساجد ومدارس آسيا الوسطى وخراسان وآسيا الصغرى، وفي كل مكان وصل إليه الإسلام وانتشر.

ولاننسى هنا تذكُّرَ العلماء الأفذاذ في كل مجالات العلم الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية الشاملة آنذاك لقوميات كثيرة غير عربية؛ فقد آتى التزاوج الحضاري ثماره في تحقيق ازدهار الحضارة التي ما تزال آثارها ماثلة باقية شامخة حتى الآن، وأسماء علمائها



باقيــة، وكـتـبـهـم المدونة بـالـلـغـة الـعـربـيـة محـفـوظة؛ مِنْ أولوغ بيك التـركيّ الفلكيّ إلى الإمام الـبخاريّ إمام المحدِّثين وابن سينا الطبيب الفيلسوف والفارابي وغيرهم، عَلَّمنا نحترم حـقوق الآخرين، كما يـحـتـرم الجار حقوق جاره، و،الأب حقوق أولاده.

محمد عبدالدايم

حمص ـ سورية

لاتنسوا نيجيريا!



قرأت مقالة الأستاذ عبدالرحيم عيسى الأول في العـدد ٢٢٦ من مـجلتكم عن قضية اللغة الرسمية المحلية في نيجيريا بتعمق؛ حيث وجدت الصراع الكبير بين شعوب نيجيريا وقبائلها حول هذا الموضوع، وكيف أن كل قبيلة، وخاصة القبائل الرئيسية، تحاول أن تجعل من لغتها لغة رسمية للبلاد مع عـدم أهلية هـذه اللغـة أو تلك لأداء الدور المطلوب لخدمة البلاد عالميًا. ومن الواضح أن الاستعمار الإنجليزي ومؤيديه داخل البلاد يحاولون ويضغطون لجعل اللغة الإنجليزية لغة رسمية للبلاد؛ مع أنها لغة المستعمر الذي يضمر الشر لهذه البلاد، والهدف الأول والأخير هو عدم انتشار اللغة العربية ذات الجذور العميقة في نيجيريا والتي يتكلم بها العديد من سكان هذا البلد الأفريقي وجلهم من المسلمين. وكما هو معروف فاللغة العـربيـة هي لغـة القـرآن والإسـلام وهي ضـرورية لكل مـسلم أينـمـا كـان، ومن المعروف أن نيجيريا تعد من البلاد الكبيرة في تعداد سكانها الغنية بثروتها وخاصة النفط، والغنية بسكانها المسلمين الذين يرجعون إلى أصول وجذور عربية دخلتها منذ فجر الإسلام من طريق التجار المسلمين. وفي الوقت الحاضر نعرف الكثير من مثقفي نيجيريا وعلمائها من خريجي الأزهر الشريف والجامعات العربية الذين يتقنون العربية بوصفها لغة عالمية؛ لأنها لغة القرآن الكريم ولغة العلوم والرياضيات، وقد أدت دورها كاملاً على المستويات كافة. وهي بوصفها لغة عالمية تتكلم بها شعوب أكثر من ٢٢ دولة آسيوية وأفريقية ويُعترف بها عالميًا من قبل منظمة الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية ومنظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها من المنظمات والهيئات.

ونظرًا لأهمية نيجيريا الكبيرة على الصعيدين العالمي والإسلامي ودعمًا للإسلام والمسلمين في هذا البلد الكبير الغني بثرواته، أرى أنه من الضروري جدًا الاهتمام الصادق بتقديم المساعدة الثقافية والمادية من قبل الدول العربية والإسلامية وجامعة الدول العربية وغيرها لجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية لهذا الشعب المسلم، وفي ذلك كسبٌ رائعٌ وخدمة للبلاد الإسلامية والمسلمين وللّغة العربية لغة القرآن الكريم مصداقًا لقوله تعالى: «إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا».

تامر عبداللطيف إدريس

حمص ـ سورية

الفيصل

مـجلة ثقـافـيـة شـهـريـة
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

ملاحظات عامة

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كُتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

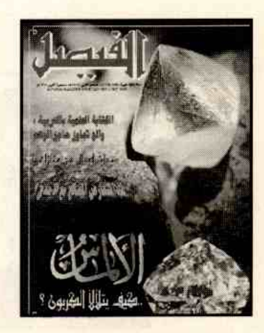
١ـ أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدَّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢ـ ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣ـ حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤ـ أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري ـ إن وجد ـ وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥ـ الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.



لتكن أصواتنا جريئة !

طالعت في العدد رقم ٢٢٧ لشهر أكتوبر ١٩٩٥م حواراً مع الأستاذ أحمد عبدالسلام البقالي بعنوان «نحتاج إلى رؤية ثاقبة للنفاذ إلى آفاق المستقبل»

وفي البداية أشكر الأستاذ البقالي على هذه اللفتة الكريمة التي وضع من خلالها النقاط على الحروف، وبيّن قيمة الشعر الجيد والقصة الجيدة، وخطر مايقوم به بعضهم - بعيداً من الثقافة الأدبية - من الخلط بين القصيدة الحديثة والقصة المسرودة ضمن جمل وكلمات متفرقة هنا وهناك على أنها قصيدة شعرية حديثة، ثم تنشر في الصحف والمجلات على أنها نتاج أدبي.

وهذا الخطر في حد ذاته الذي قصده أستاذنا أعاد أسبابه إلى تأثير الاستعمار الثقافي في هدم اللغة العربية، لغة القرآن، وجعلها تضيع بين ألسنة الناس الذين يدّعون كتابة الأدب بأنواعه مضعفين بذلك قوة اللغة ومكانتها التي جاء بها القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وبلاغته.

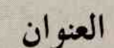
من هنا أوافق كاتبنا على أهمية دور وزارات التعليم والثقافة في الوطن العربي في حفظ اللغة ورعايتها ومحاربة تجارة الشعر المسمى باللاشعر والقصة المسماة باللاقصة.

واسمح لي يا أستاذنا أن أسمي هؤلاء «أصحاب الكلمات المنمّقة»؛ لأنهم يظنون أن الكلمات الغريبة والمفقودة هنا وهناك تعطي نَصَّهم أو قصيدتهم القوة اللغوية، كاسرين الأسلوب الذي يشد القارئ دائما، لأننا - كما هو معروف - نجد الكثيرين من كتاب القصة والشعر في الوطن العربي يستخدمون اللغة العربية الأصيلة في القصص والشعر، كالكاتب نجيب محفوظ والشاعر بشارة الخوري مثلاً. فنحن أمام أعمال هؤلاء نعيش العربية بعينها دون غرابة، ودون اللجوء إلى القواميس والمعاجم التي نحتاج إليها في كتابات الكتاب الحديثي الولادة، ومعظم الأوقات لا نجد معنى لهذه الكلمة أو تلك، وربما تكون كلمة أعجمية في النهاية.

وليسمح لي كاتبنا مرة أخرى أن أضيف بأن وسائل الإعلام لها دور كبير وفعّال في انحطاط أدبنا والإسهام في القضاء عليه، وهذا يأتي من خلال اعتماد مبدأ الشاعر الموظف والقاص الموظف؛ فهو مطالب بكتابة أسبوعية في حيّز مخصص له في المجلة أو الصحيفة، فكيف سيكون هذا النتاج الذي يكون وليد أسبوع أو عشرة أيام؟ دون الالتفات إلى مئات؛ بل آلاف المواهب والشعراء والكتاب الكبار ولا إلى أعمالهم، وإذا مابادر هذا الموهوب إلى إرسال قصيدة أمضى شهوراً في كتابتها وتنقيحها يأتي الرد بعدم صلاحيتها، وهذا ينطبق على القصة أيضًا، في حين أن الشاعر الموظف أو القاص الموظف يُقبل عمله لأنه موقّع باسم فلان من الناس الموظف في المجلة أو الصحيفة.

لتكن أصواتنا جريئة في كشف تخلف لغتنا بأيدي أبنائنا الذين لايعرفون الكارثة التي ستحل بهذه اللغة بعد عشرات السنين كما حصل لكثير من اللغات. مع شكري واحترامي.

صلاح مفلح أسعد
دمشق - سورية



ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ - ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٤٧٨٨٤ -
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

ردمد ٠٢٥٨-١١٤٠ رقم الإيداع ١٤/٠٥٤٢

الأسعار:

السعودية ٨ريالات - الكويت ٦٥٠ فلسا - الإمارات ٧دراهم - قطر ٧ريالات - البحرين ٧٥٠ فلسًا - عُمان ٧٥٠بيسة - الأردن ٥٠٠فلس - اليمن ٤٠ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيهًا - المغرب ٨دراهم - تونس ٦٠٠مليم - الجزائر ١٠دنانير - العراق ٤٠٠فلس - سورية ٣٠ليرة - ليبيا ٨٠٠درهم - موريتانيا ١٠٠أوقية - الصومال ٢٠٠٠شلن - جيبوتي ١٥٠فرنكًا - لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

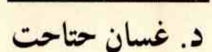
للأفراد ١٥٠ريالاً سعوديًا، للمؤسسات ٢٥٠ ريالاً سعوديًا.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

على موعد

طبيب لكل العصور



د. غسان حتاحت

يدّعي بعض المتنبئين بالمستقبل، الذين يحاولون - بخيالهم العلمي - أن يرسموا صورة مايمكن أن يحدث في الأيام المقبلة، أنه قد يأتي يوم يلجأ فيه الناس عندما يمرضون، إلى أجهزة الحاسوب (الكومبيوتر) بحثا عن العلاج، بدلا من لجوئهم إلى الأطباء. فيضغطون عدة مرات على بضعة أزرار في جهاز الحاسوب المبرمج حسب أحدث المكتشفات الطبية، والمصنّع وفق أفضل المواصفات التقنية، فتأتي النتائج مسجلة على رقعة من الورق حاملة التشخيص الصحيح والعلاج المفيد، حسب ماتمليه التقانة (التكنولوجيا) المستقبلية المتطورة.

ولعله كان من الممكن أن أصدق باحتمال حدوث ذلك، لولا اكتشافي سر الدكتور هوارد، ولأرو الحكاية من بدايتها:

عندما بدأت دوامي طبيبًا متمرنًا في قسم الأطفال في أحد المشافي الجامعية في الولايات المتحدة، التقيت هناك بعدد من الأطباء الاختصاصيين المتفرغين العاملين في القسم، ومعظمهم يعدون قممًا في مجالات اختصاصهم المتنوعة، وكان بين هؤلاء الأطباء طبيب شيخ عجوز هو الدكتور هوارد، وكان في ذلك الوقت قد جاوز السبعين من العمر، ذا شعر أبيض كالثلج، وقامة محنية بعض الشيء، ووجه يمتلىء بالوداعة ويوحي بالسكينة، وإن كان صوته عندما يتكلم يشبه صوت جون واين بطل أفلام رعاة البقر القديمة.

ومع مرور الأيام سمعت الكثير عن الدكتور هوارد هذا، وكان أغلب ماسمعته عنه، سخرية منه ومن طرقه في معالجة المرضى، وكيف أن طبّهُ عفّى عليه الزمان، وأناخ عليه بكلكله، وأن مثل هذا الطب جدير بوضعه في متحف، لا بممارسته في مستشفى عصري. وسمعت الكثير عن وصفاته غير المعقولة وغير المقبولة طبيًا. وكان الساخرون كثيرين، بدءاً من رئيس القسم الذي كان يبدي سخريته بشيء من التحفظ، إلى أصغر طبيب متمرن لايتورع -بسبب رعونة الشباب- عن أن يضيف إلى أسطورة الدكتور هوارد المزيد من القصص الطريفة، ماحصل منها ومالم يحصل.

وكان بعضهم يلوم إدارة المستشفى الجامعي، التي، عوضا عن أن تجبر الطبيب على التقاعد عندما يبلغ الستين أو الخامسة والستين، كانت تضفي عليه لقب مستشار، وتتركه يمارس الطب على هواه، يحضر متى أراد، ويغيب متى شاء. وكانت مشيئة الدكتور هوارد أن يغيب يومين في الأسبوع، يمارس فيهما لعبة "الجولف" مع بعض أقرانه، ويخصص باقي أيامه ليقدم طبه لمن أراده وطلبه.

ومن الغريب أن عددا كبيرا من المرضى كانوا لايرضون عنه بديلاً؛ بل إن بعضهم كان إذا حضر إلى المستشفى من مكان بعيد، ووجده غائبا، عاد أدراجه بعد أن يحجز موعدا جديدا في يوم آت.

ولقد سمعت أن الدكتور هوارد هو الذي يرفض أن يقبل مرضى جددا، ولايرى إلا جزءًا يسيرا من المرضى الذين يصرون على أن يكون طبيبهم.

وكنا نعزو ذلك - ساخرين - إلى جهل أولئك الناس المطبق؛ فالدكتور هوارد رجل من التاريخ، تجاوزه التطور، إن سألته عن بعض الأمور الطبية التي مضى على اكتشافها عشرة أعوام أو يزيد تلجلج في الإجابة، وإن تحدثت أمامه عن بعض أبحاث الطب الحديثة، أخذ إغفاءة وكأنك تحدثه بلغة أهل الصين.

وأذكر مرة أن طفلة مريضة من مرضاه، كانت بحالة سيئة عندما جلبتها أمها إلى المستشفى، ولما كان الدكتور هوارد يومها غائباً، فقد قبلت الأم على مضض أن أقوم بفحص طفلتها، وقد كان، فلابد مما ليس منه بد. وخطر لي أن أسأل هذه الأم، وكانت صبية صغيرة في حوالي العشرين من العمر - في ذلك الوقت لم أكن أعدُّ من كان في العشرين من العمر صغيرا - كيف اختارت الدكتور هوارد طبيبًا لطفلتها؟ فأجابتني: إن والدتي عندما كانت طفلة كانت تعالج لديه، وكذلك أنا، ولا أرضى لطفلتي طبيبا سواه، وأعتقد أن العالم من دونه سوف ينهار.

ولم أقل لهذه الام إن العالم لاينهار لموت أحد، وقد يكون العالم أفضل من دون الدكتور هوارد منه بوجوده فيه. ولست أشك في أن هذه الطفلة قد تلقت عددا من وصفات الدكتور هوارد غير المعقولة وغير المقبولة. ولكن كيف يمكن تمييز الطبيب الرديء من الجيد، وقسم كبير من المرضى يشفون تلقائيًا؛ بل ويشفون مع أخطاء الأطباء؟.

وقررت أن أكتشف سر الدكتور هوارد، وكيف يستطيع أن يجذب المرضى إليه، وكأنه ساحر من السحرة. إن المستشفى قد أضفى عليه لقب مستشار، حسنا، سوف أستشيره وأرى بأم عيني كيف يعالج المرضى، وكيف يجذب أهل المرضى إليه، فأنا على كل حال طبيب متمرن، الحكمة ضالتي، وأبحث عن العلم حيثما وجدته.

وفي أحد الأيام جاءني طفل مريض، حالته على شيء من الغموض والغرابة، فطلبت من أم المريض أن ترافقني إلى غرفة الدكتور هوارد كي أستطلع رأيه. قرعت باب غرفته، فطلب منا الدخول، ووجدناه ببنيته الضعيفة، وشعره الأبيض، وقامته المحنية بعض الشيء، جالسا على كرسيه وهو يضع في حضنه طفلا صغيرا في حوالي الشهر التاسع من عمره، يداعبه ويناغيه، وهو يفحصه بلطف، وقبالته جلست والدة الطفل يحدثها بحنان وعطف كأنها حفيدته.

بعد تبادل التحية، سألته بعض الأسئلة عن حالة مريضي، وقد رسمت على وجهي أقصى درجات الحرص على التعلم والرغبة في المعرفة، وأصغيت إلى إجابته غير المعقولة وأنا أكبت بصعوبة ضحكة كادت تفلت على الرغم مني. وودعته شاكرا وتركته مع مريضه الذي سيحصل في النهاية على وصفة غير معقولة وغير مقبولة.

لكن مافاتنا هو أن ذلك المريض وأمه قد حصلا بالفعل قبل الوصفة على أشياء كثيرة تعجز "التكنولوجيا" عن أن تقدمها، وتقف أحدث التطورات الطبية قاصرة دونها، تلك هي العلاقة الحميمة بين الطبيب والمريض، التي يسودها العطف والتفهم، والتي تستطيع أن تقف شامخة أمام أحدث التطورات الطبية من جهة، وامام أكبر الأخطاء الطبية من جهة أخرى.

وذلك هو سر الدكتور هوارد، سر نجاحه وسر استمراره.

وفكرت بعقل واع: إن إدارة المستشفى لم تكن مخطئة عندما أسبغت على الدكتور هوارد لقب مستشار، بل إنها كانت حكيمة جدا في قرارها ذاك.

إن الدكتور هوارد مع سجله الحافل بالعلاجات الخاطئة، هو ذو سجل ثان حافل بثقة المرضى وقناعتهم ومحبتهم ورضاهم، ومثل هذا السجل يفوق - بل فاق كثيرا - كل سجل آخر، ولن يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه الحاسوب - أي حاسوب - أن يحل محل الدكتور هوارد أو من هو على شاكلته؛ فالمنافسة غير ممكنة أبدا، لأن مايملكه الدكتور هوارد ومايقدمه، لايمكن أن يملكه أو يقدمه أي تطور علمي تقني.

ولقد وصلتني قبل مدة، نشرة دورية تحمل أخبار ذلك المستشفى الجامعي، وكان فيها نعي الدكتور هوارد، وكيف أن أصدقاءه ومحبيه ومريديه، تبرعوا بمبالغ طائلة لإنشاء جناح تذكاري في المستشفى يخلد الدكتور هوارد واسمه.

وهكذا سوف يبقى الدكتور هوارد يحمل الفائدة إلى المرضى حتى بعد موته، وكأنه يسخر من جميع الأطباء الذين كانوا يسخرون منه.

ولعل من أشد مظاهر هذه السخرية أن الجناح التذكاري الذي تتصدره لوحة كبيرة تحمل اسم الدكتور هوارد، يضم - في جملة مايضم - أحدث التطورات الطبية والأجهزة المتقدمة بما يتوافق مع الاكتشافات العلمية الجديدة .. عدا الحاسوب المشخّص والمعالج طبعاً.